دراسة المجتمع
في
البادية والريف والحضر

تأليف

دكتور محمد علي قطان

أستاذ علم الاجتماع المساعد
بجامعة الملك عبد العزيز - جدة

الطبعة الأولى

١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م

دراسة المجتمع
في
البادية والريف والحضر

تأليف

دكتور محمد علي قطان

أستاذ علم الاجتماع المساعد

بجامعة الملك عبد العزيز ـ جدة

الطبعة الأولى

١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

الى روح أمى الطاهرة

أهدى بعض ثمار غرسها ...

محمد على قطان

الباب الأول

دراسة المجتمعات البدوية

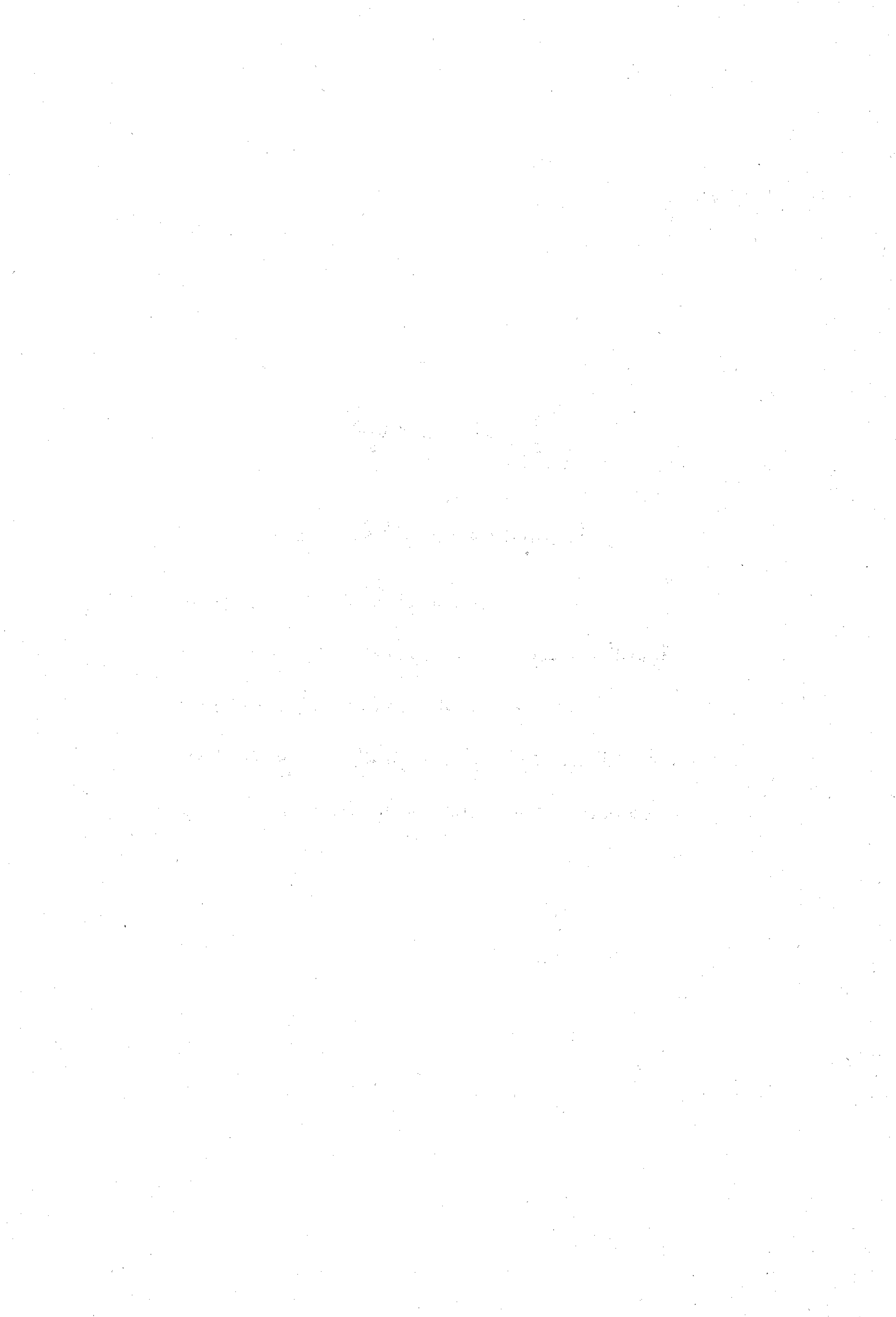
الفصل الأول : ماهية البداوة .

الفصل الثانى : الخصائص العامة للمجتمعات البدوية .

الفصل الثالث : الشخصية البدوية .

الفصل الرابع : الأنساق والنظم الاجتماعية البدوية .

الفصل الخامس : البادية فى المملكة العربية السعودية .



الفصل الأول

ماهيــة البــداوة

ان الانســانية قد نشأت بين أحضان البداوة ، حيث كانت بداوة ما قبل التاريخ ترتكز على عدم الاستقرار والتنقل سعيا وراء مصــادر العيش ، ومن هنا كان الاجماع على أن الانســان بدأ حياته بدويا وظل على بداوته وتجواله حتى اســتقر على شــواطىء الأنهار بعد اكتشافه للزراعة .

واذا كانت البــداوة تقوم على التنقل الذى تعقبــه اقامة مؤقتة ، فان مدى هذا التنقل تحدده طبيعة النشــاط الاقتصادى والاجتماعى — فالرعاة هم أكثر البداوة تجوالا وأقلهم استقرارا ، على أن الرعى نفسه يتأثر فيما تفرضه من الحركة بنوع الحيوان الذى ترعاه .. فرعاة الخيل والابل والبقر أكثر تجــوالا فى الأرض من رعاة الضــأن والماعز الذين يحومون حول حواف الصحراء دون التجاسر على اقتحامها .

وعلى هذا الأساس فان البداوة اصطلاح يطلق على طبيعة فئة من السكان يتميزون بخصائص معينة وســلوك خاص ترسمه البيئة المحيطة بهم ولا تسمح باقامة حياة سكانية مستقرة ، فالبداوة تعنى الترحال وعدم الاستقرار فى مكان ثابت طوال العام ، اذ تضطر بعض الجماعات أن تغير مناطق اقامتها من آن لآخر أو من فصل لآخر سعيا وراء العيش أو الرعى أو التجارة كما هو الحال فى كثير من أقاليم السهوب والصحارى .

وكذلك فان البداوة مرحلة حضــارية قديمة كانت تمثــل حيــاة الانسان كله على سطح الأرض منذ نشأته حتى العصر الحجرى الحديث ،

والبداوة الحالية من الناحية الحضارية عبارة عن حالة متخلفة عن المرحلة الأولى للانسان ، ومن الناحية الجغرافية عبـارة عن حالة ملاءمة بشرية بين هؤلاء المتخلفين وبين ظروف البيئة الطبيعية •

واذا كانت معظم التعريفات للبداوة تميل الى الربط ما بين ظاهرة البداوة وبين المجتمعات الصحراوية بحيث تكاد ـ بشكل أو بآخر ـ تنصب على نمط واحد من البداوة ، وتعنى به البداية الرعوية • لا شك أن البداوة الرعوية تكاد تمثل أكثر أنماط البداوة سعة وانتشارا ، الا أن البداوة الرعوية ليست هى نمط البداوة الوحيد حيث توجد الى جوارها عدة أنماط أخرى رئيسية أهمها :

١ ـ بداوة الجمع والالتقاط •

٢ ـ بداوة الصيد •

٣ ـ بداوة الرعى •

٤ ـ بداوة الزراعة البدائية •

ومن الصعب أن نقرر أنه يوجد نمط بداوة متمايز أى يسود بصفة مطلقة ، وانما قد تتداخل هذه الأنماط وقد تتواجد معاً فى آن واحد ، ولكن يظل بروز واحد منها شـيئا ضروريا للدلالة على مرحلة حضارية معينة ، كما أنه لا يعنى تتابع هذه الأنماط بالضرورة تدرجا زمنيا لهـا ، فكثير من المجتمعات قد تعرف نمط الجمع والالتقاط والصيد والزراعة البدائية ، أو حتى الزراعة الراقيـة دون أن تعرف بداوة الرعى ، وقد تعرف مجتمعات بدوية كثيرة بداوة الرعى دون أن تمر أو تعرف بداوة الجمع والالتقاط أو الصيد بمفهومه المرتكز على القنص كما هو الحـال بالنسبة لكثير من المجتمعات البدوية العربية حيث عاشت منذ القدم وحتى اليوم فى ظل نمط البداوة الراعية •

صحيح أن الصحراء بطبيعة مواردها الاقتصادية ، تفرض على أهلها بداوة ، ولكنها مع ذلك ليست مسرح البداوة الوحيد لا فى التاريخ القديم ولا فى التاريخ الحديث ، فما يزال كثيرون من الأفريقيين يعيشون فى حالة بداوة فى قلب غابات السافانا الاستوائية حيث يمارسون الزراعة المتنقلة والصيد ويمارس آخرون منهم الرعى •

ومن هنا فان كل صحراء تهيىء لحياة البداوة ، ولكن ليس كل حياة بداوة هى حياة صحراء ، ولعل ارتباط البداوة العربية بالصحراء ، وما انطبع منه فى تراثنا ، لعل كل ذلك يؤكد صورة البدوى الصحراوى فى أذهاننا •

واذا كانت البداوة ليست وقفا على الصحراء ، فانها ليست كذلك وقفا على العرب ، ذلك أن تصور البداوة يرتبط فى أذهاننا بالعربى وبالجمل ، ومع ذلك فان البداوة اليوم فى العالم من غير العرب هى أضعاف أضعافهم من العرب • واذا كان الجمل هو عنوان البداوة فى منطقتنا فان البقر مثلا عنوان البداوة فى أفريقيا • على أنه حتى فى المنطقة العربية خاصة فى أفريقيا العربية توجد جماعات بادية لا تنتسب الى العروبة انتسابا دمويا ، وان كانت تنتسب اليها حضاريا ، فهم مسلمون وذلك مثل قبائل البربر فى الصحراء الكبرى والبجا فى شرق السودان •

وقد ظلت البداوة تمارس نفوذا خلقيا متصلا مع الحياة العربية ، فما زالت كثير من النظم الاجتماعية وأنماط السلوك والقيم البدوية تتعايش حتى فى العواصم والمدن العربية المعاصرة جنبا الى جنب مع التصورات والقيم الغربية ، وتكاد تنفرد بشخصيتها فى المجتمعات العربية القروية • ذلك أن البداوة العربية اتصلت بحضارة العرب الكبرى وارتبطت بظهور الرسالة الاسلامية فأصبحت مستودع الفضائل ومستقر المثل ، ومناط الأحلام ، فهى صفحتهم الخلقية والروحية وهم مجدهم

السياسى ، ولعلنا نلمح ذلك الاعتزاز بهذا التراث الذى انبثق من البداوة العربية ومن قيمها وفضائلها فى آثارها الأدبية والفكرية .

وليس من شك فى أن البداوة أصل الحضارة العربية ، ذلك القول تناقله الباحثون فى شئون الحياة العربية والتاريخ العربى منذ القدم ، وليس الأمر فى ذلك القول مقصورا على موجات الهجرات التى خرجت من البادية موجة بعد موجةليستقر أصحابها فى أرض السواد ومواطن الاستقرار فى الواحات والأودية والسهول وعلى الشواطىء ، وانما هو ينصرف كذلك الى أن البادية كانت مواطن الأصول الأولى للنظام الاجتماعى العربى ولطائفة كبيرة من الأنماط والعادات والشيم والقيم الانسانية والفكرية والروحية التى خرج بها أصحابها من قلب الجزيرة العربية ليستقروا على أطرافها فى جنوب غرب آسيا أو فى شمال أفريقيا أو حتى فيما وراء ذلك بالبر والبحر .

ولقد اختلفت صلة البادية العربية بما حولها من أراضى الاستقرار خلال التاريخ اختلافا واضحا عما كان عليه من صلات بين بادية أواسط آسيا وسهولها من جهة ، وأراضى الزراعة والحضارة فى الصين أو فى شمال الهند أو قلب أوربا من جهة أخرى . ذلك أن البادية فى شمال الجزيرة العربية أقل فى الكلأ والنضرة وغزارة الأمطار منها فى قلب القارة الآسيوية ، حيث السهوب أكثر عمرانا بالنبات والمرعى والثروة الحيوانية التى عمادها الحصان الذى يستخدم فى الغزو والفتح ، وذلك بخلاف الجزيرة العربية حيث حيوانها الأصيل هو الجمل الذى يستخدم فى التنقل وحمل السلع والتجارة فى قوافل تسير متهادية بين شواطىء الجزيرة العربية فى الجنوب والشرق وفى الشمال والشمال الغربى .

ومن هنا فان هجرات البدو من داخلية آسيا كانت دائما تجىء فى أعداد كبيرة من الناس يشبه خروجهم من السهوب السهل العارم أو

الطوفان يطغى على كل ما فى طريقه ، وكثيرا ما يحمل معه الخراب والدمار حينما يندفع فرسان داخلية آسيا من المغول والتتر والأتراك وغيرهم الى أقصى الشرق أو الى الجنوب أو الى أقصى الغرب • أما الجزيرة العربية فان فقر مراعيها النسبى جعل الهجرات تخرج منها فى شكل موجات قليلة العدد يسير معظم أفرادها من وراء الابل حداة تتهادى موجاتهم على نحو يندر أن ينتهى بهم الى أن يطغو طغيانا كاملا على ما حولهم من أراضى السواد ، خصوصا وأن أطراف باديتهم قد عرفت منذ القدم رسالة السماء التى أضفت على سلوك أهل الصحراء مبدأ جديدا فى مجال العلاقات الانسانية ، ووضعت بينهم فى عهد الاسلام رسالة وكتابا لم يتح لمثلهم من رعاة آسيا الداخلية الذين خرجوا على ظهور جيادهم أشداء السواعد غلاظ القلوب فدمروا الحضارة فى قسوة وكادوا فى بعض الحالات أن يدركوا كل معالم المدنية والتراث الانسانى •

وتقترن البداوة العربية عادة بالصحراء ، وتنقل أبنائها فى مناطق متباعدة منها سعيا وراء الكلأ وموارد المياه لصيانة حياتهم وما يتصل بهذا النمط من أنماط الحياة من تكوين عادات وتقاليد حميدة كالكرم والشجاعة والنخوة والوفاء والمحافظة على حقوق الغير وما الى ذلك من الانسانية الفاضلة التى نمت فى الجو البدوى وساهمت مساهمة فعالة فى تقدم الحضارة الانسانية •

غير أن المناطق البدوية تعتبر حاليا (نتيجة للتقدم الزراعى والصناعى والحضارى وما أصاب هذا التقدم من تغير فى مقاييس التقدم والتحضر) ، تعتبر هذه المناطق البدوية أميل الى التخلف ، ويحتاج النهوض بها الى جهود وطرق ووسائل فنية معينة تراعى فيها الظروف الطبيعية والبيئة التى تحيط بالبدو •

وليس من شك فى أن المدنية الجديدة واتصال العالم العربى بفنون

من التطبيق العلمى الحديث والحضارة المعاصرة قد وضعت البادية العربية فى موقف لا تستطيع معه الجمود . بل ولا تملك الا أن تسعى ببعض عناصرها الى الاستقرار فى مناطق التوسع الزراعى أو مناطق البترول أو الصناعة أو فى غير ذلك كله من مناطق الاستقرار الجديدة ، وليس من شك أيضا فى أن العصر الجديد يقتضى أن يجىء الاستقرار والتوطين على أساس مدروس ووفق خطة علمية تجارى الزمن ولكنها تصون القيم والتقاليد والعادات الأصيلة والنافعة فى حياة البدو ، بحيث لا يجىء الاستقرار الجديد امتصاصا كاملا للأنماط البدوية من حياتنا العربية أو تدميرا لها أو طغيانا على كل معالمها فتموت جذورها فتخسر الحياة العربية والفكر العربى أصلا من أصوله كان على مر التاريخ مصدر قوة ومكمن أصالة ومعين تجديد فى الدم والفكر والعاطفة والعمل الانسانى الخلاق .

***

البدو والحضر :

لاحظ علماء الاجتماع والفلاسفة أن هناك فروقا واضحة بين مجتمع القرية ومجتمع المدينة ، حيث تختلف المدينة عن القرية المحيطة بها فى شكل النشاط الاقتصادى وضروبه الأساسية وما يتبع ذلك من اختلاف فى أشكال الحياة الاجتماعية .

وقد شغلت هذه الفروق القائمة بين القرية والمدينة أذهان كثير من مشاهير علماء الاجتماع الذين اهتموا ببناء تصورات نظرية تشير الى أنماط مختلفة من الحياة الاجتماعية بين مجتمع القرية ومجتمع المدينة ، وحاولوا التمييز بين نموذجين مثاليين من الحياة الاجتماعية يضم واحد منهما الحياة البدوية فى حين يصف الثانى الحياة الحضرية .

والمقصود بالنموذج المثالى صياغة نظرية محددة سلفا لعقد

المقارنات بين أنماط الحياة ووصف ما يجرى من وقائع • وربما لا توجد هذه النماذج المثالية على المستوى المنهجى ، لكنها يمكن أن تصاغ بتحديد خصائص السلوك موضوع الملاحظة والتحليل ، وهناك يمكن للباحث أن يقارن هذه النماذج المثالية بما هو موجود بالفعل من أنماط الحياة الواقعية ، وبهذه الطريقة يمكنه أن يحدد موقف كل نمط من هذه الأنماط الواقعية وبدرجة تحت نطاق نموذج مثالى معين ، فالنموذج المثالى اذن أداة منهجية تساعد على فهم بعض الأبعاد وتحليلها ، والهدف من تأسيس هذه النماذج ، اذن هدف منهجى •

ونجد أن تحليلات علماء الاجتماع قد تباينت بين السطحية والتعمق وبين التسرع وبعد النظر ، وبين المتطورات الصائبة ، وقد كان ذلك كله رهنا بالمرحلة التى بلغها علم الاجتماع فى تقدمه ، وبالخطى التى قطعها على طريق الدقة العلمية •

ويمكن تحديد بداية حقيقية لهذه الجهود الحقيقية المنظمة فى وصف وتفسير هذه الاختلافات من عصر المفكر العربى (عبد الرحمن بن خلدون) فى القرن الرابع عشر الميلادى ، فقد خصص فصولا منظمة فى التمييز بين البدو والحضر من كتابه « المقدمة » •

ولقد قسم ابن خلدون المجتمعات البشرية التى عاصرها أو عايشها الى نموذجين رئيسيين يتناقض كل منهما مع الآخر على طول الخط ، محاسن أحدهما قبيح للآخر ، وبينهما صراع أزلى يمتد عبر الأجيال • والنموذجين الرئيسيين المتصارعين عند ابن خلدون هما : البداوية والتحضر أو البدو والحضر •

ويقارن ابن خلدون بين البدو والحضر بصفة مباشرة وجها لوجه فيقول : « قد ذكرنا أن البدو وهم المقتصرون على الضرورى فى أحوالهم

والعاجزون عما فوقه ، وأن الحضر المعتنون بحاجات الترف والكمالى فى أحوالهم وعوائدهم ، ولا شك أن الضرورى أقدم من الحاجى والكمالى وسابق عليه ، لأن الضرورى أصلى والكمالى فرع ناشىء عنه ، فالبدو أصل المدن والحضر وسابق عليهما لأنه أول مطالب الضرورى ، ولا ينتهى الى الكمالى والترف الا اذا كان الضرورى حاصلا ، فخشونة البداوة قبل رقة الحضارة ، ولهذا نجد التمدن غاية للبدوى يجرى اليها ، وينتهى بسعيه الى مقترحه منها ، ومتى حصل على الرياش الذى حصل له أموال الترف وعوائده عاد الى الدعة ، وأمكن نفسه الى قيادة المدينة » •

« والحضر لا يتشوق الى أحوال البادية الا لضرورة تدعوه اليها ، أو لتقصير على أحوال أهل مدينته » •

ويدلل على ذلك ابن خلدون : « اننا اذا ناقشنا أهل مصر من الأمصار وجدنا أولية أكثرهم من أصل البدو الذين بناحية ذلك المصر وفى قراه ، انهم أيسروا فسكنوا المصر وعدلوا الى الدعة والترف الذى فى الحضر وذلك يدل على أن أحوال الحضارة ناشئة عن أحوال البداوة وأنها أصل بها » •

ويؤكد ابن خلدون بأن هناك تفاوتا بين كل من المجتمعات البدوية والحضرية اذ يقول : « ثم ان كل واحد من البدو والحضر متفاوت الأحوال من جنسه قرب حى أعظم من حى ، وقبيلة أعظم من قبيلة ، ومصر أوسع من مصر ، ومدينة أكثر عمرانا من مدينة » •

وكذلك اهتم ابن خلدون بالمقارنة بين تأثير حياة البداوة والحضارة فى سمات الشخصية ، ومنها « الشجاعة » و « الخير » و « الذكاء » وقد قرر أن البدو أقرب الى الشجاعة والى الخير من أهل الحضر الا أنه يقرر أن أهل الحضر « ألقوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة وانغمسوا فى

نعيم الترف ، ووكلوا أمرهم فى المدافعة عن أموالهم وأنفسهم الى مواليهم » . أما البدو فهم « لتفردهم عن المجتمع وتوحشهم فى الضواحى ، وبعدهم عن الحاجة وانتهازهم عن الأسوار والأبواب قائمون بالمرافعة عن أنفسهم ولا يكلونها الى سواهم ، ولا يثقون فيها بغيرهم .. وقد صار لهم البأس خلقا والشجاعة سجية » .

ومن حيث الخير يرى ابن خلدون « أن أهل الحضر لكثرة مايعانون من فنون الملاذ ، وعوائد الترف والاقبال على الدنيا ... قد تلوثت أنفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من ذلك » وأما البدو « فهم أقرب الى الفطرة الأولى وأبعد عما ينطبع فى النفس من سوء الملكات بكثرة العوائد المذمومة وقبحها » .

كما قرر ابن خلدون تفوق أهل الحضر على أهل البدو فى الذكاء الا أن الحضرى قد « امتلأ من الصنائع وملكاتها وحسن تعليماتها » ولكنه يستدرك فيقول : « وليس كذلك ، فاننا نجد من أهل البدو من هم أعلى رتبة فى الفهم والكمال فى عقله وفطرته انما الذى ظهر على أهل الحضر من ذلك هو رونق الصنائع والتعليم ، فان لهما آثارا ترجع الى النفس » . ومن الواضح أن نظرة ابن خلدون الى الشخصية تقوم على منهج السمات ، وهى نظرية لها امتداداتها حتى وقتنا الحاضر ولكن لم تكن لتتوفر لدى ابن خلدون ما يتوفر لنا اليوم من أدوات لقياس هذه السمات بصورة علمية موضوعية .

وعلى هذا الأساس يمكن ابراز خلاصة رأى ابن خلدون فى هذا الصدد :

١ ــ أن المجتمع يتكون من قطاعين رئيسيين ، أولهما القطاع

البدوى وثانيهمـــا القطاع الحضرى ولكن القطاع البدوى أســبق الى الوجود من القطاع الحضرى •

٢ ــ أن القطاع البدوى سائر حتما الى التحضر عبر الأجيال •

٣ ــ أن هنـــاك فوارق ليس فقـــط بين النمطين الرئيســيين فى المجتمع ، ولكن بين البناء الاجتماعى لكل نمط على حدة ، وقد تكون هذه الفـــروق بيولوجيـــة بين الأفراد فى كل نمط ، وقد تكون فـــروقا حضـــارية بين الوحدات المحـــلية لكل من النمطين البدوى والحضرى على حدة •

٤ ــ مفهوم الشخصية بصفة عامة وفيها يهتم بوجه خاص بالعوامل الاجتماعية وتأثيرها فى تكوين الطبائع والسجايا الخلقية والعقلية •

وقد ظهـــر بعـــد ابن خلدون بعـــدة قـــرون « جيـــوفانى بوترو Giovani Botero الذى اهتم بهذا الموضوع أيضا ، وفى المرحلة التالية لبلورة علم الاجتماع وموضوعاته على يد أوجست كونت ، اهتم كثير من علماء الاجتماع بظاهرة التناقص القـــروى والحضرى ثم تعـــددت الجهود ابان العشرينـــات من هـــذا القرن حينما ظهـــر المتخصصون فى الدراسات القروية والحضرية داخل نطاق علم الاجتماع •

***

طبيعة المجتمعات البدوية :

اذن ما هو المجتمع البدوى ؟ هل المجتمع البدوى مجتمع بدائى ؟ هل هو مجتمع بسيط ؟ هل هو مجتمع متخلف ؟

وعلى الرغم من التحفظات الكثيرة حول اســتعمال كلمة « بدائى

Primitive » نظـرا لمـا توحى به هذه الكلمة من معانى التـدهور والانحطاط ، فلا شك أن البدائيين يحملون عبء تقاليد تكاد لا تتغير ، وأن هناك ظروفا كثيرة ومنوعة خاصـة البيئية منها قد ألقت بهم خارج تيار الحضارة ، أو قد عرقلت ليس فقط نموهم الاجتماعى وانما تقدمهم الحضارى أيضا ، ولفترات طويلة تمتد فى بعض الأحيان لعشرات المئات من السنين ٠

ومن هنا بدت مجتمعات هؤلاء البدائيين غير متحضرة ، وتصورها الكثير وكأنما تحجرت فى قوالب جامدة منذ آلاف السـنين ليس فقط لأنهم كانوا بمعزل عن طريق الحضارات القديمة وانما لأنهم ظلوا أيضا غرباء عن الوسـائل والأسـباب التى أدت الى تطور وتقدم مجتمعات أخرى كثيرة ٠

وقد أثبتت نظـريات وآراء تطور المجتمعات الانسـانية أنه حتى المجتمعات البدائية لا تقف كلها على قدم المساواة ، فمنها ما زال عنـد حالة أو مرحلة التوحش ، ومنها ما تجاوزها الى مرحلة البربرية بدرجاتها المختلفة الدنيا والوسطى والعليا ولا بد أن يكون للمجتمع البدوى مكان عند مرحلة البربرية وان اختلف ذلك المكان بعـدا أو قربا من بداية أو نهاية تلك المرحلة على حسب طبيعة وظروف كل مجتمع بدوى على حدة ٠

وهنا يأتى دور السؤال الثـالث : هل المجتمع البـدوى مجتمع بسيط ؟ فلو سلمنا بالتصور المطلق الذى افترضه «ريد فيلد Redfield » عن تطور المجتمع البشرى بأن هناك مجتمعين على طرفى نقيض : مجتمع بسيط ومجتمع معقد ٠٠ لتبين لنا على الفور بأن المجتمع البدوى مجتمع بسيط خاصة وأن هناك تشابها يكاد يصـل أحيانا الى حد التطابق بين خصائص كل من المجتمع البدوى والمجتمع البسـيط الذى افترضه ريد فيلد والذى حدد خصائصه على الوجه التالى :

١ ــ صغر الحجم ٠

٢ ــ تشابه أفراده من حيث النوع ٠

٣ ــ انتشار الأمية على الرغم من وجود لغة للتخاطب ٠

٤ ــ شعورهم القوى بالتماسك ٠

٥ ــ تكاد المجتمعات البدائية تعيش فى عزلة تامة ٠

٦ ــ توافر قدر متساو من المعرفة والخبرات لدى كل فرد فى المجتمع ٠

٧ ــ نظام القرابة (العصبية) هو أساس البناء الاجتماعى للمجتمع ٠

٨ ــ يتعاون أعضاء المجتمع البسيط لتوفير المأوى والمأكل وللدفاع عند الخطر ٠

٩ ــ دوافع العمل وتبادل الجهود والأشياء لا تنشأ عن دوافع اقتصادية بقدر انتمائها الى التقاليد أو الشعور بالمسئولية الجماعية أو ارتكازها على العلاقات القرابية أو الاعتبارات العرفية والأخلاقية ٠

١٠ ــ تتميز الحياة الاقتصادية للمجتمعات البسيطة بنوع من الاكتفاء الذاتى ٠

١١ ــ العمليات المختلفة للضبط الاجتماعى غير رسمية ٠

١٢ ــ النظام السياسى بسيط ومحدد بل معدوم فى بعض الأحيان٠

١٣ ــ يسود اعتقاد قوى فى الأشياء المقدسة ٠

١٤ ــ ينشأ الشعور بالصواب والخطأ من جذور جماعية لاشعورية ٠

١٥ ــ النظام الأخلاقى هو النظام الأساسى الذى يربط ما بين أفراد المجتمع جميعا .

١٦ ــ اكتساب المعارف يعتمد على التجربة حيث لا توجد أساسيات نظرية بالمفهوم الحديث .

١٧ ــ المجتمع بسيط من الناحية التكنولوجية .

١٨ ــ لا توجد مدن بالمجتمعات البدائية .

كذلك لو سلمنا بأن المجتمع البدوى مجتمع متخلف لوجدنا أن التكوين المورفولوجى للجماعات المتأخرة تكاد تتشابه الى حد التطابق بين خصائص ومقومات كل من الجماعات البدائية والبسيطة ، وأهم خصائص التكوين المورفولوجى العام للجماعات المتأخرة هى :

١ ــ البساطة وعدم التعقيد .

٢ ــ عدم التخصص .

٣ ــ صغر حجم السكان .

٤ ــ تشتت السكان وعدم استقرارهم .

٥ ــ التضارب فى درجة الكفاءة بين السكان وبالتالى التشابه فى وظائفهم .

٦ ــ عدم وجود مؤسسات أو هيئات متعددة الأهداف والوسائل .

٧ ــ يؤدى أفراد المجتمع الأعمال المنوطة بهم فى تكامل وترابط شبه آلى .

وفى النهاية لابد أن نقرر بأن المجتمع البدوى مجتمع تقليدى يعتمد على مجموعة من النظم والعلاقات المتشابكة ويقل فيها التخصص الى

أدنى درجة ممكنة بعكس المجتمعات الحديثة التى تؤكد ليس فقط أهمية الهدف الذى يحققه كل نظام من هذه النظم على حدة .

ولو أخذنا الأسرة مثالا لذلك لوجدنا أن وظيفة الأسرة الاجتماعية الأساسية هى انجاب الأطفال الشرعيين فى اطار جو من العلاقات المرتكزة على المحبة والمودة والتعاون بين أعضائها ، ويزداد دور الأسرة وضوحا وتحديدا فى المجتمعات المتقدمة وذلك على العكس بالنسبة للمجتمعات التقليدية حيث تبرز الى جوار الهدف الأساسى للأسرة مجموعة أخرى من الأحداث التربوية والدينية والاقتصادية والتعليمية والسياسية ، وتختلف هذه الوظائف الاضافية عمقا واتساعا من مجتمع الى آخر على حسب طبيعة وظروف كل مجتمع على حدة .

فلو أخذنا الوظيفة السياسية للأسرة أو للعائلة فى المجتمعات القبلية لوجدنا أن الأسرة هى أصغر وحدة سياسية فى المجتمع البدوى ، وتعتبر على صغرها هذا متمايزة ، بمعنى أن لها شيخا ورئيسا مستقلا من أبرز مهامه تنظيم العلاقات السياسية للعائلة مع غيرها من العائلات . كما يتولى فض المنازعات سواء تلك التى تقوم بين أعضاء العائلة نفسها أو بينهم وبين الآخرين .

وما ينطبق على الوظيفة السياسية للأسرة يمكن أن ينطبق على مختلف النظم الاجتماعية الأخرى ، الأمر الذى يؤكد ما سبق من أن المجتمعات البدوية مجتمعات تقليدية تتشابك فيها النظم والعلاقات بدرجة يصعب معها تعيين وظيفة واحدة وواضحة لأى من تلك النظم .

لذلك يعتبر المجتمع البدوى هو المجال الرئيسى الذى يمارس فيه علم الاجتماع البدوى نشاطاته المختلفة لذلك يحسن وضع تعريف معين

لماهية المجتمع البدوى • وقد وجدنا أن الأستاذ صلاح مصطفى الفوال وضع التعريف الآتى لماهية المجتمع البدوى :

« المجتمع البدوى هو ذلك المجتمع الذى يضم تلك المجتمعات البدائية المحلية التى تحيا فى عصرنا الحاضر حياة تقليدية تتميز بالبساطة وعدم التعقيد ، فضلا عن تشابك العلاقات والنظم الاجتماعية وتعدد وظائفها ، وتمثل حالة حضارية أقل تقدما لو قورنت بحالات حضارية متقدمة أخرى سواء كانت سالفة أو معاصرة ، هذا فضلا عن أن البداوة بصورها المتعددة وبمحتواها المادى والبشرى تعتبر حجر الزاوية بالنسبة لتلك المجتمعات » •

مظاهر البداوة وحجمها :

تعتبر البداوة مرحلة متميزة عن مراحل النمو الحضارى للمجتمعات الانسانية هذا النمو الحضارى الذى يتناول بالتغيير عادة مظهرين أساسيين هما :

١ ــ المظهر المادى :

ويشمل على ما يستخدمه الانسان من أدوات وأجهزة وغيرها من عناصر البيئة الطبيعية التى تحيط به ، أى أنه يتمثل فى وسيلة الكسب للعيش وجمع القوت ، وتبعا لنوع النشاط الاقتصادى السائد لدى البدو وطبيعة تجوالهم المستمر أو المؤقت ، وطبقا لسيادة الحيوان المستأنس جملا كان أو ضأنا أو بقرا •

٢ ــ المظهر المعنوى :

ويتركز على أسس غير محسوسة يمكن أن يطلق عليها البداوة

الفكرية وتتمثل فى القيم والعـادات والتقاليد وغيرها من الأساليب التى تنظم سير الحياة الاجتماعية بأنظمتها المختلفة .

ومنذ أن وجد الانسان وهو يحاول جاهدا استغلال موارد بيئته لانتاج ما يحتـاج اليه ، وكان فى بادىء الأمر غير قادر على تحويل هذه الموارد من حالتها الطبيعيـة الى حالة أكثر ملاءمة لاحتيـاجاته ، فكان لا يعرف حتى ايقاد النـار أو استخدام اللغـة أو الآلات أو التحكم فى تصرفاته لتسير وفق مصلحة الجمـاعة ، بل كان يعمـل ما يحلو له وفق اشباع غرائزه المختلفة .

ثم أخذت عقليـة الانسـان تتطور بتفـاعله مع البيئة الطبيعيـة والاجتماعية التى يعيش فيهـا ، ونتيجة لهذا التفـاعل استخدم النـار والآلات البسيطة ، وتكونت تدريجيا عادات وتقاليد جماعية تنظم علاقات الأفراد وسلوكهم تجاه بعضهم وتجاه الطبيعة المحيطة بهم ، وتعتبر هـذه العادات والتقاليد نواة الحضارة الانسانية لمساهمتها مساهمة أسـاسية فى تنشئة الأفراد تنشـئة اجتماعية ، وتهـذيب غرائزهم وطبع تصرفاتهم طبقا لمعـايير اجتماعية يتوفر فى اطارها الأمن والاسـتقرار وما اليه من عوامل نشوء الجماعات الانسانية ونموها وانتاجها .

واذا اعتبرنا أن الحضارة الانسانية هى محصلة التفاعل بين الانسان وبيئته ، وأن هذه الحضارة فى تطور مسـتمر ممتد على مر الزمن نتيجة نمو معرفة الانسـان وخبرته وتحسينه المستمر لمـا يستخدمه من آلات وأنظمة ، فانه يمكن اعتبـار مرحلة البداوة حلقة من حلقـات التطور المتقدمة بالنسبة للمرحلة التى سبقتها ، وهى مرحلة الصيد التى تميزت أساسا بطابع استهلاك الانسان لما يقتنصـه من الأسـماك والحيوانات فى حين تميزت مرحلة الرعى (البداوة) بنشاط انتاجى نشأ نتيجة عناية الانسان بتربية الحيوانات ورعايتها وتنميتها ، كما تميزت باستخدام بعض

الأدوات ونمو بعض العادات والتقاليد المنظمة للسلوك الاجتماعى للأفراد • وقد مهدت مرحلة الرعى للمرحلة التى تلتها ، وهى مرحلة الزراعة التى تميزت بالاستقرار للتمكن من تتبع نمو المحاصيل وجنى الثمار •

وظاهرة البداوة تقوم على الرحلات الدورية المتكررة ، فى طلب الرزق ، والبداوة مع هذا ليست مطلق التنقل غير المحدود أو غير المقصود ، ولكنها تنقل بهدف التحرك حول مراكز مؤقتة يتوقف مدى الاستقرار فيها على كمية الموارد المعيشية المتاحة فيها ، وعلى مدى الوسائل الفنية المستعملة فى استغلالها وعلى الأمن الاجتماعى والطبيعى الذى يمكن أن يتوفر فيها •

ومن هذا التصور للموارد والوسائل ، والأمن ، يمكن أن تتحقق عدة تصورات تاريخية لأنماط البداوة البشرية ، كالصيد وجمع الثمار والرعى والزراعة المتنقلة •

على أن ما تتميز به ظاهرة البداوة من الحركة الموسمية من شأنه أن يخلق نوعا من التداخل بينها وبين ظاهرة الهجرة ، ولكنها قد تختلف عن الهجرة من حيث ان الأخيرة تفترض نقطة انطلاق وبداية ثابتة محددة ، سواء كانت الهجرة مؤقتة أو دائمة ، ونقطة الانطلاق والبداية تبدو دائرية ، فكل مستقر يمكن أن يكون فى الوقت نفسه مهاجرا ، فمن العسير التفرقة بين المهجر والمستقر فى حالة البداوة خاصة فيما قبل التاريخ ، وذلك بعكس الهجرة التى يمكن تصور مجراها فى خط أفقى ذى بداية ونهاية •

أما عن حجم البداوة فلا يقل أهمية عن مظهرها ، حيث لا ينكراه • ان أهمية تحديد حجم ظاهرة البداوة كما ونوعا فى مجتمع ما ، خصوصا

بالنسبة لبرامج ومشروعات التنمية المختلفة ، حتى يمكن الارتكاز على هذا التحديد سواء عند تخطيط تلك البرامج أو عند تنفيذها أو عند متابعتها •

ويمكن تحديد حجم البداوة فى وسيلتين :

١ ــ وتعرف بالطريقة الحسابية أو الاحصائية : وعن طريقها يمكن معرفة ما هو عدد البدو فى أى دولة ، بعد تحديد دقيق لمفهوم كل من البداوة والبدو وما هى نسبتهم الى المجموع الكلى للسكان • ثم ما هى الامكانيات المادية والبشرية المتاحة أو المحتمل توافرها لدى المجتمع البدوى • وكذلك كمية ونوع الخدمات المتوافرة وطرق الاستفادة منها •

٢ ــ أما الوسيلة الثانية فترتبط بالجانب المعنوى للبداوة : وتتمثل فى قياس البداوة الفكرية أو القيمية ، لمعرفة الى أى حد تتمسك أية جماعة أو أى مجتمع بدوى محلى بنظمها البدوية وعاداتها وقيمها وتقاليدها المتوارثة •

وعلى هذا الأساس فان كل من الوسيلتين ترتبط بمظهرى البداوة المادى والمعنوى السابق •

والطريقة الأولى سهلة نسبيا وممكنة الاستخدام الا أن الطريقة الثانية أصعب ــ نسبيا أيضا ــ حيث تتطلب جهدا أكثر ووقتا أطول ونوعية خاصة للقائمين بها سواء من حيث التخصص أو الاعداد •

***

الترحال والتنقل فى المجتمعات البدوية :

لعل التنقل سعيا وراء مصادر القوت يشكل السمة الرئيسية للحياة فى المجتمعات البدوية خصوصا الصحراوية منها • فانتقال البدو أو ارتحالهم بقطعانهم سواء من الابل أو الغنم أو الخيل أو غيرها من الحيوانات ، هذا الارتحال يعرف كنمط بعملية الرعى المتنقل وهو أبسط أنواع الرعى على الاطلاق ، وممارسين من البدو الرحل الذين يعتمدون بصفة رئيسية ومباشرة على الحيوان باختلاف أنواعه •

ولا يقتصر واجب القبيلة على تنشئة الأفراد واعطائهم مكانات اجتماعية وتحديد خطوط السلوك الفردى ووضع القواعد والنظم والقيم الاجتماعية ، وانما تنبثق عنها كافة التصورات الجماعية التى تختص بالحيوانات والأشجار والمياه والأعشاب وغيرها من المواضيع الطبيعية والروحية ، فلكل قبيلة أشجارها ومزاراتها وأحجارها التى تعتز بها ، ولكل قبيلة طابعها ووشمها الخاص بها الذى يميز ما تمتلكه من الحيوانات عن غيرها من القبائل فعصبية القبيلة اذن أصبحت مصدرا للتضامن البشرى فقط وانما لجميع الحيوانات والأشجار والمياه ضمن حدود تلك العصبية النفسية •

ولكل قبيلة فى الجزيرة العربية وفى بوادى الصرامة وسورية والمملكة الأردنية الهاشمية ديار معينة تجوب سهولها ووديانها وقفارها وتلولها • وان تلك الديار قد تكون مقسمة تقسيما اداريا ودوليا كما هو الحال فى المملكة العربية وسوريا والعراق ، ولكن الشىء المهم أن القبيلة تنتقل مع ابلها ومواشيها فى الشتاء والخريف والربيع ، وتوجد فى تلك الديار آبارها الدائمة التى تستقى منها والتى تعتز بها وتحتفظ بها وقت الصيف خاصة •

فلولا أخذنا مثلا قبيلة الظفير الكبرى التى تجوب الديار الواقعة فى الشمال الشرقى من الجزيرة العربية التى تحدها شمالا المنطقة المحايدة العراقية والحدود الكويتية شرقا وجنوبا الخط المبتدىء من مدينة عنزة الى أرطاوية ولهذه المنطقة عدد من الآبار مثل « حفر الباطن ، صفا ، جارية العليا ، جارية السفلى ، القرعة ، الوبرة والدجانى » • ورغبة فى المحافظة على الأمن فقد نظمت المملكة العربية السعودية مدينة صغيرة يجتمع فيها أفراد القبائل وتنمو بعض الأعشاب فى هذه الديار وتعتبر الغذاء الريفى للابل •

ومن المعلوم أن القبيلة لا تبقى منعزلة طوال الوقت فى ديارها ، فاذا كانت الأمطار جيدة والمراعى وافرة بقيت فى ديارها وان كان الأمر عكس ذلك فانها تهاجر وراء العشب والماء ، وبذلك تتعدى حدود قبيلة أخرى ، ولكنها على كل حال لا تستطيع أن تنتقل فى ديار قبيلة معادية ، فعليها أن تؤسس أولا العلائق والصلات الجيدة وأن تعقد الأحلاف لتستطيع أن تجوب ديار القبائل الأخرى وقت القحط ، ولهذه الأحلاف فائدة متبادلة تخدم أغراضا اجتماعية عديدة أهمها حسم المنازعات ومساعدة الغير على تقوية روح الولاء والتعاون والتضامن •

وقد تقسمت كل بلد الى أحلاف متكافلة ومتضامنة منها :

١ — قبائل حرب والمطير والعجمان •

٢ — بنو عبد الله وقبيلة عتيبة •

٣ — الظفير وشمر والعوازم •

٤ — العجمان ونجران •

٥ — عنزة والرولا والدهان والفوعان •

وقد تقوم القبائل للاكتيال من أنحاء الجزيرة العربية الى بعض المدن العراقية كالزبير والناصرية والسماوة حيث يتردد عليها أفراد قبيلة « الظفير » فى حين حرب وشمر والمطير والعوازم يذهبون الى الكويت ، ويسمى البدو تلك العملية « المسابلة » وعندما تقدم القبائل الى المدن للمسابلة والاكتيال عليها أن تخضع لقانون البلاد وعلى البدو أن يمتنعوا عن القيام بعمل يخل بالنظام •

انواع الارتحال :

عموما يمكننا أن نحدد طبيعة ذلك الارتحال ومداه بالصورة الموجزة التالية :

(ا) الارتحال العادى « الاختيارى » :

وهو ذلك الترحال الذى يتم تحت الظروف العادية التى اعتادتها الجماعة الرعوية وفى نطاقها المكانى المعروف لها والذى سبق أن طرقته فى توال زمنى بحسب قدرة عشبه وحشائشه على الخضرة والعطاء •

(ب) الارتحال الطارىء « الاضطرارى » :

ويتم عندما تتغير الظروف المناخية أو الطبيعية فجأة ولا تجد الجماعة البدوية مخرجا سوى ترحال سريع يشبه الهجرة هربا من تلك الظروف الطارئة التى واجهت الجماعة وهددت حياتها وحياة قطعانها بالخطر ، ويكون هدف الترحال الاضطرارى البعيد ــ بعد انتهاء مهمة الهرب من الظروف الجديدة حفاظا على حياة الناس والحيوان ــ هو العثور على مراع جديدة تجد الجماعة الراحلة فى كنفها أسباب الحياة لها ولمواشيها ، وفى هذه الحالة قد تعود الجماعة البدوية الى ديارها القديمة وقد لا تعود لأن عملية العودة هذه مرهونة بالأسباب التى دفعتهم أصلا الى هجرتها ، فلو تغيرت الظروف ونما الى علم الجماعة البدوية المهاجرة أن مراعيها القديمة قد عادت اليها الحياة وأصبحت فى حالة

تفوق من حيث الخصب والنماء حالة مراعيها الحالية لما ترددت الجماعة البدوية لحظة فى العودة الى ديارها القديمة ولا يكون ذلك بفعل الحرص على القديم والحنين الدائب الى الماضى وحده ، وانما يعود أيضا وبالدرجة الأولى الى طبيعة الجماعة البدوية الراعية وسعيها الدائم وراء أسباب الحياة التى لا تكون الا حيث يكون العشب والماء .

(جـ) الارتحال الموسمى « رحلة الشتاء والصيف » :

ويرتبط هذا الارتحال أساسا بفصول السنة أو بفصليها المتمايزين على وجه الخصوص وهما الشتاء والصيف ، حيث ترحل الجماعة البدوية من منطقتها فى بداية كل شتاء الى مسارح أخرى تكون أقل برودة وأوفر عشبا وماء ، ثم لاتلبث هذه الجماعة المرتحلة أن تعود الى موطنها الجديد مع بداية الصيف .

وقد يحدث العكس ، بحيث تبدأ الرحلة فى الصيف وتنتهى فى الشتاء ، وبداية رحلة الشتاء والصيف هذه لا ترتبط بأى من الفصلين ارتباطا آليا ، وانما ترتبط بهما ارتباطا وظيفيا ، بمعنى أنها تبدأ مع بداية الفصل الذى لا تتهيأ فيه أسباب الحياة للجماعة البدوية فى مسارحها الأصلية .

وكما هو معروف فان أسباب الحياة فى الصحراء ترتبط الى حد كبير بالمطر خصوصا اذا لم تتوافر معه مقومات أخرى للحياة ـ واحة ، منجم ، بئر للبترول ، تجمع حضرى قريب ... الخ ـ فاذا كان سقوط المطر صيفا بدأت الرحلة صيفا ، وان هطلت الأمطار شتاء شدت الجماعة البدوية رحالها تجاه مناطق سقوط المطر شتاء ، وغالبا ما يكون اتجاه الجماعة الراحلة ـ فى كلتا الحالتين صيفا أو شتاء ـ الى أطراف الصحارى لأنها أكثر مناطقها تعرضا لسقوط المطر .

ورحلة الشتاء والصيف هذه معروفة منذ القدم ويمارسها البدو فى مختلف صحراوات العالم طبقا لمواسم سقوط المطر ونمو الحشائش •

ويرحل بدو صحراء شبه الجزيرة العربية وراء الأمطار أينما وجدت حتى ولو توغلوا فى قلب الصحراء الموحشة وهم لا يفعلون ذلك جزافا وانما دليلهم فى ذلك عاملان مهمان :

الأول ـ الجمل بقدرته الخارقة على ارتياد مناطق الصحراء القاحلة خصوصا خلال دروبها المؤدية الى الماء والعشب •

والثانى ـ خبرة قادة « أدلاء » الجماعات البدوية بمسالك الصحراء ومعرفتهم لمناطق الرعى والآبار فضلا عن مهارتهم فى توقع سقوط المطر •

ومع الصيف الشديد القسوة والحرارة ترحل هذه الجماعات البدوية العربية الى أطراف الصحراء حيث تكون هذه المناطق عادة فى شبه الجزيرة العربية أوفر ماء وأعدل مناخا •

(د) الارتحال الدورى « التبادلى أو الرأسى » :

وهو نوع غريب من الارتحال الموسمى ، وان كان يمتاز عنه بشىء من الاستقرار حيث يكون معروفا سلفا لدى الجماعة البدوية أنها سوف ترحل شتاء أو صيفا الى مكان معين وثابت تقريبا بغير أن تتدخل فى عملية الارتحال عوامل المطر والريح والظروف الصعبة أو القاهرة التى تفرض عليها الرحيل بغير اعداد أو نظام •

ومن أبرز أمثلة الارتحال الدورى تبادل الأماكن الذى تمارسه القبائل البدوية فى منطقة الأطلس الكبير ، حيث تقضى هذه القبائل صيفها على سفوح الجبال فى حين تقضى شتاءها فى السهول المنبسطة

حول الجبل ، ومثلها جماعات الكرغنر البدوية فى تركستان فهى تقضى الشتاء فى مراكز الكازاك الشتوية عند سفوح جبال تيان شان وعندما يحل الصيف تتجه هذه الجماعات جنوبا لترعى مواشيها على الأعشاب الجبلية هناك .

وعلى هذا الأساس يكون الترحال الدورى هو عملية التبادل التى تتم بين الأماكن المرتفعة والمنبسطة والتى تمارسها القبائل البدوية صيفا أو شتاء بحسب الظروف والأحوال المناخية السائدة فى مناطق الترحال الدورى .

***

الفصل الثانى

الخصائص العـامة للمجتمعات البدوية

المظاهر العامة والمشتركة فى المجتمعات البدوية :

كانت البداوة تمثل منذ القدم حضارة ما قبل التاريخ ، وهى وان كانت تختلف فى معظم صورها ــ عما هى عليه الآن فان جمهرة المؤرخين قد أجمعت على أن الانسانية قد نشأت بين أحضـان البداوة .. حيث كانت بداوة انسان ما قبل التاريخ ترتكز على عدم الاسـتقرار والتنقل سعيا وراء الماء والعشب ، ومن هنا استمرار تميز حيـاة البداوة بالتنقل وعدم الاستقرار ، كان شبه الاجماع على أن الانسان بدأ حيـاته بدويا وظل على بداوته وتجواله حتى استقر على شواطىء الأنهار بعد اكتشافه للزراعة وكان ذلك قبل آلاف السنين .

وقد اتسمت بداوة ما قبـل التاريخ بأنماط مختلفة لا زالت بعض حلقـاتها متصلة حتى اليوم ، فقد عرفت البداوة الصـيد وجمع الثمار والرعى والزراعة ، وما زالت معظم هذه النشاطات مع أصالتها حتى اليوم وعلى الأخص الرعى الذى يشكل جانبا أساسيا ومهما من ملامح البداوة فى عصرنا مع ما يتطلبه الرعى من حركة وتنقـل تحدده طبيعة الحيـوان السائد لدى الجماعة البدوية .

وقد وجه علماء الاجتماع اهتماما ملحوظا وبذلوا جهودا ملموسة فى تحديد خصائص المجتمعات البدوية وتحليلها على أسـاس علمى .. ولا شك أن الاهتمام بخصائص المجتمع البدوى يبرز الى حيز الوجود الاهتمام بخصائص المجتمع الحضرى باعتباره المقـابل له . والحقيقة أن

أي تحليل للمجتمع البدوى وخصائصه لا يستقيم دون المقارنة بما يقابله ، أى المجتمع الحضرى •

وعلى وجه العموم تتميز البداوة بخصائص عامة ومشتركة يمكن ايجازها فيما يلى :

١ ــ وضوح البيئة الطبيعية وبروز سيطرتها ، حيث أدت هذه الظروف الصعبة الى خضوع المجتمعات البدوية الى الظروف البيئية بشكل يكاد يكون تماما ، وكما فرضت الظروف البيئية نباتات معينة وحيوانات خاصة هى التى تعيش على تلك النباتات فانها فرضت أيضا على الانسان حياة وظروفا معيشية خاصة •

٢ ــ الانطواء والعزلة الشديدة بعيدا عن مسارات الحضارة الانسانية ، وترتبط هذه الخاصية بشكل أو بآخر بالخاصية التى سبقتها ، حيث أدت الظروف البيئية الى ارغام مجتمعات البدو الى الانطواء على نفسها داخل مناطق نائية أو قاحلة وبعيدة عن المناطق الحضارية التاريخية •

٣ ــ التنقل الدائم والترحال المستمر ، وذلك لأن اعتماد أغلب الجماعات البدوية على ما تجود به الطبيعة من نباتات لتربية الحيوانات ، يجعل أى مكان عاجزا عن سد احتياجات الجماعة البدوية الى فترة طويلة تسمح بالاستقرار ، لذلك فالجماعات البدوية دائمة التنقل سعياء وراء الكلأ والغذاء •

٤ ــ خصائص الترحال ومداه فى ظل نظام الرعى يؤثر على الحياة الاجتماعية لجماعات البدو الرحل بصفة عامة • وخصائص هذا الترحال وتأثيراته تتحدد فى العناصر الآتية :

(ا) البســاطة :

تحتم حياة التنقل الدائم أن تكون الجماعة البدوية خفيفة الحركة حتى تواجه كافة الظروف الصعبة والمتغيرة التى تقـابلها ، وخفة الحركة هذه تستدعى هى الأخرى أن تكون الجماعة البدوية بسيطة فى مسكنها وملبسها ومتاعها ومعداتها •

(ب) عدم الاستقرار :

ولعل ذلك شيء فى طبيعة الترحال نفسه ، وينســحب ذلك بدوره على كل من البدوى والطبيعــة ، فالبدوى الراعى صار لا يطيق العيش فى مكان واحد ثابت لفترات طويلة وأصــبح التجوال فى دمه ، وليس معنى ذلك أن يترك البدوى موردا خصبا للماء والعشب ليهيم على وجهه حبا فى التجوال ، وانما البدوى يتشوق بطبعه دوما الى معشوقيه ـ الماء والكلأ ـ وهو وان أحاط حبه بمجموعة من القيم منهـا حبه للانطلاق واحتقاره للعمل اليدوى وثقته بنفسه وبعصبيته وعدم تقــديره للوقت وللادخار واحترامه للفروســية وللقوة حتى فى مواقف الغــزو والسلب والنهب ، فانه أيضا لا يفارق دياره بسهولة ـ نفسية على الأقل ـ ويبكيها دوما بناســها الذين عاشرهم ثم فارقهم • ومن هنا كان تقديسه للماضى واحترامه لكبار السن وتكريمه للذكريات ومناجاته لأطلاله كلمـا واتته الفرصة ، ولكن البدوى برغم حنينه للماضى لا يكف أبدا عن التجوال بحثا عن مصادر أرحب للحياة والرزق •

أما عن الطبيعــة فالتطرف سمتها ، وقد تظل الصــحراء بلا مطر لعشرات السنين ، وقد تمطر سماؤها فجأة وتنهمر سيولها وثلوجها لتغير حتى وجه الصحراء القاحلة ، والبدوى مظلوم ، ضياعه قلة المطر ووجوده كثرتها •

(ج) الحـذر :

والجماعة البدوية فى تسلحها بالحذر ــ من النــاس والطبيعة على حد سواء ــ لم تفعل ذلك جزافا ، وانما نتيجة لخبرات كثيرة ، فالطبيعة عندما تغدر ويصـبح لزاما على الجماعة البدوية أن ترحـل أو أن تفر بتعبير أدق ، هربا بحياة مواشيها وأبنائها من ذلك الخطر الداهم والطبيعة فى غدرها أمر استوجب الحذر •

والمرعى النامى عندما يضمحل لسـبب أو لآخر ، لتجد الجمـاعة البدوية نفسـها فى موقف يسـتدعى لانتقال الى مكان آخر ، موقف يستدعى الحذر •

(د) التجمع القبلى :

ما دامت الطبيعة غير مستقرة أو مأمونة ، وما دامت سبل المعيشة غير ميسرة أصلا ، فلا أقل من أن تتواجد الجمـاعات البدوية فى تجمع قبلى تشكل الأسرة أصـغر وحداته ، ثم يمتد ذلك التجمع أو التنظيم حتى القبيلة الأم • وربما ضم معها عددا من القبائل الأخرى بفعل روابط وعصبيات معينة ، منهـا روابط الدم والمصـاهرة أو روابط الأحلاف والجوار وما اليها •

ويمتاز هذا التجمع القبـلى بنظام اجتماعى مبسـط تتحدد خلال المكانات والأدوار والأسس التى تبرز من خلالها سـيادة الرجل وتبعية المرأة فى غالبية الأحوال •

وتبرز هذه السيادة من خلال كل وجوه الحياة البدوية تقريبا ، فلو أخذنا مثلا تقسيم العمـل بين الرجل والمرأة لوجدنا أن الرجل يسـتأثر بالأعمال الممتازة كأعمال الغزو وتمثيل الأسرة أو الجمـاعة البدوية لدى غيرها من الأسرات والجماعات ، وكذلك كل العمليـات الاشراقية التى

لا تحتم عليه أن يمارس عملا فعليا ، فى حين تقوم المرأة الى جانب تدبير شئون أسرتها وتصريف أمورها المنزلية ، تقوم برعى الحيوانات ورعايتها ، وصنع ما تحتاج اليه الأسرة من أغطية وخيام ، كما أنها تقوم بزراعة بعض النباتات حول مضارب الأسرة .

ولو انتقلنا الى الملكية داخل التنظيم القبلى لوجدناها ذات وجهين ، الأول منهما جماعى ويتجلى فى المراعى والآبار والواحات هذه كلها ملك القبيلة ، وتمارس كل جماعة فوقها حق الاستغلال فقط ، أما الوجه الآخر للملكية فيتمثل فى الملكية الفردية ، فمن حق الفرد البدوى والأسرة البدوية أن تكون لها حيواناتها ومضاربها ومقتنياتها الخاصة بها ، وبحيث يكون ذلك كله فى خدمة القبيلة كتنظيم أولا وآخرا .

ويأخذ هذا التجمع القبلى مظهرين :

١ ـ مظهر مادى :

بحيث تتجمع الجماعة القبلية كلها فى مواجهة الظروف القاهرة التى تكتنفها حبا فى البقاء فيعمل كل أفرادها معا ويحاربون معا .

٢ ـ مظهر معنوى :

وفيه تتوحد قيم الجماعات البدوية وعاداتها وتقاليدها فى تنظيم اجتماعى معين يفتديه البدوى بكل شىء ولا يقبل بسهولة أى خروج عنه مع الاستعداد التام لتقبل نتائج ذلك الالتحام القبلى عنوا وغرما .. ولعل فى ظاهرة الثأر ما يكتنفها من قواعد ونماذج سلوك ما يوضح الدور الذى تؤديه الجماعة البدوية فى طلبه الثأر أو دفعه .

(هـ) الاستجابة البطيئة للتغيرات الحضارية :

يكاد يكون نمط الحياة البدوية هو النمط الوحيد الذى ظل كما هو عليه بغير تحولات كبيرة منذ آلاف السنين حتى اليوم ، ويرجع

ذلك الجمود الذى أصاب الحياة الاجتماعية البدوية لارتباط هذه الحياة بالظروف الطبيعية بدرجة كبيرة ، فكما هو معروف فان العوامل الجغرافية والمناخية والنباتية والحيوانية تلعب دورا كبيرا فى تحديد احتياجات البدو وامكانياتهم وتحديد هذه الظروف متضامنة مع عوامل أخرى مكانات الانسان والجماعة البدوية وأدوارها .

فهذه العوامل كلها كانت استجابات البدو لأية تغيرات حضارية تتسم بالبطء ، والحذر الشديدين ، وبحيث كانت الريبة هى السمة الغالبة لأى علاقة ما تنشأ بين البدو وبين كل جديد يقتحم حياته .

***

الخصائص الاجتماعية فى المجتمع البدوى :

ان المجتمعات البدوية تضم الكثير من الخصائص سواء العامة منها أو الفردية والتى يمكن اعتبارها نظاما عاما ولا يمكن فى الوقت نفسه اغفال الحديث عنها .

أولا ــ الغــزو :

كان الغزو من التقاليد والأعراف الاجتماعية المقبولة فى المجتمع البدوى والقبلى قبل ظهور الاسلام ، حتى اذا جاء الاسلام نهى عنه واعتبره عملا يخل بالمبادىء الاسلامية .

وبالرغم من مرور هذه الحقبة الطويلة من السنين ، لم يزل البدو يمارسون الغزو ويعتبرونه جزءا لا يتجزأ من التكوين الاجتماعى والاقتصادى لكيانهم وبقائهم .. فعادة الغزو لا تعنى مجرد السلب والنهب عند البدوى ، وانما اظهار للرجولة والاقدام ، ومن المألوف أن يكرم البدو الرجل الذى أبلى بلاء حسنا فى الغزو فيرووا عنه القصص

والأساطير التى تشيد ببطولته وفروسيته لتكون دافعا ومحفزا للشباب أن يقتدوا بسيرته •

ويعتقد البدو بأهمية الغزو فى اكتمال رجولة الانسان وتدريبه على المهارة فى الكر والفر ، لهذا يحترمون الغزو ويقدرونه ، أضف الى ذلك أن الغزو لا يتطلب اراقة دماء كثيرة ، لأن الدافع الأساسى الذى يحفز البدوى على الغزو هو رغبته فى الحصول على الابل بأية طريقة كانت ، وبالطبع فانه يفضل أخذها بطريقة الغزو من عدوه ، لأن فى ذلك اذلالا وحطة له ،فليس فى الصحراء عادة ابادة العدو والقضاء عليه شخصيا وعلى نسائه وأطفاله ، لأن ذلك يخالف طبيعة المجتمع البدوى ، ويناقض تقاليد البادية وشرفها •

ولعل أهم ما يقلق حياة البدوى فى الصحراء هى ابله ، فان فقد واحدا أو قسما منها فى الغزو فانه يبقى طول سنينه مضطربا وقلقا حتى يكتشف أمرها • وان وقعت سرقة ليلا واقتاد السارق الابل الى مسافات بعيدة قد تنوف الـ ٥٠٠ ميل فان البدوى يستعين بالعرافة •

والعرافة عند البدو مؤسسة اجتماعية لها وظيفة مهمة تحل كل المنازعات التى تنشأ من الخصام على ملكية الابل • وللعرافة قواعد وأصول يقرها المجتمع البدوى • والجدير بالذكر أن نتطرق اليها بايجاز : اذا صادف وأن أخذت قبيلة من قبيلة أخرى عددا من ابلها على أثر غارة أو غزو واتفقت القبيلتان على أن تميز كل قبيلة ما أخذ منها من الابل ، فبالامكان ارجاع ابل كل قبيلة بدون نزاع وقد تستعين القبيلتان بقبيلة أخرى تكون وسيطا •

وكما يعلم الجميع أن الحكومة السعودية قد بذلت كل ما فى وسعها للحيلولة دون وقوع الغزو والسرقة حتى اعتبرت بعض القبائل

عمل الحكومة هذا قطعا لرزقهم مدعين بأنهم ليسوا مزارعين وليسوا أصحاب محلات تجارية ، هذا هو مكسبهم الوحيد ، ولكن قد تأثرت عادة الغزو كثيرا وانتهت باستعمال الحكومة للسيارات المسلحة والقوات الآلية لايقاف هذه العادة غير الانسانية وتخل بالمبادىء الاسلامية .

ثانيا ـ الحروب البدوية :

لو أخذنا البداوة العربية كمثال وحاولنا من خلالها التعرف على أسباب الحروب لتبين لنا أن :

١ ـ الطبيعة القاسية التى كثيرا ما كانت تهدد البدو بالمجاعات وتدفعهم غريزة حب البقاء الى نهب غيرهم حتى ولو كانوا جيرانهم ، كما كانت تدفعهم أيضا الى سلب القوافل التجارية المارة بدروبهم أيا كان نوعها ومهما كان أصحابها لا يصدهم عن ذلك وازع من خلق أو دين .

٢ ـ اعتقاد البدوى أن ما يملكه هو ما يستطيع انتزاعه من غيره بحد سيفه .

٣ ـ اعتبار الغزو قيمة من القيم البدوية ، دفع البدوى الى اعتبار العدوان احدى مفاخره .

٤ ـ اعتبر ابن خلدون العدوان أحد سجايا البدو ، حيث انهم يجدون فيه وسيلتهم الوحيدة لارضاء نزواتهم الحربية من جهة ولاشباع غريزة حب التملك لديهم من جهة أخرى حيث يقول : « وطبيعتهم انتهاب ما فى أيدى الناس وأن رزقهم فى ظلال رماحهم ، وليس عندهم فى أخذ أموال غيرهم حد ينتهون اليه بل كلما امتدت أعينهم الى مال أو متاع أو ماعون نهبوه » .

٥ ــ كما يعتبر طلب الثأر أحد الأسباب المهمة لقيام الحروب القبلية.

٦ ــ كما تعتبر عوامل العصبية للقبيلة واستعداد البدو للدفاع عنها مهما كلفهم ذلك من تضحيات .

٧ ــ التفاخر أو استظهار الشجاعة يعتبران أحد أسباب الحروب القبلية : كما تعتبر عمليات الابادة والحماية والولاء والتخرب وما اليها من الأسباب المهمة لاشتعال الحروب القبلية .

وبالرغم من كل هذه الأسباب ، فان البدو يتمسكون ببعض القواعد عند اعلان الحروب ، وليس من الشرف والمرؤة أن تأخذ عدوك على حين غرة ، فلا بد أن تخبره قبل ابتداء القتال .

وبعد أن يستقر الرأى على المقاومة والهجوم تعبأ القبيلة ، فتبقى الطاعنون فى السن والأطفال فيما وراء الخيام الى أن تنتهى المعركة .

ثالثا ــ الثأر كظاهرة اجتماعية فى المجتمعات البدوية :

الثأر Revenge كظاهرة اجتماعية أو كخاصية فى المجتمات البدوية أو حتى كنظام سائد فيها يعتبر من أكثر الموضوعات التى حظيت باهتمام كثير من الباحثين . ويهمنا هنا أن نذكر بايجاز طبيعة وظيفة الثأر وتأثيراته المختلفة على البناء الاجتماعى للمجتمعات البدوية .

وقد كانت عقوبة القاتل فى المجتمعات القديمة هى الثأر . ولما ظهرت بوادر المال فى مجتمع الصيد حلت الدية الى جوار الثأر بصفة اختيارية ، ولما كثرت الثروة فى مجتمع الرعى أصبحت الدية اجبارية يرغم أهل القتيل على قبولها ويحرم عليهم الأخذ بالثأر ، وتتكون الدية من عدة أبقار تزيد عادة على العدد المكون لمهر المثل . ولكن الجزاء

الوحيد للقتل لدى شعوب الجمع والقنص هو الثأر ، حيث يقع واجب الأخذ بالثأر على عاتق أقرباء القتيـل على حسب درجة قرابتهم منه ، وتتضامن جماعة المجنى عليه وتعاونه على الأخذ بالثـأر • أما بالنسـبة للمجتمعات الرعوية فان الثأر يعتبر أحد صور الجزاء على القتـل حيث توجد الى جواره عدة صور يمكن ايجازها على النحو الآتى :

١ ـ القصاص Talioun :

وتقوم به القبائل التى تخضع لسلطة مركزية قوية حيث تمنع هذه السلطة الالتجاء الى الثأر كجزاء على القتل ، وهنا يتحتم على أهل القتيل ألا يمارسوا الانتقام بأنفسهم بل عليهم أن يلجأوا الى أمير القبيـلة أو رئيسها حتى يحيل موضوعهم الى الهيئة القضائية المختصة بالنظر فى جرائم القتل ـ وهى عادة أعلى مستوى ـ لتتخذ الهيئة فيها ما تراه مناسـبا طبقـا للظروف المختلفة لجريمة القتـل ، وغالبـا ما يكون الاعدام هو القصاص من القاتل ، وتكاد حتى طريقة اعدامه أن تكون مماثلة للطريقة التى ارتكب بها جريمته •

٢ ـ التعويض Compensation :

يهدف التعويض أساسا الى تمكين أهل القتيل من مواجهة الخسارة التى ألمت بهم نتيجة فقد هم واحدا منهم ، وقد يكون ذلك التعـويض دية أو اضافة القاتل نفسه أو أحد أعضاء أسرته ليتبنى بمعرفة أسرة القتيل تعويضا لهم عن راحلهم ، وقد يتخذ التعريض صـورة أخرى كأن تقوم جماعة القاتل بتقديم واحدة منهم ليتزوجها أحد أفراد أسرة القتيل لتكون الذرية المنجبة عن طريقها خير عوض عن القتيل خصوصا اذا ما كان فى مقتبل العمر •

هذا وقد عرفت التقاليد البدوية العربية أن للقتيل وليا أو صاحب

دم يطالب به ، ويكون حقه فى هذا الشأن معترفا به من الجميع ويكون لذلك الولى سلطانا ، أى حقا وواجبا ، ولقد أشار القرآن الكريم الى ذلك المعنى صراحة خلال احدى آيات سورة الاسراء حيث ورد فيها قوله تعالى : (ولا تقتلوا النفس التى حرم الله قتلها الا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل انه كان منصورا) .

ولقد قضت الأعراف البدوية أن يكون الولى أو صاحب الدم واحدا من عصبة القتيل ومن أقرب الناس اليه ، واذا لم يكن للقتيل أب أو ابن أو أخ قادر على الثأر له فان ذلك يكون مسئولية رئيس العائلة أو الفخذ أو البطن على اعتبار أن الدم دم الجماعة كلها والثأر ثأرها .

والى جانب الثأر كنوع من أنواع القصاص يوجد أيضا «العقل» وهو توزيع وجمع الدية عن قتيل اذا ما تم الصلح اما بالتراضى أو بحكم القضاء البدوى ، وبهذا يمكن دفع دية القتيل والكف عن طلب الثأر له ، والقاعدة أن تجمع الدية من ذوى القربى مقابل الدم الذى أراقه واحد منهم ، على أن تدفع هذه الدية الى أهل القتيل وذوى قرباء الذين من حقهم المطالبة بدم القتيل والثأر له حيث توزع عليهم ، وفق الأنصبة الخاصة بذلك .

والدية مقبولة لدى البداوة العربية خصوصا فى حالات القتل الخطأ ، كما تدل على ذلك احدى آيات سورة النساء حيث قال الله تعالى : (ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة الى أهله الا أن يصدقوا فان كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وان كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة الى أهله وتحرير رقبة مؤمنة ..) .

يتضح أن الثـــأر أو نظام عداوة الدم يحقق عدة أهداف اجتماعية ونفسية وعقائدية يمكن ايجازها على النحو التالى :

(ا) اشباع رغبة الوحدة القرابية للقتيـــل فى الانتقـــام ، وبالتـــالى استردادها لهيبتها وكرامتها .

(ب) اعادة التـــوازن الاجتماعى المفقود بين الوحدتين القرابيتين للقاتل والقتيـــل ، حيث أدت جريمة القتـــل الأولى الى انقاص الجماعة (ا) مثلا شخصا واحدا ، وعلى تلك الجماعة أن تقتص لنفســها بقتل شخص ما من الجماعة (ب) حتى تنقص واحدا ، وبالتـــالى يسترد ما بين الجماعتين من توازن تقليدى .

(جـ) تحقيق راحة القتيل واسترضاء روحه بالقصاص من القاتل لأن هذه الروح سوف تظل ــ فى اعتقاد مجتمعات بدوية كثـيرة ــ هائمة حول قاتلهـــا ترشد طلاب الثأر اليه ، ولن تهدأ أو تهجع قبـــل الثـــأر لهـــا .

ومن هنا كانت وظيفة الثأر الهامة على اعتبار أنه الأداة التى يمكن عن طريقها المحافظة دوما على الوضع التقليدى أو الوضع المتـــوازن ، أو العودة الى ذلك الوضع اذا ما أصابه أى خلل نتيجة لحدوث القتل .

هذا مع ملاحظة أن تجمعـــات بدوية كثيرة لا تعتبر أن قتـــل رجل غريب منتم الى جماعة خارجية عنها أو عن مجتمعها ، لا يعتبر قتله جريمة تستوجب الثأر ، اذ أن هذا الغريب الذى لا بيت له ولا يشارك فى أخوة يعد فى نظر هذه المجتمعات خارجا عنها أو بعيدا عنها ، وهو بالتالى خارج لذلك عن حماية القـــانون القبـــلى وليست له أية مطالب أو حقـــوق ،

وبالعكس من قتيل الجماعة ذاتهـا فله كل الحقوق على أقرب أقربائه أن يثأر له الا اذا كان للجماعة القرابية رأى آخر فيمن يطلب الثأر •

رابعا ــ وأد الأطفـال :

(ا) وأد الأطفال كظاهرة عرفته مجتمعات بدوية كثيرة ، وان ظل بعضها يمارسه حتى وقت قريب ، حيث ان الوأد يوجد فى بعض المجتمعات كأحد وسـائل تحديد النسـل ، وأن الوأد يشمل الأطفال الذكور والاناث على حد سـواء ، وأن سبب الوأد يعود أصـلا الى حالة الأسرة الاقتصادية ومدى قدرتها على تحمل أعباء الطفل الوليد ، وأن طريقة الوأد تكاد تكون واحدة لا تتغير وهى خنق الطفل عقب ولادته مباشرة وأن الذى يصدر قرار الوأد هو رب الأسرة وحده• وفى مجتمع الاسـكيمو يمارسـون عادة وأد الأطفـال خصوصا الاناث ، وذلك بسبب سوء الحالة الاقتصـادية ، وأن عشائر بدوية كثيرة عرفت الوأد كنظام ولكنها اختلفت فيما بينها فى وجوه تطبيقه حيث ان أعدادا كثيرة من تلك العشائر كانت تختص البنات بالوأد فى حين كان بعضها يصطفى البنين لهذه المهمة ، وان كانت عشـائر أخرى تتخلص من أبنائهـا دون النظر الى كونهم ذكورا أو اناثا ، كما أوضح أن لنظام الوأد أسبابا بعضها اقتصادى وبعضها اجتماعى وبعضها الآخر دينى حيث كانت البنت تعتبر لدى بعض العشـائر العـربية مثلا رجسـا من عمل الشيطان أو من خلق اله آخر غير آلهتهم ، لذلك وجب التخلص منها ، وكان لذلك التخلص طريقـة واحدة هى أن يحفـر الى جوار الموضـع الذى اختير لولادة الأم حفرة عميقة فاذا ظهر أن المولود أنثى قذف بها حية عقب ولادتهـا مباشرة فى هذه الحفرة ثم هيل على جسمها التراب ، وان كان بعض العشائر يلجأ الى وأد البنات فى أماكن خاصة بعيدة عن منازلها •

(ب) وعموما يمكننا أن نحدد ملامح ظاهرة الوأد من واقع حياة المجتمعات البدوية القديمة أو المعاصرة على الوجه التالى :

١ ــ ان البدو لم يكونوا يفرقون فى الوأد بين الذكور والاناث ، بل يتعلق الأمر بأسباب وظروف كثيرة منها ما يتعلق بكل أسرة صغيرة على حدة ومنها ما يرتبط بالمجتمع البدوى ككل .

٢ ــ انه توجد الى جوار الأسباب الاقتصادية أو القيمية « كالشرف » للوأد أسباب أخرى دينية أو عقائدية كاعتبار البنت رجسا من عمل الشيطان أو هى من غير طينة البشر ، أو اعتبار الطفل الموءود ــ ذكرا كان أو أنثى ــ قربانا يقدم للآلهة اما وفاء لنذر أو استجلابا لرضاها .

٣ ــ ان الوأد كان يتم فى معظم الأحيان بطريقة الخنق سواء بدس الطفل فى التراب أو بوسائل أخرى مشابهة ، وان كان الأطفال يذبحون أحيانا فى حالات تقديمهم قرابين للآلهة وضمن حفلات طقوسية وشعائرية خاصة .

٤ ــ انه لم يكن هناك أى اعتراض ــ ظاهر على الأقل ــ على الوأد حتى من قبل الأم ، بل على العكس فقد ثبت أن بعض الأمهات كن يمارسن الوأد بكامل ارادتهن .

٥ ــ لو عدنا الى القرآن الكريم لوجدنا أنه يوضح بكل جلاء ظاهرة الوأد فى المجتمعات البدوية العربية قبل ظهورالاسلام ، وقد سجل عليهم القرآن الكريم من وأدهم للبنات فى قوله

تعالى : (واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسـودا وهو كظيم • يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسـكه على هون أم يدسـه فى التراب ألا سـاء ما يحكمـون) • فأكبر الظن أن من كانوا يصـنعون ذلك منهم أجلاف قساة القلوب كانوا يخشون عليهن من الفقر أو السبى •

* * *

الفصل الثالث

الشخصية البدوية

الظواهر الفردية للشخصية البدوية :

سنحاول فيما يلى أن نتعرف على بعض الخصائص الفردية أى تلك الخصائص التى تتصل بالانسان الفرد فى المجتمع البـدوى ، وقد تنطبق هذه الخصائص والمقومات على أفراد كثيرين فى المجتمعات البدوية المحلية المتعددة ، فتصبح بذلك ظاهرة ولكنها فردية .

والفردية كظاهرة ليست موجودة فى المجتمعات البدوية بشكل سائد ولكن السائد هناك هو الجماعية . وقد يبدو كثير من الخصائص فردية فى مظهرها من حيث الأداء والسلوك ولكنها من حيث الوظيفة أو التـأثير تكون خاصية جماعية .

والشىء الوحيـد الذى يمكن اعتباره خصائص ومقومات فردية فى المجتمعات البدوية هو ما يتصل بالفروق الجسمية والعقلية والبيولوجية بين الأفراد .

وقد تصور ابن خلدون فى دراسـاته الشخصية البدوية فى تحويره للخصائص والمقومات النفسية والاجتماعية للشخصية البدوية وارتكز فى ذلك على مجتمعى العرب والبربر وما فى معناهما ــ فى حد تعبيره ــ ولقد جمع ابن خلدون خلال تحويره للخصائص البدوية الفردية كل المتناقضات « فالبدو ــ عنده ــ شجعان ولكنهم نهابون لأموال غيرهم من النـاس ، وعلى خلق قويم ومتين ولكنهم قطـاع طرق ، وهم أهل فطرة يبغضـون الابتذال والتسفل ولكنهم ليسوا أهل علم ولا فن ولا صنعة » .

متناقضات حوتها خصائص البداوة عند ابن خلدون ، الذى أحس على ما يبدو بمدى هذا التناقض ، فقرر أن هذه المتناقضات ليست من صنع البدوى وانما هى من صنع الطبيعة وقال : « ان الانسان ابن عوائده ومألوفه لا ابن طبيعته ومزاجه ، فالذى ألفه فى الأحوال حتى صار خلقا وملكة وعادة تنزله منزل الطبيعة الجبلية » .

وواضح أن ابن خلدون يريد أن يقول ان ما ذكره من خصائص للبداوة ــ تتساوى فى ذلك الخصائص الفردية والجماعية ــ ليست من صنع البشر بقدر ما هى من صنع الطبيعة المحيطة بهذه البداوة .

وقد يكون الشيء الملفت للنظر فعلا عند ابن خلدون ، أنه لم يذكر خصائص البداوة منفردة ، وانما ذكرها بالمقارنة بالخصائص الحضرية السائدة آنذاك ، وبين أن خصائص كل من البدو والحضر تكاد تكون متنافرة تماما ، فاذا كان البدوى شجاعا لا يهاب الموت فالحضرى جبان يؤثر الدعة ، واذا كان البدوى متوحشا فالحضرى مترف ، واذا كان البدوى طيب الخلق فالحضرى متسفل أفسدته الحضارة وجعلته رخوا مخادعا وكذابا ، واذا كان البدوى يدافع عن نفسه بحد السيف ويفزع لكل هزة فان الحضرى قد أوكل أمر الدفاع عن نفسه الى الدولة ولدرجة أنه ــ أى الحضرى ــ قد يستأجر من يتولى عنه هذه المهمة ، واذا كان الحضرى أهل علم وصنعة فالبدوى يكره العلم ويبغض الصنعة ، واذا كان الحضرى يحترم حقوق الغير ويخاف السلب والنهب ، فالبدوى لا يؤمن الا بغلبة السيف ويمجد السلب والنهب كمظهر من مظاهر القوة والغلبة والشجاعة والسلطان .

ويتضح من ذلك أن ابن خلدون قد جمع فى الشخصية البدوية الكثير من المحاسن والمساوىء معا ، حيث ضمنها صفات الشهامة والكرم

والعفة والصراحة والوفاء والصـدق والتكافل والتعاضـد والتلاحم ، والتدين ، وضمنها أيضا احترام السلب والتخريب وتقـديس القوة بكل مظاهرها واحتقار العمل ــ خاصة البدوى منه ــ فضلا عن زهد البدوى عن العلم والصناعة •

وقد كتب باحثون آخـرون اهتموا بالشخصـية البدوية وأبرزوا خصائصها ومقوماتها ومنهم من تصدى للكتابة عن الشخصـية البدوية العربية بغير تخصص أو منهج علمي واضـح ومنهم من حاول أن تكون دراسته مرتكزة على نوع من الأسس العلمية قدر الامكان • ومن هؤلاء الكتاب « لورانس وجارفيس وويكسـون وبيرجو وليرنر ويفـوس ، ومانير وغيرهم » ••

قد أوضح بيرجر أن البدوى العربى شـديد التقدير لذاته الى حد المبالغة ، الا أنه مع هذا شديد الانصياع لقبيلته ولمعـاييرها الجماعية • كما أن المروءة والشهامة والكرم من أبرز سمات البدوى العربى •

كما بين بيرجر أيضا احتقار البدوى العربى للعمـل اليدوى ، وأن البدوى العربى متدين جدا وصبور الى أبعد حد ، ولعل هذا الصبر هو أحد وسائل البدوى للتغلب على ظروف البيئة القاسية •

ونعتقد ــ كغيرنا ــ أن فى الشخصية البدوية العـربية الكثير من الايجابيات التى يجب الحرص عليها وتنميتها ، كما نوى فيها كذلك بعضا من السلبيات التى يجب القضاء عليها واستبدالها بخصائص أخرى أكثر ايجابية ، وأن عملية الاسـتبدال هذه ليست مهمة سـهلة خصوصا اذا ما عرفنا أن الشخصية بصفة عامة هى نتائج عوامل كثيرة اجتماعية وبيئية ونفسية وحضارية ، بل بيولوجية أيضا وأن من هذه الخصائص ما يورث وأن منها ما يكتسب •

مظاهر الحياة البدوية :

١ ـ حياة البادية :

يتبع البدوى الحقيقى برنامجا منتظما لا شعوريا الى جانب تواجده الطبيعى فى الصحراء ومعرفته التامة بأن الغد قد يأتى له بخير أو شدة قد يضطره الى الرحيل حيث الماء ، وهو يتبع روتينا معينا خاصة عند ترحاله فى خلال العام فى الخريف أو الشتاء والربيع أو الصيف . والفرق الكبير بين بدوى البادية وغيره أن حياته غير أكيدة من يوم لآخر . فهو يواجه الخطر كل يوم ويحيا يومه الحاضر . ومن ثم يضع ثقته الكاملة فى الله الذى يحميه من عدوه ويسبب له رزقه ويقدر له مصيره .

٢ ـ الديرة :

لكل قبيلة بدوية ديرتها الخاصة أو مجتمعها القبلى . والقبيلة تعيش فى الديرة متجاورة ومتقاسمة فى المرعى والماء ، وهى تنتقل حيث العشب والماء ثم تتوقف فى الديرة من وقت لآخر . ولذا فهى تعقد الأحلاف مع القبائل الأخرى للرعى فى ديارهم والتعاون معهم . وفى السعودية تضع الدولة قوانين صارمة لمنع الحروب بين القبائل ، ولكن فى مناطق أخرى عند ما تنام هذه الرقابة فان الحرب تشتعل بين هذه القبائل . ويعتبر البدوى هذه الحروب والغارات فرصة لاظهار شجاعته وللاثراء وتبادل الجمال . وفى حالة السلم يتجول البدو فى الديار الخاصة بقبائل أخرى بحرية وقد يذهبون الى البلدة لقضاء حاجاتهم اليومية .

٣ ـ التنقلات الموسمية :

فى شهور الصيف يتجه البدوى الى الشمال الشرقى ويتمركز عند آبارها وتكون القبائل متجاورة وترعى الماشية والقطعان فى الجوار وتسقى يوميا . ويقابل الجميع صعابا جمة خلال الصيف . وعند بداية موسم الأمطار يستعد البدوى لدورته السنوية الكبرى التى تأخذ شكلا

دائريا ، وهم فى ذلك يهتدون بالبرق والسحب الداكنة . ويتجهون الى حيث العشب والماء الوفير ، ويرعون ابلهم فى سعادة تامة ثم تتم الدورة ويتجهون الى ديرتهم مرة أخرى لقضاء فترة الصيف الحزينة .

ويكتسب البدوى خلال هذه الهجرات من الخبرة بالطبيعة وأحوالها ما يجعله يتنبأ بأى خطر أو تغير فى الجو بأيام فهو كما يقال يشم الخطر ويستعد له تحت قيادة شيخ القبيلة .

٤ ــ الشياخة وكيفية الاحتفاظ بها :

يحتفظ الشيخ بمركزه غالبا بالوراثة وتبقى ، الأسرة ويجب على المرشح لهذا المنصب أن يتصف بشجاعة فائقة ، وقدرة على القيادة ، وأنه محظوظ ويجب أن يحمل الرأى العام للقبيلة ويأخذ رأى الجميع خاصة كبار السن والشيوخ . وفى النهاية فان رأيه هو الذى يجب أن يطاع . ويجب أن يكون والدا لجميع أفراد القبيلة فى زمن السلم ويفتح دياره للجميع بشهامة وكرم .. فلا يمكن أن يكون شيخ القبيلة بخيلا ولا يمكن أن يتصف البدوى بهذه الصفة عامة .

٥ ــ الحياة الصعبة للفرد البدوى :

ان البدوى العادى يقود حياة صعبة ويمكن القول بأنه يكون جوعانا ويشعر بالعرى فى فترات طويلة . وقد يدفعه ذلك للسرقة أو للاغارة .. ولكن ابن سعود يمنعه من ذلك الآن .. فحياة البدوى العادى معدم عامة ، وغذاؤه الدائم بعض اللبن والتمر والثريد ، وملابسه تكاد تكون مثل طعامه بسيطة ولكنها كافية لتغطية جسمه النحيل وتقيه برد الشتاء وحر الصيف . ويحلم البدوى بأن يمتلك درزن من الجمال ثم زوجة ثم قطيعا من الماشية أوالغنم ، ولكنه غالبا يبدأ بالبندقية والذلول . هذا ولبدوى الصحراء سحره الخاص وطباعه السمحة وعرفانه بالجميل وهو طفل للطبيعة . ويحكمه فخر خاص بشرفه وعزته والذى يقدسه

أكثر من حيـــاته • وهو يقدر بالتـــالى شرف الأسرة الذى يطلق عليه « العرض » والذى يصلح أى خطأ فيه ســوى الدم • ويعتز البـــدوى بكرمه ، فمهما كان فقيرا معدما فسوف يذبح آخر جماله لاكرام الضيف أو الضيوف • وهو يقدم اللبن للضيوف علامة الترحيب •

٦ ــ اخطاء البدوى :

لرجل البادية أخطاؤه فهو لا يهتم بالنظافة ــ خاصة ملابسه ــ وهو يدهن جسمه بدهن الجمل ولكن أجزاء خاصـــة تظل نظيفة • والبدوى غيور وحسود بطبعه خاصة فيما يتعلق بأسرته • وقد يتميز بعضهم بالطمع الزائد عن الحد •

٧ ــ فضـــائله :

البدوى الحقيقى عميق الايمان بالله •• وحياته الشاقة فى البـــادية تضفى عليه ثوب القوة والشجاعة • وهو محب لزوجته ويتبع ناموســا خاصا فى الحياة بأولويات محددة : فواجبه الأول والأســاسى هو رضاء الله ، ثم حمـــاية دياره وجيرته ، ثم مراعاة أصـــول الضيافة والكرم ، ثم اكرام رفيق السفر ثم مراعاة أصول الوجهة ، ثم الاغارة اذا أمكنه ذلك والاحتفاظ بما اكتسبه • والاغارة ليست خطأ ولكنها مهارة وشجاعة •

٨ ــ المرأة البدوية :

عند النظر الى المرأة البدوية نظرة عامة فانهـــا على جانب كبير من السحر والجمال الطبيعى لحواء الأصيلة غير المصـــنعة والتى لا تعـــرف الكثير عن العالم أو المدينة الا ما تسمع من حكايات عنها • ولها صفات الطفولة البريئة وهى غيورة شـــديدة الحب شديدة الكراهية شـــديدة التضحية • تحب الأطفال وتفنى فى حب زوجها • والفتاة البدوية لا تقرب أى مجتمع للرجال خارج الأسرة ، ولكن المتزوجات لهن حرية أكبر نوعا

مع الأسرة الكبيرة • وهن حريصات على سمعتهن لدرجة كبيرة ، وقد تسمع بعض الحديث عن النواحى الجنسية بحرية حيث تشاهد عمليات التزاوج بين الابل والماشية وعمليات الولادة يوميا تقريبا • وعموما فان المرأة البدوية على أخلاق عالية وغالبا ما تتزوج ابن عمها أو يكون زواجها عن حب صادق ممن تحب وهى فى ذلك غاية فى الصراحة •

٩ ــ طهارة النساء :

ان الحصول على النساء كزوجات فى البادية عملية مرة وسارة فى نفس الوقت • وقد يكون هناك حالات طلاق لأسباب تافهة ولكن ليس لذلك أهمية تذكر ، فاذا كانت المرأة جميلة ومن أسرة كبيرة فسوف تجد من يتزوجها بسرعة • والمرأة تحتفظ بالأطفال حتى سن الثامنة ثم يسلم الأولاد لآبائهم • وهى « كأم العيال » وراعية البيت تحافظ على اسم الأسرة وشرفها وسمعتها خاصة عند تواجد الضيوف • وهى لا تخالط الغرباء ولكنها تعرف كل ما يدور فى الخيمة وتراه اذا أحبت ذلك • ولا يذكر اسمها قط وتسمى « أم العيال » والشابات لا يمكن ظهورهن على غرباء قط ، ولأفراد معينين فقط قريبين جدا من الأسرة • وقد تكون هناك بعض الروايات عند الزواج من باب الضحك والمرح فقط ولكن اسم الزوجة لا يذكر مطلقا •

وتظهر قداسة أو طهارة المرأة ورفعتها عند الحرب أو عند الضيافة بين قبيلتين • فهى تشجع أهلها على الحرب والقتال والنصر • وفى حالة الغارات قد يقتل البدو بعضهم وتشرد الأولاد ولكن النساء فى خيمتهن لا تمس شعرة واحدة منهن ويجلسن فى حزن عميق وبكاء صامت • فهذا قانون البادية وخرقها امتهان لشرف فاعلها وحط من قدره وهو عنده أشد من الموت •

١٠ ـ شرف العـرب :

الضيوف وقواعد الضيافة فى البدو : يعتبر الضيف شخصا متميزا عند البدو حتى ولو كان غريبا تماما • والضيف يحظى بالمـأوى والمأكل والحمى • وعلى الضيف أن يراعى حرمة الديار ويقترب من أمام الخيمة أو المنزل وليس من خلفها • ويقدم للحضور ويعطى اللبن ليشربه ويروى ظمأه وتختلف المقابلة على حسب وضـع الضيف فاذا كان شـيخا تعلق الرايات وهكذا • ويمضى الضيف ثلاثة أيام فى الضيافة •

١١ ـ الهـدايا :

قد يتبادل الضيف الهدايا مع مضيفه قبل الرحيل وفى ضيافة الملوك والأمراء قد تسـتمر الفترة الى عشرة أيام • وتـكون الهـدايا لـكل لموجودين • وتكون عادة فى شكل بن أو أرز أو سـكر أو قماش من الحرير •• الخ • وتعتبر هذه الهدايا هامة فى مجال الضيافة خاصـة فى القبائل المعروفة بمراكزها •

١٢ ـ رابطة العيش والملح :

لكى تأكل مع شـخص ما فان الضـيف يكتسب أمنـا طبيعيا من الشخص الذى أطعمه وكذلك القبيـلة جمعـاء لمدة ثلاثة أيام حتى ولو شربت القهوة فقط • وتأتى فترة الثـلاثة أيام من فكرة أن الأكل يبقى فى المعدة ٣ أيام •

١٣ ـ حماية العدو الذى استسلم :

تتم حمـاية البدوى الذى استسلم فى غارة ما وأخذ فى الأسر وهو يعـامل معاملة طيبة ويقول الأسـير : « يا فلان أنا فى وجهك » ويجيب الآسر : « أنت فى وجهى » وتطبق نفس قوانين الدخالة •

١٤ ــ الرفيق أو الخادم :

تتشابه هذه القوانين مع قوانين الضـيافة فالرفيق أو الرفاق هم فى ضيافة القبيلة جمعاء وليس لفـرد فقط • وقد يقوم الرفيق بعمل لقـاء أجر ما ، وغالبـا ما يكون عمـله مرافقة الغـرباء خلال الديار بقصد العبور مثلا •

١٥ ــ الجـوار :

فى البادية يعتبر الجار فى حمى الله وحمى جاره وله حقوق شرعهـا الله ، ومن العرف أنه اذا ضرب أحدهم خيامه بجوار خيام أخرى فهم فى جوار وغالبا ما يتم اسـتئذان شيخ القبيلة أو رب البيت قبل الحط فى جوارهم • وعند القوم يكون القادم ضيفا على القبيلة حتى تستتب أموره وهو يتمتع بجميع حقوق القبيلة •

***

الملامح العامة للشخصية البدوية :

على ضـوء الشرح السـابق يمكن تحـديد أهم الملامح العـامة للشخصية البدوية فيما يلى :

أولا ــ احتقار البدوى للعمل اليدوى :

هذه الخاصية أكدتها دراسـات كثيرة خصوصـا لدى المجتمعات البدوية الرعوية ، وفى البداوة العربية فان البدو كانوا يحتقرون الصنعة ويعيبون المتهن لحرفة ما ، ولقد صـارت هذه الخاصـية احدى القيم البدوية السـائدة لدى كثير من المجتمعات البدوية الرعوية • وحتى مع تغير الظروف الخاصة بالبداوة العربية واضطرار بعض البدو الى امتهان أعمال ما ، فانهم يفضلون أعمالا معينة تحددها فى الغالب قيمهم المرجعية ،

والتى من أهمها احتقارهم للعمل اليدوى كأن يفضلون أعمال الحراسة أو قيادة السيارات وما اليها ، ولا شك أن هذه الخاصية ـ خصوصا فى البداوة العربية ـ تعود أصلا الى تصور البدوى لخصائص الرجل ولمكانته ودوره فى المجتمع البدوى .

ثانيا ـ حب البدوى للحرية :

وتتجلى هذه الخاصية أيضا لدى البدويين ، وهى خاصية مستمدة من الظروف البيئية المحيطة بهم ومن طبيعة التجوال ذاته ، المهم أن البدوى والراعى بالذات لا يقبل قيدا على حياته ، وان كان بغير شك يخضع للجماعة فى كل ما يتصل بالأمور الجماعية الا أنه لا يمكن أن يقبل أى قيد يحد من سلطانه خصوصا فى الأمور التى تتصل بأسرته ونفسه .

ثالثا ـ وفاء البدوى للعهد :

والوفاء كخاصية موجودة لدى مجتمعات بدوية كثيرة خصوصا العربية منها ، لأن الوفاء بالعهد يعتبر دينا واجب الأداء من جهة ، ويستحق من جهة أخرى أن تهون فى سبيله النفس والمال والولد ، والتاريخ العربى يفيض بأروع قصص الوفاء بالعهد .

وخاصية الوفاء هذه تشكل احدى القيم الأساسية فى المجتمعات البدوية العربية خصوصا بما يستتبعها من ثقة وأمانة سواء عند المعاملات الاقتصادية المختلفة أو عند تصريف أى أمر من الأمور الدنيوية الفردية أو الجماعية .

هذا ولقد ارتبط بخاصية الوفاء مجموعة أخرى من الخصائص كالكرم والمروءة والشجاعة والاجارة والنجدة وما اليها ، ونظرة سريعة لأى من الخصائص نجد أنها نشأت كرد فعل للظروف البيئية الصعبة التى

يحيـــاها البدو ، أو بمعنى آخر أنهـــا نوع من تقدير البدوى للظروف القاسية التى يحيـــاها هو أو أى بدوى آخر يحيا تحت نفس الظروف أو ظروف أخرى مشابهة ، لذلك فهو يتوقع ـ بفعل خاصية الوفاء ـ أن يعامل بالمثل اذا ما تعرض لظروف تستوجب اكرام وفادته أو نجدته أو حمايته اذا ما حل به مكروه بفعل الطبيعة أو الانسان •

رابعا ـ البدوى شديد الذكاء :

الذكاء كخاصية موجودة لدى البـــدو فى كل المجتمعات البدوية ، ولكن نسبة الذكاء تتفاوت بين بدوى وآخر بنفس النسبة التى تتفاوت فيها بين حضرى وآخر ، وان كانت بعض الدراسات التى أجريت فى بعض المجتمعات البدوية قد انتهت الى أن البدوى قليل الذكاء أو أن ذكاءه على أحسن الفروض ذكاء من نوع خاص ، الا أننا نرى أن تلك النتائج وغيرها من النتائج المشابهة والتى قللت من ذكاء البـــدوى ، انما هى فى الواقع نتائج قاصرة أو مغرضة ، لأنها أولا لم تستخدم من الأدوات والمقـــاييس ما يجعل نتائجها فوق مســـتوى الشك ، وثانيا لأن تلك البحوث لم تجر على كل المجتمعات البدوية بحيث يكون لنتائجها تلك الصفة التعميمية •

ونحن وان كنا نعترف مقدما أننـــا لم نقم ببحوث ميدانية لقيـــاس ذكاء البدو ، كما أنه لا توجد تحت أيدينا حاليا نتائج لمثل لهذه البحوث الميدانية نثق فيها حول ذكاء البدو ، الا أننـــا نقرر من واقع معايشـــتنا لمجتمعات محلية بدوية كثيرة أن البدوى شديد الذكاء ، ولســـنا بذلك نقرر شيئا غير واقع ، وانما نتفق فى هذا مع كثير من الباحثين •

خامسا ـ البدوى يدين بالولاء لقبيلته أيا كان مكانها :

من أهم خصائص البدوى ـــ العـــربى بالذات ـــ أنه يدين بالولاء لجماعته القرابية ـــ خصوصا قبيلته ـــ أيا كان مكانها ، ويتشرف بالانتماء اليها ، ويحفظ التسلسل القرابى لقبيلته عن ظهر قلب ، ويتمســـك بكل

العادات والتقاليد والقيم التى تدعم صلته بها وتزيده قربا منها على الرغم من المسافة التى تباعد بينه وبينها ، وفى المنطقة العربية نجد أبنـاء القبيلة الواحدة قد تفرقوا الى داخل حدود أربع دول مستقلة مثلا ، ولكن متى سألت البدوى عن نفسه يقول لك دون ابطاء وبغير تفكير انه فلان من قبيلة كذا وكذا •

ومن هنا كان القول بأن ولاء البدوى لا ينصرف الى المكان وانما يعود الى الزمان بكل ما فيه من أنساب وعادات وتقاليد وقيم •

سادسا ــ احترام البدوى للسن وتقديره الشديد لها :

والمقصـود هنا بالاحترام هم كبار السن ، نظرا لما تمثله السـن المتقدمة من خبرة وحنكة ودراية بمختلف أمور الحياة البدوية ، خصوصا وأن الخبرة فى هذا المجـال تكون هى البـديل الطبيعى للعلم المفتقد فى المجتمعات البدوية •

سابعا ــ نظرة البدوى غير المحدودة للوقت والمسافة وعدم تقديره الادخار :

ويعود ذلك للفراغ الضخم ولانتشار ظاهرة البطالة المقنعة ، حيث أدى ذلك الى عدم تقدير البدوى لأهميـة الوقت ، فالذى لا ينجز من عمل اليوم يمكن أن ينجز غدا أو بعد غد أو حتى بعد شهر فالدنيـا لن تطير ، وكذلك فان البدوى فقد حساسيته بالنسبة للمسافة ، فالصحراء أمامه موحشة وقاتلة ولو سار فيها عمره كله فلا هو مدرك لها قرارا ولا نهاية لذلك فهو يلجأ للتهوين على نفسه وذلك بالتقليل من طول المسافة كأن يقول لك هذه « فركة كعب » أو « رمية حجر » مثلا ان أراد التعبير عن مسيرة يوم وليلة •

وكذلك الحال بالنسـبة للادخار ، فليس له مكان عند البدوى ،

وربما كان ذلك راجعا الى عدم وجود ما يدخر أصــلا أو الى بروز قيم الكرم والضيافة وما اليها •

هذا ولقد أحاط البــدوى ذلك كله بمجموعة من القيم والأمثــال الشعبية والحكم التي تمجد ذلك كله ، وتحافظ عليه ، ولو أخذنا الادخار كمثال لوجدنا مجموعة من الأمثلة تحض على عدم الادخار مثل « رزق يوم بيــوم والرزق على الله » أو « كل نهار ورزقه » أو « اصرف ما فى الجيب يأتيــك ما فى الغيب » أو « فقر بلا دين هو الغنى الكامل » أو « العز مع القــلة خير من الكثرة مع الذل » أو « خذ الأصيل ونام على الحصير » •

ثامنا ـ البدوى عاطفى ويتأثر بالعلاقات الشخصية والمظهرية :

والمقصود هنا بالعاطفية هو عدم الاتزان الانفعالى ، فمشاعر الحزن والفرح والغضــب يمكن أن نلاحظ بســهولة على البدوى حيث تبدو واضحة عليه بغير تخف أو مداراة فضــلا عن مغالاة البدوى ســواء فى حزنه أو فرحه •

كما أن البدوى ـ العربى بالذات ـ يتأثر كثيرا بالعلاقات الشخصية والمظهرية ، فزيارة له فى خيمته أو بيته أو وصــفه بأكرم الصفات ـ أو لقاءه بقول معسول أو بتحية مبالغ فيها ، كل ذلك أو بعضه كفيل بفتح مغاليق أبوابه وجعله يصفح أو يمنح بغير حساب ولم لا ؟ •• أليس هو القائل : « لاقينى ولا تغدينى » !

تاسعا ـ البدوى يقدر القوة ويحترم الشجاعة :

تحظى مختلف مظاهر القوة والشجاعة بتقدير البدوى واحترامه بصرف النظر عن أهداف تلك المظاهر أو منجزاتها ، بمعنى أن البدوى قد

لا يكون شجاعا فى حد ذاته ولكنه يبجل غيره من الأقوايا سواء كانت فى خدمة المجتمع أو ضد أهدافه ، وهذا التقدير ليس وليد الخوف بقدر ما هو نابع من احساس داخلى بالاحترام .

عاشرا ــ الاستجابة البطيئة لدى البدوى لمختلف مظاهر التغيرات الحضارية :

البدوى معروف ببطء استجابه لأية تغيرات تحدث من حوله ، وان بقيت رغبته الكامنة فى مقاومة ذلك التغير ان كان فى مقدوره ، والا فانه يكتفى بالمقاومة السلبية ، ولعل هذا ناشىء عن حرص البدوى على التقديم وحنينه الدائب الى الماضى والى كل ماتركه الآباء ، فضلا عن تخوفه المستمر من المجهول وبما يأتى به الغد ، ومن هنا كان حرصه على عدم المغامرة بما يعرفه فى مقابل ما لا يعرفه وان كان فى الأخير خيره ومصلحته ، وغلف ذلك التخوف من المجهول بمجموعة من الأمثال والحكم تدور كلها حول ان الذى يعرفه خير مما لايعرفه .

حادى عشر ــ البدوى قلق وغير مستقر :

ولعل ذلك القلق أيضا شيء مكتسب من الطبيعة غير المستقرة التى تمنح تارة فيكون عطاؤها بغير حساب ، والتى تمنع فجأة فيكون جفاؤها بغير حد ، ولعله أيضا ناشىء عن الخوف المستمر لدى البدوى وحذره من أن يغدر به الناس أو الطبيعة ، لذلك فهو يفزع عند كل هزة ويلجأ الى حسامه اذا ما استشعر خطرا ما ، وقد يكون خوفه من قوى مجهولة وغير معلومة لديه كخوفه من الأرواح الشريرة مثلا .

ثانى عشر ــ البدوى يمجد الكلمة ويخلبه سحرها :

النشاط الكلامى بصفة عامة يخلب لب البدو ويستهويهم ، ويجعل ممارسيه يحتلون مكانة عالية فى المجتمعات البدوية ، ولو أخذنا البداوة

العربية كمثال لوجدنا الشـعراء والخطباء وحفظة الأنسـاب والتراث يحتلون أعظم المكانات حيث تعقد لهم القيادة والمهابة معا ، واللغة العربية تملؤها عشرات المترادفات للشيء الواحـد ، ومعسـول الكلام يداوى الجراح ، وفصيحه يخلب العقول قبل القلوب ، والحماسى منه يقيم الدنيا ويقعـدها ، ومراثيـه تدمى المهـج ، وحزينـه يقطع الأكبـاد ويدمى العيون ... الخ .



الفصل الرابع

الأنساق والنظم الاجتماعية البدوية

يشير مصطلح « النسق » الى الوحدة الشاملة التى تتألف من عدد كبير من العناصر والمكونات المتفاعلة برغم كثرتها وتناقصها فى بعض الأحيان . معنى ذلك أن كل جزء أو عنصر من العناصر المكونة لذلك « الكل » يؤدى وظيفة من شأنها الاسهام فى تماسكه .

وقد بدأ الاهتمام منذ أوائل القرن الحالى يتزايد بدراسة الوحدات الاجتماعية كأنساق كلية وتحليل مكوناتها لمعرفة النظم التى تتألف منها هذه الأبنية والعلاقات التى تقوم بين أجزائها على أساس أن المجتمع يؤلف نسقا كليا مكونا من أجزاء متفاعلة ومتساندة ذلك التساند الوظيفى الذى يميز الكل التماسك .

واتجه بعض العلماء من أمثال هرتزل Hertzle الى القول بوجود « نظم أساسية شاملة » أو « نظم محورية » والتى تعرف فى الكتابات الاجتماعية والأنثروبولوجية باسم «الأنساق الاجتماعية Social Systeme » وأن كل نسق من هذه الأنساق يتألف من عدد من النظم الاجتماعية Social Institutions فالنسق الاقتصادى مثلا يتكون من عدد من « النظم الاجتماعية » التى تشترك كلها فى نظام وتقسيم العمل ونظام الملكية والانتاج والاستهلاك والتبادل والنقود وما الى ذلك .

وبرغم اتفاق الغالبية العظمى من العلماء على ذلك ، فقد اختلفوا حول تعيين هذه الأنساق أو النظم الكبرى ، كما اختلفوا فى تحديد مكونات كل نسق منها ــ وهذا ان دل على شىء فانما يدل على تداخل الظواهر الاجتماعية وتفاعلها وتساندها .

وعلى أى حال فهناك شبه اتفاق على استخدام اصطلاح «النسق» للاشارة الى النظام الاجتماعى المعقد الذى يمكن تحليله الى عدد من النظم التى يمكن تحليل كل منها بدوره الى بعض النظم الاجتماعية الجزئية أو الى عدد من العلاقات الاجتماعية المتشابكة •

وسنحاول فيما يلى أن نعرض بعضا من الأنساق والنظم الاجتماعية فى المجتمعات البدوية فى ضوء المفهوم الذى أشرنا اليه فيما سبق لكل من النسق والنظام الاجتماعى •

***

نسق القرابة

يعتبر موضوع القرابة من الموضوعات التى احتلت اهتمام علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا ، ومع ذلك فلا زال هذا الموضوع يفتقر الى الكثير من الوضوح • ومما يسترعى الانتباه أن العالم العربى ابن خلدون كان أول من انتبه الى نسق القرابة فى مجال حديثه عن العصبية ووضع أساس نظرية متماسكة نقلها عنه كثير من المستشرقين فيما بعد ، وان لم يقدر لآرائه ما تستحقه من ذيوع وانتشار •

ويستخدم بعض العلماء لفظ القرابة كمرادف لاصطلاح (رابطة الدم) غير أنه فى الوقت الحاضر لا يميل الكثيرون لاستخدام عبارة « رابطة الدم » نظرا لما تشير اليه من دلالات بيولوجية قد تكون مبعثا للالتباس فى مجال الدراسة الاجتماعية •

ويمكن تعريف القرابة بصفة مبدئية بأنها العلاقات المباشرة التى تنشأ بين شخصين نتيجة لانحدار أحدهما من صلب الآخر — كما ينحدر الحفيد مثلا من الجد عن طريق الأب • أو نتيجة لانحدارهما هما الاثنين

من سلف واحد مشترك كالعلاقة بين أبنـــاء العمومة التى ترد الى الجد عن طريق الأعمام .

ويستخدم لفظ « الأقارب » فى الحيـــاة اليومية بطريقة فضفاضة تضم الأصهار الى جانب الأقارب المباشرين الذين تقـــوم بينهم روابط دم . والرأى السائد هو استخدام كلمة أقارب للدلالة على كل الأشخاص الذين ينتســـبون الى نفس السلف ، ســـواء كان هذا السلف رجلا أو امرأة . ومعنى هذا أنه على الرغم من اغفال رابطة الدم فانها عامل هام فى تحديد القـــرابة . وعلى هذا الأســـاس فان التمييز بين (القـــرابة) و (المصاهرة) ناشىء عن التمييز بين الروابط الدموية الطبيعية والزواج وأى دراسة لأنساق القرابة تقتضى بالضرورة دراسة الناحيتين : القرابة بمعناها الضيق السابق الاشارة اليه ، والمصاهرة أى العلاقات الناشـــئة عن الزواج .

وتعتبر الأسرة نواة النظام القرابى كله ، وان كانت روابط القرابة تمتد فى المجتمعات البدوية الى ما وراء حدود الأسرة بكثير ، وتؤلف بناء واحدا متمايزا قد يصل الى درجة كبيرة جدا من التعقيد والتشعب بحيث يشمل معظم أفراد المجتمع وأحيانا يشـــمل المجتمع كله . فى حين يعتبر الزواج بكل التزاماته النواة الأولى لدراسة نظام المصاهرة .

ويمكن التمييز بين نوعين من الأقارب هم :

١ ـــ الأقارب العاصـــبون أى الذين يؤلفون العصـــبة ويرتبطون بعضهم ببعض بروابط القرابة عن طريق الذكور فقط (الأب والابن وابن الابن وكذلك الابنة تعتبر عاصبة بالنسبة لأبيها) وهؤلاء جميعا ينتمون الى عصبة واحدة .

٢ ـ الأقارب عن طريق النساء أو ذوى الأرحام . وتجدر الاشارة الى التمييز بين النوعين السابق الاشـارة اليهما وما يعرف فى الكتابات الحديثة بالقـرابة الأبوية أو القـرابة فى خط الذكور Patrilineal Kinship ، والقرابة الأمومية أو القرابة فى خط الاناث Matrilineal Kinship والاصطلاحين الأخيرين يستخدمان للاشارة الى خط القرابة المعترف به فى المجتمع ، فالقرابة الأمومية تعنى نظام الانتساب الى سلف (أنثى) بحيث يكون تتبع النسب عن طريق النسـاء دون الرجال . فى حين يسـتخدم اصطلاح (ذوى الأرحام) للاشـارة الى الأقارب الذين ينتمون الى مجتمع أبوى ، ويكون نظام الانتساب فيه عن طريق الذكور ، ولكنهم يرتبطون فيما بينهم بروابط قرابة عن طريق النساء .

وتحديد الأقارب بشخص معين يقتضى رد نسبه الى سـلف أعلى قد يعود الى عدة أجيال مضت . وكلما بعد السلف اتسعت دائرة الأقارب بالنسبة لهذا الشخص ، فنظام القرابة نظام متسق من العلاقات يرتبط فيه الأفراد بعضهم ببعض بشبكة من الروابط والصلات .

وكما سـبق أن ذكرنا تعتبر الأسرة أبسـط صور القرابة ، وعلى أساسها تقوم أشكال وصور العائلات الأخرى الأكثر تعقيدا وتركيبا . ومن أهم الأشكال المعقدة :

١ ـ الأسرة المركبة Complex Family :

وهى فى رأى الدكتور أحمـد أبو زيد تقـوم حيث يوجد تعدد الزوجات Polygyny . وهـذه الأسرة ليست سـوى عدد من الأسر البسيطة التى ترتبط معا لتؤلف وحدة قرابية نتيجة لوجود عضو مشترك يربط بينها كلهـا وهو الزوج . وتتميز هذه الأسرة بوجـود نوعين من الاخوة هما الاخوة الأشقاء الذين يشتركون فى نفس الأب والأم ...

والاخوة غير الأشقاء ، الذين ينحدرون من نفس الأب ولكن من أمهات مختلفات ، وقد تظهر الأسرة المركبة مع وحدانية الزوج والزوجة وذلك عندما يتزوج الأرمل (أو الأرملة) وينجب أطفالا من زواجه الثانى •

٢ ـ العائلة الممتدة **Extended Family** :

وهى توجد عندما يبقى الابن فى أسرة أبيه بعد زواجه وانجابه أطفالا • وهنا نجد الابن ينتمى لأسرتين مختلفتين يلعب فى كل منهما دورا مختلفا • فهو ابن فى أسرة أبيه ، زوج وأب فى الأسرة التى كونها بزواجه •

ويمكن أن يمتد التعقيد فى تركيب العائلة يتكون معها وحدات قرابية كبيرة قد تضم الأشخاص الذين يرتبطون معا بروابط القرابة وتعرف هذه الجماعات القرابية الكبيرة عادة باسم البدنة (أو الحمولة) Lineage وقد تعرف أيضا باسم (العيلة) • فالبدنة تتألف من أفراد يردون نسبهم الى جد واحد مشترك (رجل أو امرأة) وينحدرون منه فى خط واحد ، اما أن يكون خط الذكر فى حالة البدنة العاصبة Patrilineage ــ أو خط الاناث فى حالة البدنة الأمومية Matrilineage وهى لا تماثل فى درجة تعاونها وتماسكها فى الحياة اليومية نفس الدرجة التى نجدها فى الأسرة أو العائلة • ويقل التعاون ويضعف كلما زاد عدد أفراد البدنة الذى قد يصل أحيانا الى بضعة آلاف من الناس •

وتوجد مجالات يظهر فيما تماسك البدنة مثل المجالات السياسية وبعض المجالات الاقتصادية التى تعجز العائلة عن أن تلعب دورا فعالا فيها ، وكذلك وقت الشدة والأزمات وخصوصا عندما يتعلق الأمر بالدفاع عن النفس ضد جماعات أخرى •

وغالبا ما تسمى البدنة باسم الشخص الذى ينتسب اليه الأفراد • وكثيرا ما يكون الانتماء الى بدنة معينة من دواعى التفاخر • ولذا يحتفظ

الأفراد فى المجتمعات القبلية وشبه القبلية بأنسابهم ، ويستطيعون ذكر تفاصيلها فى غالب الأحيان حتى الجد الخامس وأحيانا السادس . وهم لا يفعلون ذلك لدواعى الفخر وحده وانما لأن الانتماء لبدنة واحدة يفرض على جميع أعضائها حقاقا وواجبات ازاء بعضهم بعضا .

وهناك عوامل كثيرة تمنع البدنة من أن تكبر الى ما لا نهاية . فغالبا ما تتشعب البدنة وتتفرع عند ما يصل حجمها الى حد معين . ولعل أهم هذه العوامل الأيكولوجية لا سيما وأن نظام ابدنة يشيع بصفة خاصة فى المجتمعات الرعوية والزراعية وكلاهما يتطلب تعاون عدد كبير من الناس الذين تقوم بينهم روابط القرابة لتسهيل الحياة الاقتصادية ونظام ملكية الأرض أو ملكية حق الانتفاع بها ووراثتها يترتب عليه تقسيمها بين أفراد لا يلبثون أن يظهروا ميلا نحو الاستقلال الاقتصادى بعضهم عن بعض بأسرهم الصغيرة التى لا تلبث أن تكبر بمرور الزمن لتصبح بدنات متميزة . فى حين نجد أن اتساع الأرض فى الصحراء وظروف الرعى لا تسمح بذكر جماعات كبيرة العدد فى منطقة واحدة لفترة طويلة ، الأمر الذى يترتب عليه توزيع المناطق الرعوية ومناطق الزراعة بشكل أو بآخر بين العائلات التى تنقسم اليها البدنة . وبمرور الزمن تنمو الوحدات القرابية وتصبح بدنات متمايزة لا تلبث أن تنقسم داخليا وهكذا .

وقد يؤدى تزايد حجم البدنة الى أن يصبح من الصعب على أفرادها التعرف بدقة على درجة القرابة التى تقوم بينهم ، ويصبح من الأفضل انقسام البدنة وقد يعجل بذلك ظهور بعض الأفراد ذوى الشخصيات القوية والمكانات المرموقة ، فيستقل كل بعائلته عن بقية البدنة . كما قد تكون بعض الخلافات والعداوات سببا فى حدوث مثل هذا الانقسام . ومعنى ذلك أن البدنة يزداد حجمها حتى يصل الى حد معين يصبح

الانقسام عنده ضرورة عملية لتسهيل الحياة ، فتظهر بذلك شعب مستقلة عن البدنة الأصلية تنمو بدورها مؤلفة بدنات جديدة وهكذا • وخاصية تفرع البدنة وميلها للانقسام تعتبر من الخصائص الأساسية الهامة التى تشترك فيها كل نظم البدنات تقريبا •

ونمط الأنتساب الغالب هو النمط الأحادى Unillinear وفيه يكون النسب عن طريق أحد الأبوين فقط (الأب أو الأم) فى خط واحد مباشر بحيث يشمل الفروع والأصول الذين ينتمون الى نفس النوع (أى الذكور أو الاناث) ، والى جانب هذا النمط يوجد نمط الانتساب الثنائى الذى يجمع بين نظام النسب الأبوى ونظام النسب الأمومى • ويرى البعض أن هذا النظام على درجة من التعقيد نظرا لأن نسب الشخص الواحد يرد الى جميع أقاربه عن طريق التعرف على العلاقات القرابية التى تربطه بأجداده الأربعة (جدين للأم وجدين للأب) ، فى حين نجد فى نمط النسب الأحادى أن الأهمية تعطى لجد واحد هو أبو الأب فى نظام النسب الأبوى أو أم فى نظام النسب الأمومى • وبرغم ما يبدو من تعقد ذلك النظام فان الجماعات التى تتبعه تدرك بكل دقة العلاقات التى تربط كل عضو منها ببقية أفراد الجماعة القرابية الثنائية ، كما تدرك تماما والواجبات التى تقع على عاتق كل منهم ازاء الآخرين •

ولا شك أن النظام الثنائى فى الانتساب يؤدى الى توسيع دائرة القرابة بصورة لا تتوفر فى أى من النظامين الأحاديين ، كما يجعل الأصهار أقارب مباشرين نظرا لأنه يجعل الفرد عضوا فى جماعتين قرابيتين مختلفتين فى وقت واحد هما الجماعة القرابية التى ينتمى اليها الأب وتلك التى تنتسب اليها الأم • وهذا التكوين يؤدى دورا وظيفيا هاما حيث يساعد على تماسك المجتمع القبلى ككل •

العصبية والقـرابة :

يعتبر ابن خلدون أول من تناول موضوع العصبية بالدراسة • وهو يرى أنها تعود الى الطبيعة البشرية ، وتتولد من القرابة التى تستند على وحدة النسب وهذا هو الأصل فيها • وان كانت فى رأيه ــ تظهر بصور أخرى غير النسب كالحلف والولاء •

الأدوار التى تلعبها العصبية فى حياة المجتمع البدوى :

يرى ابن خلدون أن العصبية من خصائص المجتمع البدوى ، حيث ان النسب الذى هو مصدرها الأساسى يبقى محفوظا وصريحا فى الحياة البدوية ، ومن ثم تكون العصبية قوية • ويرجع حفظ النسب فى الحياة البدوية الى أمرين :

(ا) العزلة التى تتصف بها الجماعات البدوية مما يحفظ الأنساب من الاختلاط •

(ب) الحاجة الى العصبية القوية لضمان الدفاع عن المجتمع حيث لا توجد هيئة أخرى لتتولى هذا الدفاع كما هو الحـال فى المجتمعات الحضرية •

ويمكن تلخيص الأدوار التى تلعبهـا العصـبية فى حيـاة المجتمع البدوى فيما يلى :

١ ــ تمثل العصبية قوة ضغط اجتماعى تحفز الناس على التصرف وفقا لما يرى أن فيه مصلحة المجتمع حتى ولو كان هذا التصرف مكروها من الأفراد كالقتال مثلا •

٢ ـ تعتبر العصبية أساس التضامن الاجتماعى لا سيما فى مواقف الشدة كالمدافعة أو مواجهة جماعات أخرى •

٣ ـ تلعب العصبية دورا هاما فى تأسيس الملك وتكوين الدولة حيث انها أساس التغلب على الغير ، وهذا التغلب انما يكون بالعصبية وذلك وفقا لرأى ابن خلدون •

والعصبية لا تؤدى دائما هذه الأدوار • وانما اذا تعددت العصبيات فى المجتمع الواحد فان ذلك قد يعرقل قيام الدولة أو استمرارها ، اذ يغلب أن تتربص كل منها بالأخرى مما قد يؤدى الى انهيار الدولة •

العصبية والنسب :

لما كان النسب هو المصدر الرئيسى للعصبية لذلك يرى ابن خلدون أن مراتب العصبية تختلف باختلاف مراتب النسب ، من الأسرة الى البطن ثم الحى ثم العشيرة ثم القبيلة •

أنماط العصبية :

يمكن تحديد بعض أنماط العصبية مما تعرض له ابن خلدون على الوجه التالى :

(ا) العصبية العائلية :

ويقصد بها عصبية الوحدات الاجتماعية الصغيرة كالأسرة والعائلة والفخد ، حيث يتضامن جميع أفراد هذه الوحدات معا ان غنما أو غرما الى جانب تعاونهم جميعا لرعاية مصالح وحداتهم القرابية والدفاع عنها وعن سمعتها • ويتلخص دور هذا النوع من العصبية فيما يلى :

١ ـ الدفاع ضد أى خطر مشترك •

٢ ـ التعاون لتحقيق المصالح العامة والمصالح الخاصة كذلك •

٣ ـ مساعدة كل من يحتاج المساعدة من الأقارب •

٤ ـ دفع الثأر وطلبه وفقا للتقاليد البدوية •

(ب) عصبية القبيلة :

وهى تشبه سابقتها الا أن أداءها لوظائفها لا يتضح الا فى المواقف الأكثر شدة من سابقتها كمواقف الدفاع • كما قد يحدث اشتراك أفراد القبيلة فى مكان واحد • ويخفف البعد المكانى من تعاونهم وتفاعلهم المباشر ولكن هذا لايعنى انعدام الرابطة التى تجمع أبناء القبيلة الواحدة ، اذ يظل الواحد منهم يدرك انتماءه للقبيلة ومشاركته وتضامنه فى أى عمل يستوجبه الدفاع عن القبيلة ككل •

(ج) عصبية التحالف :

يعتبر هذا النوع من العصبية تحقيقا لمصلحة مشتركة اذ قد يحدث أن تواجه قبيلتان أو أكثر خطرا لا قبل لاحداهما بمواجهته منفردة ولذلك تتعاهد على أن تناصر كل منهما الأخرى ضد العدو المشترك وفى هذه الحالة تؤدى عصبية التحالف كافة وظائف عصبية القبيلة •

(د) عصبية الولاء :

الولاء منذ أن يدخل شخص أو جماعة ما فى معية شخص آخر أو جماعة أخرى • وهنا يصبح من دخل فى معية أو ولاية غيره ، يصبح « مولى » له كما تصبح الجماعة « موالى » لغيرها •

ويقوم هذا النوع من العصبية على الرغبة والقبول بمعنى أن يكون

دخول الفرد أو الجمـاعة فى ولاية أو جمـاعة أخرى برضا وقبول كل من الطرفين •

(هـ) عصبية الاجارة أو الحماية :

وتظهر فى حيز الوجود عندما يطالب شخص أو جماعة أن تكون فى حماية شـخص أو جمـاعة أخرى ، وتقبل هذه الأخيرة ذلك وعنـدئذ يستوجب الأمر من الفرد المجير أو الجماعة المجيرة أن تعلن ذلك على الملأ ليكون للمستجير حقوق باقى أفراد الجمـاعة فى الحماية • والحمـاية المطلوبة تكون محدودة بخطر معين كعدوان جماعة معينة على المستجير تعرفها الجماعة المجيرة مسبقا حتى يمكن لها أن تحدد أبعاد مسئولياتهـا قبل المستجير ولا تتورط فيما لا قبل لها به •

(و) عصبية التراث :

وهو نوع من التعصب لتراث الآباء والأجداد ، ونماذج السـلوك المرعية التى يعتبرها المجتمع رموزا لفضـائله ومثله العليا • ولذلك فهى عصبية معنوية •

***

مورفولوجيا المجتمعات البدوية

يرى ايفانز برتشارد أن البناء الاجتماعى يتألف من جملة العلاقات الدائمة التى تقوم بين جمـاعات معينة يحتويها نسـق متكامل • ومعنى ذلك أن البناء الاجتماعى يتكون من علاقات بين الجمـاعات وليسـت بين الأفراد •

أما ريموند فيرث ، فيرى أن االبنـاء الاجتماعى لمجتمع ما يتضمن

مختلف أنواع الجمـاعات التى يشـكلها النـاس وكذلك النظم التى يشتركون فيها •

هذا وقد اختلف العلماء فى تحديدهم لنماذج الجماعات التى يتكون منها المجتمع البدوى وأبسط الوحدات المكونة له •

وأيا كانت وجهة نظر العلماء ، فالملاحظ أن أكثر الجماعات شيوعا فى المجتمعـات البدوية هى الأسرة ، والبدنة أو الحمـولة أو الفخذ ، والبطن ، والعشيرة والقبيلة ، وسنعرض فيما يلى فكرة مبسطة مختصرة عن كل منها وان كان قد أشير الى بعض منها عند عرض نسق القرابة •

١ ـ الأسرة :

ذكرنا فيما تقـدم أن الأسرة هى أصغر الوحدات الاجتمـاعية فى المجتمع البدوى وقد عرفها ميردوك بأنها : « جماعة اجتماعية تتميز بمكان اقامة مشـترك وتعاون اقتصـادى ، ووظيفة تكاثرية ، ويوجد بين ذكر وأنثى من أعضائها على الأقل علاقة جنسية يعترف بها المجتمع » • وأشرنا فيما سبق الى صور من أشكالها وهى الأسرة النووية ، والأسرة المركبة ، والأسرة الممتـدة • ومدلول الأسرة يكاد يكون واحـدا فى مختـلف المجتمعات البـدوية وان اختلفت من حيث النطاق والشـكل والوظائف وأدوار أفرادها ، وما يترتب على الانتماء اليها من حقوق وواجبات وهى فى كل هذا تخضع لكثير من الضوابط الاجتماعية والظروف البيئية •

وتزداد قوة الروابط الاجتماعية فى نطاق الأسرة لدرجة أن مجموع أفرادها يكونون شخصـية معنوية واحدة تكون فيها المسئولية جمعية والملكية جمعية أيضا ، وقد أعطت الأعراف والتقاليد البدوية رب الأسرة سلطات واسعة على أفرادها لدرجة أن من حقه ـ بعـد اقرار بقية أفراد الأسرة ـ خلع أحد أفرادها اذا ما ارتكب هذا الفرد ما يمس قيم الأسرة

الخلقية وعاداتها وتقاليدها ، فاذا ما تم خلع هذا الفـرد لا تصبح الأسرة مسئولة عما يرتكبه من أفعـال ولا يطالبها أحد بثـأر يتعلق به ، كما لا تطالب هى بثأر اذا ما قتل •

٢ ــ الفخذ أو البدنة أو الحمولة :

تتكون عادة من اتحاد مجموعة من الأسر التى يمكن أن يرد أفرادها الى جد واحد مشترك • ويرتبـط أبناء الفخذ الواحد برباط وثيـق من الحقوق والواجبات التى لكل منهم وعليه قبل الآخرين ، غير أن علاقاتهم أقل تماسكا فى الحياة اليومية من تلك التى تلاحظ فى نطاق العائلة ••• اللهم الا فى ظروف خاصة مثل أوقات الشدة •

٣ ــ البطن :

وهى وحدة من وحدات البنـاء الاجتماعى فى المجتمعات البـدوية أكبر من الفخذ سواء من حيث عدد الأسر الداخلة فيها أو من حيث العدد الكلى لمجموع أفرادها •

وعضوية الفـرد فى البطن لا تختلف كثيرا عن عضويته فى الفخذ ، حيث يمثـل فى كل منهما جزءا من كل • وتكاد فرديته تذوب فى نطاق الجماعة •

٤ ــ العشيرة :

يرى ايفانز برتشـارد من خلال تحليله للعشـيرة لدى النوير أن العشيرة تتألف عادة من البـدنات التى يصـل عمق بعضها الى أكثر من عشرة أجيال ، وبذلك يمكن أن تعرف العشيرة على أنها اتحـاد عدد من الأسر ــ وربما الأفخاذ والبطون ــ التى تشترك فى نسب واحد ويوجد بينهم مجموعة من الحقوق والواجبـات المشتركة ، وغالبا ما يسـكنون متجاورين لتسهيل مهمة المدافعة وتنظيم أنشطتهم المختلفة •

٥ ــ القبيلة :

يرى الدكتور فيليب خورى خلال حديثه عن القبائل العربية أن القبيلة نظام ، وأنه الأصل فى المجتمع البدوى ، فكل خيمة تمثل أسرة ، والمعسكر المكون من عدة خيام يسمى حيا ، وأعضاء الحى الواحد يكونون قوما ، ومجموعة الأقوام القريبة النسب يكونون قبيلة ، ويعد أفراد القوم الواحد أنفسهم أبناء دم واحد يخضعون لرئيس واحد هو أكبرهم سنا ، ويدعون للحرب بصيحة واحدة ويضيفون كلمة بنى الى الاسم الذى يجمعهم •

ويرى فريق من العلماء أن القبيلة وحدة اجتماعية تجمع عدة عشائر ولا يشترط فى هذه العشائر أن تكون ذات علاقة نسب واحدة ، وقد يحدث أن تندمج عائلة أو عشيرة فى قبيلة من القبائل أو تخرج منها لتندمج فى قبيلة أخرى ، وتنضوى تحت ولاية قبيلة أخرى تمتاز بالقوة والمنعة •

وتضم القبيلة عدة تنظيمات شكلية تعمل على تأكيد وحدتها وتماسكلها الاجتماعى ، وبالتالى تحافظ على استمرار وجودها • وأهم تلك التنظيمات التنظيم السياسى ، حيث يمثل القبيلة رئيس يحظى باحترام الجميع ويعاونه مجلس يعرف باسم « مجلس القبيلة » ويتكون فى الغالب من رؤساء المعاشر اذا كانت القبيلة بدون عشائر •

والرأى السائد أن القبيلة تؤلف وحدة اجتماعية وسياسية واقتصادية متكاملة وتكاد تكون مجتمعا مغلقا على نفسه فى كثير من الأحيان فلا يتصل ثقافيا بالعالم الخارجى وغالبا ما تكون اتصالاته بالمجتمعات المجاورة فى أضيق الحدود •

والمكانات الاجتماعية فى مختلف أنماط الجماعات البدوية منها

ما يورث ومنها ما يكتسب • والذى يورث هو كل ما يتعلق بالخصائص العصبية والطبقية كالمشيخة ومراكز القضاء والامارة ، الا فى حالات معينة تمنع ذلك • أما ما يكتسب فهو كل ما يمكن تحصيله والنبوغ فيه كالفروسية والحكمة والمهارات الخاصة فى المهن والحرف اليدوية وما اليها •

***

الزواج فى المجتمعات البدوية

يعتبر الزواج أحد الموضوعات الرئيسية التى تدخل فى نسق القرابة ، نظرا لأنه يعتبر أصل الأسرة بأنواعها وأشكالها المختلفة • فالزواج يعمل على ربط جماعتين ـ قد تكونا مختلفتين ـ بروابط المصاهرة التى تعمل تدريجيا على تدعيم نسق القرابة • وقد عرف ميردوك Murdock الزواج بأنه (ظاهرة اجتماعية معقدة) نظرا لاختلاف نظم وصور وعناصر الزواج بدرجة واضحة ، بل متناقضة أحيانا على الرغم من بساطة المجتمعات البدائية •

والزواج فى رأى وسترمارك Westermark تنظيم اجتماعى للعلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة يرتب قبلهما التزامات متبادلة ومسئوليات اجتماعية •

ويمكن القول بأن الزواج بصفة اجمالية عقد وضع ليفيد حل استمتاع كل من الرجل والمرأة بالآخر بصورة يقبلها المجتمع •

اولا ـ اشكال الزواج :

عرفت المجتمعات الانسانية أشكالا من الزواج متباينة • وقد يبدو ،

بعضها غريبا بالنسبة لكثير من المجتمعات المعاصرة • وأهم صوره : الزواج المتعدد ، والزواج الأحادى •

١ ـ الزواج المتعدد :

عرفت بعض المجتمعات البدوية صورا من الزواج المتعدد ، أى الزواج الذى يتعدد فيه أحد طرفى العلاقة الزواجية أو كليهما • ويرى بعض العلماء أن للتعدد ـ سواء بالنسبة للزوجة أو للزوج ـ أسبابا من أهمها عدم تعادل الذكور والاناث فى المجتمع بحيث يكون التعدد من حق العنصر النادر • كما تلعب الظروف الاقتصادية والجغرافية والطبيعية والحروب والارث دورا هاما فى ظاهرة التعدد • والمرجح أن تكون ظاهرة تعدد الأزواج آخذة فى الانقراض ، ويرى البعض أن استمرارها محل شك كبير وبرغم ما يبدو من غرابة بعض صور التعدد ، فانه يؤدى فى المجتمعات التى تمارسه وظيفة اجتماعية معينة هى محاولة الابقاء على الجماعة القرابية وتقويةالروابط القرابية القائمة فيها من ناحية ، والعمل على تقوية علاقات المصاهرة وتحويلها تدريجيا الى روابط قرابة من الناحية الثانية • ويتم ذلك فى الأغلب اما عن طريق تكرار حالات الزواج بالنسبة للشخص الواحد فى نفس الجماعة التى سبق له الزواج منها وذلك تأكيدا لعلاقات المصاهرة القائمة بالفعل ، واما عن طريق الاصرار على اعتبار علاقة الزواج والمصاهرة قائمة فى الوقت الذى ينهار فيه أحد أركان الحياة الزوجية مثل موت أحد الزوجين • ويتخذ تكرار حالات الزواج بالنسبة للشخص الواحد فى بعض الحالات أشكالا قد تبدو لنا فيها كثيرا من التطرف نظرا لعدم ملاءمتها للأوضاع الاجتماعية السائدة فى مجتمعاتنا ، وان كانت مقبولة بل ومفضلة أيضا فى تلك المجتمعات مثل الجمع بين الأخوات • وهو نظام شائع فى كثير من المجتمعات البسيطة مثل الزولو فى جنوب أفريقيا ، وكذلك الجمع بين المرأة وابنة أخيها كما هو الحال فى بعض قبائل أستراليا الأصلية •

واتخذ تعدد الزوجات صورا مختلفة ، وأخذت به مجتمعات بدوية كثيرة ، ويعتبر أكثر صور التعدد انتشـــارا ، الا أنه مر بمراحل متعددة أباحت فيها المجتمعات التعدد بصور مختلفة فبعضها أباح للرجل أن يتزوج من النساء بأى عدد يريده ، وبعضهم قيده تارة بأربع نساء ، وتارة بعدد أكثر من ذلك بكثير قد يبلغ فى بعض الأحيان عشرات أو مئات •

ومن صور التعدد ما كان من حق الرجل أن يعاشر رفيقاته جنسيا مهما كان عددهن • ويعرف هذا بزواج (العشرى) • فى هذا النوع من العلاقات لا ترقى المرأة الى مرتبة الزوجة ، والأبناء المنجبون من هـــذه العلاقة قد يعترف الزوج بهم وقد لا يعترف ، فان اعترف تصـــبح الأمة حرة بعد وفاة زوجها كما لا يجوز له بيعها فى أثناء حياته[١] •

والتعدد كان معــروفا لدى العرب دون حصر ، فقد أســـلم غيلان الثقفى وعنده عشر نسوة فأمره رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يحتفظ بأربع ويطلق الباقيات • والاسلام لم ينشىء تعدد الزوجات وانما قيده بقيـــود والتزامات وبعدد معين • وبعض الآيات تشير الى التعدد وتؤكد عدم اســـتطاعته • فكأنها بذلك تنهى عن التعـــدد الا للضرورة القصوى •

٢ ــ وحدانية الزواج :

ويقصد به ارتباط رجل واحد بامرأة واحدة بعلاقة زواجية وفقـــا لقواعد معينة تنظم اجراءات اتمام هذه العلاقة وتحدد مجموعة الحقوق

---

(١) أهم مراجع هذا الجزء :

(أ) د . أحمـــد أبو زيد ، البناء الاجتماعى ، الجزء الثـــانى ، الاسكندرية : الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٦٧ .

(ب) صـــلاح الفوال ، علم الاجتماع ، القاهرة ، دار النهضـــة العربية ١٩٧٤ .

والواجبات المترتبة عليها والتى تتسع لتشـــمل أيضا كل ما ينتج عن هذه العلاقة من انجاب أطفال • ويستنتج بعض العلماء أن نمط الوحدانية فى الزواج كانت نتيجة لتغيرات متعددة تعرضت لها صور العلاقة بين الرجل والمرأة • وقد شجعته الأديان الســماوية ولم تبح التعدد الا فى حالات الضرورة القصوى وطبقا لشروط خاصة •

ثانيا ـ أنماط الزواج :

يوجد فى نطاق الجماعات البدوية نمطان للزواج هما :

(ا) الزواج الداخلى أو الزواج الاندجامى Endogamy ويقصد به النمط الذى يسمح فيه للرجل أن يتزوج امرأة من عشيرته أو بطنه أو فخذه بشرط ألا تكون من أحد فروعه أو أصوله وطبقا لنظام معين للمحارم •

(ب) الزواج الخـــارجى •• أو الزواج الاكسوجامى Exogamy أو الزواج الاغترابى • ويقصـــد به ذلك النمط الذى يعتمد فيـــه الزواج على نوع من التحـــريم الجنسى حيث يكون محظورا فيه على الرجال من عائلة أو فخذ أو بطن أو عشيرة ما أن يتزوجوا من داخل عشيرتهم •

وكل من هذين النمطين يؤدى وظيفة هامة فى التنظيم القرابى ويعمل بطريقة خاصة على دعم الحياة الاجتماعية والمحافظة على البناء الاجتماعى الكلى •

فالزواج الداخلى يحافظ على تماسك الوحدة القرابية عن طريق تدعيم العلاقات القرابية القائمة بالفعل بخلق علاقات المصـــاهرة كما هو الحال فى زواج أبناء العمومة عند ما يصبح العم صهرا لابن أخيه • ومثل

هذا الزواج يعمل على حفظ الثروة من أن تنتقل بالوراثة عن طريق النساء الى الجماعات القرابية الغريبة •

أما الزواج الاكسوجامي أو الخارجي فانه يؤدى وظيفته فى المحافظة على البناء الاجتماعى بصورة مختلفة حيث يهدف الى توسيع نطاق دائرة القرابة الى أبعد من حدود الجماعة القرابية المتعارفة كالبدنة أو العشيرة ، وبذلك فانه يربط البدنات والعشائر المختلفة بروابط المصاهرة ويقيم بينها علاقات اجتماعية واقتصادية وسياسية لم تكن موجودة من قبل •

والواقع أن الزواج فى جوهره علاقة خارجية أو اكسوجامية ، فهو يقوم فى كل المجتمعات على أساس اختيار القرين الآخر من غير أعضاء الأسرة والاستثناء الوحيد لذلك هو الحالات القليلة التى كان يباح فيها للرجل الزواج من أخته كما كان الحال بين ملوك مصر القديمة • فكان الزواج علاقة اكسوجامية ، وان كانت هذه الأكسجامية نسبية ، تبعا للجماعة التى يمكن للرجل أن يختار منها زوجته • ولذلك يمكن القول بأن الزواج يهدف الى توسيع نطاق القرابة عن طريق الارتباط بجماعة أخرى ، والى تدعيم الوحدات القرابية عن طريق العلاقات الاجتماعية المتشابكة التى تترتب على علاقة المصاهرة •

والملاحظ بصفة عامة أنه حيث يعتقد أن الزواج بين أشخاص تقوم بينهم قرابة من نوع معين قد يعرض البناء القرابى للخطر فان ذلك الزواج يعتبر مكروها أو حتى محرما • وكلما زاد خطر ذلك النوع من الزواج كان التحريم الواقع عليه قويا وصارما • وعلى العكس من ذلك تفضل الزيجات التى يعتقد أنها قد تساعد على تقوية وتجديد العلاقات القائمة بالفعل وبالتالى تقوية النظام القائم •

ثالثا ــ طرق الزواج :

عرفت المجتمعات البدوية عدة طرق للزواج • بعضها ما زال قائما حتى اليوم وبعضها الآخر انقرض وان كان له رواسب فى كثير من المجتمعات • والطريقتان الرئيستان للزواج هما طريقتا المهر والبدل •• والى جانبهما طرق أخرى مختلفة نعرضها باختصار :

(ا) زواج المهر :

تعتبر هذه الطريقة أكثر طرق الزواج انتشارا ليس فى المجتمعات البدوية وحدها ، وانما أيضا فى المجتمعات الريفية والحضرية • وتستوجب هذه الطريقة أن يقوم طالب الزواج وأسرته بدفع مهر نقدى أو عينى لأهل الفتاة التى يريد الزواج منها • وتختلف نوعية المهر فى الغالب باختلاف طبيعة الجماعة ونوع الاقتصاد السائد بها • ففى القبائل الرعوية تعتبر الماشية أساس المهر عندهم • وفى المجتمعات الزراعية يكون المهر بعضا من غلة المحصول السائد ، ويمكن أن تكون المهور عبارة عن مبالغ متفق عليها من النقود •

وتختلف المهور من حيث الكم والكيف على حسب العرف السائد لدى كل جماعة بدوية ، فقد يكون المهر أحيانا أكثر من قدرة طالب الزواج ومن ثم يضطر لأن يلجأ لمساعدة الآخرين من جماعته • وليس كل ما يتضمنه المهر له قيمة اقتصادية حقيقية فى تلك المجتمعات ، وان كانت لها قيمة اجتماعية عالية مثل الخرز الملون أو بعض أنواع من الأسلحة النارية النادرة أو بعض القواقع الجميلة ، ولذلك يصعب أن يعتبر المهر ثمنا للعروس كما يتصور بعض الكتاب من الانجليز والأمريكيين حيث يترجمون لفظ المهر بكلمة Bridewealth ، ويؤثر فى قيمة المهر عدة أمور أهمها المكانة الاجتماعية لكل من الرجل والمرأة ، وتزداد قيمة المهر عادة كلما ارتفعت المكانة الاجتماعية لكليهما ، وبمعنى

أصبح كلما ارتفعت المكانة الاجتماعية لأسرتيهما • هذا بالاضافة الى عدد من الاعتبارات الأخرى الشخصية غالبا • فالفتاة التى لم يسبق لها الزواج ليست كالتى سبق أن تزوجت والصغيرة السن القادرة على الانتاج والانجاب ليست كالكبيرة السن والتى تكون أقل قدرة على الانتاج والانجاب ، والجميلة ليست كالأقل جمالا • أما بالنسبة للرجل الراغب فى الزواج فتتركز أهم صفات الشخصية التى تميز واحدا على غيره فى مكانته الاجتماعية ومكانة الجماعة التى ينتمى اليها وقدرته على الانفاق وقدرته على دفع مهر أكبر •

ويتم دفع المهر وفقا لقواعد وطقوس تختلف من جماعة لأخرى • فبعض الجماعات تلزم طالب الزواج (وأسرته) دفع المهر كاملا ومقدما وبصورة علنية أمام شهود وبعضها يلزم دفع جزء من المهر مقدما والباقى على أقساط ، ومنها ما يلزم دفع مقدم للمهر والباقى يترك كنوع من التأمين يدفع فى حالة فض الزواج •

وفى معظم الأحيان لا تحصل المرأة على شىء مباشر مما يدفع لها مهرا وقد يكون المهر من حق الوالد الذى يلتزم فى هذه الحالة بعدة التزامات تختلف من مجتمع لآخر • ففى بعض المجتمعات كمجتمع النوير توزع الماشية التى تقدم أصلا الى والد العروس على حسب أنصبة ونسب معينة بين الأقارب العاصبين وذوى الأرحام • وتنال كل فئة نوعا معينا من الماشية ، فالبعض يأخذ نصيبه من الثيران والبعض الآخر يأخذ نصيبه من العجول الصغيرة ، والبعض الثالث من الأبقار الأنثى ، وبطبيعة الحال فان من يكون لهم الحق فى المشاركة فى مهر العروس يكون عليهم الالتزام بالاسهام فى مهر الذكور من أفراد الجماعة • وقد يعاد استخدام المهر مرة أخرى فى تزويج الرجال من نساء أخريات لتعويض ما فقدته الجماعة البدوية منهن • وقد يسترد المهر كله أو بعضه فى حالة هجر

الزوجة لزوجها وانفصام عرى الزوجية أو فى حالة عصمتها أو انجـابها للبنات دون البنين ، أو لفقدها القدرة على مزيد من الانجاب وذلك برغم استمرار الزواج •

وظائف المهر :

يمكن تلخيص وظائف المهر فى النقاط التالية :

١ ــ يعتبر المهر وسيلة موضوعية لقيام علاقة زوجية شرعية يعترف بها المجتمع ، وقد اعتبره الدين الاسلامى شرطا لصحة الزواج •

٢ ــ يمكن اعتبار المهر نوعا من التعويض الذى يقدم لعائلة الزوجة عن تنازلها لعـائلة الزوج عن حقوقهم على ابنتهم ، ولكنه لا يعتبر بأى حال من الأحوال ثمنا للعروس •

٣ ــ يمكن أن يســتخدم المهر الواحد الذى يدفع لاتمام زيجـة واحدة لاتمام أكثر من زيجة قد يصل عددها الى عشرات • ولذلك يمكن اعتبار المهر وسيلة لربط عدد كبير من العشائر والبدنات بروابط المصاهرة وما يتبع ذلك من حقوق وواجبـات والتزامات ومسئوليات سـياسية واقتصادية وقرابين متبادلة •

٤ ــ يعتبر المهر عامل أمان لكل من الزوج والزوجة • فهو من جهة يشعر الزوجة أنها مسئولة قبل زوجها • كما أن أسرتها تضطر لاعادتهـا اذا ما تركت بيت الزوجيـة والا اضـطرت الى اعادة المهر ، وفى بعض الحالات التى يكون المهر ماشية فانها تعيد الماشية وما أنجبته أيضـا كما يضمن المهر فى نفس الوقت حسن معاملة وكفالة ورعاية الزوج لزوجته •

(ب) زواج البدل :

عرفت المجتمعات البدوية هذه الطريقـة ، ويقصد بها أن تتبـادل

جماعتان من الجماعات البدوية امرأتين أو أكثر لتتزوج كل واحدة منهن رجلا من الجماعة الأخرى .. والقاعدة العامة أن تتساوى الفتاتان محل التبادل وذلك من حيث القدرة على العمل وما ترثه كل منهما وغير ذلك من أمور يمكن أن تتضح قبل الزواج ... هذا الى جانب ضرورة تساويهما من حيث عدد الأولاد التى تنجبهم كل منهم ونوعهم . أما اذا تبين أن احداهما عاقر فان جماعتها تضطر الى تقديم بديل عنها اذ تعتبر فى هذه الحالة معيبة . ونفس الوضع فى حالة وفاتها والا أصبح الزواج من طرف واحد ومن ثم يلزم فصم عراه .

ويؤدى زواج البدل الوظائف التالية :

١ ــ التعويض عن كل أرملة تتزوج وتخرج من نطاق الجماعة .

٢ ــ تدعيم قدرة الجماعة على انجاب أعضاء جدد .

٣ ــ دعم الترابط بين الجماعات المختلفة من خلال علاقة المصاهرة المزدوجة وتأكيد بقاء هذه العلاقة بربط مصير كل زوجة بمصير بديلتها .

ولا زال لهذا النمط رواسب فى المجتمعات المعاصرة اذ كثيرا ما يتزوج أخ وأخته مثلا من أخ وأخته . وقد تكون عملية التبادل واضحة فى الأذهان من بادىء الأمر وقد تهيىء ظروف الاتصال الأسرى اتمامها فيما بعد .

(ج) طرق أخرى للزواج :

١ ــ الزواج بالشراء :

وهو صورة من صور الزواج اعتبرت فيها المرأة سلعة تباع وتشترى ، ويجب التمييز بين هذا النوع من الزواج والزواج عن طريق المهر . والمهر لا يعتبر ثمنا للعروس بأى حال من الأحوال وانما يدخل

فى تحديده كما سبق أن ذكرنا عوامل اجتماعية فى غالبها ، ويرتبط الزواج بالشراء بوجود ظاهرة الرق •

٢ ـ زواج الأسر :

وكان معروفا عند العـرب قديما حيث كانت السبايا ممن يقعن فى الأسر عقب المعارك أحد المصادر الهـامة للزواج ، اما بعد الأسر أو عن طريق بيعهن لآخرين •

٣ ـ زواج الميراث :

يوجد فى بعض الجماعات حتى الوقت الحاضر ، حيث تزوج المرأة التى توفى عنها زوجها لأقرب أقربائه ـ أما اذا لم يكن يرغب فيهـا فانه يزوجها لآخر مقابل حصـوله على مهرها ، أو يتركها تتزوج من تشـاء بشرط أن تتنازل عن أى شىء حصلت عليه من زوجها المتوفى ، ولا زالت هناك رواسب لهذا النظام فى بعض المجتمعات المعاصرة • فكثيرا ما يرغب الأخ فى الزواج من أرملة أخيه وان اختلفت الدوافع • ولعـل أهمها هو الحرص على تربية أبناء الأخ المتوفى فى كنف عمهم •

٤ ـ زواج الخطف :

كان زواج الخطف شائعا بين كثير من الجماعات البدوية ولا زال له صور حتى الوقت الحـاضر • على الأقل بشـكله الرمزى • كما أن له رواسب فى كثير من الآداب والعادات الشعبية لهذه الجماعات •

٥ ـ زواج الدية :

يقضى العرف لدى بعض الجماعات البدوية أن يكون التعويض عن القتل عن طريق الزواج ، فيقدم أهل القـاتل لأقارب القتيـل عددا من الفتيات بغير مهر ليتزوجونهن ويكون فيما ينجبن من الأطفال عوضا عمن

فقدته الجماعة ، ويعتبر الثأر مطلوبا الى أن تنجب الفتيات الذكور بصفة خاصة لأسرة القتيل •

٦ ـ زواج الصلة :

ويتم هذا النوع من الزواج لتدعيم العلاقات بين أسرتى كل من راغب الزواج والفتاة التى يريد الزواج منها ، ويبدأ محاولاته بتقديم الهدايا مدة قد تطول وقد تقصر الى أن يعبر الوالدان عن قبولهما لفكرة الزواج • وعند اتمامه يصبح الزوج فى غير حاجة لتقديم الهدايا لأسرة زوجته •

٧ ـ زواج التبنى :

ويقوم على أساس تبنى أحد الأسر البدوية لفتى أو فتاة بغرض الزواج عند بلوغ السن المناسبة لذلك • وهذه الصورة توجد فى بعض المجتمعات البدوية فى أندونسيا واليابان ، وتعدتهما الى بعض المجتمعات الريفية الحضرية •

٨ ـ زواج الاستخدام :

ويقصد به قيام راغب الزواج بالعمل فترة زمنية ــ تقابل المهر المتفق عليه لمصلحة أسرة الفتاة وفى مقابل تزويجها له • ولعل من أشهر قصص الزواج بهذا الأسلوب قصة زواج سيدنا يعقوب من زوجته راشيل فى مقابل اشتغاله سبع سنوات لدى أسرتها •

النسق الاقتصـــادى

أغفل بعض العلماء الأول الكلام عن الاقتصـــاد فى مجال دراســة الحياة الاجتماعية فى المجتمعات البدائية اعتقادا منهم أن الرجل (البدائى) ليس له اقتصاد بالمعنى المحدد للكلمة • ويبدو أن مرجع ذلك ما لوحظ من تداخل النظام الاقتصـــادى فى المجتمعات البدوية مع غيره من النظم الأخرى • والواقع أن كلمة اقتصاد فى أبسط معانيها تشـــير الى توفير السلع المادية اللازمة لاشباع الحاجات البيولوجية والاجتماعية • وهذه أمور عامة تشترك فيها المجتمعات بمختلف مستوياتها الثقافية • ويتطلب تحقيـــق ذلك توفير درجة معينة من التعـــاون المنظم من أفراد المجتمـــع لاستغلال موارد الطبيعة ، باستخدام بعض الأساليب والوســـائل الفنية والأدوات والآلات التى تكفل تحقيق نتائج اقتصادية معينة (مثل جمع الثمار أو قنص الحيوان أو زراعة الحبوب أو ما شابه ذلك) • وكذلك توزيع السلع المنتجة بعد ذلك •

وبرغم المعارضة الشـــديدة التى يبديها كثير من علمـــاء الاجتماع للنظرية الجغرافية ، فانه فى مجال الاقتصـــاد البدوى لابد من الاعتراف بأنه يتأثر بصفة خاصة بالهيئة الجغرافية • ولذلك تتنوع النظم الاقتصادية فى المجتمعات البدائية البسيطة • ولا يمكن أن يصدق عليها نظام اقتصادى واحد • فبينما نجد أقزام أفريقيا يعيشون على الجمع والالتقاط ، نجد البوشمن فى صحراء كلهـــارى يعيشون على القنص ، والقبـــائل النيلية تعيش على رعى الأبقار (النوير والدنكا والشيلوك وغيرها) ونجد البدو فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا وغرب السودان يعيشون على الأغنام والابل • كما تجمع بعض الجماعات بين أكثر من صورة من صور العمل ، ومن أمثلة ذلك النوير الذين يجمعون بين رعى الأبقار وزراعة الحدائق وصيد الســـمك فى موسم معين • وبرغم الجمـــع بين أكثر من نوع من

الأعمال فان الاقتصاد فى مجموعه يتميز بالبساطة ويمكن تلخيص أهم خصائصه فيما يلى :

١ ـ يكون للمصادر الاقتصادية قيمة اجتماعية عالية • وترتبط بها الى حد كبير القيم الدينية والروحية • فالبقرة عند النوير وسيلة لتقديم القرابين والمهور وأساس اقامة الحفلات الهامة • ويبلغ من أهمية البقرة عندهم أنهم يحرصون على ذكرها فى ابتهالاتهم فيقدمون للآلهة قرابين مكونة من بعض الخضروات أو أى حيوانات أخرى ويرجونها أن تتقبل هذه البقرة برغم أن ما قدموه ليس فيه بقرة على الاطلاق •

٢ ـ يكون الاهتمام عادة بأحد مصادر الثروة واهمال باقى المصادر • وعلى ذلك يتميز الاقتصاد البدوى بعدم التنوع ، كما يتميز الانسان البدوى بعدم التخصص •

٣ ـ يكون مورد الطعام اليومى أو الفصلى هو محور حياة الناس • فاقامتهم ووظيفتهم يرتبطان تماما بهذه الموارد أكثر من الارتباط بأى أمور أخرى •

٤ ـ تتأثر الحياة الاقتصادية فى المجتمعات البدائية بعوامل قد تبدو بعيدة عنها فتصطبغ بالسحر أو بصبغة دينية • ومن ذلك خضوعهم التام لآراء شخص يعرف باسم « شيخ الأرض » ويعتقدون أن له قوة دينية وسحرية تضمن لهم الحصول على محصول وفير عن طريق قيامه ببعض الأدعية والطقوس والصلوات الدينية قبل البدء بالزراعة • وهم يعتقدون أن بمقدوره حماية زراعاتهم من الآفات والأضرار المختلفة • ويعتبر توزيع الأرض عند كل موسم زراعى من مسئوليات شيخ الأرض الذى تقبل الجماعة توزيعه للأرض على أفرادها وجماعاتها •

وهناك صورة مشابهة « لشـيخ الأرض » لدى بعض الأقوام فى أفريقيـا وآسـيا حيث توجد فئة ممن يعتقدون فى قدراتهم الروحيـة والسحرية ، وتعرف هذه الفئة باسم « صانعى المطر » •

ولا زال لهذه الأمور الغيبية رواسب فى كثير من المجتمعات الريفية المعاصرة •

٥ ــ يعتبر النسق الاقتصادى من عوامل تماسك البناء الاجتماعى الكلى • وقد أثبت هنتنجفورد فى الدراسة التى قام بها لمجتمع الزاندى أن النسق الاقتصادى يخفف من حدة التنظيم الانقسامى للجماعة •

٦ ــ يلعب الحيـوان دورا هاما فى حياة البدو سـواء كانوا من الصيادين أو الرعاة وان كان استخدامه يختلف من مجتمع لآخر •

٧ ــ يحيـط المجتمع البدوى نفسـه بسياج من القيم والأنماط السلوكية التى كان من آثارها ما يأتى :

(ا) صعوبة الدخول أو الخروج من المجتمع •

(ب) تغلغـل القيم والأنماط السـلوكية فى النفوس وانتقالها عبر الأجيـال ، مما نلحظ له رواسـب فى كثير من المجتمعـات البـدوية التى تأثرت بكثير من الأنمـاط الحضرية أو التى قطعت شوطا لا يستهان به فى التحضر •

***

نظام الملكية فى المجتمعات البدوية

تتعلق فكرة الملكية بحيازة الأشياء التى اصطلح على تسميتها بالملك أو الممتلكات ، وهى فكرة ترتبط بوجود حقوق معينة ، لشخص ما أو جماعة معينة دون غيرها على هذه الممتلكات قد تتيح لهـا هذه الحقوق استخدام الممتلكات أو استهلاكها أو التصرف فيها • وهذه الحقوق تتخذ صورا متنوعة فى المجتمعات المختلفة •

وعلى أى حال يتضـمن نظـام الملكية ثلاثة أركان هى : المالك ، والممتلكات ، والعلاقة بينهما • كما يتضمن فكرة السيادة المستمرة على بعض الأشياء وحرية التصرف فيها سـواء كانت هذه السيادة لفرد أو لجماعة •

اشكال الملكية العامة :

(ا) ملكية الأرض :

تعتبر ملكية الأرض من أكثر الملكيات أهميـة ، ومن أكثر النظم تعقدا وذلك لاتصالها الوثيق بالتنظيم الاقتصادى والقرابى والسـياسى على السواء ، بالاضافة الى تدخل الحكومات الاستعمارية بالنسبة لكثير من القبائل البدوية وفرضها نظما معينة من الملكية تناقضت وتعارضـت أحيانا مع نظمهم التقليدية ، وأدت الى اصطدام مصالحهم فى الأرض مع مصالح الجاليات المختلفة الوافدة عليهم •

وتعتبر ملكية الأرض فى الجماعات التى تعيش على الجمع والالتقاط من ناحية ، وعلى الرعى من ناحية أخرى أبسط أشكال الملكية نظرا لعدم ارتباط مثل هذه الجماعات ارتبـاطا قويا ببقعة معينة بالذات • والأرض على ما يبدو أكثر من حاجتهم ولذلك يرجح أن تكون قيمتها الاقتصادية

والاجتماعية عندهم أقل من قيمة ما ينمو عليها من نبات وما يعيش عليها من حيوان • وهذا لا يعنى عدم وجود حدود فكثيرا ما تنشب بين الجماعات المتجاورة مصادمات نتيجة للاعتداء على الحقول المتعلقة بأرض الصيد • فكل جماعة لها حدود تستطيع أن تتجول داخلها ولها عليها حقوق أقرب الى حق الانتفاع منها الى حق الملكية • اذ هى لا تملك حق التصرف فى الأرض وانما يمكنها الاستفادة بما فوقها من نبات أو حيوان •

أما جماعات الرعى فتكون علاقاتهم بالأرض أقوى من علاقة جماعات الصيد والقنص بالأرض • فكل جماعة تختص بمنطقة معينة ولا يمكن لغيرها الاستفادة منها الا اذا حصلت على اذن منها بذلك •

ويقوم نظام الحيازة التقليدى فى مجتمعات الرعى وبخاصة فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا على مبدأ التناظر بين التوزيع الاقليمى والتقسيم القبلى • بمعنى أن كل قسم من أقسام القبيلة يؤلف وحدة اقتصادية لها مناطق الرعى الخاصة بها واحتلال أرض القبيلة • واذا كانت تمارس الزراعة فلكل قسم أيضا أرضه الزراعية ، كما أن له موارد الماء والآبار الخاصة به • ويعتبر هذا القسم — أيا كان — المالك الوحيد للحقوق الخاصة باستغلال الأرض والمراعى والمياه بالمنطقة التى يرتبط بها منذ أجيال طويلة • ولا يعنى هذا أن لأى فرد من هذه الجماعة الحق فى اقتطاع جزء لنفسه وبخاصة أراضى الرعى ، اذ هى فى جملتها ملك للجماعة ككل وليس لأى فرد فيها • وللملكية حق الانتفاع ولا تعنى امكانية التصرف فى الأرض •

والنظام القائم على مبدأ التناظر بين الأقسام الاقليمية والأقسام القبلية ليس جامدا ، وانما هناك درجة عالية من التعاون بين مختلف الأقسام التى تنتمى لعشيرة واحدة • وأيضا بين العشائر والجماعات

التى تقوم بينها علاقات صداقة لا سيما فى أوقات الجدب والأزمات • فقد تضطر بعض الجماعات القبلية للهجرة وتنزل فى ضيافة جماعة أخرى تكون ظروفها أفضل • وترعى ماشيتها فى مراعيها • وقد تقتطع جزءا من أرضها تزرعه •

وبرغم أن الجماعات الرعوية تنتشر فى مناطق متسعة نسبيا فان كلا منها يرتبط بمنطقة معينة يعتبرها (وطنا) له • فتعود الجماعة الى هذا الوطن بعد الانتهاء من رحلاتها •

أما فى المجتمعات الزراعية فللأرض قيمة اقتصادية واجتماعية لا نجد لها مثيلا فى مجتمعات الرعى أو القنص أو الصيد • كما أن علاقة الانسان بالأرض تكون أقوى • ولذلك تكون حدود الأرض أوضح • وتكون ملكية الأرض من عوامل الاستقرار ، ولذا تظهر القرى والمساكن الثابتة ، ورد الفعل ضد أى معتد يكون أشد عنفا •

ويلاحظ وجود علاقة بين المكانة الاجتماعية والسياسية لاحدى الجماعات القبلية وبين الأرض التى تمتلكها • وكثيرا ما تتوقف سلطة رؤساء العشائر على مساحة الأرض التى يملكونها اذ يقومون باستغلالها •

وتتفاوت ملكية الأرض بين الملكية الفردية الخالصة والملكية الجماعية الخالصة التى تنحصر فى العشيرة أو القبيلة ككل ، وكثيرا ما تتواجد أنماط تجمع بين صور من الملكية الفردية وأخرى من الملكية الجمعية ، ومن أمثلة ذلك ما يعترف به فى بعض الجماعات القبلية من أن الفرد الذى يقوم بتطهير قطعة من أرض الغابات يصبح له حق استغلالها ولا يسقط حقه فيها اذا هجرها الا اذا طالت غيبته • ومع ذلك فهذا لا يمنع من وجود حقوق جماعية على تلك الأرض فى كثير من هذه

المجتمعات حيث لا يستطيع الفرد أن يتصرف فى الأرض ذاتها الا بعد استشارة وموافقة كل أفراد الجماعة ممثلين فى رؤسائهم وشيوخهم •

(ب) ملكية الآبار والعيون :

برغم أن ملكية الأرض تعتبر من أهم أشكال الملكية فى المجتمع الزراعى ، فانه فى كثير من الأحيان لا يكون لها قيمة فى ذاتها • كما هو الحال فى الواحات المصرية وواحات شمال أفريقيا • وتكون القيمة للماء اللازم للرى نظرا لقلة المطر والاضطرار للاعتماد على مصادر المياه الجوفية • وهى معرضة لمخاطر قد تؤثر فى نجاح المحصول • وغالبا ما تكون الملكية فى هذه الحالة مقصورة على ملكية الماء ، أما الأرض فتكون ملكا للدولة وللأهالى حق الانتفاع بها فقط •

وتخضع ملكية الماء لمبدأ التناظر بينها وبين مساحة الأرض التى يسمح بالانتفاع بها ، والواقع فانه يمكن القول بأن الماء والأرض فى نظر الناس مظهرين لشىء واحد نظرا لشدة الترابط بينهما وميل الناس الى اغفال التفرقة بين الملكية ، وحق الانتفاع • وفى الوادى الجديد مثلا يعتقد بأن لكل بئر منذ القدم زمام معين أى مساحة من الأرض تتناسب وامكانيات البئر فى الرى • وان الأجيال المتتالية توارثت هذه الآبار وما حولها من أرض بحيث يقوم ملاك كل بئر دون غيرهم بزراعة الأرض الداخلة فى زمام البئر • وقد يتصور البعض عدم وضوح الحدود الفاصلة بين زمام كل بئر ، فان الأهالى يعرفون تماما زمام كل بئر ، ولذلك تعتبر حوادث الاعتداء على الأرض أو محاصيلها نادرة الحدوث •

والآبار نوعان : نوع يمتلكه الأهالى •• ونوع تمتلكه الحكومة • وهى غالبا الآبار التى لا يعرف لها صاحب من الأهالى وتقع بعيدا عن المساكن ، والأرجح أن تكون مهجورة ومطموسة •

ويمكن القــول بأن ملكية الآبار جمعية ، أما توزيع المــاء فيمكن اعتباره ملكية خاصة بالبدنة أو القسم من القبيــلة . ويمكن أن تتزايد ملكية العائلات للماء عن طريق حفر آبار جديدة أو تطهير عيون مطموسة اما بالعمل اليدوى أو بالمساهمة فى النفقات . ونظرا لنقص الأموال فان ملاك البئر يعهدون لشخص ذى خبرة فى عمليات الحفر والتطهير بالعمل نظير نصيب من الماء عندما يتفجر ويعرف هذا الشخص باسم (العهدة) وهو يجمع ممن يريد الاستفادة من البئر مقدما مبالغ للانفاق على العملية ، ويكون لهؤلاء أنصبة فى مياه البئر عنــدما يتفجر الماء . كما يســتخدم العمال أيضا نظير أنصبة فى مياه البئر . ويلاحظ أنه اذا ما توقف العمل لأى سبب من الأسباب فان ملكية البئر تعود تلقائيا للملاك الأصليين . وهذا الأسلوب يوضح الفرق بين نوعين من الملكية : ملكية الوراثة التى تكون للبئر ذاتهــا ، وملكية الحيازة التى تكون للميــاه المتفجرة نتيجة العمل والانفاق . وتنسب البئر عادة للملاك الأصليين وتظل مرتبطة باسم البدنة التى كانت تمتلكها فى الأصــل . أما ملكية الحيازة فيطلق عليها اسم (المشتروات) .

وتضفى ملكية الماء بصفة عامة على صاحبها مكانة اجتماعية متميزة . غير أنه يلاحظ فارق كبير بين الملكية الموروثة والمشتراة . فالأولى تدل على أصالة أصحابها وقدم حقوقهم . أما الثانية فتدل فقط على الشراء . ومن ثم تكون مكانة أقل . ولذلك يعتبر عارا يلحق بالبدنة أو العشــيرة أن تبيع ما ورثته . فى حين لا يلحقها الخذى اذا ما باعت بالمال ما ســبق أن اشترته به .

الملكية الخاصة :

غالبا ما تكون الأشياء التى من صنع الانسان كالأدوات والآلات والملابس والمبانى من الممتلكات الخاصة فى المجتمعات البدائية ، وعلاقته

بهذه الأمور تختلف عن علاقته بالأرض والماء التى تعتبر أشياء قدمتها له الطبيعة بصرف النظر عن الجهود التى يبذلها لاستغلالها ، ومن ثم يكون حقه فيها غالبا حق انتفاع وله الصبغة الجمعية ، أى أنه حق للقبيلة أو للبدنة أو للبطن ككل وليست لأى فرد فيها .

ويكاد العلماء يجمعون على أن الأملاك المنقولة بكافة أنواعها تمتلك ملكية فردية . ومن صور الملكيات الخاصة الماشية التى تربيها الجماعة . وجرت العادة على أن رب الأسرة هو المالك لكل ما فى حوزتها من حيوانات . ومن ثم فانه يستطيع التصرف فيما يمتلك ملكية خاصة . ولكن بشرط ألا يضر بحقوق الآخرين ممن لهم حق استغلالها من أفراد العائلة .

ومن الملكيات الخاصة أيضا الأمتعة والأدوات الشخصية . وهى ملكية يعترف بها المجتمع ، غير أنه فى بعض الأحيان يكون حق استغلال حتى هذه الأمور له صفة الشيوع . ويمكن القول بأنه فى المجتمعات البدائية يكون الاستعمال الفعلى هو أهم مبررات الملكية أما ما يزيد عن الحاجة فيمكن اعطاؤه للغير .

الملكية الخاصة برؤساء العشائر وشيوخ القبائل :

يخطىء البعض حين يعتبر حق رؤساء العشائر وشيوخ القبائل فى ملكية الأرض والماء ، يعنى امتلاكهم لها ملكية خاصة . والواقع أن المجتمعات القبلية فى معظمها درجت على أن مصادر الثروة ذات النفع العام يكون للمشايخ والرؤساء حقوق أقرب لحقوق الملكية عليها . وهى فى غالب الأمر حقوق تستخدم لمصلحة العشيرة ككل . وتصرفه مقيد بما يعود على الجماعة من قيم وأعراف ـ وهو فى غالبه لتنظيم عمليات استغلال المصادر بما يحقق مصلحة الجميع ويصون مختلف المصادر من الأضرار والاستنزاف ، وذلك نظير امتيازات خاصة تبيح لهم الحصول على نصيب من انتاج الأرض أو الحيوان .

العمل فى الجماعات البدوية

استخدمت كلمة (العمل) بكثرة فى مجال التخصص المهنى أو ما يعرف عادة فى الدراسات الاجتماعية باسم (تقسيم العمل) • وذلك باعتبار أنه مهما بلغت الحياة الاجتماعية من البساطة فان الشخص الواحد لا يستطيع أن يقوم بكافة الأعمال المختلفة التى تتطلبها الحياة اليومية ، وأنه لا بد من وجود نوع ما من تقسيم الأعمال بين الأفراد حتى فى الحالات التى يبدو فى ظاهرها أن الجميع يقومون بأعمال متشابهة أو متماثلة • ويزداد الاختلاف المهنى بازدياد تعقد الحياة الاجتماعية حتى يصل الى ما يعرف بالتخصص المهنى — أى اشتراك عدد من الأفراد فى أداء العمل الواحد •

وأول دراسة منهجية لتقسيم العمل لدوركيم • وكانت ترمى للتعرف على العوامل التى تؤدى الى ارتباط الناس بعضهم ببعض • وبالتالى الى التضامن الاجتماعى الذى قسمه الى نوعين : تضامن آلى ويرى فى المجتمعات البسيطة ، وتضامن عضوى ويوجد فى المجتمعات الأكثر تعقيدا •

أما مالينوفسكى فقد أشار الى نوع من التفرقة بين نوعين من الأعمال ، أسمى الأول منها « العمل الجماعى Commnual labour وأسمى الثانى « العمل المنظم Organissed labour ، ويستخدم الاصطلاح الأول للاشارة الى الأعمال التى يمارسها عدد كبير من الناس مشتركين ككل واحد ومن أمثلتها الزراعة وجمع الثمار • أما الاصطلاح الثانى فيشير الى نوع من الأعمال يتكون من جزئيات مختلفة يمارسها أفراد يختلفون من أعمال تتكامل فى النهاية بعضها مع بعض كبناء بيت مثلا •

ويميز ريموند فيرث بين ما أسماه بـ (العمل البسيط) و (العمل المركب) وذلك على أساس أن العمل فى المجتمعات البدائية هو عمل جماعى دائما ، اذ يشترك فيه اما المجتمع كله أو بعض أفراده ، سواء أكان النشاط يتعلق بممارسات متشابهة أم مختلفة واهتم فيرث بدراسة حوافز العمل • وتخير للدراسة مجتمعا لا يعرف النقود فى معاملاته وهو مجتمع تيكوبيا • وقد وجد أن أهم الحوافز هى الحصول على الطعام ، والرغبة فى اقامة حفلات ، وتبادل الهدايا ، وابراز المهارات للحصول على اعجاب المجتمع • هذا بالاضافة الى اداء الالتزامات الاجتماعية • وبذلك يمكن القول ان العمل فى المجتمعات البسيطة ليس نشاطا اقتصاديا فحسب وانما هو نشاط اجتماعى أيضا يتفق ويتلاءم مع الدور الذى يجب أن يقوم به الفرد فى المجتمع الذى ينتمى اليه ويتلاءم مع قيم المجتمع • ومن الأمثلة على ذلك أن السرقة ليست عملا لأنها لا تحقق التضامن الاجتماعى ولا تتفق مع قيم المجتمع •

ويتحدد تنظيم العمل وتقسيمه فى المجتمعات التقليدية وفقا لقواعد دقيقة تكون جزءا من النسق الاجتماعى ككل • وأهم أساس تقسيم العمل فى هذه المجتمعات أساسين هما : النوع (أى الانقسام الى ذكور واناث) والسن •

تقسيم العمل بحسب النوع :

وهو أكثر أشكال تقسيم العمل شيوعا فى المجتمعات البشرية • والفروق بين الذكور والاناث ليست فروقا فيزيقية فحسب ، وانما تمتد الى وظيفة كل منهما فى المجتمع ، وهناك ميل واضح لتقسيم العمل فى المجتمعات بحيث تلتصق بعض الأعمال بنوع دون الآخر • ولا يمنع ذلك من وجود بعض التداخل فى بعض الأحيان •

وقد يتصور البعض أن الرجل اختص بالأعمال الشاقة • والواقع

يشـــير الى غير ذلك • فقد جاء فى كتابات كثيرمن الأنثروبولوجيين كما اعتمدوا فى دراساتهم على الملاحظة المباشرة ما يســتنتج منه أن المجتمع البدائى يميل الى اسناد الأعمــال الشاقة العنيفة للمرأة وليس للرجل • والملاحظ أن نوعية العمل وليست القــوة العضلية المطلوبة له هى التى تحدد هذا التقسيم ، فمثلا فى الواحات الخارجة يشترك الرجل والمرأة فى جلب المياه من البئر ولكن الرجل يجلب الماء الذى تحتاج اليه الماشية ، أما المرأة فتقوم باستحضار الماء الذى تحتاج اليه فى الأعمال المنزلية •

وهناك اعتبــارات اجتماعية تتدخل فى تقســيم العمل بين الذكور والاناث منهــا المكانة الاجتماعية لكل منهمــا ونظرة المجتمع والقيمــة الاجتماعية لكل من الرجل والمرأة فى المجتمع • ومن الصــعوبة بمكان وضع مبدأ عام يمكن أن يصــدق على كل المجتمعات دون أن يكون له استثناءات كثيرة •

تقسيم العمل بحسب السن :

ويقوم هذا التقسيم وفقــا لطبيعة المراحل العمــرية التى يمر بها الانسان فى أثناء حياته وما تتميز به كل مرحلة من خصائص وقدرة على تحمل المشاق وما يتوقع أن يفترض أن يكتسب الفرد من خبرات • وطبقا لذلك تختلف المكانة الاجتماعية لكل مرحلة • ويتخذ هذا التقسيم شكل النظام الاجتماعى المتكامل فى المجتمعات التى يقــوم تنظيمها الاجتماعى على أساس ما يعرف باسم (طبقات العمر Age-sets) • وفى مثل هذه المجتمعات نجد أن الطبقات العمرية تترتب على نســق واحد بحيث تعلو احداها فوق الأخرى ، وتقف كل طبقة موقفا معينا من بقية الطبقات التى تعلوها أو التى تأتى دونها فى السلم الاجتماعى وتتصرف كل طبقة كوحدة متماسكة ومتمايزة عن غيرها وتمارس أعمالا محددة بالذات تتركها عندما تنتقل الى طبقة أعلى •

وتلجأ بعض المجتمعات الى اقامة بعض الشعائر والطقوس الخاصة التى تهدف الى تكريس الفرد للدخول فى طبقة معينة والقيام بالتزاماتها . وقد يشارك الفرد ببعض أعمال الطبقة قبل التحاقه بها ، الا أن التخصص لا يتضح الا بعد الالتحاق بالطبقة .

والأساسان السابقان لتقسيم العمـــل يعتبران من الأسس الطبيعية الى حد كبير غير أن تقسيم العمل بالمعنى الدقيق لا يتيسر الا عندما يصل المجتمع الى درجة من التنظيم يتمكن معها أن يختص كل عضو من أعضاء المجتمع بعمل معين (ومن أمثلة ذلك قبائل الباجاند Baganda التى توجد فى أوغندا وتمارس صهر الحديد بعد استخراجه ثم تقوم بسبكه وتبادله) وغالبا ما يتواجد هذا النظام اذا ما توافر للجماعة القوت واستطاع بعض الأفراد أن يتحرروا من العمل فى الأرض ليمارسوا أعمالا أخرى . أى أن الأدوار المختلفة يمكن أن تتوزع على أشخاص مختلفين يعملون لتحقيق هدف محدد ومتكامل فى نهاية الأمر .

* * *

التبادل فى المجتمعات البدوية

للشعوب البدائية وسائلها فى تقويم العمل والجهد البشرى . وهى لا تستخدم النقود فى غالبية الأحيان . وانما يقوم فيها نمطان أساســيان للتبادل ويتواجد بين هذين النمطين أنماط أخرى وسيطة .

والنوع الأول للتبادل يكون العامل المميز له هو نوع العلاقة بين أطراف عملية التبادل بين البشر . وفى الغالب يوجد بينهم علاقة صداقة أو جوار . بمعنى أن التبادل يتم بين اثنين من الأصدقاء ، ومن ثم يكون العلاقة بين السلع المتبادلة فى مرتبة ثانوية . وتؤدى عملية التبادل وظيفة

اجتماعية هى تقوية الروابط بين الأفراد والجماعات المشتركة فيها ويندر أن يدخل فيها عمليات مساومة • وهى غالبا ما تتخذ صور الهدايا التى تهدى فى نطاق المجتمع الواحد ، أو فى نطاق عدد من المجتمعات • وتتم أحيانا فى أثناء القيام ببعض الحفلات ويصاحبها ممارسة بعض الشعائر وتعرف باسم التبادل الطقوسى Ceremanial exchange وهى تختلف كثيرا عن التبادل الاقتصادى • وتتضمن نوعا من الالتزام بقبولها وبردها بصورة مبالغ فيها • ولذلك تسمى (الهدايا الملزمة) ومن أمثلة هذه النظم (البوتلاتش) وهذا النظام فى جوهره نظام اجتماعى يهدف الى اكتساب مزيد من الشرف والسمعة الطيبة عن طريق منح الغير ، والمبالغة فى الرد • وقد يلجأ الفرد الى اتلاف ممتلكاته باحراقها وينافس فى ذلك غيره لاحراجهم اذا لم يستطيعوا مجازاته الى النهاية •

أما التبادل عن غير طريق الهدايا فهو نوع من التجارة يعرف بالمقايضة أى استبدال سلعة بسلعة • وتظهر هذه الصورة من التبادل فى المجتمعات الأكثر تقدما وتعقيدا • ومع ذلك فهى ليست عملية اقتصادية بحتة • وانما تتأثر بالعلاقات الاجتماعية والقيم السائدة فى المجتمع • وتتخذ المقايضة ثلاثة أشكال رئيسية هى :

(ا) التبادل بين شخصين أو عائلتين لا تشتغل أيهما بالتجارة أصلا • وتكون السلع موضع التبادل من انتاج الطرفين المتبادلين • وغالبا ما تكون من الأشياء الزائدة عن استهلاك كل منهما •

(ب) التبادل بين شخص عادى وآخر من عائلة أحد التجار • وهذا معناه أن أحد طرفى التبادل يستبدل بمنتجاته أو مصنوعاته سلعا لا يتم صنعها فى نفس المجتمع وانما تجلب الى المجتمع بغرض التجارة • ويتم التبادل بشكل فورى •

(جـ) المقايضة المؤجلة • وفى هذا النوع يكون أحد طرفى التبادل من التجار ويقوم بتزويد عميله بكل ما يحتاج اليه من السلع الاستـهلاكية التى يجلبهـا من خارج المجتمع على أن يأخذ الثمن فى مواسم الانتاج المختلفة ومن المحصولات ذاتهـا • وحينئذ فقط تتم عملية التبادل • وهذا النوع من المقايضـة أقرب فى طبيعته الى التجارة الحقيقية • وان كان الثمن يؤدى عينا وليس نقدا •

***

الفصل الخامس

البادية فى المملكة العربية السعودية

كانت شبه الجزيرة العربية منذ القدم (ولا تزال) تعطى صورة صادقة خاصة بالمملكة العربية السعودية عن البدوى ، والحياة البدوية بما عرف عن هذه الحياة ، وعن هذه الشخصية من أنماط ومظاهر اجتماعية واقتصادية وثقافية .

فقد كانت هذه صورة الرجل العربى منذ القدم ، والجماعات البدوية التى تتكون منها اليوم غالبية سكان الجزيرة انما هى امتداد لتلك الحقب والمظاهر والأنماط . وقد كان النظام السائد يختلف عما هو عليه اليوم ، يختلف فى المنهج والأسلوب وكانت الجماعات البدوية ينضوى كل منها تحت اسم قبيلة معينة تنحدر من أصل عربى لها أغراضها ولها نظمها الاجتماعية التى تتفق أو تختلف من قبيلة لأخرى . كل قبيلة تشعر باستقلالها ووحدتها فى نظامها ، واعتمادها على أبنائها للذود عنها . يرأس كل قبيلة رجل أو مجموعة من الأفراد يحملون صفات معينة يمثلون السلطة العليا ، لهم الرأى وعندهم تحسم الخلافات ، ويهدفون جميعا الى الحفاظ على كيان القبيلة ورد الأذى والمخاطر عنها من قبائل أخرى تعتدى عليها رغبة فى ثأر أو نزعة لامتلاك مورد مياه أو الظفر بأرض لرعى الابل والأغنام .

سارت الأمور على هذا المنوال حقبة طويلة من الزمن الى آن ظهر

فجر جديد ظهر الاسلام بظهور سيد الأنبياء والرسل (صلوات الله وسلامه عليه) . وقد كانت الدعوة جديدة على العــربى فى شــبه الجزيرة ، فقد كانت القبائل لا يجمعها رابط ولا يوجد هدف ، فجاء الاســلام ، فكان الرابط وكان الهدف جمعت تحت رايته قبائل شتى ، وزالت فوارق شتى وأصبح المسلمون اخوة .

سار هذا المظهر الجديد من الحياة بعناصره وأنماطه يلعب دورا فى تغيير شخصية أبناء شبه الجزيرة العربية ويشــكل مظهرا جديدا للبنــاء الاجتماعى والسياسى . لقد مثل سيد الكون محمد صلى الله عليه وسلم ، والخلفاء من بعده صورة السلطة الدينية والسياسية .

هذه الصــورة الجديدة ، والتى اســتمرت فترة من الزمن أخذت تنعكس لأســباب واعتبارات تاريخية معروفة الى أن تجــددت الدعوة الاسلامية على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب ــ ومحمد بن سعود ، والتى لعبت دورها الاصلاحى المعروف ، والتى أخذت مظهرها الحديث بالتطور الشــامل فى حيــاة البدو فى المملكة بظهــور المغفور له الملك عبد العزيز ، وأنشأ المملكة العربية السعودية .

واذا بقيت جزيرة العرب محافظة على عزلتها وعاداتها عصورا طويلة فلم تكن تعبأ الا بحياتها الخاصــة ، وبالأمطار وبالمواســم ، وبحوادثها الداخلية . فالحياة حياة بادية ، والسكان بدو الا فى أماكن معينة ، ولكن ما ان قدر للمملكة أن تظهــر الا وظهرت تجربة جديدة ، ونظــرة جدية جديدة ، فالقبائل تخضع للســلطة المركزية ، ومظاهر الحيــاة عند بعض

الجماعات البدوية أخذت تتغير ، فظهر الاســتيطان (فى تجربة الهجر) وأخذت المدنية بصورها المختلفة تتواجد فنظر الى البدوى كمواطن له دوره الفعال كجماعات فى هذا الكيان .

ومن هنــا كان من واجب المسئولين بالمملكة أن يولوا هــذه الفئة الاهتمام الكافى لاسيما وهم يمثلون فئة كبيرة من المجتمع .

***

الأحوال الجغرافية والاجتماعية والحضارية والاقتصادية التى مرت بها البـادية

ان الظروف والعوامل الاقتصادية . والبنيان والتركيب الاجتماعى ، ثم المظاهر الحضارية جميعا متعددة متداخلة تلعب دورا هاما فى حيـاة مجتمعات البـادية ، ومن خلالهـا يمكن الحكم على الأشياء ، وتلمس الحلول للظواهر المختلفة .

أولا ــ الأحوال الجغرافية :

تبلغ مسـاحة المملكة العربية السـعودية حوالى (٢,٢٤٠,٠٠٠) كيلو متر مربع طول سواحلها (١٥٠٠) كيلومتر ، والمناخ جاف بصـفة عامة ، فهو رطب على الشواطىء وحار فى الجهات الأخرى . والفـروق اليومية بين الحد الأقصى للحرارة فى النهار والحد الأدنى لها فى الليـل تبلغ أحيانا ٢٠ درجة مئوية ، ونتيجة لهذه الفروق تظهـر عوامل التعرية ومن ضمنها الرياح التى تعتبر من العـوامل الفنية التى تعـوق فى بعض المناطق استصلاح الأراضى . أما الأمطار فيلاحظ أن عدم انتظام هطولها يؤثر تأثيرا بعيدا فى الحياة الاقتصـادية للبلاد . بالاضافة الى ذلك ففى حين أننا نجد بعض المنـاطق فى المملكة تسـقط الأمطار فيها فى فترات مختلفة فى السنة ، والتى تختلف أيضا من سـنة الى أخرى ، نجد مناطق أخرى لا تسقط فيها الأمطار لمدد تتراوح بين ٦ ــ ٧ سنوات . ولما كانت الأمطار تهطل فجأة وبشدة فى بعض المناطق فهى لا تسبب فقط الاضرار بالنباتات فى البلاد ، بل ان معـدل الأمطار التى تمتصها التربة هو معدل بسيط جدا . وبالتالى فان اختزان الطبقات الجوفية للمياه لا يعد كافيا ، وهذا يظهر بعض جوانب مشكلة توافر الميـاه فى البلاد حيث أن غالبية المساحات التى اصطلحت للزراعة تعتمد فى ريهـا على هذه المصـادر ، لذلك فقد اهتم المسئولون جديا بالقيام على انشاء عدة محطات للرصد ،

وذلك لمعرفة نظام هبوب الرياح معرفة علمية ومعرفة اتجاهاتها السـائدة وسرعتها ، وذلك للاعتقاد بأن عامل المناخ يلعب دورا هاما اذ يتسبب فى ظواهر التعرية الضـارة والعمـل على تبخير موارد المياه ، ومن عوامل التعرية والرياح الناجمـة عنها تبرز مشكلة زحف الرمال على المنـاطق الزراعية ، فهناك واحة الخرج (جنوب الرياض) تتعرض وخصوصا فى أجزائها الجنوبية والغربية لأخطار تقدم الكثبان الرملية المطرد ، وهـذه ظاهرة تلاحظ فى عدة مناطق فى المملكة •

والمناطق التى يقيم فيها البـدو تعتمد على ما أتاحته لهم الظروف الجغرافية من امكانيات ومقومات العيش والبقـاء ، هم أقرب فى معظم الأحوال من الوديان التى تنبع أو تجرى فيها الميـاه • أو مناطق أخرى تتجمع فيها المياه لفترات تطول أو تقصر على حسب كمية المطر وطبيعـة التضاريس •

ثانيا ـ الأحوال الاجتماعية والحضارية :

١ ـ توزيع قبائل البدو فى المملكة :

لدراسة توزيع القبائل البدوية بالمملكة يجب أن نراعى أن هنـاك مناطق ثابتة ومعروفة كوطن ومقر رئيسى لها • ويجب أن نراعى ناحيـة أخرى ، اذ كثيرا ما نجد القبائل تترك مواطنها الأصلية المتعارف عليها ، وتذهب الى مناطق أخرى •

والواقع أن البحث عن المراعى يفسر أسباب هذا الانتقال ، ولكن بصفة عامة نجد القبائل البـدوية تكون أقرب ما يكون الى الوديان ، والمناطق التى تتوافر فيها المياه • وخصوصا فى فترات الصيف الشديدة الحرارة • فالجماعات البدوية تتفرق وتتنوع بحثا وراء الكلأ والمراعى وحياة الأمطار فى أثناء فصل الخريف والشتاء ، وتضطر الى الأفول راجعة

الى منابع المياه الثابتة والى الواحات لتمضية فترة الصيف القائظ الشديد الحرارة .

والجدول الآتى يوضح لنا بعض أسماء القبائل ومناطق اقامتها فى المملكة :

اسم القبيلة	مناطق اقامتها بالقرب من الوديان
حرب	وادى الرمة ، وادى الخمص ، وادى الصفراء ، وادى جرير
عترة	وادى عرعر ، وادى أبا القور
قحطان	وادى تثليث
عتيبة	وادى الرشا
الحويطات	وادى فجا ، وادى الغال
الشرارات	وادى السرحان
شهران	وادى بيشة
بنو مالك	فى الوديان التى تنحدر من شمال جبل بئرة فى سلسلة جبال السراة .
العجمان	وادى المياه
الدواسر	وادى الدواسر
قريش	المغمس
البقوم	وادى تربة
سبيع	وادى رنيه ، وادى الرماح
آل مرة	حوص ، وجبرين
زهران	من رحوة البر الى ربوع قريش

٢ ـ مظاهر شخصية البدوى :

طوال العصور القديمة فى الجاهلية والاسلام ، والى وقت قريب كان العرب يعتزون ويتفاخرون بأصولهم القبلية الصافية التى تنحدر الى العربى الأصيل • كما نلاحظ حتى اليوم بعض القبائل يتفاخرون بأصالة نسبهم ، فالنسب يعتبر معيارا للمكانة الاجتماعية ، وتظهر القبيلة كمجتمع تحدده بعض المعايير منها •

(ا) انتماء أعضاء الجماعة الى أصل مشترك •

(ب) تضامنهم ، وشعورهم بوحدتهم ومصيرهم •

(جـ) المشاركة الجماعية للأرض ، أو مورد الماء ، أو المرعى •

(د) المشاركة والحفاظ للتراث والثقافة والتقاليد الواحدة •

(هـ) محاولة حفظ النسل العربى •

(و) اعتبار شيخ القبيلة ممثلا للسلطة فى القبيلة ، فهو المتحدث باسمهم المعبر عن رأيهم ، واليه ترجع الأمور لحسم الخلافات وذلك عن شعور بالثقة فيه ، والاحترام له والرضا بأحكامه طواعية •

وان كانت هذه الصورة مازالت باقية لدى بعض القبائل فى المملكة ، الا أن هذا لا يعنى انتشارها لدى جميع القبائل المنتشرة فى المملكة ، اذ أن بعض القبائل قد خفت فيها تلك الأواصر بالصورة القوية القديمة فأصبحت لا ترضخ لقوانين القبيلة ولا تتحكم فيها ظروف اقتصادية متقلبة ، ونظرا لاستتباب الأمن وعدم الاعتماد الكلى على البيئة الجغرافية ، وعلى الوحدة التى تربط القبيلة والتى كانت تتطلب من كل فرد فى القبيلة أن يبذل الكثير فى سبيلها •

لذلك فقد تغيرت بعض القيم والأنماط والمظـاهر الاجتماعية التى كانت سـائدة فانتشرت قيم وأنماط واتجـاهات جديدة ، وبدأت تؤثر تدريجيا فى الحياة الاجتماعية للبدو •

فبعد أن كان المعيـار للفرد أصالة النسـب فقط فقد أصبح باب السبق أمام الفرد مرهون بكفاءته ونشـاطه ، وبعد أن كان يحتقر المهن ويعتبرها تنقص من قدره ، أصبح الذى يعمل منهم تنظر اليه قبيلته نظرة تقدير واعزاز • بالاضافة الى ذلك يلاحظ أن الصراع القبلى الذى كان سائدا أخذ يتلاشى ــ وقد ساهمت الظروف السياسـية والاقتصادية فى التخفيف من هذا الصراع ، أضف الى ذلك أن سهولة المواصلات الآن تلعب دورا هاما فى التقريب بين هذه القبـائل ، كذلك استعمال أساليب حديثة ، فى التنقل ، فقد أصـبحت المواصلات من النقاط الرئيسـية فى اصلاح أوضاع البادية •

لذلك أصبحت تنظيمات القبائل البدوية ، وشبه البدوية ، قد بدأت تساير ركب التطور الذى طرأ على المجتمع السعودى ، ووصـل الى أن بعض القبائل بدأت تتخلى عن التمسك ببعض القواعد والتقاليد المتعارف عليها ، فالزواج من ابن العم (وان كان سارى المفعول) أصبح أقل مما كان عليه فى الماضى •

٣ ــ العامل الرئيسى فى الوحدة الاجتماعية للقبائل بالمملكة :

مما لا شك فيه أن تمسك القبائل بالأهداف الدينيـة كان له أثره الواضح فى ايجاد الوحدة الاجتماعية فى المملكة ، فوحدة البلاد السياسية والجغرافية والتى قامت فى أوائل القرن العشرين بفضل جهود المغفور له الملك عبد العزيز ، هذه الجهود وتلك السياسة التى اتبعت ، والتى نجحت فى انشاء « الهجر » ساهمت مساهمة فعالة فى ادماج القبـائل بعضها فى

البعض ، ثم ان الظروف الاقتصادية والاجتماعية الجديدة ساعدت أيضا على انجاحها ، وعلى خلق مجتمع جديد متجانس •

وما يبشر بالأمل الطيب هو ما نشاهده اليوم بظهور أبناء البادية من المجتمعات البدوية لتشترك فى تحقيق أهداف الأمة كلها ، وتعمل لخلق مجتمع جديد •

ثالثا ــ الأحوال الاقتصادية :

كانت الأحوال الاقتصادية للبادية فى الأزمنة السابقة أفضل مما هى عليه اليوم ، اذ كانت العوامل والظروف الطبيعية تعطى البدوى المجال لايجاد أحوال اقتصادية طيبة تعتمد على الأمطار ومصادر المياه المتوفرة ، فهذا جعله ينمى ثروته الحيوانية الى أن وصلت الى أعداد تعتبر فى فترة من الفترات أعدادا خيالية ، فهو يطعم نفسه من لحمها وألبانها ويكتسى من صوفها ، فهو فى بحبوحة من العيش يعد العدة طوال العام ليأتى الى السوق التى كانت ، وما تزال سوقا رائجة للثروة الحيوانية وخصوصا الأغنام ، هذه السوق هى الحج ، حيث تباع فيها أعداد ضخمة من الأغنام يخرج بعدها وهو فى أحوال مادية أفضل تجعله أكثر قدرة على توفير عوامل المعيشة ، وتجعله فى مستوى معيشى أفضل ، بالاضافة الى ذلك كانت بعض القبائل عند استقرارها لفترة من الزمن فى الوديان أو بالقرب من مواطن المياه تلجأ الى زرع بعض أنواع الزراعة والتى بالتالى تعطيه الفائدة الغذائية الطيبة •

غير أن هذه الحالة لم تستمر فى السنين الأخيرة بتغيير الأحوال المناخية فبعد أن كانت الأمطار الكثيرة تحيى مساحات شاسعة من الأرض وتصبح مراعى طبيعية ينتقل البدوى بأغنامه وابله بين جوانبها ، أخذت هذه النسبة تقل تدريجيا الى أن وصلت فى وقت من الأوقات الى صورة

الانعدام حيث مرت سنوات كان الجفاف طابعها . وأتت على المراعى فلم يبق منها الا الشىء اليسير ، وأخذت الثروة الحيوانية فى الهلاك بأعداد ضخمة .

وبعد أن كانت هذه الثروة تحتل المرتبة الأولى فى البلاد أضبحت لا تفى بالحاجة ، كل ذلك كان له أكبر الأثر فى اقتصاديات البادية .

رعاية البدو وتحضيرهم وتوطينهم فى المملكة العربية السعودية :

يعيش فى مناطق البادية فى المملكة العربية السعودية حاليا عدد غير قليل من السكان متنقلين فوق مساحة متسعة من شبه الجزيرة العربية ، وهم فى تنقلهم هذا يتصلون اتصالا محددا بمدن وقرى المملكة حيث يتأثرون بما يشاهدونه من تغير فى الحياة الاجتماعية ، كما ينتفعون بمختلف الخدمات العامة التى تقدمها الدولة حاليا بالاضافة الى الخدمات المباشرة التى تعمل حكومة المملكة على تقديمها وزيادتها والتوسع فيها تدريجيا لتوفير أسباب الحياة الكريمة لهم .

وسنحاول فى هذا المجال أن نعرض الخطوط الرئيسية لموضوع رعاية البدو وتحضيرهم وتوطينهم فى المملكة على ضوء البيانات والمعلومات والاحصاءات المتاحة عن هذا الموضوع .

اولا ــ البداوة فى المملكة العربية السعودية :

يقيم البدو فى المملكة العربية السعودية عادة بصفة مؤقتة أو دائمة بمناطق الوديان ، سواء التى تنبع منها ، أو تجرى فيها المياه .. ففى المنطقة الغربية حيث ينبع وادى الرحلة من قرب المدينة المنورة ، وتخترق سهولة نجد ثم ينتهى الى كثبان الدهناء الرملية توجد قبيلة حرب ، كما توجد بعض أفخاذ هذه القبيلة الكثيرة العدد فى وادى الخمس ،

ورضوى ، وفى المنطقة الشرقية حيث يوجد وادى المياه توجد قبيلة العجمان وفى وادى جيزان ووادى النبق توجد قبيلة بنى بللى ، وفى وادى الدواسر توجد قبيلة الدواسر حيث يرحل أفرادها الى الأفلاج وتحتل مجموعة الوديان التي تنحدر من سلسلة جبال طويق ، وفى وادى بيشة توجد قبيلة وادى شهران وفى الجنوب الشرقى من المملكة حيث يوجد وادى الهسباء توجد قبيلة المرة .

وتتوزع الجماعات البدوية عادة على المكان الذى ينبت فيه الكلأ فى أثناء الخريف والشتاء ثم تضطر للرجوع صيفا للواحات حيث تستقر هناك بجوار المياه لشدة الحر ، وتسمى مجموعة الأراضى التى تستقر فيها فى أثناء الصيف بديار القبيلة .

ويكون البدو حوالى ٣٠٪ من سكان المملكة العربية السعودية وتتفاوت نسبتهم من منطقة الى أخرى ، فنسبة البداوة فى منطقة نجد ٥٠٪ (تتفاوت بين ٢٢٪ كما هو فى بيشة ، و٨٦٪ كما هو فى العسيرة) وتبلغ نسبة البدو فى المناطق الساحلية ٢٠٪ (ومن ٢٤٪ فى المدينة المنورة الى ٢٪ فى جيزان) وتحتل كل من قبيلتى عجمان والدواسر أكبر مساحة أرضية أو تحتل كل منهما ديارا دائمة تبلغ مساحتها ٣٠٠ كيلومتر مربع[١] .

وتضم القبيلة عادة جماعات داخلية تدعى : البطن ، والفخذ ، والعشيرة والفصيلة والرهط ، وتعتبر القبيلة جماعة متماسكة تتصف بالتضامن ، وبالشعور بروح الجماعة ، ولكل فرد أو مجموعة من الأفراد فيها دور معين تقوم به ، فهى عبارة عن مجموعة من الأفراد المتكاملة .

---

(١) من واقع ما ذكره المؤتمر التاسع للشئون الاجتماعية والعمل للأمانة العامة لجامعة الدول العربية ــ القدس ١٣٨٥ (١٩٦٥) ص ٣٧٨ .

وتتميز بدرجة القرابة العالية وادراك أفرادها لوحدة ماضيهم ، ومصيرهم ، كذلك تعتبر ملكية الأرض جماعية ، فالأرض عادة ملك لجميع أفراد القبيلة ، وعلى أفراد القبيلة مجتمعين مسئوليات كثيرة أهمها : المحافظة على سلامة الأرض ومواردها من أى اعتداء خارجى ، واستتباب الأمن والنظام بين أفراد القبيلة ، وكذلك المحافظة على التراث الاجتماعى للقبيلة ، وحفظ صفاء نسلها بقدر الامكان .

وللبدوى صفات مميزة عن سكان الحضر ، أهمها : الاخلاص لقبيلته والأمانة والصدق فى القول ، وعدم تقبل الاهانة ، وعدم الخضوع للجبر ، وحرية الكلام ، كما أنه من صفاته الواضحة : الانتقام ، والأخذ بالثأر ، وحب حرية الانتقال من مكان الى آخر ، ويعتز البدوى اعتزازا خاصا بأصله ، ونسبه ، فكثيرا ما يحفظ البدوى أصله من أجداده ، ويفتخر به وبأصله .

ثانيا ـ توطين البدو فى المملكة :

لا تعد مسألة توطين البدو وتحضيرهم موضوعا جديدا فى المملكة العربية السعودية ، ففى الامكان التأكيد بأن فى منطقة نجد ـ ذات الظروف الجغرافية والاجتماعية الصعبة ـ بدأت منذ (٤٢) سنة احدى التجارب الأولى فى العالم المعاصر لتوطين الأهالى واستثمار الأراضى .

واذا ما اخترق اليوم المسافة المنطقة التى تقع بين صفرة وسرار ، أو بين عين دارة وعرطوبة ، يقع نظره فى قراها الكبيرة على بيوت ومساكن مبنية ثابتة ، ولو أنها تبدو وقد هجرت بعض الشىء ، ففى هذه المراكز السكنية التى شيدت على وجه السرعة ، سكنت فيها منذ أكثر من (٤٠) سنة عشرات الآلاف من أفخاذ قبائل بنى خالد وعجمان وبنى هجير ومطير وعتيبة وشمر ، كل ذلك يعد دليلا قاطعا على ارادة الانسان

ورغبته الأكيدة فى وضع حد لحياة البداوة والترحال والتوطن والاستقرار .

ولكن ونحن فى صدد مرحلة هامة من مراحل تطور البدو الاقتصادى فى المملكة يجدر بنا أولا مناقشة الأسئلة الآتية :

١ ــ هل يحسن العمل فورا على توطين البدو فى المملكة .. أو يكون ذلك تدريجيا كمرحلة من مراحل التطور الحضارى ؟

٢ ــ ما هو العمل الذى يمكن أن يقوموا به عند التوطين ؟

٣ ــ هل التوطين معناه تقدم اقتصادى واجتماعى للبدو ؟

وللاجابة على ذلك تجدر الاشارة الى أنه يوجد كثير من الآراء المتضاربة فى هذا الموضوع ، فبينما يرى بعض التوطين السريع ، ويرى الآخرون أن يكون هذا العمل تطوعيا وتدريجيا ، أى بعد اقتناع البدو بأهمية التوطين لهم ، وقيامهم بذلك مختارين ، ولا يمكن أن يأتى ذلك الا باقتناعهم بأن موارد أخرى عن طريق التوطين تساعدهم على الحصول على دخول أوفر .

ومن الواضح أن عدم انتظام سقوط الأمطار فى مواسمها يؤثر تأثيرا واضحا على المرعى .. ففى مواسم كثيرة يكون سقوط الأمطار شحيحا جدا .. مما يسبب نقصا واضحا فى الانتاج وهزات كبيرة لاقتصاديات البدو يجعلهم يتطلعون الى حياة أكثر استقرارا من الناحية الاقتصادية ، كما أن استخدام السيارات كوسائل للتنقل قلل كثيرا من أهمية الجمال كأداة للتنقل . كما أن الحكومة السعودية تقوم بتحضير الكثير من وظائف القبيلة ، فالأمن والنظام أصبح من أهم واجبات سلطة الدولة ،

كل ذلك أنقص من كيان القبيلة كوحدة سياسية اقتصادية متماسكة ومتكاملة .

ويتضح من ذلك أنه لابد من توطين البدو .. ولكن يشعرون هم أنفسهم بالحاجة الى التوطين . الا أن التوطين يجب أن يكون تدريجيا ، وعلى أسس مدروسة تكفل الابقاء على التضامن وعلى الشعور بروح الجماعة وعلى الاحتفاظ بصفات البدوى الحضارية التى احتفظ بها على مر الزمن : كتصوراته الخاصة بالنسبة للعرض والشرف ودور المرأة فى حياته والكرم والنخوة ، وتسلسل السلطة فى القبيلة ، كذلك يجب مراعاة الأعمال التى يجيدها والتى تعود عليها ، وتفادى الأعمال التى يأنف منها أو التى لا يأنفها ويعتقد أن ممارستها عيب مثل العمل اليدوى : كالصناعات اليدوية والميكانيكية ، أن هذا العمل يحتاج الى فترة من الاقناع والتعليم حتى يتعود عليه ويألفه .

والأعمال التى يمكن أن يقوم البدوى بها بعد التوطين والموجودة حاليا فى المملكة يمكن استعراضها بايجاز فى الآتى :

١ ـ الصناعة :

ان أهم صناعة فى المملكة والتى توجد على نطاق واسع هى صناعة البترول ، وقد درب بعض البدو فعلا على صناعة البترول ، وهم يعملون فى هذه الصناعة بكل كفاءة ومهارة كما أن من المحتمل مع التطور الاقتصادى السريع فى المملكة تشغيل أعداد كبيرة منهم فى الصناعات الجديدة والتى بدأت من سنوات قليلة والصناعات المزمع انشاؤها قريبا مثل : الأسمنت ، الحديد ، الصلب ، المعلبات ، مشتقات البترول ، الجلود ، النسيج ، غزل الصوف ، السجاد ، التمور ، والمياه الغازية ، مما يمهد الطريق لتشغيل أعداد أخرى كبيرة من شباب البادية .

٢ ـ الزراعة :

تبلغ مساحة أراضي الرعى فى المملكة (٩٠) مليون هكتار ، فى حين أن الأراضى الزراعية تبلغ (٣٠٠٠٠٠) هكتار ، ومن الممكن انشاء قرى جديدة حول منابع المياه ، واستصلاح مساحات أخرى من الأراضى الزراعية •

ان ذلك سيساعد على استيطان البادية ، وسيساعد مساعدة كبيرة فى زيادة الدخل القومى من الزراعة ، والاستغناء عن كثير من الانتاج الزراعى المستورد •

٣ ـ تربية الحيوانات :

يمكن الاستفادة من خبرة البدوى فى هذا المجال ، وتطور تربية الأغنام والأبقار والدواجن والأرانب على نطاق علمى سليم ، ومن السهل أن تكون المملكة فى القريب العاجل من أهم الدول المصدرة للحوم الطازجة والمعبأة ، وخصوصا أنه يوجد احتياج لها فى البلدان العربية المجاورة •

٤ ـ الصناعات اليدوية والزراعية :

لاشك أنه مع التقدم الحضارة للمملكة تزداد الحاجة لانتاج هذه الصناعات مثل : السجاد والمنسوجات القطنية والصوفية والأحذية ومنتجات الألبان ، وغيرها ، فلو أمكن تغيير اتجاه البدوى بالنسبة لهذا النوع من العمل ، وتدريبه عليه ، لكان هذا مجالا حيويا لتشغيله ولمساهمته فى النهوض باقتصاديات البلاد •

ونقطة أخيرة ، يجب العمل جنبا الى جنب مع توطين البدو على اختيار الصالح من الأرض الزراعية والمجاورة لمنابع المياه لاستغلالها

استغلالا كثيفا يعرض على الدولة المساحات الأخرى من الصحارى التى ستصبح عديمة الانتاج بعد توطين البدو ـ كما يجب أن تسير المشروعات الاجتماعية والصحية والعمرانية والتعليمية جنبا الى جنب مع مشاريع التوطين مع توفير الوسائل التى تساعد البدو على الاحتفاظ بصفاته الحضارية الأصيلة ، وبذلك تضمن أن توطين البدوى سيعمل على السير به الى الامام اقتصاديا واجتماعيا وحضاريا .



مشروعات وجهود الدولة لرعاية البادية وتوطينهم

أولا ــ تنمية البادية :

بدأت المملكة منذ وقت طويل فى ادراك مسئولية الدولة بالنسبة للبادية وتبين أنه من الطبيعى أن تكون عمليات التنمية للبادية مختلفة فى طبيعتها وجوهرها عن عمليات التنمية للمجتمعات المحلية المستقرة التى اندمجت فعلا فى الوطن .

وفى ضوء ما أدركته الدولة من ضخامة حجم موضوع البادية ورعايتها وتنميتها والجوانب المتعددة لهذا الموضوع كان من الضرورى أن توضع مجموعة من المبادىء الأساسية التى تسير عليها الجهود التى تبذل فى هذا المجال .

وان كانت هذه المبادىء فى مجموعها نظرة فلسفية الى هذا الموضوع المتشعب وتنظر الى ظاهرة البداوة ، لا على أنها مجرد مشكلة سطحية تعالج بسذاجة وبأسلوب لا يتفق مع وزنها الحقيقى ، بل هذه المبادىء تعتبر ظاهرة البداوة موضوعا حيويا يتصل اتصالا مباشرا وعميقا بصميم الكيان القومى لكل بلد عربى .

لهذا لا يمكن أن يتناولها البحث على أساس مجرد تصفيتها عن طريق التوطين أو التهجير أو نقل البدو الى مجتمعات كبرى تمتصهم وتنهى مشكلتهم ، بل يجب أن تبحث ببصيرة متعمقة قادرة على أن تحلل ، وتصل الى أغوار الظاهرة ، فتعالجها فى ضوء ما يقتضيه التماسك والولاء للكيان القومى نفسه ، فاذا تبين أن مصلحة الكيان تقتضى تصفية ظاهرة البداوة ، فان الحلول التى تتخذ فى ذلك يمكن أن تقوم أساسا على عمليات التحضير والتوطين الجديد للبدو فى قرى ومدن كبيرة تذيبهم فى تركيبها الاجتماعى، وتغير بسرعة أو ببطء جميع الخصائص البدوية التى توارثوها جيلا بعد

جيل والتي بحق المنبع الأصيل والوحيد المتبقى للحضارة العربية بآدابها وتقاليدها وعراقتها التى لم يمسخها بعد الامتصاص الحضارى الذى حدث فى بعض أنحاء الأمة العربية عندما تعرضت بقوة وبعنف للحضارة الغربية فأخذت عنها لا الجوانب الطيبة فحسب بل والجوانب الضارة الهادمة لكثير من القيم والتقاليد العربية الصالحة .

أما اذا اتضح أن المصلحة القومية فى كل بلد عربى تتطلب الحفاظ على ظاهرة البداوة كآخر معقل من معاقل الحضارة العربية ، فان البحث لابد أن يتناول الموضوع فى اتجاه يخالف اتجاه التصفية ، فتعالج ظاهرة البداوة على أساس ادماج المجتمعات البدوية فى المجتمع القومى واشراكها فى سائر مناشطه وتمكينها من المساهمة بقوة وفاعلية فى برامج التنمية القومية بشقيها الاجتماعى والاقتصادى .

فاذا أخذنا بالمبدأ الأول ، وهو تصفية الظاهرة البدوية وتهجير البدو ، كأفراد أو جماعات فقدت مقومات الحياة ليعيشوا فى أجواء اجتماعية لم يألفوها وربما بوعى أو بدون وعى يستنكرونها ، فاننا بذلك نكون قد فقدناهم (على الأقل الأجيال الحاضرة منهم) كمواطنين سعداء يعتزون بما هم عليه من خصائص وقيم آمنوا بها على مر الزمن ، وحولناهم الى مواطنين تزعزعت ثقتهم بأنفسهم وأصبحوا عالة على المجتمع مما يعوق تكيفهم الحضارى الجديد . بل وقد يؤدى بهم الى المقاومة النفسية لعمليات التكيف الجديد .

وفى هذه الحالة قد يصبحون عناصر اضطراب ومشكلات اجتماعية بدلا من أن يكونوا عناصر قوة وفاعلية فى المجتمعات الجديدة التى ينزعون اليها .

أما اذا أخذنا بالمبدأ الثانى فان الأمر يختلف ، فان البدوى لن ينظر

اليه الا على أساس أنه مواطن يعتمد عليه وطنه ويثق فى قدراته وامكانياته، وأن بلده الكبير يريد أن يعاونه كما يعاون سائر المواطنين لكى يمكنه من أن يؤدى الى المزيد من الانتاج والمزيد من الجهد الصالح لمصلحة وطنه .

لذلك فان المملكة تدعو الى الأخذ بالمبدأ الثانى ، وفيما يلى المبادىء التى تدعو الدولة أن يسير منهج البحث فى اطار المبادىء التى تكون فى مجموعها فلسفة العمل فى شئون البادية :

١ - تنمية وتعمير البادية ، لا تهجير أو تحضير البدو :

التنمية أصبحت فى مفهومها العريض الواسع عملية بناء للقوة الذاتية للمجتمعات بحيث تصبح قادرة على النمو ، والنهوض التلقائى دون عون كبير .

فالتنمية أصبحت مصطلحا يشير الى الاهتمام بالانسان كطاقة مبدعة ، وقادرة أودعها الله سبحانه وتعالى ، استعدادات وقدرات بناءة تستطيع أن تغير وجه الحياة ، فاذا ما نالت التوجيه والرعاية السليمة انطلقت هذه الاستعدادات والقدرات وأصبحت قادرة على صنع التقدم .

كما تعنى التنمية أيضا بالموارد الطبيعية ، فتبحث عنها وتستكشفها ، وتقدر امكانياتها ، وتنظم الناس لينموها ويحسنوا الاستفادة منها ، والتنمية كذلك عملية لا تنتهى ، فهى مستمرة باستمرار الحياة نفسها ، وهى تفتح أفقا بعد آخر ، وتضفى على المجتمع الانسانى نوعا من الفاعلية يجعله جوا اجتماعيا صالحا لتنشئة الأجيال وتدريبها على فنون المواطنة الصالحة ، ومن ثم تزداد باستمرار طاقات المجتمع على النهوض والارتقاء .

والتنمية لا تعنى بجانب من حياة المجتمع دون آخر ، بل هى تنظر الى المجتمع من جميع مناشط الحياة فيه ، فهى نظرة كلية مترابطة تؤمن

للبادية والبدو حاضرا يحترم كيانهم ويستثير طاقاتهم ، كما تؤمن مستقبلا مملوءا بالأمل والطموح •

٢ ـ اندماج مشروعات وبرامج تنمية البادية فى خطط التنمية القومية :

ان انعاش البادية لا يجوز أن يأخذ وضعا ثانويا ما دمنا قد أكدنا أهميتها فى الكيان القومى ، وحق المواطنين البدو فى أن يصبحوا مواطنين مساهمين فى النهوض الشامل لأوطانهم ، كما أن مشروعات وبرامج انعاش البادية لابد بالضرورة أن تكون متشعبة الجوانب بالشكل الذى يستدعى أن تلقى الاهتمام الكافى من أجهزة الدولة الفنية فى قطاعات الزراعة والتجارة والصناعة والشئون الاجتماعية والمواصلات وغيرها •

٣ ـ أن تسبق الدراسات الواسعة لشئون البادية والبدو عمليات تخطيط المشروعات والبرامج :

وذلك بأن تبذل الدولة كافة ما تستطيع من جهود لاجراء بحوث ودراسات واسعة للموارد الطبيعية فى البادية وامكانيات استغلالها وتطويرها ، وكذلك اجراء البحوث والدراسات الاجتماعية والحضارية للمجتمعات البدوية ، لأن عمليات تنمية وانعاش البادية لابد أن تستند على حقائق دقيقة والا تعرضت برامجها ومشروعاتها للفشل والضياع •

كما أن التنمية والانعاش لابد أن تقوم على أنواع جديدة من العلاقات والقيم الاجتماعية الجديدة التى تأخذ فى اعتبارها الأوضاع الاجتماعية البدوية القائمة وذلك حتى لا تتضارب معها ، وتستنفد فى ذلك الكثير من الجهود التى يجب أن تكرس لعملية الانعاش نفسها •

٤ ـ التجريب قبل التعميم :

ان مشروعات الانعاش يجب أن تمر أولا بمراحل تجريبية قبل تعميمها أو التوسع فيها حتى يمكن تدارك أية عيوب تطبيقية قد تسىء

الى عملية تنمية البادية كلها ، أو قد تؤدى الى اشاعة جو من اليـأس فى نفوس البدو وفى نفوس العاملين معهم .

فتنمية البـادية عملية كبيرة ضخمة تدعو الى الحـرص فى تقـرير ما يجب عمـله من مشروعات وبرامج ، والاسراع أو التسرع فى اجراء المشروعات على مستوى التعميم قبل التأكد من صلاحيتها على مسـتوى التجريب أمر لا يحسن الأخذ به فضلا عن الصعوبات الفنية والتكنولوجية التى تواجه تنمية البادية تحتم اجراء التجارب والبحوث الكافية للتغلب عليها والتأكد من سلامة الطرق والوسـائل التى تستخدم فى ذلك قبـل تطبيقها على نطاق واسع .

٥ ـ توفير العاملين فى تنمية البادية بالاعداد والمستويات الكافية :

والعمـل فى التنمية يتطلب نوعا من العـاملين يختلف عن غيره من مقوماته الفنية والنفسية وفى مدركاته لتداخل عوامل كثيرة اقتصـادية واجتماعية وبيئية وثقافية فى عمليات التنمية .

ولذلك فعند وضع أية خطة قومية شاملة لتنمية البـادية ، لابد من الضرورى أن تتضمن فى مخططاتها موضوع توفير واعداد الفنيين وانشاء معاهد أو مراكز لتدريبهم ، واكسـابهم الخصائص اللازمة للعمـل فى البادية .

٦ ـ لا مركزية فى التنفيذ :

ولما كانت البادية مترامية الأطراف ، واتصـالاتها بالأجهزة المركزية ليست مهيأة بالدرجة التى تسمح لتلك الأجهزة الاستجابة الفورية لمطالب العمل فى التنمية ، فانه يحسن أو يوضع تنظيم ادارى لمشروعات وبرامج البادية يكفل توفير أجهزة محلية مزودة بالامكانيات اللازمة لتتولى مهام التنمية ، وأن تعطى من الصـلاحيات ما يمكنها من الاستجابة الفعـالة

المباشرة لتطورات العمل فى تنمية البادية دون الرجوع باستمرار للأجهزة المركزية الا فيما يرتبط بشئون التخطيط أو رسم السياسة العامة أو استقدام الخبراء أو ادارة الأعمال وتأمين متطلباتها المادية ، والاشراف عليها ، فيفضل أن تقوم بها أجهزة اقليمية أو محلية معدة اعدادا كافيا لتولى هذه المسئوليات •

٧ ـ اشتراك البدو فى التنفيذ والاشراف :

ان مشروعات وبرامج تنمية البادية لابد أن تسمح فى تخطيطها باشتراك البدو ممثلين بقادتهم ومندوبيهم فى متابعة التنفيذ ، والاشراف عليه وابداء الآراء والملاحظات والمقترحات ، ولكن ذلك كله لابد أن يكون فى المراحل والمستويات التى تراها الأجهزة التخطيطية مناسبة لاشتراك البدو •

ثانيا ـ طرق وأساليب تنمية البادية :

هناك عدة طرق لتنمية البادية اتبعتها الكثير من الدول ، ويمكن أن نتعرض بالتحليل لهذه الطرق حتى تتضح لنا الصورة التى يجب الأخذ بها عند عملية التنمية للبادية • ومن أهم هذه الطرق :

١ ـ التوطين :

لابد أن ينظر الى التوطين فى وقتنا الحاضر على أنه تعمير للصحارى العربية لا تفريغ لها من قاطنيها البدو • فالتوطين لا يجب أن ينظر اليه على أنه ترحيل للبدو الى أماكن بعيدة عن مواطنهم الأصلية ، حيث تتوفر ظروف للحياة أكثر يسرا ورفاهية ، وانما لا بد أن يكون التوطين هو عملية توفير عناصر الاستقرار والاستغلال الاقتصادى المنظم للبدو فى نفس مناطقهم التى يعيشون فيها ، أو على الأقل فى أقرب الأماكن الى هذه المناطق •

ومعنى ذلك أن التوطين لا بد أن يتحول الى عملية تغيير لظـروف البادية الطبيعية ، واخضاعها للاستغلال الاقتصادى المثمر ، ولعل التقدم العلمى والتكنولوجى المعاصر أكبر عون فى تحقيق ذلك •

كذلك فان التـوطين لا بد أن يأخذ صـورة استشارية بجـانبيها الاجتماعى والاقتصادى فتقام المرافق الانتـاجية فى البقاع البدوية التى تثبت البحوث والدراسات صلاحيتها لذلك • ثم تتم بعد ذلك عمليـات توطين البدو حول هذه المرافق وتدريبهم ومساعدتهم فى اسـتغلالها وفى الوقت نفسه على تنظيم حيـاة مجتمعية يرضون عنها ، وتوفر لهم غرض الاستقرار والاندماج القـومى فى الكيان القومى ، ويتعين مع ذلك أن تنشأ مرافق للخدمات مخططة جنبا الى جنب مع مرافق الانتاج •

ويستلزم ذلك بالضرورة أن يسبق التوطين دراسات وبحوث واسعة النطاق ومسح شامل لمناطق البادية حضاريا واجتماعيا واقتصاديا وجغرافيا قبل رسم أو تخطيط مشروعات التوطين ، حتى لا تذهب الجهود المبذولة فى هذا المضمار هباء •

وللمملكة العـربية السـعودية فى مجالات التوطين تجارب قديمة وحديثة بل انها كانت من أقدم الدول العربية التى مارست عمليات توطين البدو ، فحين وفق الله تعالى الملك عبد العزيز بن سعود الى انشاء المملكة ، ورأى حال أهل البادية وما هم عليه من معيشة شاقة وعدم استقرار ، فكر فى طريقة تعينهم على ترك حياة الارتحـال والأخذ مما توفره لهم حيـاة الاستقرار من فرص الرزق المأمون والعـلم والتقدم ، فدعى البدو الى حياة الهجر وهى أماكن تتوفر بها امكانيات اقامة حياة اجتماعية مستقرة ، وسميت هذه الأماكن « بالهجر » اشارة الى أن من يترك حياة الارتحال الى حياة الاستقرار يكون قد هاجر من الجهل الى النور ومن حياة الرعى الى حياة الزراعة والفلاحة •

ولقد تعرضت هذه التجـربة الاجتماعية الرائدة الى ظروف لعـل أهمها عدم توفر الامكانيات الفنية ، والتكنولوجية مما أدى الى توقفها ، ولكن مهما كان الأمر ، فانها بلا ريب تجربة قامت على أساس سليم هو التوطين فى البادية نفسها لا ترحيل البدو • ومن هنا استمرت هذه الفكرة كامنة فى أذهان العاملين على تحسين ظروف البـادية ، حتى انها لا تزال تراود التفكير المعاصر بقوة ، ومن ثم فان التجارب الحالية لتوطين البادية أخذت بنفس الفكرة ، وان اختلفت فى الأسلوب ، وفى الاسـتعانة بكل ما يتيحه العصر من التقدم العلمى ، والتكنولوجى لتوفير كل الفـرص الممكنة لنجاح تجـارب التوطين فى المملكة (تجـربة مشروع حرض ، ومشروع واحة جبرين) •

المرحلة الأولى :

مرحلة الدراسـات ، والأبحاث الجيولوجية ، والمـائية ، والتربة لاختيار أنسب الأماكن لاقامة مجتمعات التوطين فى شتى أنحاء البادية •

المرحلة الثانية :

مرحلة الدراسـات ، والبحوث الاجتماعية لاختيـار البدو الذين يقبلون حياة الاسـتقرار الزراعى ، والذين يتمتعون بخصائص تجعلهم قادرين ، وراغبين فى الاسـتيطان الجديد ، وتقبـل علاقات اجتماعات جديدة •

المرحلة الثالثة :

مرحلة التخطيط المتكامل للمجتمعات الاستيطانية الجديدة على أن يتضمن التخطيط الجوانب التالية :

(ا) بث الدعوة بين البدو الصالحين للتوطين ، وتمهيدهم للحياة الجديدة •

(ب) البرامج ، والمشروعات الزراعية •

(ج) اتنظيم الاجتماعى الملائم •

(د) برامج الخدمات التعليمية ، والثقافية ، والصحية •

(هـ) برامج المواصلات ، وتعبيد الطرق بين مراكز التوطين الجديد ، وبين سائر أنحاء الوطن •

(و) برامج اعداد حاصلات البادية للتسويق ، ونقلها الى الأسواق المحلية والخارجية •

المرحلة الرابعة :

مرحلة التنفيذ ، وتصاحبها مرحلة تكييف البدو اقتصاديا ، واجتماعيا ، وحضاريا للأوضاع الجديدة •

المرحلة الخامسة :

مرحلة التقييم الفترى ، بمعنى أن تجارب التوطين لابد أن تقيم على فترات تضمن تلافى الأخطاء ، والتغلب على الصعوبات ، والمشاكل قبل استفحالها وقبل أن تقف حجر عثرة فى طريق نجاح هذه التجارب •

المرحلة السادسة :

مرحلة التوسع ، أو التعميم •• فحين تثبت صلاحية التجارب فانه يمكن بعد ذلك وضع مخططات التوسع فيها ، أو تعميمها فى أنحاء أخرى فى البادية •

٢ ــ تنظيم المراعى :

والتوطين كما هو واضح من سياق المناقشة السابقة يقوم أساسا على الزراعة ، ومعنى ذلك أنه لو استخدم وحده كأسلوب التنمية البادية ،

فانه فضلا عن تكاليفه الباهظة سوف يؤدى الى تصـفية نهائية للمراعى الطبيعية التى تقوم على مساحات شاسعة من صحارى البادية •

ولذلك فان تنمية البـادية لابد أن تتجه أيضا ، وبنفس القوة الى انعاش المراعى الطبيعية ، وتنظيم استغلالها ، وتيسير سـبل حمايتها من التناقص ، والتـدهور نتيجة للظـروف المنـاخية ، أو نتيجة لسـوء الاستعمال •

وترى المملكة أن يؤخذ بمبدأ انعاش المراعى الطبيعية كأحد الطرق الأساسية فى تنمية البادية ، ولعل المملكة العربية السعودية بالذات تشعر بأهمية المراعى لما كانت عليه حتى وقت ليس ببعيـد من أهميته كمصدر أساسى من مصادر الانتاج فى المملكة •

ولقد كانت المملكة الى وقت قريب دولة مصدرة للأغنام ، والماشية ، والجمال ، ثم تعرضت مراعيها مؤخرا لسنوات جدب ، وجفاف شـديد قضت على نسبة كبيرة من الثروة الحيوانية •

وعلى ذلك فان المملكة العربية السعودية تدعو الى الاهتمام بالمراعى الطبيعية بجانب الاهتمام بمشروعات التوطين ، اسـتغلالا للمسـاحات الكبيرة من الأراضى الصـحراوية التى تنبت فيهـا ، وحتى لا تنكمش المساحات العامرة بالسكان البدو ، وتتقلص لتصبح مجرد بقاع زراعية متناثرة بينها فراغ يقلل من تماسكها ، وترابطها •

ولقد دلت دراسـات خبراء المراعى ، والبادية الذين اسـتقدمتهم المملكة مؤخرا لدراسة حالة المراعى على وجود ظواهر ودلائل تبعث على الأمل ، والتفاؤل فى انعاش المراعى الطبيعيـة ، وفى اعادتها الى مراكزها السابقة كمصدر أساسى من مصادر الثروة القومية • ومن هذه الظواهر :

(ا) اتساع الرقعة التى تملكها البلاد من الأراضى ، والتى لا يزال يغطى أرضها بقايا مجموعات ، أو عشائر نباتية لها أهميتها من الناحية الرعوية ، مما يؤكد امكان اعادة الطاقة الانتاجية لهذه المراعى ، لو بذل فى سبيل ذلك بعض الجهد ، والمال للعناية بها ، وتنظيم الرعى فيها .

(ب) سرعة ظهور نباتات الرعى الجيدة ، واستجابتها للنمو السريع برغم ما صاحب ذلك فى بعض الأحيان من قلة الأمطار .

(ج) وجود الكثير من الدلائل على أن النباتات التى لم يسأ استعمالها بالرعى الشديد ، أو بتقطيعها للوقود لم تتأثر بمواسم الجفاف التى توالت عليها فى السنوات الأخيرة .

(د) كثرة أنواع النباتات المنتشرة فى مناطق الرعى المختلفة مما يسمح بامكان تنظيم دورات للرعى ، واعطاء مزيد من الفرص لزيادة الانتاج على فترات زمنية طويلة .

(هـ) وجود امكانيات حالية كبيرة (فنية ، ومادية) لتحسين وسائل استغلال وصيانة موارد البلاد الطبيعية من التربة ، والمياه السطحية ، والجوفية بمناطق متعددة بأنحاء مختلفة من البلاد ، وهى الموارد الأساسية لانتاج المراعى .

(و) ان كافة العوامل التى أدت الى تدهور المراعى ، ونقص انتاجها كالرعى الجائر غير المنظم ، وتقطيع الشجيرات ، والأشجار للوقود ، وكذلك ظواهر تآكل التربة ، أو ازدياد الملوحة فيها ، ثم نقص الأمطار فى بعض السنين ، كل ذلك يمكن التغلب عليه فى وقتنا الحاضر بوسائل علمية ، وعملية .

(ز) ان النقص الحالى فى تعداد الماشـية بسبب الجدب ، ونقص الأمطار فى السنوات الأخيرة سيكون أحد العوامل الرئيسية فى امكان تحسين المراعى لوجود فسحة من الوقت لنمو النباتات ، وتكاثرها فى فترة نقص عدد هذه الحيوانات المستهلكة للمراعى •

(ح) امكان تحسين السلالات الحالية ، خصوصا بسبب النقص الحالى فى عدد الماشية مما يسمح بنشر سلالات جديدة ، تكون لها الفرصة الكافية للتغلب على السلالات المحلية المحدودة العدد فى الوقت الحاضر •

(ط) تدل الأبحاث الحالية على توفير كميات كبيرة من المياه الجوفية فى مناطق كثيرة من المراعى التى ساءت حالتها بسبب نقص مياه الأمطار ، وبالتالى فانه يمكن الاعتماد على مخزون المياه فى باطن الأرض •

وفى ضوء ما سبق تقوم المملكة العربية السعودية بدراسات ، وأبحاث واسعة النطاق لتحسين المراعى على الأسس التالية :

(١) عمليات نشر وتوزيع المياه :

تعتبر الوديان بما تناله من موارد اضافية للمياه التى تتجمع من السفوح المحيطة بها فرصة مواتية تسمح بامكان زيادة موارد البلاد من الأعلاف ، والهدف من عمليات نشر وتوزيع المياه هو الاستفادة بهذه المياه المتجمعة فى شكل سيول باعادة توزيعها ، ونشرها على مساحات أخرى ، بحيث يمكن انتاج كميات كبيرة نسبيا من الأعلاف تسد حاجة القطعان فى بعض المواسم • وبالاضافة الى ذلك تلافى الأضرار الفادحة

التى تصيب المراعى والتربة فى الوديان من تجميع مياه الأمطار على شكل سيول مكونة للأخاديد التى تنحدر فى بطونها المياه الى حيث تضيع مع ازالتها للتربة السطحية بما تحتويه من خصب •

وتعتمد هذه العمليات على انشاء مجموعات من السدود الترابية التى تعوق اندفاع المياه ، ونشرها على مساحات مجاورة تختار بعناية للتوسع الرعوى •

وبالاضافة الى الفائدة المباشرة التى يمكن الحصول عليها من اقامة هذه السدود الترابية (قليلة التكاليف) فان اعاقة سير المياه الى مجارى السيول سوف يؤدى الى الحد من انجراف التربة ، كما يزيد من تسرب المياه السطحية الى باطن الأرض ، مما يزيد من امكانيات زيادة عدد الآبار ، وتصرفاتها ، وهو أمر له أهميته الكبرى فى تغيير ظروف المناطق الصحراوية •

(ب) تنظيم وحماية المراعى والعمل على تحديد مواعيد الرعى ودوراته فى المناطق المختلفة :

تستهدف بعض البحوث ، والدراسات الحالية فى المملكة الوقوف على مدى الامكانيات العملية لتنظيم هجرة القطعان ، وتنقلاتها ، وتحديد أعدادها كما تستهدف أيضا دراسة أنسب الطرق ، والوسائل لحماية المراعى •

فان ما حدث من اتلاف ، وتدمير للمراعى ، ثم ما أصاب الماشية من نقصان ، وتدهور خلال سنوات الجدب الماضية يشير الى أن من بين العوامل التى أحدثت هذه الأضرار سوء استخدام المراعى ، وتحميلها فوق طاقتها فضلا عن الاتلاف ، والتدمير للنباتات ، واستخدام كميات كبيرة منها للوقود •

وكنتيجة لتغير الظروف ، واستخدام الكثير من وسائل المعيشة

الحديثة حتى فى هذه البوادى ، ثم مع النقص الحالى الكبير فى تعداد الحيوانات كل ذلك يسمح بالسيطرة على استخدام المراعى بطرق منظمة ، ولو أمكن تجديد عدد الحيوانات التى ترعى بكل منطقة ، وتنظيم أوقات ، ومدد الرعى فيها ، فانه يمكن مستقبلا تلافى الأضرار التى أصابت المراعى فى الماضى •

والأساس الذى تقيم عليه فكرة حماية المراعى هو أن استمرار الرعى الجائر دون تنظيم لدورة الرعى فى منطقة ما يؤدى الى نقص نباتات الرعى المستديمة تدريجيا ، وقد يصل ذلك الى الانقراض • ومعنى ذلك أن حماية المراعى تستهدف تنظيم الرعى على فترات زمنية تسمح بنمو مجموعات النباتات ، وتكاثرها لتستعيد الأرض غطاءها النباتى فى الحدود التى تسمح بها طاقاتها الطبيعية •

(ج) بذر بعض نباتات المراعى فى مناطق مختارة تصلح لذلك :

ويرى الخبراء فى المملكة العربية السعودية بأن هذه العملية تعتبر من العمليات الرئيسية التى يمكن أن يعتمد عليها فى تحسين المراعى ، والتوسع فيها ، الا أنها تتطلب القيام بسلسلة من التجارب تحتاج الى وقت طويل ، والى فنيين يوالون عملية البذر ، ومراقبة النتائج ، غير أنه مع ذلك فان المملكة تولى هذا الموضوع عناية فائقة خلال تجارب الاكثار لشتلات النباتات المختلفة التى تصلح لهذا الغرض •

(د) انتاج أعلاف احتياطية واختزانها لوقت الحاجة :

مرت المراعى فى المملكة بفترات جدب طويلة فى السنوات الأخيرة مما ترتب عليه تناقص قطعان الماشية ، نتيجة لعدم توفر التغذية ، والأعلاف اللازمة ، حتى لقد وصلت الخسائر فى بعض المناطق البدوية الى ٧٥٪ من مجموع القطعان ، وفى مناطق أخرى وصلت الى أكثر من ذلك ، وبما الى ٩٠٪ •

وللاستفادة من هذه التجربة القاسية بدأ التفكير فى المملكة الى اعداد العدة لمواجهة مثل هذا الجدب مستقبلا ، ويأتى فى مقدمة الاجراءات التى يدور التفكير فيها انتاج أعلاف احتياطية باستعمال كل فائض يمكن تدبيره من المياه الجوفية ، ثم اختزان هذه الأعلاف ، وربما تصنيعها لاستعمالها فى الأوقات المناسبة لسد بعض النقص الذى قد تتعرض له قطعان الماشية .

(هـ) تثبيت الكثبان الرملية المتنقلة :

تواجه الزراعة فى بعض مناطق المملكة مشكلة سفى الرمال ، وتنقلات الكثبان الرملية وعلى سبيل المثال هناك جبهة عريضة من الرمال تزحف الآن على منطقة الأحساء ، وقد دلت بعض البحوث على أن هذا الزحف يسير بمعدل حوالى عشرة أمتار سنويا مما نتج عنه طمى بعض القرى بالرمال .

ويدور الكثير من البحوث ، والتجارب العملية ، والعلمية لتثبيت هذه الكثبان الرملية بزراعة حشائش المراعى ، وكذلك بطرق أخرى لا تزال فى مراحل التجريب ، وفى ضوء ما تسفر عنه التجارب سوف يتقرر ما اذا كان من الممكن التوسع فى هذه العملية حماية للمراعى ، والمضارب ، ومساكن البدو التى تتعرض لزحف هذه الرمال .

(و) زيادة عدد موارد مياه الشرب للقطعان وحسن توزيعها :

تشير تقارير الخبراء فى المملكة الى أثر تجمع أعداد ضخمة من الابل ، والأغنام حول الآبار للشرب ، وكيف أن ذلك يؤدى الى نضب هذه الآبار مع مضى الزمن .

ولذلك فان الجهات المختصة فى المملكة تبذل جهودا مضاعفة فى

الوقت الحاضر لزيادة موارد المياه ، وتنظيم توزيعها بما يتناسب مع حاجة كل منطقة .

ومن أهم المناطق التى تحتاج الى زيادة موارد المياه هى المناطق المعروفة بالمظمات ، وقد يأتى فى مقدمتها منطقة النفوذ الكبير ، والتى قد تزيد مساحتها عن عشرة ملايين من الأفدنة .

وهناك مجموعة من البرك القديمة (خزانات تجميع المياه) ، وأكثرها مردوم ، أو مطمور ، كما تشاهد آثار الكثير من الآبار المطمورة التى يدور البحث ، والمحاولة فى اعادة حفرها ، كما أن هناك فرصا كبيرة تحت الدراسة لتوزيع عدد من المراوح الهوائية على آبار كثيرة خصوصا فى منطقة وادى السرجان ، ويضاف الى ذلك الدراسات والبحوث ، والخطط التى توضع لعمليات اقامة السدود ، وحفر المياه التى أشير اليها عند مناقشة موضوع نشر ، وتوزيع المياه .

٣ ــ تعمير الصحارى :

يتبقى بعد التوطين المنظم ، وبرامج تحسين المراعى مساحات واسعة من الصحارى لا تصلح لكلا الغرضين . وتعمير هذه البقاع الشاسعة أمر يفرضه منطق العصر وتسمح به الامكانيات العلمية ، والتكنولوجية .

ومن الوجهة القومية تقف الصحارى المهجورة عقبة فى سبيل التماسك القومى ، فهى تفصل فصلا حادا بين أجزاء الوطن الواحد بطبيعتها الجغرافية القاسية .

ومن الوجهة الاقتصادية فان عدم ارتباط المناطق الزراعية ، والصناعية المنتجة بسبب ما تحدثه الصحارى من عوائق فى الاتصال المباشر السريع يجعل تطور الاقتصاد الوطنى جميعه يواجه الكثير من

المشكلات : منها صعوبة التسويق ، ومنها كساد الكثير من المنتجات الزراعية ، ومنها التلف الشديد الذى يصيب الكثير من البضائع ، والمحاصيل عند نقلها مسافات طويلة عبر الصحارى الوعرة .

وفضلا عن ذلك فان عصرنا الحالى قد أثبت أن الكثير من البقاع الصحراوية الجرداء برغم حرمانها من خيرات السطح قد أودع الله جوفها الكثير من الخيرات التى تتطلب الكشف عليها ، واستغلالها ، فلم تعد الصحراء كما مهملا ، بل أصبح ينظر اليها على أنها مجال واسع النمو ، والتطور الاقتصادى .

كما أن انتشار العمران فى هذه القفار يشيع على الحياة فى الوطن جوا من الانتعاش الاجتماعى ، والاقتصادى الشامل . فالخدمات العامة تصبح سهلة ميسورة ، وأوجه الرعاية الثقافية والاجتماعية ، تصبح فى متناول جميع المواطنين دون تفرقة .

وفضلا عن ذلك فان انتشار العمران يفسح مجالات كثيرة لظهور نشاطات اقتصادية ، وصناعية ، وتجارية جديدة .

لذلك كله فان المملكة تدعو الى بذل الجهود لتعمير الصحارى تدعيما للقوى القومية فى النهوض الاجتماعى والاقتصادى الشامل .

***



الباب الثانى

دراسة المجتمعات الريفية



الفصل الأول

علم الاجتماع الريفى(1)

تعانى دراسة المجتمعات الريفيــة ، أو علم الاجتماع الريفى ، من الغموض الشــديد بحيث يصبح من الضرورى اذا أردنا الوصــول الى فهم حقيقى أن نلقى الضوء التــام على موضوع هذه الدراسة وتطورها وحدودها .

يمثل البيئة الريفية مجالا للبحث بالنسبة لجميع العلوم الاجتماعية ، ولا يمكن أن تشكل دراسة هذه البيئة الريفية علما واحدا قائما بذاته . وقد كان من الطبيــعى أن يبدأ الجغرافيــون ، الذين يقومون بتحليــل العلاقات بين الانســان والبيئة الطبيعية ويدرســون التــوزيع المكانى للظواهر الانسانية بالاتجاه نحو الريف . ويعتبر الاقتصاد الزراعى فرعا

---

(1) انظر :

Henri Mendras, "Sociologie du Milieu rural", dans : Georges Gurvitch (ed.), Traité de Sociologie, T. 1, Presse Universitaire de France. Paris. pp. 315-331.

وهنرى مندرا من علماء الاجتماع الريفى البارزين فى فرنسا . ولد فى ١٦ مايو ١٩٢٧ ، ودرس القانون والتاريخ الاقتصادى والجغرافيا الاقتصادية وعلم الاجتماع فى جامعتى باريس وشيكاغو . وشارك فى عديد من البحوث السوسيولوجية ، أبرزها تلك التى تمت تحت اشراف جورج فريدمان ، ولورنرا ، وهو يعمل حاليا فى المركز القومى للبحوث السوسيولوجية .

وانظر كذلك :

د. محمــد الجوهرى وآخرين ، دراســات فى علم الاجتماع الريفى والحضرى ، دار الكتب الجامعية ، ط ٢ ، ١٩٧٤ ، ص ٢١٣ ــ ٢٤٤ فصل من علم الاجتماع الريفى بقلم الدكتورة علياء شكرى .

من الاقتصاد السياسى (بل ومن أقدم فروعه) • ويهتم التاريخ الاجتماعى بالماضى الذى كانت الزراعة تمثل فيه نشاط الغالبية العظمى من البشر ، ولذلك نجده يفسح مجالا كبيرا لوصف الحياة الريفيــة • كذلك يدرس الأثنولوجيــون أبنية عتيقة archaiques • وهى أبنية يشغل البحث عن الغذاء أو انتاجه فيها جميع البشر • وأخيرا فان سكان المدن وسكان الريف يشغلون أيضا اهتمام علماء النفس والديموجــرافيين •• الخ • وبما أن سكان الريف بشر مثل غيرهم ، فانهم يدخلون فى اختصاص كل علم اجتماعى ، ولكنهم يعيشون فى بيئة خاصة تتطلب نوعا من التخصص لدى الباحث كما تتطلب أحيانا تناولا مختلفا •

وهكذا ينبــغى على عالم الاجتمــاع الريفى أن يكون على دراية بمناهج وتقنينات جميع العلوم الاجتماعية ــ شأنه فى ذلك شــأن عالم الأثنولوجيا ــ اللهم الا اذا استعان بفــريق من المتخصصين المتنوعين • وقد أدرك جوستى فى رومانيا هذا المطلب تماما فأحاط نفســه بفــريق بحث متنوع (فيهم قانونيون ، وزراعيون •• الخ) ، وتمكن من خلال مســاعدة للتخصصات المتنــوعة فقط من انجــاز دراسة منهجية لقرى نيريج • وعلى العكس من ذلك نزع علماء الاجتماع الريفى الامريكيون الى الاقتصار على تخصص واحد[١] • ويضم فريق البحث المتعدد الأفراد عندهم متخصصين فى كل مشــكلة مثل : التغير ، والقيم ، وجمــاعات الجيرة ، •• الخ • ويمكن تفسير هذا الموقف بسهولة • فقد تطور علم الاجتماع الريفى أولا فى كليات الزراعة بفضــل مساندة وزير الزراعة الفيدرالى الذى كان يسعى الى استخدام أساليب علم الاجتماع لتحسين فعالية طرق التوسع الزراعى • وهكذا يمكن مقارنة علم الاجتماع الريفى

---

(١) عن الوضع الراهن للدراسات الاجتماعية فى الولايات المتحدة . انظر محمود عودة ، القرية المصرية بين التاريخ وعلم الاجتماع ، مكتبة سعيد رأفت ، القاهرة ١٩٧٢ .

الأمريكى من هذا الجانب بعلم الاجتماع الصناعى . فهو يندمج فى نمط معين من أنماط البناء الاجتماعى يستهدف تحسينه ، ونادرا ما يهتم بدراسة هذا البناء نفسه بشكل شامل . هذا علاوة على بعض المجتمعات الزراعية المحلية من وجهة نظرهم ، التى تعرف بالطابع « الشمولى » . واذا لم نضيق مجال علم الاجتماع الريفى بحيث نجعل منه علم اجتماع زراعى متخصص ، فانه يصبح من الممكن تعريفه عن طريق مجال دراسته وهو المجتمعات الريفية ، مع مراعاة أنه يتطلب معاونة جميع العلوم الاجتماعية لتحقيق النظرة المتكاملة الى مختلف جوانب الحياة الريفية . من هذا المنظور يضع عالم الاجتماع الريفى نصب عينيه تحقيق مهمة مزدوجة ، فهو يدرس بنفسه جوانب المجتمع التى تدخل فى تخصصه أو تخصصاته ، ثم هو من ناحية أخرى يعيد تفسير المواد التى يتيحها له الباحثون فى العلوم الأخرى ويربط بينها ويدمجها من وجهة نظره . ويبدو لنا ان هذا التعريف الجامع يفرض نفسه فى البلاد التى تمارس الفلاحة التقليدية وخاصة فى فرنسا . ويحتفظ المجتمع الكبير ، كما يستحيل حصره فى جماعة مهنية أو فى قطاع اقتصادى أو طبقة اجتماعية واحدة أو غير ذلك .

كما ينبغى على عالم الاجتماع أن يطوع مناهجه فى البحث لبناء المجتمع الذى يدرسه . وهكذا فسوف نرى أن القرية أو الاقليم (البلد) ستظل عبارة عن عوالم مستقلة استقلالا ذاتيا نسبيا ، وينبغى الاقامة فيها بالضرورة لفهم تماسكها الداخلى . ولا يمكن تصور القيام بدراسات موسعة حول مشكلة محددة فى تجمعات اقليمية أوسع ، برغم فائدتها ، دون وجود دراسات مونوجرافية محددة تتيح اعادة وضع المشكلة موضوع الدراسة داخل الكيان الكلى لمجتمع معين . على سبيل المثال فان نظرة أحد الفلاحين الى العالم مشروطة بداهة بالطابع المميز الخاص لقريته . وينبغى تحليل هذه الصفات المميزة الخاصة لفهم تلك النظرة .

وهكذا يتضح أن الدراسة المونوجرافية لقرية ما أو لبـــلد ما لا تزال من أكثر المناهج المثمرة بالنسبة لعالم الاجتماع الريفى •

كما أن اللجوء الى التـــاريخ يمثل ضرورة لازمة دائمة لدراســـة المجتمعات القروية التقليدية ، حتى وان كانت عرضة للتغير السريع • وقد بدأ ميدان علم الاجتماع التاريخى للريف الفـــرنسى ــ والذى ســـاهم المؤرخون جزئيا فى القاء الضوء عليه ــ يجذب انتباه علم الاجتماع[١] • ولن تمكننا الحدود الضيقة لهذا الباب من تناول هذا الموضوع ، بحيث نكتفى بأن نبرز أهميته الخاصة لدراسة المشاكل المتصلة بنشأة الظواهر الاجتماعية من ناحية ، وبالنسبة لأية محاولة لتفســـير الحاضر من ناحية أخرى •

واذا كان عالم الاجتمـــاع الريفى يرفض أن يضـــع حدودا فكرية لنشاطه ، فانه ينبغى عليه أن يضع حدودا لمجال البحوث التى يقوم بها ، وان كانت تلك الحدود تتوقف على البحث ، ولا يمكن تحديدها مسبقا ، فالانتقال من البيئة « الريفية » الى البيئة الحضرية يتم لاشـــعوريا فى منطقة هامشية تتبدل بصفة مستمرة • وسيكون من الملائم بالنسبة لكل اقليم القيام بدراسة هذه الظاهرة « على الطبيعة » وسنرى أن محكات التحليل والأنماط الوسيطة لم يتم بعد تحديدها بطريقة مرضية •

ولا يبقى أمامنا اذن سوى تحديد البيئة الريفية من حيث علاقتهـــا بالمدينة • وطالما لا توجد مدينـــة فلن يكون هنـــاك مجتمع ريفى بالمعنى الدقيـــق ولكن ســـيكون هنـــاك مجتمع « بدائى » أو مجتمـــع عتيق

---

(١) راجع وجهة نظر هنرى ليفيفر :
Henri Lefebvre, Les Communautés Paysannes Pyréneénes.

archaique • ويقــول ردفيــلد[1] Redfield عالم الأثنولوجيــا الأمريكى : ان البــدائيين يعيشون فى مجتمعات محلية محــدودة نادرا ما تضــم أكثر من مائة أسرة ، حيث يشــترك الجميع فى عمــلية توفير الغذاء • ويؤدى التماسك العميق القائم بين أفرادها الى رفض تام للعالم الخارجى • فأولئك الذين لا ينتمون الى الجماعة لا يعتبرون بشرا بمعنى الكلمة • والريفيون ، على عكس ذلك ، يعترفون بوجود مجتمع أوســع يحتلون موقعهم فيه • وفى العصور الوسطى ، حيث كان الطابع الريفى يسود المجتمع الكبير من جوانب كثيرة ، وكان القصر والاقطاع يمثلان واقعا اجتماعيا يختلف عن الفلاحين ، بحيث ان هؤلاء الفــلاحين كانوا يعترفون به على علاته ، وان كانوا لا يخضعون له الا بعناء شــديد • ومجمل القول أن المجتمع الريفى يعتبر باستمرار عنصرا فى مجتمع أوسع ، ويعد فى مجتمعاتنا المعاصرة التى تســيطر عليها المدينة عنصرا هامشــيا وخاضعا •

ولكن اذا كانت البيئة الريفية تستمد تعريفهــا بالضرورة من حيث علاقتها بالمدينة ، فان هذه البيئة تتميز أيضا ببعض الملامح السائدة التى تكسبها سمتها المميزة ، والتى تتمركز حولهــا الموضوعات الأساســية لأبحاث عالم الاجتماع الريفى •

***

---

(١) Robert Redfield. Peasant Society and Culture, An Anthropological Approach to Civilization, University of Chicago Press, 1956, p. 163.
وقد صــدرت ترجمــة عربية لهذا الكتاب أعدها الدكتور فاروق محمــد العادلى ، صدرت عن الهيئة العامة للكتاب ، فرع الاسكندرية ١٩٧٣ .

أولا ــ التأثير الطاغى للاتساع المكانى

تفرض البيئة الطبيعية نفسها بقوة على الانسان الذى يعمل فى الأرض • وقد حلل علماء الجغرافيا جميع العلاقات التى يمكن أن توجد بين المزارع والأرض • وحدد بيير جورج مؤخرا دراسات هؤلاء الجغرافيين (فى كتابه « الريف »)[1] • ولذلك فان عالم الاجتماع لا يهتم بوضع جغرافيا بشرية جديدة تحت اسم « الأيكولوجيا » • وسوف تتمثل مشكلته الجوهرية فى دراسة النتائج الناجمة عن خضوع المجتمعات الريفية للاتساع المكانى لتلك البيئة أكثر من حرصه على معرفة كيف خلق الانسان المعمور الريفى •

وقد استطاعت المدينة والصناعة أن تتحرر من هذا الخضوع بتركيز البشر والآلات فى مجال محدود ، بل وتحت سقف واحد أحيانا • فى حين يعمل المزارع فى مجال واسع حيث يستخدم الأرض التى تعتبر مادته وأداته فى الانتاج فى نفس الوقت • وسواء كان المزارع يسكن مدينة زراعية فى جنوب ايطاليا ، أو مزرعة منعزلة فى أحراش مقاطعة بريتون ، فان المسافة تعد بالنسبة له عنصرا رئيسيا • وهو يستطيع كما يشاء أن يقلل المسافة التى تفصله عن حقله ، ولكنه يبتعد عندئذ عن جيرانه • وهو بتوثيق روابطه بالأرض يبعد الروابط التى تربطه بالبشر الآخرين •

وقد ترك التاريخ فى البلاد القديمة أبنية تختلف من اقليم لآخر ، ولكنها أبنية ترجع الى عنصر اكتظاظ السكان • وبالتالى فهى تفتقر اليوم الى جوهرها المميز بسبب الهجرة الجماعية الريفية • وتعد الدراسات الدائرة حول الحد الأمثل للسكان فى المناطق الريفية ما زالت فى فرنسا

---

(١) Pierre George, La Campagne, Paris, P.U.F. 1956.

فى بداياتها بعد • وقد عرض أ • سوفى مقدماتها المنطقيـة النظرية عقب اجـراء بعض الدراسـات الاسـتطلاعية المحـلية • ولكن الجـوانب الديموجرافية والاقتصادية لهذه المشكلة اسـتطاعت أن تلفت النظر الى أهميتها وضرورتها العاجلة •

وقد كانت القرية أو مجموعة القرى تشـكل فى المـاضى عالما عديدا ومتنوعا بما يحقق له الاكتفـاء الذاتى والعيش فى اكتفـاء اقتصـادى وسكانى واجتماعى وثقافى نسبى[١] • وكانت كل أسرة ريفية تنتج كل شىء تقريبا لكى توفر احتياجاتها الأساسية • وكان الحرفيـون يقدمون الاحتياجات التكميلية التى كانت صـناعتها تتطلب تخصصا معينا • ولم يكن المرء بالطبع يذهب للبحث عن زوجة بعيـدا عن جاره المبـاشر • وبالتالى فان كل الحياة الاجتماعية كانت محصورة فى اطار القـرية أو « البلد » • وكانت كل قرية تطور ثقافتها الذاتية التى تختلف اختـلافا طفيفا عن ثقافة جيرانها •

وكان شرط هذا الاكتفاء الذاتى ، تحت ظل التماثل الظاهر فى نوع الحياة ، وهو تنـوع الأوضاع الاقتصـادية والعائلية والشخصـية • فالحرفيون ، وعمال الحرث الذين يملكون دواب للمحـراث الواحد أو لأكثر من محراث ، والعمال الذين يعيشون من عمل أيديهم ، ويملكون أحيانا منزلا أو قطعة من الأرض • وما هو الفرق فى وسط عمال الحرث بين ذلك الذى يملك زوجا من الأبقار وبين صاحب الضـيعة الذى يملك عدة أزواج من الثيران أو الخيـول ورب الأسرة الممتدة « وصاحب » عدد من « الزبائن » من عمال الصناعات اليدوية الذين كانوا يحضرون للعمل فى أرضه ويقترضون منه المحراث أو يتبـادلون معه خدمة ما •

---

(١) تشكل الملامح التى نقوم بتحليلها هنا نموذجا مختصرا جدا ينبغى أن يوضع من جديد فى داخل الآفاق التاريخية لكل منطقة ولكل مجتمع •

وقد وصــف علماء الأثنولوجيا دور ووظائف طبقــات العمر التى كانت تشكل فيه جماعات حقيقية داخل مجتمع القرية ، والشبان الذين يقومون باحياء الأعياد ، والكبار الذين يضمنون حسن سير الاقتصاد ، والقدماء الذين يحافظون على الميراث الثقافى الشامل • وكان كل جنس داخــل طبقات العمر هذه يقوم بالوظائف الخاصة التى كان يمليها عليه التراث ، كما كانت الأسر تنقسم فى التقدير الجماعى للقرية بين « الأسر الطيبة » bonnes Familles و « الأسر القديمة » Vieilles Familles ، والأسر الأخــرى ، وكان هــذا التقييم « الأخــلاقى » بالاضــافة الى التقييم الاقتصادى ، يحدد عمليات الزواج والعــلاقات اليومية • وهكذا كانت هناك مجموعة من الارتباطات التى تسمح بوضع كل فرد فى مكانه داخل سلم المجتمع القروى • ولم يكن هناك شخصــان على الاطلاق يملكان الصفات المميزة بالضبط بحيث كان لكل فرد دوره الخاص الذى يلعبه فى تحقيق التجانس الواضح للجماعة •

وكان يوجد على هامش هذا المجتمع القروى « الأعيان » والنبلاء أو « البرجوازيون » والملاك الذين لا يســتغلون أراضيهم بأنفسهم ، والأطباء ، والموثقون ، ووسطاء الأعمال ، وأصحاب المصانع ••• الخ • وينبغى أن نضم الى هؤلاء رجال الدين بالكنيســة ، كما ينضــم اليهم أخيرا ، وفى وضع خاص فئة المعلمين • وحيث ان هؤلاء يعيشــون على الأرض ، بشكل مباشر أو غير مباشر ، فانهم كانوا يعدون من القرية أو « البلد » التى كانوا يشتركون فى ثقافتها • ولا شك أنه كانت هنــاك مصالح كثيرة تجعلهم فى تناقض مع الفلاحين ، ولكن هؤلاء الفــلاحين سواء قبلوهم أو رفضــوهم ، كانوا يرون فيهم ، تحقيقا لمثــلهم الأعلى والصورة التى يستهدفونها فى الحياة ، ووســطائهم لدى المجتمع الكبير الذين يجهلون خفــاياه • وحيث ان الأعيــان وحدهم هم الذين كانوا يتزوجون من خارج « البلد » ويقيمون اتصالات بالعــالم الخارجى ،

فانهم لم يكونوا محصورين فى الحيز اليومى مثل القرويين الآخرين •
فكانوا بذلك يتجاوزون جماعة المعرفة الداخلية التى يعتبرون أعضاء
فيها •

وعرف هذا المجتمع القروى ذروة زيادته السكانية خلال القرن التاسع عشر ، وان اختلف هذا التوقيت بعض الشىء من اقليم لآخر • ثم اضطر عندما وصل الى نقطة عدم التوازن ، حيث لم تعد موارده تكفى سكانه ، الى الانفتاح على العالم الخارجى ، وتحطيم اكتفائه الذاتى • وكان العمال اليدويون غير المهرة أول من توجه ليعمل فى المدينة فى المصانع الناشئة • وتبعهم بعد قليل عدد كبير من الأعيان حيث شغلوا وظائف فى الجهاز الحكومى ، أو استثمروا أموالهم فى الصناعة • ولما كانت هذه الصناعة توفر منتجات بسعر أفضل أصبحت منافسا للحرفيين الذين اضطروا بدورهم الى هجر القرية • كما شهدت المدينة الصغيرة أيضا توقف مصانعها وهجرة أبناء الطبقة البرجوازية منها • وظل الفلاحون فقط فى « البلد » فى حين اتخذ أبناؤهم طريقهم الى المدينة • وهكذا انخفض عدد سكان المجتمع القروى الى النصف وأحيانا الى الثلث ، واقتصر على جماعة من المشتغلين بالزراعة • وبهذا فقد المجتمع القروى كثافته وتنوعه ، وهى أمور تمثل شروط استقلاله الذاتى الاجتماعى والثقافى • وتمكنت بعض الأسر لفترة من الزمن من جعل هذا المجتمع يستمر فى الحياة فى بعض القرى التى تناقص سكانها • ولكن دون جدوى ، فقد أدى تقدم وسائل النقل الفردية (الدراجة والدراجة البخارية والسيارة) بعد قليل الى اعطاء أبعاد جديدة للاتساع التقليدى ، واستعادت التجارة وأوجه نشاط القطاع الثالث (الذى يعمل فى التجارة والخدمات وخلافه •••) أهمية جديدة فى حياة الزراعة • وبذلك عادت الحياة من جديد الى الكفور والمدن الصغيرة التى فقدت وظائفها كعواصم للبلاد بشكل بطىء منذ نصف قرن • وتحدث أحيانا نهضة حقيقية لنفس

الكفر ، وأحيانا يتم انشاء مركز جديد يحل محل تجمع سكانى فى حالة موات • وهكذا يشهد عالم الاجتماع على الخريطة مولد بناء زراعى جديد له أبعاد تختلف عن أبعاد البناء السابق •

وكانت القرية فيما مضى هى الخلية الأساسية فى الريف الفرنسى • ولا شك أن هذه الخلية الأساسية ستكون فى الغد هى القسم Canton (١) • أو أية وحدة جديدة مماثلة • ونظرا لأن القرية يقطنها مزارعون فقط ، فانها تقتصر على كونها كفرا صغيرا غير قادر على المحافظة على مظهر الحياة • وبينما تشهد القرية ــ المركز والبندر أو المدينة الصغيرة ــ بناء مخازن تعاونية ومساكن ريفية ومدارس •• الخ • تتحول كنيسة القرية فى معظم الأحيان الى كنيسة خالية ، ويزداد الحديث عن اغلاق المدرسة وتجميع الأطفال فى سيارة أوتوبيس ليتجمعوا فى المدرسة الموجودة فى عاصمة القسم • فهل سيكون بامكان مقر العمدة أن يظل لفترة طويلة المؤسسة الوحيدة فى القرية اذا لم تكن هناك كنيسة أو مدرسة ؟ فقد بدأت بالفعل شبكة من الروابط الاجتماعية تربط بين المراكز عن طريق المؤسسات الزراعية (النقابات والتعاونيات وصناديق القروض) ومن خلال حركات الشباب والمؤسسات المتنوعة • كذلك تؤدى الحفلات التى تجتذب الشبان من راكبى الدراجات البخارية بعيدا عن قراهم فى حلقات الرقص الى تشجيع عمليات الزواج خارج منطقة الزواج الداخلى التقليدية •

ويظل الاتساع الكبير للبيئة الريفية ، يفرض تأثيره الطاغى على المجتمع الريفى ، ولكن نقص الكثافة البشرية وتطور وسائل النقل أدت الى تعديل أبعاده • ويظل من المهم بالنسبة للريفى أن ينتمى الى هذه

---

(١) أشبه ما يكون بالمركز فى مصر •

الناحية أو تلك ، ويظل عالمه الاجتماعى محدودا فى جزء منه بواسطة حدوده الجغرافية أكثر من حدوده الاجتماعية . وهكذا فان الدراسات النفسية الاجتماعية حول تمثيل مختلف الاتساعات المكانية ستقدم دون شك معطيات هامة : كيف تم ترجمة تحول الأيكولوجيا فى عقلية الريفيين ؟ وكان لابد من أن يطرأ تعديل هائل على صور المكان الذى يعيشه الناس سواء كان معروفا أو غير معروف (أو معروفا بطريقة خاطئة) . وقد أصبح الفلاح اليوم لا ينظر بنفس الطريقة التى كان ينظر بها جده الى الناحية التى يسكنها .

ثم ان للاتساع المكانى تأثيره الطاغى كذلك على العمل الزراعى . ويقال غالبا على سبيل المزاح ان الاستغلال الزراعى هو عملية مواصلات قبل أى شىء والواقع أن الآلة فى الصناعة تكون ثابتة عادة ، فى حين تكون المادة متحركة . أما فى الزراعة فيكون العكس ، فالآلة هى المتحركة بالنسبة للأرض . ويفسر لنا هذا ضآلة استخدام الآلة البخارية فى الزراعة . وكان دخل الجرارات البخارية التى بدأ استخدامها فى نهاية القرن الماضى فى المزارع الكبرى فى « ميدل وست » فى بوميرانيا لا يزيد الا بمقدار طفيف جدا عن دخل الجرار الذى يجره الحيوان . ولم تستخدم الآلة البخارية من الناحية العملية الا فى تشغيل آلة الدرس . ولذلك أصبح اسمها « الآلة » فى لغة الفلاحين الفرنسيين ، الذين أصبح استخدام الآلة بالنسبة لهم يعنى « درس القمح » .

وكان الموتور الذى يعمل بالوقود السائل (النفط) أول ما أدخل تغييرا جذريا فى العمل الزراعى ، يمكن مقارنته بالتغير الذى أحدثته فى دنيا العلاقات . وأعطى الجرار أبعادا جديدة للاتساع المكانى . وكانت الحقول تقاس من قبل بالمساحة التى يعمل فيها رجل ما هو وأدواته خلال النهار الواحد . أما اليوم فان الحقول تقاس بعمل الجرار أو آلة الحصاد

والدرس خلال الساعة الواحدة • وأصبح المزارع ينتقل بشـــكل أسرع فى حقول أوسع ولكن علاقته بالأرض كخير لا تزال فى أساسها هى نفس العلاقة • وآلة الحصاد والدرس وحدها هى التى حررت الانســـان من عبودية الاتساع المكانى • فهى بقيامها بمهمتين فى وقت واحد من حصاد ودرس للمحصول تنقل بشـــكل ما مجال درس المحصـــول الى الحقل وتدخر كثيرا من عربات النقل اليدوية لأعمال التفريغ وان كانت هـــذه حالة محدودة الانتشار •

وصحب ادخال ماكينات جديدة ادخال عمليـــات بيولوجية جديدة أيضا مثل : استخدام الأسمدة ، وزراعة العشب ، وانتقاء الماشية • كما أدى ترشيد تغذية الأرض والماشية الى زيادة انتاج هذه الأرض والماشية الى الضعف ، والى خمسة أضعاف أحيانا •

واذا كانت الثورة الصناعية الأولى لم تؤد الى تغيير الريف مطلقا ، واذا كان من الممكن أن تظهـــر الزراعة فى القرن المـــاضى ، على عكس الصناعة ، كملجأ للبطء وعدم قابلية التغير (اذ أن « شيئا لم يتغير منذ هيزيود ») ، فان الثورة التقنية الثانية قد فجـــرت على العكس « ثورة زراعية » حقيقية بعـــد ذلك وتطور الريف بأسرع مما تطورت قطاعات صناعية كثيرة • وارتفع عدد الجرارات فى فرنسا ، خلال عشر سنوات ، من خمسين ألفا الى خمسمائة ألف جرار •

وأدى غزو الأساليب التكنولوجية ، حتى لا نقول غزو العلم ، لعمل المزارع الى تغيير جذرى أيضا فى مواقفه ازاء الطبيعة • فقد كان الفلاح التقليدى يستخدم الآلات الطبيعية ، ولكنه لم يكن يسيطر عليها ، بل كان خاضعا لها • وكانت الأرض بالنسبة له عبارة عن ريف قديم مستبد ، وكان عليه أن يتحمل نزواتها • وعلى عكس ذلك نجد المزارع الحديث يسيطر على الطبيعة ويخضعها لرغباته ويطوعها وفق هواه • وأصبحت

الأرض عامل انتاج من بين عوامل أخرى ، ولم يعد يعلق على هذا العامل قيمة روحية خاصة • واكتسب عقلية تكنولوجية ، وأخذ يكتسب بعد ذلك تدريجيا عقلية اقتصادية • ولم يعد المشروع الزراعى فى النظام الاقتصادى الحديث موجها نحو اشباع احتياجات أسر ما ، بل أصبح موجها نحو الانتاج من أجل السوق • وخلص البعض من ذلك الى أن الزراعة كانت ستحذو حذو الصناعة وأنها ستتمركز فى مشروعات رأسمالية أو جماعية كبرى • ولكن التأثير الطاغى للاتساع المكانى وفشل الآلة البخارية أكدتا ، على العكس ، انتصار الاستقلال الأسرى ، ولا تتطلب أهم الآلات ، وهى آلة الحصار والدرس ، أكثر من ثلاثة رجال • كما أن استخدام عدة آلات فى وقت واحد لا يرفع الايراد بشكل ملحوظ •

وهكذا فان الاعتماد المتزايد لفن الزراعة على التكنولوجيا ، والذى يتطلب من المزارعين تخصصا أوسع ، يجد نفسه فى صراع مع الرغبة فى المحافظة على البناء الأسرى للمشروع • وليس المزارع رئيسا للمشروع ومديرا تجاريا فقط ، بل ينبغى أن يجعل من نفسه محاسبا وممارسا للتجارب وميكانيكيا ومزارعا ومربيا للماشية ، وهو أخيرا فى معظم الوقت عاملا يدويا أيضا • وهكذا يستحيل عليه أن يكون على علم بجميع أوجه التقدم فى الأساليب التكنولوجية المتنوعة التى يستخدمها ، وعلى علم بتقلبات السوق • وتعتبر زراعة المحصول الواحد تلبية جزئية لهذه المتطلبات المتناقضة • وهكذا فان زراع الكروم ومربى الماشية متخصصان لا يعرفان سوى الكروم أو الأبقار ، وبالتالى ينبغى أن يكونا تجارا • ويضارب مربى الماشية بالذات على سعر الماشية الهزيلة التى يشتريها على أساس سعر البيع الذى يتوقعه •

ثانيا ـ اختلاط الأدوار

ـ يطرح هذا الاختلاط فى الأدوار داخل المشروع مشاكل اقتصادية واجتماعية خطيرة ، ومن شأن انشاء التعاونيات بشتى أنواعها (شراء ، بيع ، قرض ، دراسات تقنية ، استخدام الأدوات .. الخ) أن يتيح للمزارع التخلص من بعض أدواره ، واسنادها الى بعض المتخصصين (المديرين التجاريين ورجال البنوك والمهندسين الزراعين .. الخ) ولكن ذلك لا ينتقص من احتفاظه بسلطة اتخاذ القرار . لذلك نجد أن المهندس فى المشروع الزراعى يعد مستشارا دائما ، ولا يكون رئيسا على الاطلاق ، على خلاف ما يحدث فى الصناعة . وهكذا ينبغى عليه أن ينال قبولا عند المزارع اذا كان موفدا من الحكومة ، أو أن يضع نفسه فى خدمة جماعة من المزارعين وتدفع له مكافأة (على نحو مركز الدراسات التقنية الزراعية) . وفى الحالتين يتطلب الحوار من جانب المزارع اعترافا بقيمة العلم ، وهو أمر غير معتاد لدى الفلاح الذى تعتبر كل معارفه تجريبية وتقليدية . ويحدث نفس الشىء بالنسبة للجانب الاقتصادى فى الادارة . فلا يستطيع مدير الجمعية التعاونية أو رائد النقابة الا أن يقترح تطوير انتاج معين . وهكذا فان أساليب اتخاذ القرارات الجماعية والفردية يعد مشكلة رئيسية بالنسبة لتطوير الزراعة الرأسمالية . وتثبت نماذج الجمعيات التعاونية المتعددة الوظائف التى أنشئت فى الصين ، وفى يوغوسلافيا أن اللبس فى التخصص الزراعى يثقل أيضا على الأنظمة الجماعية .

ويصاحب اختلاط الأدوار فى المشروع الزراعى توافق بين الأسرة والمشروع فى معظم الأحيان . ويقود هذا التوافق المزارع الى اتخاذ قراراته وفقا لدوافع أسرية واقتصادية أيضا . وهكذا يكون الأب ، وهو رئيس المشروع ، مشغولا عن التدريب المهنى بالنسبة لأولاده . والأم

هى التى تتولى الحسابات فى معظم الأحيان • وأخيرا فليس هناك تمييز ممكن بين العمل الانتاجى المباشر والأعمال المنزلية وعمليات الاصلاح والترفيه • ويلجأ العامل ــ عند خروجه من المصنع ــ الذى يقوم بعزق (حرث) بستانه للفاكهة أو بصنع نماذج للطائرات بعمليات ترفيه ايجابية ويختلف الأمر بالنسبة للمزارع الذى يجدل بعض السلال أو يقرأ صحيفته النقابية • فكيف يندهش المرء اذن من أن تدار المشروعات الزراعية بأسلوب « رب العائلة الطيب » وأن تسيطر على عقليته رؤساء هذه المشروعات عقلية المستهلك أكثر ما تسيطر عليها عقلية المنظم ؟ ويمثل شراء الجرار استثمارا بالنسبة للمستغل ، ولكنه أيضا وسيلة يتجنب بها العامل المشقة ، وأداة للحصول على المكانة بالنسبة للأسرة • وتعتبر فى التحليل الأخير تنازلا من الآب لابنه لكى يحتفظ به فى الأرض • ومهما قيل فى شأن المزارع فانه يحسب الأمور ، ولكنه يحسبها بطريقة مختلفة أكثر الاختلاف عن طريقة الاقتصادى ، وتستحق مناهجه فى الحساب « الاقتصادى » تحليلا علميا منهجيا • وقد يخرج عنها مفهوم للاقتصاد يختلف اختلافا بعيدا عن مفهوم الاقتصاد بين التقليدين ، ولكنه مفهوم مفيد يمكن أن يؤدى الى توضيح الأمور •

ويقوم المجتمع القروى ذاته على أساس هذا الاختلاط فى الأدوار ، حيث انه عبارة عن جماعة يعرف أفرادها بعضهم معرفة متبادلة ، لكل فرد فيها ادراك شامل وليس وظيفيا بشخصية الآخرين • ويضم المجلس البلدى نفسه الأشخاص ــ بعض الاستثناءات الطفيفة ــ الذين يضمهم مجلس ادارة النقابة أو الجمعية التعاونية (اللهم الا اذا كانوا ينتمون لاتجاهات سياسية مختلفة) • ويعرف كل مستشار وكل ادارى الأدوار الاجتماعية ، وجميع جوانب شخصية كل من زملائه • وينتج عن ذلك بالطبع تجسيد للوظائف والمؤسسات فى الاشخاص المكلفين بها : العمدية (وظيفة العمد) ويجسدها العمدة ، أو السكرتير والكنيسة ويجسدها

الكاهن (راعى الكنيسة) • وهكذا تفهم الحياة الاجتماعية على أنها تداخل فى أفعال الأفراد ، ويعزى أى حدث الى ادارة رجل ما • وتعتبر لعبــة المؤسسات والوظائف المجــردة (منطق الموقف) حقائق تفتقدها التجربة الاجتماعية للقروين الذين يجدون بالتالى صعوبة شــديدة فى النظام السياسى والاقتصادى الشامل • ويؤكد هذا الافتراض الصورة التى يتخيلها الريفيون عن المجتمع الفرنسى والحكومة ، كما أمكن الحصول عليها من خلال عدة مقابلات ومن خلال الكتب المتعلقة بالمنظات الزراعية•

ولكن هذا النظام القائم على المعرفة الداخلية المتبادلة يمنح أى اختيار فى العلاقات الاجتماعية • ففى الريف لا يوجد أصدقاء ، وانما هناك جيران وأقارب فقط وتمارس الحياة فى اطار من الود الجماعى الكبير للغاية مع الجميع ، بحيث يصبح من الممكن خلق روابط خاصة لا تقوم على أساس قرابة جغرافية أو علية ، أو صلة قائمة على المصالح الاقتصادية والاهتمامات السياسية والدينية •

ويتطلب حسن العمل فى المجتمع القروى أن يقبل كل فرد أيضا ، ولو ظاهريا على الأقل ، القوانين التى تحكم السلوكيات وسلم القيم السائدةمن قبل • وكل من يسعى الى التفرد يحدث اضطرابا فى حسن سير الحياة الاجتماعية • وهو ما يفسر لنا لماذا لا يريد أى شخص فى أى اجتماع أن يبدى رأيه أولا ، اذ ينتظر كل شخص التوصــل الى رأى مشترك حتى ينضم اليه أو يعارضه • مما يعزز هذا الأسلوب فى الحركة أن البيئة الريفيــة لا تعطى قيمة كبيرة للآراء والأعراف عنها شــفهيا • وتظهر المواقف العميقة عادة عبر السلوكيات التى يكون لها مغزى لا ريب فيه حيث يعرفها الجميع • والكلام لا يضيف شيئا بل يستخدم غالبا فى اخفاء المعنى الحقيقى لســلوك أكثر مما يعبر عن موقف ما • وفى هــذه الظروف تتم ممارسة الضبط الاجتماعى من خلال أســاليب واجراءات

تختلف تماما عن أساليب المدينة • فيكفى لأى مراقب أن يشاهد زيدا أو عمرا فى مكان ما أو ساعة ما لكى يعيد تحديد جدوله الزمنى من جديد • فاذا كان تواجده هذا بالصدفة غير معتاد ، فانه سرعان ما يتم التقاء مع مراقبين آخرين ، ويؤدى ذلك الى تفسير هذا التواجد •

ويتميز الأفراد الذين يتشكلون ويتطورون داخل مثل هذه البيئة الاجتماعية بطابع ذى ملامح متميزة • وللأسف فان الدراسات المتاحة حول تكوين الشخصية داخل الأسرة والمجتمع الريفيين نادرة كل الندرة • وطفل الريف مندمج بعمق فى بيئته التى يعيش فيها ويتطابق بسهولة مع والديه الذين يتقاسم معهم المسئوليات منذ مرحلة مبكرة جدا من حياته • وهكذا يتضح أن البيئة الريفية تشجع قيام اندماج مبكر للشخصية • وعلى عكس ذلك نجد أن استحالة حصول الفلاح الشاب على استقلال ذاتى كامل طالما أن والده لا يزال رئيسا للعمل الاقتصادى وبالتالى رئيسا للأسرة ، هذه الاستحالة تؤجل اكتمال نضجه الى سنة متأخرة أكثر • ولكن الأطفال والبالغين يبدون رغبة شديدة فى التملص من هذه السيطرة ، ويبدون عدم الرضا الشديد ازاء وضعهم فى المجتمع •

وتبين هذه الملامح التى أجملناها بسرعة أصالة المجتمع الريفى التقليدى بالنسبة لمجتمع المدينة • وتتيح هذه الأصالة مجالا فريدا أمام عالم الاجتماع بسبب الحجم المحدود لهذه الجماعات وأصالة بنائها • والدراسات التى تتناول هذه المشاكل بالغة الندرة ، بحيث انه لا يمكن تقديم شىء سوى مجرد افتراضات عامة ينبغى اخضاعها لتجربة الواقع ، وقد وصف المؤرخون وعلماء الأثنولوجيا بعض الحالات التى أمكن ملاحظتها بسهولة بسبب الالحاح المستمر على أساليب الحركة • وان لم يتوصل هؤلاء العلماء بعد الى اكتشاف أسلوب أدائها الوظيفى

ومتغيراتها الاقليمية وتحولاتها الراهنة • ولنضرب مثـلا على ذلك نجد أن ظاهرة استقطاب الحياة الاجتماعية للقرى حول عدد معين من المخارج الثنائية (الأغنياء والفقراء ، الرجال والنساء ، البيض والزرق ، الخ •) تتطلب بحوثا متعددة ستتيح دون شك فهما أفضل للعمل السـياسى على المستوى المحلى وعلى المسـتوى القـومى أيضا ، فضلا عن المشـاكل الأخرى •

ثالثا ـ التغير وتغلغل المجتمع الكبير فى المجتمع القروى

على أن الملاحظ أن هذا المجتمع التقليدى ينفتح بشـكل متزايد على تغلغل ثقافة المجتمع الكبير : ويثير هذا الانفتاح ولا شك صراعات وتوترات • وطالما كانت أغلبية السكان تعيش على الزراعة ، وكان للطبقة المسيطرة مصـالح زراعية ، كان هناك نوع من الاختـلاط بين المجتمع الريفى والمجتمع الكبير ، وأدت عملية التحضر والتصـنيع على العكس الى ايجاد صدع بين الاثنين • ويشعر الفلاح اليوم أنه على هامش الأمة التى يحتفظ بصـورة مبتورة عنها • كما أن سـكان المدن من جانبهم يقيمون علاقات تفقد بشكل متزايد طابعها كعلاقات وثيقة ومستمرة مع الريف • كما تقدم لهم أساليب الاتصال الجماهيرى صورة تفتقر للأصالة وتنطوى على فعالية تاريخية • وهكذا فان المسـافة التى تكونت فعـلا تجعل من الصعب استئناف الاتصال : ولكن الريفيين استطاعوا فى نفس الوقت أن يدركوا تخلفهم التقنى وتخلفهم الثقـافى ، وهم يجتهـدون بحماس فى تعويض هذا التخلف • وتحولت جميـع المجتمعات الريفيـة التقليدية نحو استمرار التوازن البنائى الذى يمثل نقطة النهاية فى سلسلة تطور طويلة • ويثبت التاريخ الزراعى الأوربى أن التقنيات والأنظمـة الزراعية والأبنية الاجتماعية تطورت كثيرا منذ العصـور القديمة • بل كانت العصور الوسطى ذاتها عصرا للتجديد والاكتمال مثل : النير الذى

يلف رقبة الجواد واستزراع الدخن والحرث فى شهر يونيو ••• الخ •
أما عن التاريخ الزراعى منذ عصر النهضة فان المؤرخين والجغرافيين يتناقشون لتحديد طبيعة تلك المرحلة فيما اذا كانت تمثل « ثورة بطيئة » أم « تطورا سريعا » • ومع ذلك فان هناك فرقا أساسيا بين هذا التطور التقليدى والحركة الراهنة لتحديث العمل الزراعى وكان التغير فيما مضى يتم بشكل بطىء حيث كان يتعين على أى تجديد أن ينتظر جيلا على الأقل لكى يحتل مكانه فى هذا النسق ، وحتى يقبله الجميع كعنصر من تراث الجماعة ، أما اليوم فقد أصبح التغيير السريع والمستمر يمثل — على العكس — أحد الضروريات الأساسية للاستغلال الزراعى • واذا كان المزارعون يسعون بشغف الى الأخذ بأسباب التحديث ، فانما يتم ذلك على أمل الوصول بذلك الى توازن جديد فى الاستقرار وقلة نادرة فقط هى التى كانت تتصور أنه كان يتعين عليها أن تظل على استقرارها فى خضم ذلك التغيير •

ولم تطرح مشكللة ما يسمى « بالروتين » القروى طرحا صحيحا حتى الآن • ورأى الباحثون أن جمود الزراعة ان هو الا تنيجة البطء الذى تتميز به « الروح القروية » فى حين أن الأمر كما قلنا يتعلق أساسا بظاهرة تقنية فى الأصل ، مثل الآلة البخارية فى الريف ، وبعد أن أصبح المزارعون يملكون اليوم تقنيات ملائمة أخذوا يلجأون اليها باستمرار ولو دون روية كما يرى عالم الاقتصاد الذى يحكم عليهم بأن لديهم فائضا من المعدات الآلية • ولكنهم يستمرون فى الحياة فى أبنية زراعية واجتماعية وفكرية تنطوى على مفارقات تقيد حركتهم أو تحولهم عن جهدهم • ولا شك أن التحليل المنهجى لهذه الصراعات فى الأبنية سيلقى ضوءا جديدا على جميع جوانب هذه المشكلة • ويكفى هنا أن تتناول تأثير التدرج والحراك الاجتماعى •

وفى المناطق التى يوجد فيها تدرج اجتماعى حقيقى ابتداء من عمال اليومية حتى ساكنى القصور فاننا نجد أن وضع نظام محكم جدا للحراك يتيح بالطبع لأية أسرة خلال أجيال عديدة ، أن ترتقى من مستوى الى مستوى فيصبح عامل اليومية مستأجرا للأرض • ثم بعد أن يحصل على الماشية يأخذ مزرعة ويصل فى النهاية الى تكوين مشروع استثمارى صغير ويصبح ابنه أو صغيره تاجرا بل قد يصبح برجوازيا ، وبعد أن يحصل على « ضيعة » كان يمكنه فى ظل النظام القديم أن يتطلع الى الحصول على لقب « نبيل » والحصول على المكانة القائمة على أساس امتلاك الأرض ، فى مثل هذا النظام الاجتماعى ، كان هو المحرك الأساسى ولم يكن النجاح الاقتصادى سوى وسيلة ضرورية ولكن غير كافية لزيادة المكانة •

ونظرا لأن سيد القصر كان يملك وحده الاتصالات الضرورية مع الأوساط العلمية ، ويملك قدرة اقتصادية تسمح له بمحاولة اجراء بعض التجارب ، فكان هو الوحيد بالطبع الذى يستطيع ادخال التجديد فى النظام الزراعى المعمول به • وكان سيد القصر يقرأ الصحف والكتب ويقضى الشتاء فى المدينة ، ثم كان بمقدوره أن يجرب فى أحد الحقول الأسلوب الجديد أو الآلة الجديدة ، ولو انتهت التجربة الى الفشل ، فلن يؤدى الاستثمار الذى استخدمه الى افلاسه ، أما فى حالة النجاح فكان بمقدوره مواصلة التجربة حتى تظهر نتائجها بالكامل • وكان يكفى فى هذا الوقت أن يطلب منه الفلاح النصيحة أو مجرد تقليده ، حتى يستفيد من التقدم دون تعريض نفسه لأى مخاطر • وكان ميكانيزم الانتشار هذا يتكامل مع النسق الكلى ، حيث ان سيد القصر يتمتع بأكبر مكانة ويمثل القدوة لكل القرية • ولذلك فان من يحذو حذوه من الناحية التقنية كان يتصور بذلك أنه يقيس نفسه به ويشاركه

مكانته • والتقى التقدم التقنى والحراك الاجتماعى فى نسق واحد يركز على الوضع الاجتماعى وليس على الدخل الاقتصادى •

ولن يكون فى المجتمع الريفى الذى نشهد تكوينه تحديدا خاصة للتدرج يماثل تحديد التدرج فى المجتمع الكبير • وتتركز الأراضى فى المناطق التى يوجد بها زراعة عائلية متنوعة ، فى مشروعات متوسطة نظرا لاختفاء المشروعات الصغيرة وبسبب تفتت « الضيعات الكبيرة » (الملكيات الكبيرة) • وفى مناطق « الزراعة الكبرى » تتجاور مشروعات الاستغلال على مستوى الأسرة مع مشروعات الاستغلال الكبيرة التى تستخدم — بوفرة الى حد ما — الأيدى العاملة الأجيرة • وفى الحالتين أدى اختفاء الأوضاع الوسيطة بين الأجير والمستغل (سواء كان مالكا للأرض أو مالكا للماشية فقط) الى جعل الانتقال من حالة الى أخرى أمرا يكاد يكون مستحيلا • واختفت ظاهرة استئجار الأرض ، باستثناء بعض الأقاليم المحددة جدا ، ولم تعد ضخامة رأس المال فى المشروع بالبدء ضئيلة •

والواقع أن الأرض كانت فيما مضى تمثل أساس رأس المال فى أى مشروع زراعى متوسط الحجم • ولذلك كانت دراسة علاقات الملكية ذات أهمية أساسية لفهم البناء والتدرج فى المجتمع الريفى • والواقع أن جزءا كبيرا من المؤلفات السوسيولوجية فى نهاية القرن الماضى كان يختص بتناول ذلك الموضوع فعلا • وما زالت ملكية الأرض اليوم ، فى الأقاليم التى لا تزال تحتفظ بالطابع الاجتماعى التقليدى ، مصدرا ودليلا على قوة الكبار وموضوع الرغبة الشديدة من الصغار ، وحول هذه الأرض تنظم كل الحياة الاجتماعية • وعلى العكس من ذلك نجد فى أى مشروع زراعى حديث أن قيمة رأسمال المشروع والماشية الحية والميتة تكون على أقل تقدير معادلة لقيمة الأرض والمبانى • وينجم عن ذلك أن المزارع

وهو مالك رأسمال الاستغلال ورئيس المشروع ، يصبح هو الشخصية الرئيسية فى المجتمع الريفى ويتلاشى دور المالك • وقد عملت التشريعات التى صدرت أخيرا فى فرنسا على تدعيم وضع المزارع • ومع ذلك فما زلنا نجد قدرا كبيرا من التنوع فى الأوضاع الاقليمية الذى نراه جديرا بدراسة عميقة لا تغفل وضع الأراضى الجماعية • فهناك مثلا : منطقة حوض باريس حيث يستأجر بعض المزارعين مئات من الهكتارات من عدد كبير من الملاك وقرية بريتون التى يسيطر عليها المالك الكبير الذى يملك عدة مزارع متوسطة وقرية « مرتفعات البيرينيه » حيث نجد جزءا كبيرا من الأراضى التى يزرعها أبناء تلك القرية مملوكة لأبناء القرى المجاورة • هذه القرى الثلاث تمثل أنماطا متطرفة يندرج بينها كثير من الأنماط الوسيطة التى يسكنها ملاك مستغلون• ومن البديهى أن المكانة الاجتماعية لم تكتسب بعد أى معنى فى مجتمع مازال مؤلفا من مزارعين ومستغلين فقط ويمكن القول أن المميزات التقنية أو النجاح الاقتصادى هما اللذان يسمحان لأحد المزارعين أن يتميز عن جمهور الناس ، وأن يثير التقدير أو الحسد فى نفوس جيرانه • ولم يعد لتكديس رأس المال اعتبار فى حد ذاته ، ولكن كوسيلة للانتاج ، وأصبح الدخل هو المعيار الرئيسى فى التمييز الاجتماعى ، خاصة وأنه يسمح بالخروج من القرية للذهاب الى المدينة واستعارة أسلوب حياة سكان المدن • وبقدر ظهور هذا النظام الاجتماعى الجديد بقدر ماسوف تطرح مشكلة التغيير والتقدم التقنى نفسها علينا بطريقة جديدة ، حيث سيصبح من الممكن أن تلعب حركة الدوافع الاقتصادية دورا واضحا •

ويؤدى اختفاء التدرج الاجتماعى التقليدى الى تحويل البيئة الريفية الى عدد من الطبقات الاجتماعية التى تأخذ مكانها فى تدرج المجتمع الكبير • وكان الانتقال فيما مضى يتم بين مستويين متوازيين وعلى درجة متساوية ، فيصبح العامل الأخير عاملا فى مصنع والفلاح الصغير

والتاجر الصغير أو الموظف والفلاح الكبير يمكنه أن يعلم أولاده حتى يجعل منهم أطباء وموثقين أو من كبار الموظفين • وفى الأقاليم الأكثر تطورا تجد اليوم أن أبناء المستغلين الذين يريدون ترك الأرض يقبلون على الدراسة وتنتقل الغالبية العظمى منهم الى الطبقة المتوسطة عندما يصبحون أصحاب وظائف أو تجارا • هذا فى حين يمكن تفسير الهجرة الريفية على أنها انتقال من مجتمع أو من بيئة الى أخرى ، وهى ليست سوى شكل من أشكال الحراك الاجتماعى • ومن الواضح أن هذا الموقف الأخير لم يتحقق فى فرنسا الا فى أكثر المناطق تحضرا ، وحيث يكون المزارعون على علاقات وطيدة ودائمة مع احدى المدن ، حيث يبيعون منتجاتهم وحيث يجدون خدمات الادارات الزراعية والجمعيات المهنية •

وهكذا ينبغى بعد ملاحظة الملامح الأساسية التى تميز البيئة الريفية عن البيئة الحضرية[1] أن يضع المرء نفسه فى المجال المعاكس • ولاينبغى ذلك سوى متابعة التغير السريع الجارى فى المجتمع الفرنسى • فالمزارعون يدركون رويدا رويدا الطابع الجديد لظروفهم ، ويلحظون أنهم لم يعودوابعد « قاعدة الهرم الوطنى » ولا أغلبية « الشعب الفرنسى» ولكنهم يميلون الى أن يصبحوا قطاعا اجتماعيا واقتصاديا من بين قطاعات أخرى • وهكذا ينظرون تجاه الجماعات الأخرى والقطاعات الأخرى ويقومون — على غرار هذه الجماعات والقطاعات — بانشاء نقابات و « جماعات ضاغطة » ، ويلجأون الى المظاهرات الجماهيرية والاضرابات واقامة المتاريس فى الطرق •

---

(١) انظر مقال زيوبيرج « الفروق الريفية الحضرية » ترجمة د . محمود عودة فى كتاب ميادين علم الاجتماع للدكتور محمد الجوهرى وآخرين ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٣ ص ٦٩ — ١٠٦ .

ولكن قدرتهم على اللجوء فى نفس الوقت الى المناهج التى تستخدمها الجماعات ذات المصالح الاقتصادية والأساليب الجماهيرية فى التقدم بالمطالب تؤكد أنهم مازالوا يحتفظون بوضع فريد ۰ فهم ليسوا أصحاب أعمال وليسوا عمالا يدافعون عن أجورهم بالدفاع عن فائض القيمة الخاص بهم ، والذين يستعيرون ــ فى سبيل الحصول على دعم السعر ــ كلمات وتعبيرات أبناء الطبقة العمالية ۰ كذلك يعطيهم هذا الوضع المزدوج تمثيلا سياسيا متميزا أشد التميز ، حيث ان جميع النواب تقريبا لهم ناخبون من المزارعين ۰ وبهذا يكون لهم فى البرلمان وزن هائل ، دون أن يكون هناك حزب زراعى يمكن مقارنته بالأحزاب العمالية ۰ وهكذا فان التمثيل السياسى والمهنى للزراعة مشروط بالتوزيع المكانى للمزارعين وتعدد الأدوار التى يلعبونها ۰

ويبدو أن انفضاض عدد المزارعين لا بد أن يؤدى الى انخفاض نفوذ القطاع الزراعى فى المحافل العليا للدولة ۰ فى حين نجد على عكس ذلك أن هذا النفوذ يزداد جزئيا ، لأن المزارعين يدركون وسائلهم فى الحركة ، خاصة وأنهم بتحطيم نظام الاكتفاء الذاتى يتغلغلون فى السوق ويصبحون قوة اقتصادية ۰ ويظل الاكتفاء الذاتى بالغ الأهمية فى بعض الأقاليم ، ولا تزال توجد مزارع عائلية تنتج كل ما يلزم لاستهلاك الأسرة تقريبا ، ولا يقوم الا بتسويق الفائض من هذه المنتجات الغذائية (بضع جوالات من القمح وبعض اللبن وبعض الخنازير والطيور ۰۰ الخ) الا أن التخصص والميكنة ، فى المناطق الأكثر اتساعا ، يحولان المزارع الى مشتر وبائع : فهو يحتاج الى آلات ووقود وسماد وتقاوى بذور وحيوانات منتقاة ، وهو يقدم للجمعية التعاونية أو للتاجر نوعين أو ثلاثة من المنتجات بكميات كبيرة ولكن نادرا ما تزيد عن ذلك ۰ كما ينبغى على زوجته أن تذهب الى السوق ــ كأى امرأة من المدينة ــ لكى تشترى ما لا تنتجه المزرعة أو ما تعود المزارعون مؤخرا على استهلاكه بكميات مثل سكان المدن

(كاللحوم ، والفواكه وباكورة المحاصيل) ولا يعتبر تطور العادات الغذائية سوى جزء من التطور الشامل لأسلوب الحياة .

ويمكن القيام بدراسة واسعة حول انتشار ملامح الثقافة الحضرية فى الريف ولا شك أن بعض الريفيين يحتفظون فى هذه الحركة التثقيفية بأشكال معينة من التراث الخاص كما يرتضون ملامح معينة أو أنواعا معينة من السلوك[١] ولكننا نشهد بصفة عامة فى فرنسا توحدا فى المميزات الرئيسية الاقليمية و « تمدينا » فى أسلوب الحياة الريفية . ويستحق الدور الذى تلعبه أساليب الاتصال الجماهيرى[٢] اهتماما خاصا . ولا يوجد تحت أيدينا للأسف سوى ملاحظات متقطعة بشأن هذا الموضوع[٣] .

وينبغى فى نفس الوقت الذى يجرى فيه «تحضير الريف» ، أن نلاحظ أننا نشهد « عملية تربيف للمدينة » (اضفاء الطابع الريفى على المدينة) . فقد ظلت المدن الى عهد قريب محاطة بالأسوار أو بامتدادات من المشروعات الصناعية مما كان يميزها للوهلة الأولى عن السهول . ولاشك

---

(١) قارن الدراسة التى تقدم بها الدكتور محمد الجوهرى حول هذا الموضوع بعنوان : « التراث والتقدم » . « دراسة فى مستقبل التراث الشعبى » لمؤتمر علم الاجتماع والتنمية الذى نظمه المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية فى الفترة من ٥ ــ ٨ ماو ١٩٧٣ ، والمنشورة فى : الدكاترة السيد الحسينى ومحمد على محمد وعلياء شكرى ومحمد الجوهرى ، دراسات فى التنمية الاجتماعية ، القاهرة ، دار المعارف ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٣ ، ص ٢٢٤ ــ ٢٦٩ .

(٢) انظر فى هذا الصدد الدراسة التى تقدم بها الدكتور محمود عودة لنيل درجة الدكتوراه ، والمنشورة فى « أساليب الاتصال والتغير الاجتماعى . دراسة ميدانية فى قرية مصرية » ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧١ .

(٣) Cf. Joffre Dumazedier, Television et Education Populaire, Paris, UNESCO, Bourrelier, 1955.

أن جميع المستويات الوسيطة كانت موجودة بين المدينة والقرية ، وكان يمكن اعتبار بعض المدن الصغيرة مدنا « ريفية » ، ولكن ذلك لم يكن مشكلة « تعريف » فى حين نجد اليوم على عكس ذلك أن مساكن المدن تنتشر بعيدا عن مركز المدينة حتى تصل الى قلب الريف ، ولا يمكن تخطيط حدودها بشكل قاطع على الخريطة . وهناك أقاليم ظلت ريفية بأكملها حتى وقت قريب وهى تتحول الى أماكن للاستجمام حيث تغزوها أماكن الاقامة لعطلة نهاية الأسبوع . وهناك ٨٥ فى المائة من القرى البلجيكية ما زالت توفد عمالا الى أماكن التجمعات السكانية فى بروكسل ويتمو فى هذه المنطقة المخصصة للاستجمام نمط من الحياة يعد ريفيا نسبيا وان لم يكن ريفيا خالصا . وهناك ظاهرة أخرى لها دلالتها وهى أن الملابس هناك تكون « مهملة » أكثر مما هو فى المدينة . ومما يدعو للأسف أن هذه الظاهرة الرئيسية لم تكن موضع دراسة فى فرنسا حتى الآن .

ويصبح من الخطأ فى هذه الظروف عقد مقارنة بين المدن والأرياف . بل ينبغى بالأحرى تمييز أربعة أنماط من البيئات ، التى تتمتع كل منها بصفاتها المميزة الخاصة . فهناك النواة الحضرية Noyau urbain ، وهى مركز ادارى تجارى وصناعى ، ذات كثافة كبيرة من السكان أو العمال تنعزل بسهولة جدا . ثم هناك الأقاليم الزراعية تماما ، حيث يعيش كل السكان فيها على الزراعة بشكل مباشر أو غير مباشر . وعلى العكس من ذلك تكون المنطقة الحضرية التى تضم جميع التجمعات السكانية التى تعتمد على النواة الحضرية . أما قرى الزراعة الصغيرة الموجهة نحو تموين المدينة فتعد ظاهرة ذات واقع أكثر تنوعا ، وينبغى تحديدها فى كل حالة عن طريق دراسات خاصة . ومن المعايير الأساسية التى يمكن أن تساعد على هذا التحديد أعداد العمال الذين يذهبون للعمل فى مكان آخر ، وعدم وجود مؤسسات تجارية وثقافية نسبيا . والأقاليم الزراعية من جانبها تمد المراكز الحضرية الصغيرة بما يلزمها للحياة . وهذه

المراكز بدورها تزود الأقاليم الزراعية بخدمات ادارية وتقنية وتجارية وثقافية • وتعتبر هذه المراكز دون شك جزءا من البيئة الريفية بقدر ما تظل الوظائف الصناعية فيها ذات أهمية ثانوية •

ومن شأن تحديد هذه الأنماط الأربعة أن يساعدنا على تحديد مشكلة العلاقات بين سكان المدن وسكان الريف بشكل أفضل • وأحيانا لا تكون هنا أية صلة بين البيئتين ، فالعمال يعيشون فى «مدن» مشيدة من أجلهم ، ويظل المزارعون معزولين فى مزارعهم • واذا كانت المصانع تجمع اليد العاملة المتاحة فى القرى عن طريق دورة السيارات ، فاننا نجد على العكس أن نوعا من الحياة المختلطة « العامل ــ الفلاح » تسمح للمستغل بأن يحتفظ بأملاكه وأن يذهب للعمل فى مصنع أو يرسل أولاده للعمل فيه • وهكذا تنزع المزارع الى العودة الى زراعة الاعاشة ، حيث ان الأجور تزود الأسرة بالنقود اللازمة •

وتعتبر دراسة تحولات الزراعة فى ضواحى المدينة مجالا بدأ بالكاد استكشافه ، ولكنه يعد دون شك من أغنى مجالات الدراسة ، لأن التغيير فى داخله سريع وظاهر بشكل خاص •

فهل يمكن أن نخلص من هذه الملاحظات الى أن أهل الريف وأهل المدن بعد أن تباعدوا بدءوا يأخذون حاليا فى التطور نحو نمط واحد متكامل ؟ ان الخوض فى ذلك يعنى أن يتقمص المرء شخصية النبى ، وأن يحاول القفز الى النتائج بشكل متسرع • ومن البديهى أن الفلاح التقليدى الذى كانت الزراعة تمثل بالنسبة له دولة ونوعا من الحياة ، وليست حرفة أو مهنة ، هذا النمط من الفلاحين فى طريقه الى الاختفاء • وينزع المزارع فى المجتمعات الغربية الى اكتساب عقلية « رأسمالية » واعتبار الزراعة نشاطا اقتصاديا مثل أنواع النشاط الأخرى • وينبغى

أن يربح المشروع الزراعى ويصبح العائد النقدى هدفا وجزاء على الجهد • وأن الاهتمامات التجارية والميكنة تعمل على تغيير عقلية المزارع ونظرته الى العالم • وقد ذكرنا فى البداية أنه لا ينبغى احتساب « البدائيين » من ضمن « الريفيين » ، ويمكننا أيضا أن نتساءل اذا لم يكن من الواجب اجراء تمييز أساسى بين الفلاح التقليدى والمزارع كما يظهر فى أكثر الأقاليم تطورا • وفى هذا المجال يوجد نمطان من البشر ينتميان الى مجتمعين مختلفين ، ويمكن تحليل جميع التغيرات التى سلفت الاشارة اليها عند الانتقال من نمط الى آخر •

***

ولكن الوقت لا يزال مبكرا جدا لامكان تحديد نمط كامل للمزارع الحديث ، لأن المزارع الحديث يجرى حاليا تكوينه وما زالت تتحدد ملامحه فى البلاد التى وجد ولا يزال يوجد فيها الفلاح التقليدى وفى الدول الحديثة ، وهو يتخذ مظاهر قد لا تتوفر له فى أماكن أخرى ، واذا كانت الملامح الأصيلة للبيئة الريفية ـ التى حاولنا ابرازها ـ فقدت مفعولها ، فانها لا تزال موجودة وتفرض نفسها على مزارعى الغد ، كما فرضت نفسها على آبائهم من قبل • فالسيارة تسمح باختصار المسافات ولكنها لا تلغيها • وسوف يستمر المزارع فى الحياة فى القرى التى يتضاءل عدد سكانها باستمرار أو فى مزارع معزولة • ولن تلعب أساليب الاتصال الجماهيرى ، المنفصلة عن العالم الحضرى ، نفس الدور مطلقا بالنسبة له ولا بالنسبة لأهل المدن ، كما أن علاقاته سوف تظل تحتفظ بطابعها الخاص •

ويهتم البعض اهتماما خاصا بابراز أصالة العالم الريفى مؤكدة من ناحية تأثير الطبيعة عليه ، ومن ناحية بعض الميكانيزمات البيولوجية •

ويشعر المرء أن هنــاك مشكلة تتطلب أبحــاثا متخصصة • ولكنه ليس هناك فى الوقت الراهن ما يسمح لنا بالتحدث عن طبيعــة وتتائج هــذا التأثير ، ولذلك فاننا لم نمس هذا الموضوع من قبل • ومن المؤكد أن نسق فصول السنة والدورات المختلفة لنمو الخضر والحيوانات يفرض نفسه على المزارع كعامل وكرئيس للمشروع • واتضح أن أهمية الوقت تتضاءل بالنسبة لأهل الريف عنها بالنســبة لأهل المدن ، فهل ينبغى أن نرى فى ذلك أثرا مباشرا للنسق الذى ستفرضه الطبيعة على ذلك الذى يعمل فيها ، أو على العكس من ذلك ربما كان ذلك ظاهرة تخلف ثقــافى مصيرها أن تختفى مع النفوذ المتزايد للتكنولوجيا والتنظيم الاقتصادى الحديث ؟ فهل ستغزو « البيئة التقنية » كما يقول جورج فريدمان الريف باعتباره « بيئة طبيعية » من الطراز الأول ؟

ويبدو أن ظاهرة توافق الأدوار وتجســيد الوظائف لا يزال يعتبر أحد الفروق الكبرى بين المجتمعات الحضرية والمجتمعات الريفية • وطالما ظل الاستغلال الزراعى والأسرة مختلطين ، فان نظام الحركة والمؤسسات ستعمل فى الريف بطريقة مختلفة • ولقد أشرنا الى بعض النتائج الناجمة عن هذا الخلط ، وخاصة على المستوى الذى تتخذ فيه القرارات • وعلى مستوى أشمل فان هناك نقلا للوظائف وآلية الحركة بين مختلف مظاهر الحياة الجماعية • وتقوم الجماعة الأسرية أو القرية بأداء بعض الوظائف التى تعتبر فى المدينة وقفا على جماعة أوسع وهكذا بالتبــادل • وتكفى الاشارة هنا الى هذه المشكلة التى تدخل فى مجــال النظرية الاجتماعية بنفس القدر الذى تدخل به فى مجال بحث عالم الاجتماع الريفى •

وتعتبر فرنسا بكل تأكيد من أفضل المجالات لدراسة هذه المشاكل المختلفة • اذ تجد فيها تقريبا جميع الحالات الممكنة بين الشمال المتحضر للغاية ومقاطعة بريتانيا المكتظة بالسكان والزراعة الكبرى فى « حوض

باريس » والزراعة الأسرية المتعددة فى جنوب غربى البلاد ، والزراعة الواحدة فى منطقة Langue docienne ، وزراع الخضر فى بيربنيان ... الخ • ومع ذلك فان هناك بعض الظروف الاقتصادية والاجتماعية التى يشترك فيها كل المجتمع الفرنسى • وهكذا ينبغى تجاوز الحدود الفرنسية والأوربية لدراسة نفس المشاكل فى أطر اجتماعية مختلفة تماما • فلا يمكن أن يتم تطور الأبنية الاجتماعية والفكرية بنفس الطريقة فى بلاد توجد فيها الفلاحة التقليدية ، أو فى « الدول الحديثة » أو « البلاد النامية » أو « الدول الاشتراكية » • وقد تكون هذه الدول « الاشتراكية » من وجهة نظرنا هى أكثر الدول دلالة ، والتى ينبغى دراستها فى تنوعها التاريخى والمعاصر • فما هى رؤية أحد أعضاء الكلخوزات فى أوكرانيا للعالم ، وما هى تلك الرؤية بالنسبة لأحد أعضاء « الزادروجا » اليوغوسلافية ، أو بالنسبة لفلاح صينى تم دمجه فى « النظام الاشتراكى » حديثا ؟ والى أى مدى يشعر هؤلاء جميعا بالاندماج فى مجتمعهم الكبير ، وما هى الصورة التى يتخيلونها لمستقبل حرفتهم ؟

وقد اقترح بعض علماء الأثنولوجيا الأمريكيين مؤخرا انشاء علم « مقارنة لدراسة القرية » • واننا نرى أن المشروع اذا أخذناه بكل اتساعه يعد طموحا أشد الطموح ، ولكنه سيسمح دون شك باستخلاص بعض الخطط النمطية للنظم والمؤسسات الريفية وبعض المشاكل الأساسية • وسيبدأ فى الظهور معالم هيكل موحد لمختلف أنماط المجتمعات القروية : ـ بين المجتمعات التى تسمى « قديمة archaique من ناحية والتكامل المتقدم للزراعة الحديثة فى المجتمع الكبير أيا كان شكل هذا المجتمع الكبير ـ من ناحية أخرى •

***

الفصل الثاني

الثقافة التقليدية للفلاحين(١)

مفهوم الثقافة التقليدية :

يمكن القول بصفة عامة ، بأن التقليد Tradition هو حفظ الميراث الثقافى الكلى الذى يسلمه كل جيل للذى يليه • وثمة وسيلتان معروفتان لنقل التراث الاجتماعى • وتتضمن الأولى الانتقال عن طريق معانى الكلام والمنبهات الصوتية الأخرى (الأصوات الموسيقية) التى تستقبل بواسطة حاسة السمع ، وهذا فضلا عن الأفعال والأشياء التى تدرك بواسطة أعضاء البصر • وتتضمن هذه الصيغة فى النقل دائما اتصالا انسانيا مباشرا • أما الثانية ، فانها وسيلة تتوفر لها خاصية ميكانيكية • وتشمل المطبوعات ، والمقطوعات الموسيقية ، والتكنيكات والفنون الأيقونية والمعدات الفوتوغرافية • ومن شأن هذه الوسيلة أن تخلص المنتج والمتلقى للمضمون الثقافى من الاتصال الانسانى المباشر وأن تعمل على اقامة علاقات انسانية غير مباشرة وغير شخصية •

ولقد درج علماء الأثنوجرافيا والمؤرخون الثقافيون على الحديث عن « الثقافة التقليدية » بمعنى أنها كل تلك المضامين الثقافية والقيم التى تنقل شفاهة • ولقد قبلنا هذا الاصطلاح اللغوى ، وبنفس المعنى سوف يستخدم مصطلح « الثقافة التقليدية للفلاحين » فى هذا الفصل •

---

(١) انظر :

Kazimierz Dobrowolski, "Peasant Traditional Culture", Ethnografia Polska, Vol. I, 1958, pp. 19-56. Abriged by the Author and translared by A. Waligorski.

يمكننا أن نلاحظ فى كل مجـالات الحيـاة الاجتماعية ، وفى كل الجهود التى تبذل فى سبيل التعاون الانسانى ، وفى تحقيق المكتسبات والمنجزات الثقافية وتراكمها وجود نزعتين أساسيتين بالرغم من تعارضهما تعبران عن نفسيهما بدرجات متفاوتة من الشـدة والكثافة فى مختلف أطوار النمو التاريخى . فهناك أولا ، نزعة هى بشـكل جوهرى حافظة ومثبتة ، تتبـدى فى الميـل نحو صـيانة النظام الاجتماعى والاحتفاظ بوجوده . وهى تنبىء دائما على الاعتراف بالخبرات السابقة التى تتركز بالضرورة فى الماضى . والماضى هنا يمدنا بنمط للحيـاة ويزودنا بنموذج للفعل الانسانى . وفى مقابل ذلك ، ثمة وجود لنزعة من شـأنها تنمية الشك وعدم الرضا مما يفضى بشكل ثابت الى حدوث التغير الاجتماعى . وغالبا ما تكون هـذه النزعة مدمرة وثورية فى مواجهتها لبقـاء النظام الاجتماعى ، كما أنها غالبا ما تتبدى فى الفترات التى يزداد فيها التعارض العنيف ، مع الواقع المحيط ورفضه . وتتولد هذه النزعة عادة من خلال التلهف الانسانى العميق على صور طيبة جديدة للحيـاة الاجتماعية ، وحقائق أخلاقية جديدة ، ومزيد من المبتكرات التكنولوجية . ومثـل هذه النظرة للحياة الجديدة ، وهى نظرة تقـدمية ، تتولد فى ظل ظروف محددة للوجود الانسانى ، يمكن أن تكون قوة دافعة موجهة للسلوك البشرى .

وتعكس هاتان النزعتان حاجتين أسـاسيتين للوجود الانسانى : (ا) تنميط وتنظيم العلاقات الانسـانية على أساس من القيم الثابتة ، والمهارات والقدرات العقلية ، والحقائق والخبرات ، (ب) تحسين الوجود الانسانى بتحقيق أكبر قدر من السيادة على البيئة الطبيعية ، بتوسيع المعرفة بالواقع المحيط ، وبتحقيق قدر أكبر من الأمان والوقاية من القوى المعادية ، وبزيادة الجهود البشرية وتحقيق تعـاون انسـانى يرتكز على أسس أكثر توازنا .

والآن لنتحدث عن النزعة الأولى ، فمن المعروف أنها تظهر نفسها بقوة أشـد فى كل تلك الثقافات التى تعتمد بشـكل خاص على النقل الشـفاهى والوصف المباشر فى تداول مضموناتها الثقافية وخبراتها • أما النزعة الثـانية ، فانها من جهة أخرى ، تميل الى ما سبق ذكره ، فى الفترات العصيبة من الفوارق الاجتماعية والثورة ، تلك التى تعرف بأنها تفتح الباب للأحداث الهامة فى التاريخ الانسانى •

ان تمجيد الماضى ، الذى وجد التعبير عنه فيما يسـمى بالتقليدية Traditionalism له وجود أيضا فى الحضارات المثقفة ، فى تلك الثقافات Cultures التى تستخدم الكتابة كوسيلة رئيسية فى التواصل الاجتماعى منذ وقت طويل • وأكثر من ذلك فهناك حالات مسجلة تصبح فيها الكتابة ذاتها عاملا معضلا لأهمية التقليد Tradition • وهذه هى غالبا الكتب المقدسة التى تظل لقـرون عديدة بمثابة الشرائع التى تنظم السـلوك الانسانى وتضبطه • وفى أغلب الحالات ، فان الكلمة المكتوبة أصبحت بشكل قاطع عاملا حاسما فى التغيير • ذلك أن القراءة والكتابة تحمـل امكانيات غير محدودة فى النقل الكمى للمضامين الثقافية بين الأجيال • والكتابة بطبيعتها تتضمن امكانية التراكم الثقافى الكثيف فى كل مجالات النشاط الانسانى • كما أن الكتابة تجعـل من الممكن حدوث الانتقال الكافى والدقيق لتلك المضمونات ، والقيم والمنجزات التى تشكل جوهر الثقافة المكتسبة • وفى المجتمعات المثقفة تكون عمليات نقل المضمونات الثقافية وانتشارها ، دائما أكثر اتسـاعا وسرعة وتأثيرا عنها فى الثقافات الشفاهية • وأخيرا ، فان الكتابة ، ومن خلال حقيقة التراكم فى الكتب والنصوص تتضمن مجالا لا نهائيـا للمقارنة والاختبار النقدى ، الذى يشمل التقييم النقدى لمنجزات الأجيال السابقةوما يتداول عنها من معرفة ـ فنية ، طبيعية ، تاريخيا ، ••• الخ • ـ أكثر مما هو ممكن بالنسـبة التراث المنقول شفاهة •

ومن ثم فاننا حيثما نناقش ديناميات الثقافة الحافظة ، التقليدية ، فلا مفر من أن نحول انتباهنا الى تلك المجتمعات التى تتداول مضموناتها الثقافية عن طريق النقل الشفاهى • وهنا سوف يتضح أن العملية زمنية diachronic ومتزامنة Synchronic • فهى زمنية بمعنى أن الأجيال التى تمر تسلم خبراتها الثقافية للأجيال التى تخلفها • ولكنها أيضا متزامنة الى حد أن منجزات الأفراد أو الجماعات تنتشر مباشرة بالاتصالات الانسانية الفعلية •

ويشكل التعليم عملية النقل الأساسية فى الثقافة التقليدية ، فهى تقدم الأفراد الجدد فى عالم واضح من القيم الروحية والمادية • ويحدث ذلك بمعنى التعليم المقصود والشرح والبرهنة عن طريق الاستقبال المتماثل من خلال الادراك السمعى والبصرى • وهذه العمليات قد تحتمل خاصية شعورية كما هو الحال عندما يحدث الانتقال بطريقة مدروسة وهادفة ومنظمة ، ولكنه أيضا يصير طبيعيا أو عفويا عندما ينتج من مجرد الاتصال والمحاكاة •

والمجال الكلاسيكى للثقافات التقليدية هو ، بالطبع ، ما يعرف بالمجتمعات البدائية الأمية التى توجد فى كثير من الأجزاء المنعزلة والنائية على سطح الكرة الأرضية • ولكن عددها يتضاءل بسرعة ، كما لم يبق سوى القليل من المجتمعات النقية ، التى لم تتلوث ولم تتأثر بآثار الحضارات الأعلى ، والاعتماد بشكل جوهرى على الوسائل الميكانيكية فى النقل •

وفى شكل مختلف نجد ثقافات الفلاحين التقليدية التى تنشأ من التقسيم الطبقى السائد فى أوربا الاقطاعية ، فهى تنمو تحت تأثير الطبقة الحاكمة والأقلية المتعلمة بالرغم من أن هذا التأثير يتخذ شكلا مختلفا

فى عدد من جوانب النمو التاريخى • ففى القرون الوسطى ، على سبيل المثال ، كانت المسافة الثقافيــة بين الفــلاحين والملاك الاقطاعيين تتبدى أساسا فى الاختلافات فى الثروة ، والحيازة المادية ، الا أنه لم يكن ثمة اختلافات ملحوظة فى التعليم وفى العقلية • كما أن الوضع قد تغير خلال عصر النهضة حينما أصبح التعليم يعتمد أساسا على التدريس المنظم ، وحينما زاد عدد الطبقات المتحفزة ، التى نجحت فى تخليص نفسها من تأثير الكنيسة ، وفى نفس الوقت استخلاص الدور الثقافى المسيطر فى المجتمع • ويختلف تأثير الطبقة الحاكمة فى جوانب محــددة لدى النظم الرأسمالية والشيوعية •

الشروط الأساسية لوجود الثقافة التقليدية :

من المحقق أن الثقافة التقليدية تنفرد بديناميتها الخاصة المميزة • فقد يمثــل انخفاض مســتوى التكنولوجيــا الزراعية وثبــات القرى واستقرارها ، أهم أسس هذه الثقــافة • ولقد كانت الأدوات والمعدات الزراعية فى قرى البسكد Beskid ، التى درسها دوبروفسكى ، بسيطة ، ومصنوعة أساسا من الخشب ، حيث لم يستخدم الحديد الا متأخرا فى عام ١٨٨٠ وعلى نطاق ضيق • وبنفس القدر من البساطة كان تنظيم العمل الذى يصاحب ميلا نحو الاكتفاء الذاتى الاقتصادى ، والأنماط الفكرية القائمة على الخرافة والسحر ، مما يعكس الى حد كبير الحالة البسيطة للنمو الاقتصــادى والاجتماعى • واذا أضفنا فوق ذلك كله اشــتغال الفلاحين الدائم بالعمل فى الأرض ، ذلك الذى ورثوه مع المزرعة والذى يتضمن قدرا ضئيلا من الحراك المكانى ، فاننا نستطيع بايجاز شديد أن نرسم صورة لثقافة الفلاحين التقليدية فضلا عن الظروف التى فى كنفها تميل هذه الثقافة للنمو والازدهار •

وثمة عامل آخر على درجة من الأهمية فيما يتعلق بنزعة المحــافظة

Conservatism لدى الفلاحين ، وهو النمط الأبوى للعائلة ونسق القرابة الذى يتبدى فى سلطة الأب وقوته على الأبناء ، وفى اعتماد الأبناء اقتصاديا وفكريا على الآباء ، وفى اتجاهات الشبان الخاضعة والمذعنة • ويعتبر التعاون الوثيق بين الأجيال فى العائلة القروية (وعادة بين ثلاثة أجيال أو حتى أربعة) بمثابة قاعدة ، تشمل كل شئون العائلة ، والعمل ، واعادة الابتكار فى الحياة المنزلية وحب الأرض • ومن شأن ذلك أيضا أن يؤدى الى الحفاظ على الثقافة التقليدية •

وبهذا الترابط المنطقى يمكن تناول الوضع الاجتماعى للفلاحين • فكثيرا ما أدى الاضطهاد والظلم القانونى والاقتصادى الذى لقيه الفلاحون فى ظل النظام الاقطاعى الى وضع العراقيل فى سبيل تنميتهم اقتصاديا ومنعهم من تقديم مشاركة أوسع فى الثقافة القومية • كما أن الحواجز القانونية أيضا كانت تعترض سبيل أى تقدم اجتماعى • وفى هذه الظروف استقر فى أذهان الفلاحين شعور قوى بالتفكك الاجتماعى وبالدونية ، تلك التى حركتها الخبرات الفاسدة لقرون عديدة من الظلم • ولم يقف ذلك حائلا فى نفس الوقت دون ظهور اتجاه للبغض ، وتفشى مزيد من النشاط المضاد بين حين وآخر ضد الطبقة المسيطرة • ومن ثم فان تعميق المسافة الاجتماعية بين الطبقات العليا وبين الفلاحين يساعد على تخليصهم من مستوى معيشتهم الراكد الذى ينعكس فى ثقافتهم المادية ، فى ملابسهم ، وفى مآكلهم ، وفى محتويات مساكنهم ، والتى تتضافر لتشكل كل الخصائص الخارجية لطبقة اجتماعية واضحة للفلاحين • وبالرغم من انهيار النظام الاقطاعى عام ١٩٤٨ فى جاليسيا ، فان هذه الحالة ظلت باقية ومتماسكة لوقت طويل لاحق •

النقل الشفاهى ووظائفه الاجتماعية :

استنادا الى المعطيات الميدانية ، فقد تم فحص نتائج النقل الشفاهى

للثقافة . اتضح أن أحد الآثار الهامة لذلك هو الامكانية المحدودة فى نقل الثقافة من جيل الى جيل . وهذه المحدودية لا تؤثر فقط على عدد العناصر المنقولة ، وانما أيضا على نوعيتها ، وعلى دقتها وشخصيتها الدائمة . ومن ثم ، فان هذه المحدودية الكمية كانت تتضح بخاصة فى حالات التجديدات التكنولوجية والاسهامات الأدبية والفلسفية المعينة . وأن ذلك الانجاز العقلى ، الذى يصدر عن أفراد مجهولى الاسم من المجتمع المحلى لا يحمل صفة الشخصية المستمرة . وكان هذا الانجاز يتبدى عادة فى الممارسات الزراعية ، وفى العلوم الطبيعية والملاحظات الطبية ، وفى المؤلفات الأدبية والموسيقية ، أو المفاهيم الأيديولوجية ، وهى لم تدون كتابة ، وكانت فى معظم الأحوال تفنى بموت مبدعيها الأصليين .

ومن ثم فلقد كان من النتائج الهامة للنقل الشفاهى للثقافة أن ضعفت بالتدريج الذاكرة العامة وتذكر العرف واللغة والمنجزات القديمة . وفى أغلب الحالات كانت التحسينات التكنولوجية الجديدة والعادات الجديدة ، والأغانى الجديدة ، تحل محل مثيلاتها القديمة تماما بالرغم من المصاحبة الزمنية الطويلة . ويحدث ذلك عادة عندما لا يجد الشكل القديم تجسدا ماديا أو تمثيلا أيقونيا أو الاحتفاظ به فى شكل مكتوب . فهنا يدركه النسيان الاجتماعى والضياع .

الاختيار فى النقل الثقافى :

تكتسب عملية اختيار الانتقال الثقافى نمطا متميزا . وحينما يحلل ما يبقى وما يندثر ، فانه من الممكن أن نؤسس خلفية من القواعد والمبادىء العامة ، التى تصدق على نمط الثقافة محل الدراسة ، والتى قد تتخذ أشكالا مختلفة تتقيد بأشكال النمو التاريخى .

وسوف يظهر فى المحل الأول أن كل ما يحمل طابعا فرديا ، وكل ما يأتى نتيجة للقدرات العقلية والمهارات الشخصية للأفراد ، ولم يتخذ شكلا أو يصبح شيئا خلال حياة مبدعية فى المجتمعات الصغيرة على الأقل ، يميل الى الاندثار • ويقول آخر ، فان كل ما يحقق فى الدخول الى نظام الفعل الاجتماعى ولا يصبح نمطا للسلوك ، أو اطارا ذهنيا للاتجاهات العقلية ، أو صيغة موحدة للثقافة المكتسبة ، يكون اندثاره أمرا محتملا • وثمة أمثلة على ذلك ، تشمل منتجات غير مادية كالأغانى ، والألحان ، والقصص الشعبى ، والفنون الشعبية ، والأفكار والمفهومات المتصلة بالنظرة الى العالم لأفراد المجتمع • وهذا النمط من الانتاج الثقافى يواجه فرصة عظيمة للبقاء حينما يصادف أناس ذوى اهتمامات مناسبة ، وقدرات عقلية ، ومقدرة على احتلال محل المبدعين الأصليين • أما بالنسبة للمنتجات المادية والتكمولوجيا فانه حينما يصبح الاختراع التكنولوجى الجديد أو التحسن الجديد فى الانتاج جزءا من روتين العمل بالنسبة لجماعة العمل ، فان الفرصة تصبح أعظم فى دوامها واستقرارها •

واذا انتقلنا الى العوامل التى تساعد على حفظ النواتج الثقافية ، فاننا يجب أن نؤكد أيضا فائدة هذه العوامل ، اذ أن هذه العوامل طالما أنها تشبع حاجات أفراد المجتمع المحلى ــ الاقتصادية ، والتكنولوجية ، والاجتماعية ، والعاطفية ــ ولا تتنافس مع ما هو جديد وانما تتناوب معه ، فان لديها الفرصة للبقاء طويلا • ويتصل بذلك أنه يجب تسليط الضوء على الأشياء الثقافية المادية التى سوف تواجه صعوبة فى التغير ، كتلك التى تتطلب نتاجا ضخما للعمل • وثمة مثال تقليدى هو نسق الحق ، الذى نجده فى قرى معينة فى بودهال Podhale ، يحتفظ بنفس تنظيم الحقول والمزارع التى ترجع الى العصور الوسطى • ولو فحصنا نواتج معينة من خلال خبرة قرون متعددة ، فسوف نجد أنها تفى

باحتياجات الانتاج ، كما أن عناصر معينة من معـدات وأدوات الزراعة تجد أيضا فرصتها فى البقاء • ويصدق ذلك أيضا على عدد من التكنيكات والأعمال المرتبـطة بالأرض والزراعة ، وصـناعة الكتان ، والخشب ، والفخار •

الوسائل الخاصة فى النقل الاجتماعى للثقافة التقليدية :

بغض النظر عن الانتقال الشفاهى المباشر ، والشـواهد العملية ، فان مجتمع الفـلاحين ينمى معانى أخرى تكفل للمعـرفة الانتقال بدقة عظيمة • ويشمل ذلك الصيغ اللغوية المحكمة ، التى تخضـع لقافية أو سجع معين ، والتى تحتوى على قضايا تتعلق بالأرصاد الجوية ، وحقائق عن المناخ ، ومعلومات تتصل بالزراعة وتربية الحيوان ، وتعاليم دينيـة وخلقية ، فضلا عن مجال الخبرات العامة ، التى تشكل ما هو متعارف عليه بالحكم أو الأقوال المأثورة Wise Sayings وينتمى عدد من هذه الصيغ الى فئة الأمثال Proverbs وهى شائعة فى الكلام المعتاد ، وتضفى عليه مزيدا من القوة والتعبيرية •

ولقد كان النظم أو الشـعر verse يستخدم أيضا الى حد معين فى الصيغ السحرية ، خلال الأداء والممارسة السحرية • كما كان استخدام الشعر أيضا يطبق فى عدد من الحكايات الشعبية ذوات الحبكة الدرامية • ولقد كانت تثير الخيال العـام ، كما كانت فى الغـالب تغنى بواسـطة الموسيقيين الجائلين والشحاذين • ومثل هذا الشكل كان مناسـبا ليعاد انشاده وترنيمه بواسطة الجمهور •

وكان يتصل بذلك الجانب التطبيقى للأشكال والنماذج التقليدية التى تعتبر مبادىء موجهـة فى الفعـل التطبيقى • فمثلا ، لم يسـتفد النجارون القرويون القدماء من الخطط المتضمنة فى الرسوم الهندسية ،

أو يلجأوا الى الحسابات الدونة والمكتوبة • وكانت معرفتهم التكنولوجية الصحيحة تستند الى الذاكرة ، وتكرار التطبيق العلمى ، على قليل من النماذج الأساسية • ومن ثم فانهم يبقون على نموذج أكبر كالمنزل ذى الغرفتين ، أو آخر يحتوى على غرفة واحدة فقط ، مع اختلافات معينة تتمثل فى اضافة غرفة صيفية ومخازن • وتبقى الأشكال الأساسية المشابهة لذلك فى أعمال الخياطين القرويين وغيرهم من الحرفيين •

المخالطة الاجتماعية فى الثقافة الاجتماعية

تعتبر التجمعات الاجتماعية المؤسسية وسيلة على درجة كبيرة من الأهمية فى حفظ الثقافة التقليدية • وتتمثل فى اللقاءات داخل المنازل ، أو الحانات ، وفى الصيف خارج المبانى فى الخلاء ، وأيضا عن طريق الاتصالات التى تتم خلال الرحلة الى الكنيسة ، أو الى السوق ، أو الاحتفال بالقداس السنوى • وكان يربط جماعات محددة نمط من الغايات الاجتماعية ، فضلا عن الموضوعات التقليدية الموروثة فى المحادثة ، ومن ثم فان الرجال يسيرون معا خلال رحلتهم الى دار العبادة ، فى حين تلتزم النساء بالعرف والتقاليد المرعية ويشكلن جماعة ثانية ، أما الشيوخ والأطفال فانهم يشكلون جماعة ثالثة • كما تسير الجماعات المرتكزة على علاقات الجوار معا الى السوق المحلية • ويقوم احتفال القداس السنوى أساسا على مساهمة الصغار ، هذا فضلا عن أن مثل هذه الرحلات تتيح فرصا مواتية لاقامة معارف شخصية جديدة •

وعلى درجة خاصة من الأهمية على كل حال ، كانت لقاءات الجيران ، الذين يجتمعون فى المناسبات كاقامة الشعائر والطقوس الرسمية مثل غزل أو تدوير الريش ، هذا الى جانب الكثير من اللقاءات غير الرسمية كالتجمعات التى تتم فى الأمسيات المعتادة ، وبخاصة فى شهور الشتاء • ولقد كانت هذه التجمعات الشائعة فى جنوبى بولندا

حتى نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين سابقة على الكتاب الحديث أو المجلة ، وذلك على نحو ما أوضح دوبروفسكى فى دراساته للريف البولندى •

وكان مضمون أحاديث هذه الأمسيات يتضمن القيل والقال والشائعات حول الأحداث المحلية وأسرار البيوت وشئون المجتمع المحلى ، فضلا عن « الأنباء التى تصلهم من العالم الخارجى الواسع » • كما كانت توجد أيضا عدة حكايات تدور أغلبها حول الخرافات والأساطير وتصطبغ بصبغة ميثولوجية (أسطورية) وسحرية • وقد كان لهذه الحكايات قوة عظيمة من الجاذبية ، كما كان الراوى أو القاص يحتل مكانه فى بؤرة الاهتمام الشائع وكان محلا للتقدير الاجتماعى العام • ولقد كانت موضوعاتهم ترتكز حول الأشكال المختلفة التى تنتمى الى عالم دراسة الجن والعفاريت ، وأرواح الموتى والأشباح والشياطين المؤذية • كما كانت هناك أيضا أنماط من الجن مصحوبة بأقوال مأثورة عن أذاها وضررها ، الا أن بعضها على الأقل كان مبشرا بالخير وداعيا الى التفاؤل •

واذا انتقلنا الى الوظيفة الاجتماعية ، فسوف نلاحظ منذ البداية أنها تولد فى الأفكار والاكتشافات الانسانية القديمة ، بالمعنى الذى كان يبحث به الجنس البشرى عن تفسير للقوى التى تحكم عالم الطبيعة والقدر الانسانى • ان مضامينها تمثل كحقيقة ثابتة عند كل من الراوى والمتلقى ، الواقع الحقيقى • وفى تلك الظروف فان هذه الحكايات تشكل أداة لتقوية المنظور الخرافى القديم • كما تحتوى على عدة اشارات عملية عن كيفية حماية الشخص لنفسه من القوى الشريرة ، أو كيفية تهدئتها واسترضائها • وبعض الحكايات ، وبخاصة تلك التى تتضمن أفكار ودوافع دينية ، تنطوى بالاضافة الى ذلك على موضوعات خلقية وروحية ،

تركز على الاثابة على العمل الصالح والعقاب على العمل الخطأ • وبهذه الطريقة دعمت مختلف المبادىء أو القواعد الروحية حيث تمثل فى العادة احدى خصائص التوافق المحلى ، مستمدة طريقها من المعارف الروحيـــة الكنسية الى الثقافة التقليدية • كما تشير فئة خاصة من الحكايات الى الكنوز المخبأة ، واللصوص الطبيعيين ، الذين يســاعدون الفقراء على الانتقام من النبلاء المتوحشين غلاظ القلوب • وربما كانت الشعبية غير العادية لهذه الأساطير تعكس الرغبة العميقة لدى الفلاحين فى تحســين قدرهم ، والتعــويض عما يقاســونه من حــزن ومذلة فى واقعهم الذى يحبونه •

غفلية النواتج الثقافية Anonymity of products

ان من أهم الملامح المميزة للثقــافة التقليدية المجهولية الشــخصية لمنتجيها الأصــليين والمســاهمين فيها ـ فمقدمة الأدوات والتكنيكات الجديدة القيمة ، واختراع الأنماط الزخرفية الجديدة واختراع الأنغام والسيمفونيــات الجــديدة كانت جميعها مرتبطــة بعمليــة التشــيىء Objectivization التى تعنى توافق المجتمع واندماجه مع ناتج فردى • وفى البداية ، كان التشــابه والمماثلة للمســاهم الأصلى أو المخترع هى المعرفة الشــائعة • وباعتبــار عامل الوقت ، على كل حال ، فان هــذا الشخص يطويه النسيان ، وتصبح النواتج الثقافية منفصلة عن مبدعيها الأصــليين ، وتفقد خاصــيتها الفــردية وتصــبح غير متميزة عن باقى التكنيكات • ويحــدث ولكن بصورة نادرة أن يكتشــف اسم المبدع الأصلى ويبقى فى الشعور الجمعى للمجتمع ، على الرغم من أن مثل هذه الحالات مسجلة •

قوة السلطات القروية :

الايقـاع البطيء جدا فى معدل النمو هو خاصـية تميز الثقـافة التقليدية • وقد أظهرت بعض العناصر التكنولوجية وكذلك العـادات الاقتصادية عنادا غير عادى خلال قرون الاقطاع ، وحتى فيما بعد التحرير فى القرن التاسع عشر لم تتبدل الأوضاع بشكل جوهرى • وحتى وقت متأخر كثيرا ما نعثر على عدد مدهش من البقايا الأثرية التقليدية الثقافية المادية (كأدوات ومعدات الزراعة ، والوسائل الزراعية ، ونظم الحيازة وتملك الأرض ، وصور داخلية لكهوف الفلاحين) ، والى مدى محدود ، على التنظيم الاجتماعى (أشكال معينة من الأسرة الأبوية ، وحتى بعض البقاية الأثرية للنظام العشائرى القديم) ، هذا فضلا عن بعض الشواهد الهامة على العقلية القروية (التقليـدية) • وينتج عن ذلك أن الأوضاع الاجتماعية التى تتسـم بعدم التغير الدائم تشـمل المعتقدات والقيم • « اننا نفعل ما كان يفعله آباؤنا وأجدادنا » تلك قضـية مقبولة وتسمع دائما من الفلاحين فى الثقافة التقليدية • وفى هذه الظـروف نجد أن أى دافعية واعية رشيدة للانجاز الاقتصادى أو السلوك الادارى أمر قليـل الصلة • وكان يشبه ذلك ، فى قلة الأهمية ، الترشيد فى مميزات وخصائص أى مؤسسـة اجتماعية ، أو معيـار اقتصـادى أو قانونى ، أو قاعدة للسلوك • أما ما كان شديد الأهمية فهو أى فعل لا ينبنى على انعكاسات عقلية ، ذلك الذى يتألف من الاستقبال السلبى لوجود النسق الثقـافى من جهة ، والتأييد العاطفى القوى له من جهة أخرى • وعلى ذلك ، تصبح المضامين الثقافية والمؤسسات ذات الأهمية غير العـادية تصبح سـلطة فعلية تمارس تأثيرا ملزما على الكائنات البشرية • ويتألف جوهر هـذه السلطة من الاعتراف بالنـاتج الثقافى المحدد ، الذى كان قاعدة متضمنة فى العدالة الثقافية ، معززة باعتقاد راسخ فى قيمتها ، حتى انهـا أحيانا تنمو من خلال تبديها فى شواهد دينية أو بتبجيل العبـادة أو الدين • وكانت السلطة العالية المصاحبة المتمثلة فى الحملة الأساسيين أو الناقلين

الثقافة التقليدية ، كانت وثيقة الصلة بهذا الاتجاه ، ومن الجلى ، أن كبار السن كانوا على قدر عظيم من التأثير ، حيث ان حياتهم الطويلة واتصالاتهم المتعددة بالناس كانت تجيز لهم ليس فقط تراكم أكبر قدر من المعرفة التقليدية ، بل أيضا اكتساب أغنى الخبرات من خلال ممارساتهم الاقتصادية والاجتماعية • وبسبب نقص المعارف المكتوبة ، فانهم يمثلون المصدر الرئيسى للاعلام عن العمل والانتاج ، وعن العالم والحياة التى يمكن للأجيال الأصغر أن يترسموا خطاها الى حد بعيد • ولكى نفهم كما ينبغى كيف تعمل هذه السلطة ، يجب التركيز على خاصية هامة أخرى فى المعرفة التقليدية • ان الحقيقة توضح أن كثيرا من عناصرها ــ هذه المعرفة ــ سرية ومفهومة لدى فئة قليلة وفى مأمن من الانتشار والتداول العام • وهذه المضامين السرية يمكنها أن تمر الى عدد قليل من الأفراد المختارين • وحتى فى المهن الزراعية ، وقبل ظهور المعرفة الزراعية الرسمية ، والمرشدين الزراعيين ، لم يكن يتوفر لكل من الأبناء حظ التمتع بثقة الأب فى اطلاعه على المعرفة الكاملة بالأساليب الزراعية التقليدية • كما يمكن أن نجد أيضا فكرة السرية فى الانتاج فى مجالات اقتصادية عديدة عدا الزراعة وهذا بالاضافة الى طائفة الصناع • ومن الطبيعى أن يظهر ذلك بشدة فى الطب الشعبى وفى المعارف المتعلقة بالطب البيطرى فضلا عن الكثير من الممارسات السحرية • وفى هذه الظروف تتأكد السيادة العقلية والاقتصادية للكهولة • وتأتى السيطرة الاقتصادية كنتيجة لخضوع الأبناء للوالدين ووجود تعبير عن ذلك فى توزيع العمل وتقسيمه الى حصص • وكان الطعام ومستلزمات الحياة تقدم كمقابل وليس النقود • كما كانت السلطة النمطية أيضا تضبط مسائل الزواج ، والخلاص من الهلاك ، وتجعل بصفة عامة من ترك منزل الوالدين والهجرة للبحث عن عمل بديل أمرا بالغ الصعوبة •

دور المعتقدات الخرافية فى الثقافة التقليدية

من السمات البارزة فى الثقافة التقليدية ذلك الدور الخطير للمعتقدات والممارسات السحرية والخرافية اذا ما قارناه بالأنشطة القائمة على أسس امبيريقية رشيدة • وقد وجد دوبروفسكى لدى البولنديين فى المناطق الوسطى أن المعتقدات والممارسات السحرية تتخلل الصناعات الريفية كصناعة الزبد والجبن • وأيضا فى معظم الأنشطة المتعلقة بتسمين الأغنام ، ورعى الماشية ، وحلب اللبن ، واستخراج منتجات الألبان ، كانت تصاحب هذه الأنشطة ممارسات معينة تهدف اما الى استجلاب النجاح والأمن ، أو درء خطر متوقع أن نحس •

ويمكن ملاحظة الدور الهام والخطير الذى تلعبه الشعائر والطقوس والصيغ الناتجة عن النظام التقليدى المكتسب ، بالنسبة للممارسات السحرية لسكان المرتفعات • فمن الخطورة بمكان أن تعكس أمرا ، أو تغير صيغته ، لأن ذلك يحول النجاح الى نحس ، ويستجلب الانتقام السحرى الذى دائما ما يخشاه الكائن البشرى الضعيف • ومن المهم أن نلاحظ أن ذلك الاتجاه السحرى فى الثقافة التقليدية الجبلية هو فى الغالب امتداد لميدان الفعل الامبيريقى الرشيد • ومن ثم ، فان نبذ أى نشاط تكنولوجى تقليدى معتاد ومتفق عليه ، وأى تغيير فى الأدوات والأساليب القديمة ، وأى خرق أو مخالفة للعادة التقليدية سوف يكون أمرا مفزعا ينظر اليه على أنه فعل خطر ، ينبىء بوقوع كارثة • ولهذا السبب فان الثقاب لم يكن يستخدم لاشعال النار لدى سكان الجبال وانما كان يستخدم أسلوب الزناد (ضرب زلطة بقطعة من الحديد لاحداث شرر) التقليدى • وكان ذلك أيضا هو السبب فى أن المعدات الحديثة التى استحدثت فى بناء الشاليهات الجبلية ، التى تشبه الوعاء فى فترة الحروب الأهلية ، قد قوبلت بمقاومة ، ولهذا أيضا يرجع الخوف من

انخفاض ريع الأغنام • وحينما شاع استخدام المحراث الحديدى فى نهاية القرن التاسع عشر بقرى جاليسيان ، أطلق الفلاحون ، وبخاصة الكهول منهم ، مخاوفهم وذهبوا الى أن الأرض التى تشق بواسطة الحديد سوف تنتقم وترفض تحمل المحاصيل • وشبيه بذلك كانت الهواجس بالنسبة للمكينة الزراعيـــة ، كآلات الدرس ، التى كانت خشـــيتها تعود بالأثر السيىء على المحاصيل •

ومثل ذلك الاطار العقلى السحرى الخرافى يعتبر عقبة فى سبيل التقدم فى كل فروع الثقافة ، وفى نفس الوقت يعتبر عاملا هاما فى الحفاظ على النظام القديم • وفى هذا المناخ العقلى ، الذى تتخلله معتقدات عن سلطة الأسلاف والمشبع جيدا بالنظرة السحرية للعالم ، فان أى محـــاولة للتغيير فى الثقافة المادية ، فضلا عن العادات والعلاقات الاجتمـــاعية ، تقابل بالخوف من وقوع الشر والخوف من الانتقام الذى يحل على يد القوى الغيبية التى هى بمثابة الحراس على النظام القديم • ويجب أن نضيف أن التفكير السحرى يعزز السلطة والوضع الاجتماعى لفئة معينة من الناس ، كرعاة الأغنام ، ورجال الطب ، والحـــدادين • ويعتقد عامة القرويين فى معرفتهم التقليدية السرية وفى قدرتهم على التحكم فى القوى الخفية ، التى تجلب النجاح أو النحس • ولهذا الســـبب فانهم غالبـــا يسلكون كوســـطاء بين العالم فوق الطبيـــعى وطابور الفـــلاحين الذين يشعرون بعدم المساعدة ويتطلعون الى تحمل هؤلاء من ذوى السلطان والنفوذ •

الميل الى التماثل الثقافى

لقد قلنا بالطبع انه فى كل مجتمع انسانى ، بصرف النظر عن الزمان والمكان ، يمكننا أن نجد ميلا جمعيا نحو المحافظة على الوضع القائم والدفاع عنه . وعلى العكس من ذلك نجد ميلا فرديا تحرريا نحو تقديم عناصر جديدة للثقافة .

تتميز ثقافة الفلاحين القديمة فى بعض مناطق أوربا بخاصية تقليدية مسيطرة . ولكن من المهم أن نتحقق من عدم وجود مساواة وتماثل بالنظر الى الاستهلاك والنصيب فى انتاج المنتجات الثقافية . فلقد كانت ثقافة على درجة عالية من التباين ، من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية ؛ وكانت تناقضاتها الاجتماعية غالبا محل اعتبار ، وبخاصة تلك التى توجد بين أثرياء الفلاحين ، وبين الفقراء القرويين . فهناك اختلافات عميقة فى مساحات المزارع وعدد المواشى ، والأكواخ من الداخل ، والأثاث المنزلى ، والمعدات والمأكل والملبس ... الخ . أما فى الحياة الاجتماعية والطقوسية ، فثمة مزيد من الفخامة والأبهة والروعة بين الفلاحين الأثرياء ، والمظهر الحسن فى المناسبات كمواكب العرس وحفلات التعميد والاحتفالات الدينية والجنائزية . وأحيانا يؤدى ذلك الى استيقاظ الشعور على أن أشياء مادية معينة تصاحب مكانة اجتماعية معينة ، كالبوابة أمام المنزل ، ومدخنة أو اثنتين فوق سطح البيت ، وصناديق لحفظ الأشياء الخاصة ، ونمط معين من الأثاث المنزلى . والملبس . كما يرتبط استهلاك نمط معين من الطعام بالمنزلة الاجتماعية . ومن ناحية أخرى ، فان نطاق استهلاك القرويين البروليتاريا للسلع الاجتماعية ضئيل جدا . وفضلا عن ذلك ، فقد كانت هناك ضغوط شديدة من جانب الفلاحين الأثرياء على القطاع الفقير من المجتمع (من لا يملكون أراضى زراعية والعمال القريين) بهدف منعهم ـ الفقراء ـ من استخدام

هذه العناصر الثقافية التى يحرصون على اعتبارها امتيازا مقصورا عليهم وحدهم (الأغنيـاء) • بل ان الفقراء هم الذين يلعبون الدور الهـام والواضح فى خلق القيم الثقافية • ولقد كانوا هم الحاملين الأسـاسيين للمعرفة التكنولوجيـة فى مختلف فروع الانتـاج ، كأعمـال الخشب والتعدين ، وأعمال الفخار والنسيج والخياطة •• وهكذا • أنهم يملكون معرفة واسعة بالفواكه البرية ، والجذور والنباتات التى تجمع من الغابات والحقول لاستكمال غذائهم • انهم هم الذين قدموا الغالبية العظمى من الحرفيين كالنجارين ، وصناع البراميل ، وصناع العجلات ، والنساجين ، والحدادين وصناع الفخار ، ولقد قدمت البروليتاريا القروية عددا كبيرا من الفنانين الشـعبيين ، كالمثالين أو النحاتين ، والرسـامين ، وصناع الحلى ، والخيـاطين ، والمغنين ، والممثلين ، ورواة القصص البطولية ، والكتاب الشعبيين •

وبالرغم من هـذا التباين ، فان الثقافة التقليـدية تظهر ميلا الى التماثل • ويتمثل فى الضغط الاجتماعى نحو النمط الشائع ، واللامتغير من النظم الاجتماعية والمضامين الأيديولوجية فى داخل طبقات معينة أو داخل جماعات القرية • والأفراد الذين ينحرفون عن السـلوك الجمعى ويقبلون أنماطا من السلوك من خارج الطبقة أو الجماعة يقابلون بطرق من الكبح والقمع كالسخرية ، واللوم ، والاستهجان الأخلاقى ، والنبذ من المجتمع ، وحتى تطبيق العقوبات القانونية الرسمية •

ومن الملامح المميزة لنمط ثقـافة الفلاحين الذى حللناه ، النـدرة النسـبية فى الأمثـلة المادية على عكس النمو المرتفـع فى نسق الأنماط السلوكية • ومن ثم ، فلدينا من جهة ، عدد محدود من الأشياء المـادية كالمنازل ، والترتيبات الداخلية ، والأساس المنزلى ، والملابس ، وأدوات الزينة •• الخ • ومن جهة أخـرى عدد ضخم من الأوضاع الاجتماعية

المتباينــة ، يحتاج كل منهما الى شــكل من الســلوك الخاص والمعتاد والمكتسب • ويمتد ذلك الى كل من مجال الحياة العــائلية ، فضلا عن علاقات الجوار ، وشــئون القرية وعلاقات القرية الداخلية • ويتصــل بهذه الأشكال المنظمة للســلوك عدد من الاتجــاهات ، والتقييمات ، والمعايير القانونية والأخلاقيــة • وعلى أية حال ، فانه برغم هذه الميول نحو التماثل فان مجتمع القرية كان غير متســاو فى الواقع الاجتماعى • فالمنطلقات المختلفة فى الحياة ، والقدرات الفردية والفرص غير المتساوية تلعب دورا هاما فى مجتمع الفــلاحين • وغالبا ما يؤدى الحــرص على الفــردية الى نبذ الخطوط الميكانيكية فى الفكر • وفى خلال ســنوات دراستى الميدانيــة وقفت على عدد من الفلاســفة القرويين الذين كانت أفكارهم عن الحياة مستقلة وجريئــة • ومن ثم فبين الكثير من مفكرى الفلاحين وجدت المتكلمين الذين يشــكون فى حقيقة الســماء وجهنم ، وحتى فى وجود الروح البشرية •

المنظور التاريخى للفقر

كان الفــلاحون فى الفترة الاقطاعية فى أوربا ينقسمون الى قرى صغيرة منعزلة ودوائر مجتمعات محلية والى أقسام أكبر داخل ما يسمى بدوائر الأبروشــيات التى توجد فى ظروف لا تفضــل النمو الواســع للمنظور التاريخى •

ومن الواضــح أنه فى المجتمعات المحلية التى تعتمد أساســا على التقليد الشــفاهى ، تكون ذاكرة الماضى محدودة وذات صبغة محلية • وبغض النظر عن الحقائق الطبوغرافية (القرية وحدود الحقل) ، فانهــا كانت تهتم بالحوادث ، التى ترجع الى شخصياتهم غير العادية والوصول الى آثارها البعيدة ، التى تترك آثارا عميقة فى أذهان النــاس ، ومن ثم

فان الحوادث التى تصاحب الخصـائص الحيوية للوجود الانسـانى ، كالمجاعات ، والأوبئة ، والحروب ، والمعارك ضد طبقة لوردات الأراضى ، كانت ماثلة فى الذاكرة قبـل كل شىء • ان ذلك يشكل الطبيعة المدمرة لتاريخ الفلاحين ، وفى الفترة الأخيرة • فانهم يؤلفون بين ذاكرتهم حول شروط الحياة فى ظل عبودية الأرض أو القنانة ، وحول المنازعات الدائمة والخاضبة أحيانا مع مالك الأرض ، وظلمه الاقتصادى للقرويين ، ونهبه لأراضيهم لكى يوسع من اقطاعيته ؛ كما تتضمن هذه الذاكرات أيضـا حكايات عن اللصوص الذين أصـبح بعضهم مظاهر ترمز الى الشـهرة الأسطورية • ويجب التأكيد على أن مثل هذه القنانة التقليـدية تحتفظ للفلاحين بقوتهم حتى فى الآونة الحديثة ، لتصبح احدى العوامل المحركة لجماهير الفلاحين فى معركتهم من أجل التحرر الاقتصادى والسياسى • وهنا على أية حال ، فانها تعنينا قبل كل شىء كعامل هام فى ايقاظ اهتمام الفلاحين بماضيهم ولتعميق منظورهم التاريخى العام •

والمنظور التـاريخى للفقر الذى كان أيضا نتيجة لقصور الذاكرة الجمعية ، التى تحدث ببسـاطة من خلال العمليـات المستمرة لتعـاقب الأجيال • وقد يبدو من الواضح الى حد كبير ، أن ابراز هـذه العملية البسـيطة يقود الى اكتشاف خاصـية هامة أخرى للظرف التـاريخى للفلاحين ، وبالتحديد أن حوادث الفلاحين غير محددة بفواصـل زمنية واضحة • وأغلبهـا حوادث بعيدة ومنعزلة بعضـها عن بعض تندمج فى ذهن الفلاح ، فى اطار صورة بسيطة لا يمكن معها رؤية واضحة لفترات زمنية واضحة •

الثقافة التقليدية للمجتمع المحلى للقرية

من العلامات المميزة جدا لثقافة الفلاحين التقليدية أن التماسك الاجتماعى الموجود برغم وجود التباينات الطبقية ، يربط سكان القرى الصغيرة فى تجمعات داخل منطقة محددة من الأرض لتتكون بذلك المجتمعات المحلية القروية . وكان قرويو أوربا فى تلك الآونة على اتصال قليل نسبيا ، اقتصاديا ، وتنفيذيا ، ودينيا ، وتعليميا مع المدنية وبقية القرى . وكان ذلك مصحوبا بغياب التنظيم الواسع للفلاحين ، الناتج عن أوضاع الحياة التى كانت تحياها المجتمعات المحلية القروية فى تلك الآونة فى ظل الاكتفاء الذاتى . وثمة علاقات قوية بعض الشىء توجد فقط بين القرى التى تشكل دائرة معروفة . ولقد كان ميثاق التماسك فى القرية باديا قبل قبل شىء فى الاهتمام بالمجتمع المحلى القوى الذى توجد القرية بداخله .

وبالرغم من التناقض الحاد الموجود بين السكان الفلاحين الذين ينقسمون الى عدة طبقات من ملاك الأراضى بالاضافة الى أنماط مختلفة من الفلاحين المعدمين ، فقد كان هناك قدر كبير من التماسك الداخلى .

ونظام المساعدة المتبادلة للجيران ، فضلا عن نظام تبادل الهدايا والهبات ، كان قائما على نطاق واسع . وثمة مظهر آخر للتماسك وهو القيام بالهجرة فى مجموعات للعمل الموسمى أو اقامة الاحتفالات المتعلقة بالعمل على أساس الأصل القروى المشترك . ويقوم نفس المبدأ فى التجمع على أساس الرحلات المشتركة للحج الى أماكن العبادة الدينية . كما أن هناك أيضا ميلا الى الاستيطان معا فى المدن والمستوطنات الصناعية ، فضلا عن الميل الى العمل معا فى نفس المصانع . ويتضح هذا الميل فيما بين المهاجرين البولنديين فى أمريكا على سبيل المثال .

والمجتمع المحلى القروى الذى يتسم بالتماسك الداخلى معروف أيضا بالغموض فى علاقته مع الخارجيين • ومن ثم ، فان مواطنى القرى المتجاورة كانوا يتعاملون كغرباء • فهم يتعاملون بشكل مختلف ، وربما بدرجات مختلفة من الكراهية • والعبارة الآتية التى قيلت على لسان أحد المبحوثين سوف توضح جيدا النسبية الأخلاقية : « أنه لمن غير المسموح به أن يضرب الناس فى قريتنا ولكن الناس من القرى الأخرى يمكن (وسوف) يضربون » •

ومثل هذا الاتجاه يؤدى غالبا الى صراعات مع سكان المجتمعات المحلية الأخرى ، التى كثيرا ما تولد خصومة وعداوة حادة • وغالبا ما يتمخض ذلك عن شجار بين جماعات الشبان • وهناك عدد من المواقع تحدث فيها مثل هذه الشجارات وتكون فى العادة على الحدود الفاصلة بين القرى ، وفى الحانات ، أو المهرجانات والحفلات •

ومن ثم فان الاتجاهات نحو الغرباء عدائية ، فهم يقابلون بالاحتقار وحتى الايذاء بالألفاظ البذيئة وألقاب التهكم فى بعض الأحيان ، وتأتى القصص والأوصاف والتقويمات عن هؤلاء الغرباء فى مجملها مشوهة ومحرفة •وهناك عدد من النماذج المسجلة ، برغم أنه من الصعب ، ان لم يكن من المستحيل ، أن ينقل الى الانجليزية جوها ولهجتها المحلية •

ويجب اضافة أن الوظيفة الهامة لهذا العداء القروى هى اقامة العوائق فى سبيل وصول الغرباء والسماح لهم بدخول القرية • فبالنسبة لهم يظنون أنهم عن طريق الزواج أو عن طريق آخر يمكنهم الحصول على الأرض •

ديناميات التفكك فى الثقافات التقليدية

قبل أن تتفرغ الى مناقشة عمليات التفكك فى الثقافة التقليدية للفلاحين ، فان ثمة كلمات قليلة يجب أن تساق حول سوابقها التاريخية . فلقد رأينا أن أى ثقافة تقليدية ، تبنى على النقل الشفاهى ، يمكن أن تحتفظ بشكلها النقى فقط فى حالة ما اذا كان المجتمع المحلى الذى يحملها ليس موضوعا لتأثير الحضارات الأكثر تقدما ، وتثقفا . ولكن مثل هذا الوضع لا يوجد فى أوربا ، حيث كانت ثقافات الفلاحين منذ وقت مبكر قد نمت كنواتج معتمدة ، فى حالة تكافل مع ثقافات الطبقات الحاكمة . ولقد قامت الأخيرة (أى ثقافات الطبقات الحاكمة) منذ العصور الاقطاعية وخلال فترة الرأسمالية ، باستخدام الكتابة وأخيرا الطباعة كوسيلة لتراكم وتحسين الانجازات الثقافية . وثمة وضع مشابه لذلك فى بولندا ، حيث كان نمو ثقافة الفلاحين معتمدا ، ولكنه كان يوجد فى اطار نسق اجتماعى وسياسى فرضته الطبقات الحاكمة . وهناك فى النسق الاقطاعى مبدأين أساسيين لنقل عناصر الثقافة الحاكمة الى ثقافة الفلاحين :

(أ) عن طريق الضغط الواعى والقهر الذى تقوم بجانب منه الطبقة الحاكمة ،

(ب) عن طريق تقليد أو محاكاة imitation جانب من ثقافة الفلاحين .

والفلاحة فى النظام الاقطاعى تشكل — كما هو معروف بصفة عامة الطبقة المستغلة والمضطهدة والمظلومة ، والتى على جهودها تعتمد رفاهية الطبقة العليا . وعلى ذلك تميل الطبقة الحاكمة الى ضبط الحياة الاجتماعية والاقتصادية للفلاحين . فضلا عن خصائص أخرى فى

ثقافتهم • وكانت النتيجـة أن العناصر الثقافية المختلفة للطبقات العليا كانت أمرا محتما لا يمكن اجتنابه فى حياة القرويين • ولكى نوضـح هذه العملية ، التى تحدث بالطبع ، تدريجيا وعلى المدى الطويل ، يكفى أن نذكر الدور الذى تلعبه الطبقة الحاكمة فى تنظيم وضبط نظام الأرض الزراعية ، والمساكن القروية ، ومختلف القواعد والتعليمات التى تصدر (معظمها فى صورة مكتوبة وحتى بعضها فى شـكل مطبوع) للفلاحين منظمة لمختلف جوانب حياتهم المادية (الملابس القروية والعادات) • أو يجب أن نذكر الدور الذى يقوم به رجال الطبقـات العليا ، التى ظلت لقرون تنتقل بالوسائل المكتوبة والمطبوعة ، والتى تمتـد الى ما فوق النظم الحيوية عن حياة الفلاحين وعقليتهم ، كالمفاهيم الدينية والممارسات، والحياة العائلية ، والنظرة الى الحياة والعالم والدوافع الأدبية التى تنتقل من الاحتفالات الى الحكايات الشعبية • ويجب أن نضيف أن المدارس الاقليمية ، بالرغم من أنها قد علمت أعدادا محدودة نسبيا من الأطفال فى الفترة الاقطاعية ، فقد ظلت لقرون معينة وكان مدرسوها وموجهوها غالبا من أصل فلاحى •

ومن الأهمية بمكان تلك الحقيقة القائلة بأنه فى عدد من القرى كان المنظمون الحقيقيون أو ما يطلق عليهم المكتشفون ، كانوا فى الغالب من المدينة ، فى حين تتألف الأسس القانونية لهذه القرى فى شكل مهـذب ومكتوب كما أحضرت قوانين العقوبات من غربى أوربا • وباختصـار ، ففى خلال القرن الخامس عشر ، كان عدد كبير من الكتاب القرويين الذين بدءوا على نطاق واسع يرسلون أولادهم الى المدارس • وهؤلاء الأخيرون يحتلون فيما بعد وظائف رسمية دنيا فى الهيئات الدينية والمجالس البلدية• ولم تقع حينئذ حوادث اذ أن سكان الريف فى تلك الآونة كانوا يعدون عددا من الرجال البارزين ، كالعلماء والكتاب والشعراء • وعلى أية حال فالغالبية العظمى من الفلاحين الذين أصبحوا مثقفين ، قد شغلوا وظائف

ثانوية فى القرى كموجهين فى المدارس الأبراشية ، وعازفين على الأرغن فى الكنيسة ، وكتبة فى المجلس القروى ، ومحاسبين فى المؤسسات الكبرى . ومن هذه المجموعة تعززت وتدعمت حركات الفلاحين بالقادة ، فضلا عن المبدعين فى فكر وأيديولوجية الفلاحين ، والدقة فى تبرير حقوق الفلاحين . وفى هذا المقام يجب أن يتحول الانتباه الى حقيقة على صلة وثيقة بذلك وهى التى توجد بين ثقافة الفلاحين ومعركة الفلاحين الطويلة الممتدة من أجل الخلاص التى تؤدى فى الغالب الى الضعف . اذ أن معظم أغانى الفلاحين خلال هذه المعركة يرجع أصلها الى نزعة الكراهية القوية وتجريم وادانة المزرعة أو الضيعة والحياة فيها .

وبغض النظر عن القهر الاجتماعى الذى تمارسه الطبقة الحاكمة ، فان هناك عملية أخرى تزامنها فى الفعالية والقوة ، وهى محاكاة أشكال ثقافية وممارسات معينة تنتمى الى الطبقات الممتازة والغنية . وبالرغم من أن هذه العملية كانت ارادية وطوعية فى خصائصها ، فانها لم تكن عفوية تماما . ولا ننس أن عناصر ثقافة الفلاحين المختلفة التى تخص الطبقات المسيطرة تبدو جذابة ، تصبح عادة ، كالاتيكيت أو آداب المعاشرة ، والموسيقى أو الانتاج الأدبى .

وبهذه الطريقة تنفذ العناصر الثقافية غير الفلاحية ـ عن طريق الفرض بالقوة أو المحاكاة ـ الى الثقافة الشعبية . وفى نفس الوقت فان هذه العناصر تندثر من ثقافة الطبقات الحاكمة ، ومن الأدب ، والعلوم الرسمية ، أو الفروع الأخرى للانتاج الأدبى . ولكى تبقى فى ثقافة الفلاحين فانها فى الغالب تجتاز اختبارات فى التغير ، فى كل من الكيف والكم ، وتكتسب بعد فترة الخصائص الشعبية . وهذه العملية الهامة التى حدثت بدرجات مختلفة من الكثافة والقوة فى الفترة الاقطاعية ، تبقى

الى حد بعيد ميكانيزما للتنمية المقصودة ، والذى تبدل قليلا فى القرنين التاسع عشر والعشرين ٠

وعلى العموم فانه يمكن القول بأن ثقافة الفلاحين فى جنوب بولندا قد أظهرت تفوقا فى العناصر التقليدية حتى تحرير الفلاحين فى عام ١٨٤٨ ، وحتى عام ١٨٧٠ ٠ ولقد كان عدم التكامل فى ثقافة الفلاحين التقليـدية عملية طويلة ٠ كما أن انحلال العناصر التقليدية بعد عام ١٨٤٨ كان مرجعه تقوية المنظور التقدمى بين الفلاحين ٠ وكان من بين العوامل المسئولة عن هذا الميل :

(أ) تسرب النمو فى وسـائل الانتاج الى داخـل القرى يتطلب مهارات فنية ومعارف عالية عن كيفية استخدامها ، كتحسين الأدوات الزراعية ، والميكنة الزراعية على سبيل المثال ٠

(ب) التبادل الكثيف للسلع بين الريف والمدن وكسر العزلة الخاصة لسكان الريف ٠

(حـ) نمو التعليم الريفى ٠

(د) الارتباط الواسـع لسـكان القرية بالحركات الاجتمـاعية والسياسية والثقافية على المستوى القومى ٠ ولم تكن الفرصة المواتية لعزل وتنمية العناصر الثقافيـة التقليدية بين القرى ؛ بطيئة بنهاية العهد الاقطاعى ، فلقد اتسعت على مدار القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، وأصـبحت سريعة فى مجتمعات الدول الجديدة ٠

الفصل الثالث

المجتمع المحلى للقرية(*)

تندرج المجتمعات القروية فى عداد المجتمعات المحلية . وثمة تعريفات عدة حول مصطلح « المجتمع المحلى » ، وعلى الرغم من اختلاف هـذه التعريفات فيما بينها من حيث الصياغة ، فانها جميعا تدور حول مضمون مشــترك . ويعــرف « المجتمع المحلى » على أنه تجميع من المواطنين ، يعيشون معا فوق منطقة من الأرض ، ويؤلفون جماعة اجتماعية . ويتحقق ذلك من خلال ارتباطهم فيما بينهم عن طريق نسق من الروابط والعلاقات، واشتراكهم فى مصالح مشتركة ، وفى أنماط مقبولة من المعايير والقيم ، وفى ادراكهم الواعى بتميزهم عن غيرهم من الجماعات الأخرى التى يمكن تعريفها وفقا لهذا المبدأ .. الخ[1] .

وفى حقيقة الأمر أن التجمعات التى تقيم معا فى منطقة من الأرض ، لا يمكن أن تتوفر لها الأسس اللازمة لوجود الروابط التى تعمل على خلق جماعة اجتماعية لمجرد أنها تتميز بواحد من هذه المحكات أو غيره . وعلى ذلك فليس من الضرورى أن يؤلف كل تجمـع بشرى يقيم فوق منطقة معينــة من الأرض مجتمعا محليــا . وعلى كل حال فان المنــاطق المختلفــة عادة ما تتميز فى ضــوء خصائصها الاجتمــاعية الهامة ، تلك الخصائص التى تميل الى التراكم . وكقاعدة ، فان مركز الاقليم حيث

(*) انظر المرجع التالى :

Boguslaw Galeski, Basic Concepts of rural Sociology, Manchester University Press, London, 1972 : Chap., 4 ; "The Village Community". pp. 76-99.

توجد أجهزة الادارة المحلية ، يضم كثيرا من المؤسسات الأخرى • وتعتبر المناطق الادارية فى العادة وحدات متكاملة ذات خصـائص اقتصـادية وثقافية وتاريخية • ومن هنا فان التجمع البشرى الذى يجرى تناوله فى سياق أى بحث علمى ، فضلا عن الحياة الاجتماعية ، يعتبر مجتمعا محليا الى مدى أو آخر •

ولقد استخدمنا عبارة « الى مدى أو آخر » نظرا لأن التمييز بين « التجمع البشرى » و « المجتمع المحلى » لا يتخذ فى حقيقة الأمر شكل الثنائية • اذ أن كل الملامح الموضوعية والذاتية للجماعة الاجتمـاعية ، وكذلك المجتمع المحلى ، هى ملامح تتخذ شكلا متدرجا ، فنسق العلاقات التى تربط بين الأفراد فى أى جماعة اجتماعية قد يتسع أو يضيق ، وقد يشغل وزنا يزيد أو يقل ، وقد يؤدى الى خلق مركب جمعى على نحو يزيد أو يقل • والتجمعات البشرية التى تتميز بخاصية واحدة لا تشكل فى العـادة جمـاعة اجتماعية • ويمكن أن تكون كذلك اذا طرأت بعض المتغيرات التى تؤثر فى ذلك التجمع البشرى السكانى على وجه التحديد • فالمواطنون فى داخل هذا التجمع مثـلا ، يمكن أن يسلكوا كجمـاعة اجتماعية حينما يتهددهم خطر معين كنقص المياه ، اذ أنهم فى هذه الحالة ينطلقون من موقف مشترك •

وعلى ذلك فان المجتمعات المحلية يمكن أن تتدرج طبقا لمدى توافر تلك الملامح التى تجعل من كل منها جماعة اجتماعية • وذلك من شـأنه أن يجعل بامكاننا قياس هذه الخصـائص ، وكذلك الوقوف بشـكل امبيريقى على التغيرات التى تطرأ على المجتمعات المحلية ، أو تلك التى تأتى بصورة عفـوية • ان المجتمع المحلى ، شـأنه كشـأن أى جماعة اجتماعية ، يتسم بالدينامية ، وتأتى خصائصه المميزة كمحصلة للتفاعلات

التى تحدث بين أعضائه ، تلك التفاعلات التى تتبدى فى العلاقات التبادلية بين الأفراد ، وتغير الروابط التى تربطهم ببيئتهم[٢] .

وبطبيعة الحال ، فان المجتمعات المحلية يمكن تصنيفها وتقسيمها الى أنماط وفقا لمبادىء متعددة (على نحو ما سنعرض لمناقشة بعضها) . ولن نلبث أن نعتبر أحد التصنيفات ذات الاتجاه الواحد للمجتمعات المحلية : هو ذلك الذى يتم وفقا لترتيب أو تدريج هذه المجتمعات المحلية . وفى ضوء التعريف الذى اصطلحنا عليه سابقا ، فان المجتمعات المحلية يمكن أن تشمل النجوع ، والقرى ، والمراكز ، والمحافظات أو الأقاليم ، وحتى الأقطار — فكلها جميعا تعتبر أجزاء من نسق يكون فيه أدلة مجتمع محلى فى الترتيب جزء من المجتمع المحلى الكبير على أعلى مستوى . ويبدو واضحا أن هناك ملامح أخرى بالاضافة الى ذلك ، فالمجتمع المحلى للقطاع يختلف عن المجتمع المحلى للقرية لا من حيث موقع الأول الذى يتميز به على سلم التدرج فحسب على نحو ما أشرنا ، ولكن من حيث أن هناك ملامح أخرى ..

ويعتبر ذلك أحد الأسباب التى جعلتنا لا نستخدم مصطلح « المجتمع المحلى الريفى » فى هذا السياق . فالبلدة والمقاطعة هما مجتمعان محليان ريفيان . غير أننا هنا سوف نتفق على أحد هذين النمطين ليشير الى المجتمع المحلى الريفى : ألا وهو القرية .

ومن اللافت للنظر أن المناقشات التى دارت فيما يتصل بالفروق بين الريف والمراكز الحضرية فى التراث السوسيولوجى ، قد اختزلت الأمر فى مجرد التعريف بالملامح التى تميز القرية عن النمط الحضرى من المراكز العمرانية . الا أننا سوف نحاول هنا أن نوضح كيف أن هذه الفروق التى أشارت اليها المناقشات ، انما هى فروق ذات طبيعة جزئية وثانوية ،

وترجع الى حد كبير لاختلاف نمط الحيـــاة الريفية ، ذلك النمط الذى تفرضه طبيعة العمل الزراعى • وعلى الرغم من وجود عدد من الفروق بين الريف والحضر (على نحو ما جاء فى كتاب سوروكين وزيمرمان)[٣] ، الا أن واحدا من هذه الفروق لا يكفى لأن يكون محكا لتعريف وحدة عمرانية معينة على أنها قرية أو مركز حضرى • ويمكن للمرء حينئذ أن يتحدث عن اتساع الملامح الريفية أو الحضرية : فالتقسيمات الريفيـــة والحضرية لن يتم معالجتها كثنائيات ، وانما سوف تشير الى نمط مثالى يتخلله عدد من الأشكال الوســيطة[٤] • وعلى ذلك فليس هناك محك مقبول بوجه عام يمكن على أساسه أن تعرف المراكز العمرانية تعريفــا اداريا • ففى الولايات المتحدة على سبيل المثال ، تعرف الوحدة العمرانية التى يبلغ عدد سكانها ٢٥٠٠ فرد على أنها قرية ، أما ما يزيد على ذلك فيعرف على أنه بلدة (Town) ولكن هذا المحك لا يمكن تطبيقه فى الهند ، ولا فى المجر أو تشيكوسلوفاكيا ، حيث ان القرى فى هذه البلدان لا يبلغ عدد سكانها هذا الرقم الكبير • أما فى بولندا فلا يوجــد محك مفرد للتمييز بين القرية والبلدة ، وفيما يتعلق بهذا الأمر ، فان ذلك التمييز يتقرر بشكل عملى واقعى بمعرفة السلطات المختصة • وبغض النظر عما اذا كان يؤخذ فى الاعتبار واحــد من المحكات أو أكثر ، فان القرارات الحكومية مع ذلك تميل دائما الى الارتكاز على نوع من التخمين حول الخصائص الحقيقية للمجتمع المحلى •

الخصائص الأساسية لمجتمع القرية : الفروق بين الريف والحضر

يتميز مجتمع القرية أساسا بأن غالبية سكانه هم أعضاء فى عائلات تمارس العمل الزراعى • وعندما نأخذ فى الاعتبار العمل الزراعى كأساس للمجتمع المحلى القروى ، فاننا نستثنى من ذلك تجمعات العمال الزراعيين الذين يتمركزون فى المزارع الكبرى(٥) ، فضلا عن العمال الذين يعملون فى المستعمرات الصناعية (كالتعدين •• الخ) ، حيث ان هذه الأشكال من التجمعات تمثل وحدات عمرانية منفصلة • وهناك أوجه للتشابه بين هذا المعنى وبين التمييز الذى نسوقه فى معرض الحديث خلال حياتنا اليومية ، والتمييز بين القرية والمستعمرة الصناعية ، بل التمييز كذلك بينها وبين العزبة ، والاقطاعية ، • الخ • ولا يعتبر العمال الزراعيون المقيمون فى احدى المزارع الكبرى مواطنين فى قرية ، حتى ولو كانت هناك قرية مجاورة لهم ، كما أنهم لا يعتبرون قرويين(٦) ، سواء كان ذلك من وجهة نظرهم الخاصة ، أو كما يتراءى لمستخدميهم • وبطبيعة الحال ، فان المرء يستطيع أن يدخل تجمعات العمال الزراعيين ضمن المجتمعات المحلية الريفية ، ولكن يتعين عليه هنا بالضرورة أن يميز بين المستعمرات الصغيرة غير الزراعية ، والعزب وبين القرى • ويعتبر ذلك من أكثر الأسباب التى دعتنا هنا الى استخدام مصطلح « المجتمع المحلى للقرية » بدلا من استخدام مصطلح « المجتمع المحلى الريفى » •

وعندما نضع فى اعتبارنا أن المزرعة هى أساس مجتمع القرية ، فاننا لا نلبث أن نجد أن معظم الملامح التى تميز مجتمع القرية انما جاءت نتيجة لطبيعة العمل الزراعى كنمط للانتاج يتخذ شكل المشروع الذى تتوحد فيه العائلة بالمزرعة • ويتميز الانتاج الزراعى بطبيعة خاصة ــ نظرا للدور الذى تلعبه الأرض فى هذا النوع من الانتاج ــ يستتبعها أن المنتجين فى سياق هذا النمط الانتاجى لا يمكنهم أن يشكلوا تجمعات

بشرية كبيرة • وينطبق ذلك على كل من القرية والعزبة (أو الاقطاعية) • كما أن المشروع الزراعى الكبير يضم عددا قليلا من المواطنين ، فهو عدد يقل عما تتضمنه مجموعة من المزارع القروية • ويعتمد حجم مجتمع القرية على التركيب الزراعى ، كما يعتمد كذلك على نمط الانتاج الذى تتحد فيه المنطقة الزراعية • وكلما ازدادت المزارع تفتتا (نظرا لعدم امكانية الهجرة من القرية ، ونظرا لاتباع مبدأ تقسيم المزرعة على أفراد العائلة) ، فضلا عن ارتفاع نسبة التركز الزراعى ، فان عدد سكان القرية يميل الى الازدياد • وقد لاحظ جالسكى فى الجزء الجنوبى من بولندا ، يلاحظ تفتت المزارع ، كما يلاحظ ذلك أيضا فى المزارع المتاخمة للمراكز الحضرية • أما فى المناطق الوسطى والغربية ، حيث تتميز المزارع بالحجم الكبير ، فان متوسط عدد سكان القرية يتراوح ما بين ٨٠ الى ١٥٠ أسرة •

وعلى ذلك ، فان قلة عدد السكان وانخفاض الكثافة السكانية فى القرى مقارنة بالمراكز الحضرية ، انما جاءت كنتيجة لخصائص الانتاج الزراعى • ومن ثم فانه يمكن القول (على خلاف ما ذهب اليه سوروكين وزيمرمان)[٧] أن هذه الخصائص لا تتمشى مع الحضرية ــ الريفية (مع أن القلة الملحوظة فى عدد السكان ، والانخفاض الملحوظ فى الكثافة السكانية بالوحدات العمرانية من الخصائص المميزة للمجتمعات الريفية) وانما تتمشى مع طبيعة الانتاج الزراعى • بل وأكثر من ذلك ، فان القرى تعتبر أكثر تركزا فى السكان اذا ما قورنت بالوحدات العمرانية التى تضم عمالا زراعيين • ومن ثم فانه يمكن القول بأن ثمة علاقة ارتباط ايجابى بين السمات الريفية وبين كل من عدد السكان ، ودرجة التركز السكانى فى التجمعات الزراعية •

وهناك خاصية هامة أخرى تميز مجتمع القرية ، وهى خاصية تابعة

كذلك من طبيعة الانتاج الزراعى ، ألا وهى الاتصال المباشر للانسان بالطبيعة ، أى اتصاله الوثيق بها • فكلنا نعلم بأن الانسان فى المراكز الحضرية محاط بكثير من الموضوعات والأشياء الجامدة التى تخلو من الحياة ، وكثير من المنتجات الانسانية ، فى حين يحيا الانسان فى القرية فى مواجهة الطبيعة[٨] • وربما يترك الاغتراب عن الطبيعة آثارا على شخصيات الأفراد وعلى علاقاتهم الشخصية • ومن الصعب علينا أن ندلى بقرار حول هذا الموضوع ، لا سيما وأن هناك عوامل عدة تشكل الشخصية الانسانية بحيث يتعذر تحديد أى من هذه العوامل يعتبر فى مقدمة الأسباب المؤدية اليه • وفضلا عن ذلك فانه يمكن اضافة عامل آخر ، وهو أن الآثار الطيبة للطبيعة على الانسان قد لوحظ أنها عادة ما تكون مصحوبة بأفكار حول تفوق الانسان الريفى من الناحية الأخلاقية على المواطنين الحضريين[٩] • وعلى كل حال ، فان هذا النوع من الاعتبارات يمضى الى ما وراء ميدان العلم • ومما لا شك فيه أن الاتصال الوثيق بالطبيعة له كثير من الآثار الطيبة ، ولكن حينما تكون هذه الآثار مصاحبة للنمو الضعيف فى القوى الانتاجية الزراعية ، فانه يصبح من الصعب تقييم هذه الآثار الطيبة بنفس الحماس المعهود لدى كثير من الكتاب ، كما أن تلك الآثار لم تحظ بعد بالتقدير الذى تستحقه من جانب الفلاحين أنفسهم •

وأما عن الخصائص التى ذكرناها ، والتى تتصل بطبيعة الانتاج الزراعى ، فانها تنسحب على التجمعات البشرية المكونة من عائلات تمارس العمل الزراعى ، فضلا عن المستعمرات التى تضم عمالا زراعيين ممن يعملون بالمشروعات الزراعية الكبرى • ومن الخصائص الرئيسية التى تميز القرية ، التنمية الضعيفة لتقسيم العمل الاجتماعى • وهناك حقيقة هامة مؤداها أن المستعمرات التى تتميز بالقلة العددية فى السكان يصعب عليها أن تحقق درجة من النمو فى تقسيم العمل الاجتماعى • وتتركز

مراكز الخدمات حيث توجد المتطلبات الكافية اللازمة لتلك الخدمات .
فالسلطات المحلية ، ودور العبادة ، والمدارس ، تتركز فى القرى الكبرى ،
أو فى القرى التى تحتل مكانا مركزيا بالنسبة للقطاع ، حيث توجد عادة
المحلات التجارية ، والحرفيون ، والمطاعم ، الخ . الا أن أغلب القرى
لا تتوفر لها وسائل الراحة هذه . ونحن على كل حال لا يعنينا هنا ذلك
النوع من تقسيم العمل الاجتماعى ، مع أن القصور أو التأخر فى تنمية
هذا الموضوع انما هو أمر بديهى أو تلقائى . والمهم هو أن العائلات
الزراعية التى تتركز فى القرية لا ترتبط فيما بينها بروابط واضحة تنم عن
تقسيم متطور للعمل الاجتماعى . ولقد كتب أحد المؤلفين حول هذا
المعنى يقول : « ... ان الجمهور العريض من الأمة الفرنسية (وهم
الفلاحون فى القرى) قد تشكلوا بدرجة عالية من التجانس »[١٠] .
ويشكل العمال الزراعيون المشتغلون بالمشروع الزراعى الكبير فريقا
للانتاج ، ويرتبط عمل كل منهم بأعمال الآخرين ، وبالرغم من ذلك
فلا يوجد تقسيم اجتماعى للعمل بشكل متطور فى مثل ذلك المشروع .
ان طبيعة المزرعة القروية ، والاقتصاد المنزلى الذى يمثل حقيقة معروفة ،
تكشف عن روابط ضعيفة فيما يتصل بتقسيم العمل فى القرية اذا
ما قورنت بالمدنية .

ومع ذلك فان القرية لا تقدم نوعا من روابط تقسيم العمل
الاجتماعى . فالقرية لا يوجد بها أى حرفيين ، ولكن أحد الفلاحين ممن
تتوفر لديهم الخبرة يقوم ببعض الأعمال ، من ذلك مثلا بناء المساكن ،
ومعالجة الحيوانات المريضة ، أو تجهيز الأدوات والمعدات كشغل لوقت
الفراغ . وحتى لو لم يكن هناك من يمثلون النشاطات المهنية غير
الزراعية ، وحتى لو كانت هذه النشاطات تمارس على نطاق محدود
داخل النسق الاقتصادى العائلى ، فان هناك تقسيما معينا للعمل يجرى فى
ضوء قدرات أو مهارات خاصة . ويحدث تقسيم العمل أيضا فى مجال

العمل الزراعى . اذ أن الحاجة الى بعض النشاطات المتصلة بالعمل الزراعى ، كتحسين الأرض مثلا ، وتهجين الخيول وتحسين سلالاتها ، أو فيما يتصل بالميكنة ، فان ذلك كله يعمل على كسر العزلة بالنسبة للأسر القروية فى مجتمع القرية . ويحدث تفاعل مماثل يرجع الى التقاليد الخاصة بالعمل التعاونى الموسمى كما هو الشأن فى بناء المساكن ، وذلك منذ أصبح العمل الزراعى يتسم بدرجة ما من التخصص ، ذلك التخصص الذى يشكل الأسس الضرورية التى يقوم عليها تبادل المنتجات داخل القرية ، وهكذا .

وقد ترتب على صغر حجم القرية ، والثبات المكانى للسكان واستقرارهم ، أن برزت خاصية هامة أخرى من الخصائص المميزة لمجتمع القرية ، وهى ما يعرف بأن القرية تعتبر جماعة أولية[11] . فالعلاقات بين الأفراد تقوم على الاتصال الشخصى . ومما لا شك فيه أن مثل هذه العلاقات لا تكون من الانتشار والسعة كما هو الشأن فى المجتمعات الحضرية ، حيث ان النمو المرتفع فى تقسيم العمل ، وارتفاع درجة التركز السكانى بها ، يجعلان عملية الاتصال واسع النطاق أمرا ضروريا . وأما فى القرية ، فالأمر مختلف عنه فى المدينة . اذ أن الاتصال يتسم بالطابع الشخصى . فعلاقات الأفراد ببعضهم ليست علاقات مبهمة أو مجهلة ، كما أنها علاقات متعددة الجوانب ، وهى علاقات تتسم بالدوام والاستمرار وليست علاقات مؤقتة . والفرد فى المدينة ينظر اليه على أنه شاغل لدور من الأدوار ، كما أنه لا يعرف الا من خلال عنوانه ورقم مسكنه . أما فى القرية فان الاتصالات التى تتم حتى من خلال الأدوار المهنية المتخصصة (مثل ساعى البريد) انما هى اتصالات تتسم بالاستمرارية والطبيعة الشخصية . ويتصل القرويون بمعارفهم ، وجيرانهم ، وأصدقائهم . وتخلق العلاقات الشخصية بين القرويين روابط اجتماعية قوية فيما بينهم، بحيث يندر أو يكاد ينعدم وجود مثل هذه الروابط فى مجتمع المدينة . وعلى ذلك فان مجتمع القرية يمثل جماعة اجتماعية على أساس غالبة

الروابط الشخصية وبروزها • وتتسم السلطة فى القرية بالطابع الشخصى أيضا ، حيث يغلب عليها الطابع الشخصى أكثر من الطابع غير الشخصى أو الوظيفى أو ذى الطابع التخصصى • وتأتى السلطة الفردية فى المجتمع القروى محكومة بعوامل عدة ، من أبرزها حجم المزرعة وما يرتبط بها من وضع اجتماعى • وفى مجتمع القرية تضاف الأدوار التى يؤديها الفرد الى مقومات سلطته ، على الرغم من أنها دائما شخصية وليست وظيفية ، كما هو الحال فى المجتمعات المحلية الحضرية التى تتسم فيها الأدوار والوظائف بالابهام •

وفيما يتصل بخصائص مجتمع القرية كجماعة أولية ، تتأثر العائلات والأفراد فى سلوكهم الى حد كبير بالرأى العام لهذه الجماعة • وهذا التأثر انما هو نتاج أيضا لطبيعة العلاقات الشخصية ، والتماثل الذى يصل الى حد التوحد مع واقع الحياة القروية ، وسيادة الروابط القرابية ، والتفاعل المتبادل والمستمر • كل ذلك من شأنه أن يجعل القرويين لا يستطيعون اخفاء حياتهم عن أعين جيرانهم ، كما يجعلهم موضعا للتقييم الأخلاقى من جانب هؤلاء الجيران •

ومن خصائص مجتمع القرية أيضا ، حركة الهجرة ذات الاتجاه الواحد من القرية الى المدينة[١٢] • ونتيجة لذلك فاننا نجد أن المدن تغص بأعداد كبيرة من السكان ذوى الأصول القروية ، غير أننا لا نجد بالقرية من ينتمى أصلا الى المجتمع الحضرى • وينطبق ذلك ليس على المجتمع المحلى وحده وانما ينطبق أيضا على مختلف الطبقات الاجتماعية والفئات المهنية • ففى مختلف الطبقات الاجتماعية والفئات المهنية ، باستثناء الفلاحة ، نجد أن الأفراد ينتمون الى أصول طبقية وبيئات اجتماعية مختلفة • أما فى محيط الفلاحين فيعتبر استثناء أن نجد فردا ينتمى الى أسرة غير قروية • وعلى ذلك فان المجتمع المحلى القروى يعتبر من

خصائصه أن أفراده يعيشون فى ظل روابط اجتماعية قوية وكذلك فى ظل روابط قوية بالأرض . ويولد القرويون عادة داخل القرية أو القرى المجاورة (وفى الحالة الأخيرة عندما تكون هناك علاقات نسب وزواج بين الأفراد فى القرى المجاورة) . وحتى عندما لا يكون الفرد منتسبا الى قرية مجاورة ، فانه غالبا ما يكون منحدرا من عائلات قروية .

ومن جهة أخرى ، فان التماثل فى الأصول الاجتماعية ، وكذلك الانتماء الاقليمى للقرويين ، محكوم بالروابط القرابية التى لها قوة السيادة فى مجتمع القرية . وعادة ما تقوم القرية على عدد قليل من العائلات الكبيرة . اذ أن القرية تتألف من عدد من العائلات الكبيرة المتفاعلة (أو عدد من البطون) . ولذلك فان القرية أحيانا ما تعرف على أنها جماعة من عائلات الجوار . وفى الوقت الذى نؤكد فيه على أهمية الروابط العائلية فى مجتمع القرية ، فانه من الصعب أن نقبل ذلك المعنى على النحو الذى يذهب اليه « جرابسكى » (Grabski) من أن العائلة هى البداية فى وجود القرية[١٣] . فالتاريخ لم يمدنا بأمثلة لعائلات منعزلة (وذلك المفهوم لا ينكر بطبيعة الحال وجود البطن أو القبيلة) . وعلى ذلك فان الأسس التى تقوم عليها حركة الهجرة ذات الاتجاه الواحد من الريف الى الحضر ، يجب أن تكون محلا للنظر فى ضوء الارتباط بين الأسرة والمزرعة .

وهناك عدد من المظاهر التى تؤكد ما يتصف به السكان القرويون من تجانس شديد . ومن هذه المظاهر ، الروابط العائلية ، وروابط القرابة ، والتماثل فى الأصول الاجتماعية والبيئية ، وضيق الحراك المكانى والطبقى . ويشمل هذا التجانس مختلف الجوانب ، كالسمات الفيزيقية ، والأنماط الثقافية ، والمكانة الاجتماعية . وتختلف هذه الجوانب اختلافا كبيرا فى المجتمع الحضرى .

وقد يضيف المرء أننا ندخل فى اعتبارنا هنا القرى القديمة التى مر على وجودها بعض الوقت . اذ أن الوضع مختلف بالنسبة للوحدات العمرانية المنشأة حديثا . ومع ذلك ، فهناك وحدات عمرانية ذات مجموعة من الخصائص ، كأن تقوم مجموعة من العائلات من احدى القرى أو من عدة قرى مختلفة بتكوين قرية جديدة فى احدى المناطق المستحدثة . ولقد كشفت البحوث التى أجريت على القرى الواقعة فى المناطق الغربية من بولندا ، والتى أعيد بناؤها فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، عن وجود بعض التباينات التى ترجع الى اختلاف الأصول الاقليمية للقرويين المقيمين بهذه القرى[١٤] .

ان حركة الهجرة من الريف الى الحضر لهـا آثارها على البنـاء الديموجرافى للمواطنين الريفيين . اذ أن المهاجرين عادة ما يكونون من الشباب فى سن العمل والانتاج[١٥] ، أو من الشباب الذى يطمح فى الانفتاح على العالم الخارجى والمجتمع الكبير من خلال تحقيق أهداف تعليمية . ومما يدعم حركة الخروج من القرية ويعززها ، أن الشبان الفلاحين الصغار لا يستطيعون أن يحققوا قدرا من النجاح فى الحصول على أوضاع معيشية مستقلة داخل مجتمع القرية . وعلى ذلك فان البناء العمرى للجماهير الريفية يتسم بارتفاع نسبة الفئات العمرية الأصغر أو الفئات الأكبر من الفلاحين . ومن ثم فان مجتمع القرية عادة ما يضم أعدادا كبيرة من الأطفال (وبطبيعة الحال فان معدلات الزيادة الطبيعية فى الريف أكثر منها فى الحضر) ، كما أن هناك تفاوتا فى أعداد الشباب المنتج ، أو الشباب من الجنسين فى سن الزواج . وبالاضافة الى ذلك ، فانه الى جانب حركة الهجرة من القرية ، توجد حركة هجرة عكسية اليها يمكن ملاحظتها على الرغم من أنها حركة ضعيفة . وتتألف هذه الحركة المرتدة عادة من كبار السن الذين غادروا قراهم فى وقت مبكر من حياتهم ، وأصبحوا يفضلون العودة الى هذه القرى ليقضوا فيهـا

أواخر أيامهم ، ويستريحون من عناء حياتهم الحافلة بالنشاط[١٦] . وهذه الحركة تعمل بدورها على زيادة التفاوت وعدم الانسجام فى البناء العمرى لجماهير الفلاحين .

وفيما يتصل بالفروق بين المدينة والقرية ، فهناك خاصية أخرى يجب ذكرها ونحن فى مقام الحديث عن الفروق الشائعة بينهما : وتتمثل هذه الخاصية فى أن المسافة بين الفروق الاجتماعية أضيق فى القرية منها فى المدينة ، فالتطرف بين الغنى الفاحش والفقر المدقع سمة تنفرد بها المدينة الرأسمالية . وفى مجتمع القرية نجد أن الفروق الطبقية قليلة نسبيا . وهناك أيضا يوجد تفاوت يمكن الوقوف عليه عندما نضع فى اعتبارنا ملكية وسائل الانتاج وحجم هذه الملكية . وهناك أيضا فروق فى الدخل ، وفى المنزلة والقوة ، التى ترتبط فى ظل النظام الرأسمالى بالتفاوت فى ملكية وسائل الانتاج ، التى تتمثل بداءة فى ملكية الأراضى الزراعية . غير أن المواطنين فى القرى يرتبطون بعضويتهم المشتركة فى شريحة فلاحية ، وهى تكوين أقدم من الرأسمالية والمجتمع الصناعى .

ولقد بقى الكاهن والمدرس ، كممثلين للمهن غير الزراعية ، ليس خارج فئة الفلاحين فحسب ، وانما خارج مجتمع القرية ككل[١٧] . ولقد كانت هناك فى الماضى خصومات طبقية بين القرية وضيعة الحاكم . ويعمل المجتمع الصناعى المعاصر على ازالة الفروق بين فئة الفلاحين وغيرها من الفئات والطبقات الاجتماعية الأخرى . ومما يعجل بحدوث هذه العملية هو الهجرة من القرية الى المدينة ، التى أخذت تضطرد بشكل واسع فى السنوات الأخيرة ، وذلك فى الوقت الذى ظهرت فيه المجتمعات الجديدة حيث لا يوجد تفاوت فى توزيع ملكية وسائل الانتاج ، مما جعل الظروف مهيأة لخلق أوضاع مناسبة للتوسع فى عملية ازالة الفوارق الطبقية .

ومع ذلك ، ففى أغلب المجتمعات لا تزال فئات الفلاحين موجودة ومحتفظة بالتجانس الاجتماعى للعائلات التى تؤلف مجتمع القرية .

وتأتى الفروق بين مجتمع القرية وبين المجتمع المحلى الحضرى ـ على نحو ما تبين فيما سبق ـ كنتيجة لعدد من الاختلافات بينهما تتمثل فى :

(ا) الاختلاف بين نمط الانتاج الزراعى ونمط الانتاج الصناعى .

(ب) بين المزرعة وبين أنواع الوحدات الانتاجية الأخرى .

(جـ) بين العمل فى الفلاحة وبين العمل فى مهن أخرى .

(د) بين العائلة القروية وبين أنماط العائلات الأخرى .

ولذلك ، فانه يمكن القول باختصار ، وعن يقين ، بأن مجتمع القرية يعرف على أنه وحدة عمرانية تسكنها مجموعة من العائلات المشتغلة بالزراعة والتى تعمل فى مزارع قروية . ويختلف حجم السكان ، وكثافتهم ، ودرجة تقسيم العمل الاجتماعى بينهم ، من قرية الى أخرى ، الا أن هذه الاختلافات مرجعها هو خصائص العمل الزراعى فى كل قرية بعينها . ومن الخصائص الأساسية التى تميز مجتمع القرية ، الروابط الاجتماعية القوية القائمة على أسس من الاتصالات الشخصية ، والتى تدعمها روابط القرابة ، والأصل المشترك والتجانس الاجتماعى ، والتى تعتبر بدورها أيضا مشتقة من طبيعة العمل الزراعى .

ومجتمع القرية كجماعة أولية (أو عائلة جوار) ، يؤدى وظائفه محددة تتوافق مع طبيعة العائلات التى تمارسها . ونحن على ذلك فى حاجة الى أن نتناول مجتمع القرية على أنه كل وظيفى (Functional Whole) لنتبين ما توصل اليه البحث فى هذا الموضوع .

وظائف مجتمع القرية

يتميز مجتمع القرية على نحو ما سبق ، بأنه جماعة اجتماعية ، وأنه تجمع يضم عائلات ترتبط فيما بينها بنسق من العلاقات • صحيح أنه نسق دقيق من العلاقات ، ولكنه ليس من الاتساع بالشكل الذى يوجد به فى مجتمع المدينة ، ومع ذلك فاننا نرى فى ذلك النسق من العلاقات مبررا لحديثنا عن وظائف مجتمع القرية •

فهناك أولا ، الوظائف الاقتصادية • فالقرية على الرغم من كونها جزءا من كل أكبر متجانس ، الا أنها تتميز بوجود تقسيم للعمل ، وقدر من التبادل فى المجالات الانتاجية والخدمية • وتبادل المنتجات والخدمات تحيل أهمية ثانوية فى مجتمع القرية ، ذلك أن كل عائلة تعتمد على نفسها فى تحقيق الاكتفاء الذاتى من الحاجات الأساسية اللازمة لمعيشتها من خلال نمط الاقتصاد العائلى • وبنمو المجتمع الصناعى ازداد تقسيم العمل فى القرية ، كما بدأت تظهر معالم العلاقات الطبقية • كما أن التقارب المكانى والاقليمى يعمل على خلق الظروف المهيئة لوجود وحدة اقتصادية كبيرة •

ويعتبر تبادل المساعدة من أنماط الوظائف الاقتصادية التقليدية التى يمارسها الفلاحون فى صور متعددة • وتتمثل هذه المساعدة مثلا فى العون الذى يقدم الى الجار فى ظروف الكوارث عندما يشب حريق فى منزله ويلزم اعادة بنائه من جديد ، كما تتم المساعدة أيضا فى المناسبات أو فى المواسم (كما هو الشأن فى عملية الحصاد أو درس الغلال) ، ويظهر العون المتبادل بشكل مألوف فى الأعمال التى تتطلب عملا جماعيا • وتزدهر هذه الأشكال التقليدية من العون المتبادل عندما تدخل الى القرية أنواع جديدة من الآلات الزراعية • ففى عدد من القرى ،

على سبيل المثال ــ جاء ادخال آلات الحرث كنتيجة لأنواع من المساعدة فى مجال العلاقات العائلية وعلاقات الجوار • وينشأ العون المنظم المتبادل ، والعمل الجماعى ، والملكية العامة لوسائل الانتاج (كالملكية الجماعية للآلات ••) بين العائلات التى ترتبط فيما بينها بروابط القرابة ، وعلاقات الجوار ، أو الاقامة المشتركة فى القرية •

وتتخذ أشكال العمل الجماعى ، والمساعدة المتبادلة التى يعتنقها القرويون عن رضا ، تتخذ شكلا موسميا أو شكل المناسبات ، كما يحدث مثلا فى حالة شق الطرق أو كهربة القرى ، •• الخ ، وقد تحدث بشكل منظم عندما لا تكون هناك مؤسسات رسمية أو قانونية ذات طابع اقتصادى • ويدخل فى هذا المجال أيضا صور التبادل أو التجارة أو الخدمات الانتاجية التعاونية • وفى بولندا ، تدخل الدورات الزراعية ضمن هذه الصور من التعاونيات فى المجتمع القروى • فعلى الرغم من عدم وجود جمعيات رسمية فى المجال التعاونى ، أو جمعيات للميكنة الزراعية ، فهناك جماعات تتولى تقديم الوسائل الخاصة بتحسين العمل الزراعى ، واستصلاح الأراضى البكر ، •• الخ • وعلى ذلك ، فان وجود هذه الأشكال المنظمة يعتبر صورة مطابقة تماما للممارسات التعاونية • وفى بولندا كذلك تعتبر الدورات الزراعية شكلا متطورا من أشكال العمل الزراعى التعاونى ، وهى بالاضافة الى التبادل التجارى ، والخدمات ، والتعاونيات القائمة على القروض ، •• الخ ، تشكل نمطا من المشروعات التى تكفل تقديم الخدمات اللازمة للانتاج اليومى الذى تمارسه العائلات المشتغلة بالزراعة •

ومن بين هذه النشاطات المرتبطة ، يمكن أن نميز بين النشاطات التى تنبعث أساسا من داخل القرية من خلال الروابط الاقتصادية بين الأهالى ، وبين تلك النشاطات التى يكون مصدرها من خارج القرية

حيث تتولى جهات خارجية ادارتها فى القرية من خلال القرويين أنفسهم ، حيث يتم ذلك من خلال اتصال القرية بالعالم الخارجى • ويمثل النوع الأول من أنواع النشاط الشكل التقليدى الذى يشمل بقايا الملكية الجماعية ، أو تنظيمات العمل فى النظام قبل الصناعى • وعلى أية حال ، فانه بجانب ذلك هناك أشكال من القرى التعاونية التى ترتبط ارتباطا وثيقا بالوسائل الحديثة (كمحطات الميكنة) • وقد ظهرت هذه الفئة الأخيرة كنتيجة لتغلغل المجتمع الصناعى فى مجال القرية ، وتبنى القرويين لعدد من الطرق والوسائل المعروفة فى هذا المجتمع •

وتتمثل الوظائف الاقتصادية المتطورة لمجتمع القرية ، فى التنظيمات الانتاجية التعاونية • وينشأ من اتحاد عدد من المزارع الفردية نوع المزارع المشتركة أو الجماعية التى تحول مجتمع القرية الى وحدة انتاجية واحدة • وبقدر ما يطرأ على مجتمع القرية من خصائص وملامح جديدة نتيجة لنمط الانتاج التعاونى ، فان مجتمع القرية يفقد كثيرا من السمات الأساسية التى تجعله متميزا عن غيره من المجتمعات المحلية الأخرى • اذ أنه يتحول من مجتمع بسيط الى مجتمع يضم عددا من العمال فى مشروع زراعى كبير • وفى الفترة الأولى لقيام هذا المشروع ووجوده ، لا يلبث الانتاج التعاونى أن يقوى ويدعم الكثير من وظائف مجتمع القرية ، وبخاصة وظائفه الاقتصادية • غير أن التعاون على هذا النحو يعمل على الاندثار التدريجى للمزعة العائلية كمؤسسة ، ومجتمع القرية كمجتمع محلى ذى طابع خاص •

ويدخل التأمين أيضا ضمن الوظائف الاقتصادية لمجتمع القرية ، وقد ألمحنا الى المساعدة التى يقدمها القرويون الى بعضهم البعض فى حالة الكوارث الطبيعية • ويعرف المجتمع القروى التقليدى نوعا من التكافل

الاجتماعى حيث يقدم المساعدة للأيتام والعجزة الذين يفتقدون العائلات التي تتحمل مسئولية اعالتهم •

والقرية تعتبر وحدة ادارية شأنها كشأن أى مجتمع محلى • والسلطات القروية تتمتع بكثير من وجوه الالزام المستمدة من السلطات العليا فى الدولة • وفضلا عن النشاطات الادارية التى تنظمها السلطة الرسمية للدولة ، فان القرويين عادة ما يلتزمون بأعمال عديدة مشتركة • ومن بين ذلك تأمين القانون والنظام ، وحماية وسائل المواصلات ، وتنظيم السلوك فى حالة الكوارث (كالحرائق ، والفيضانات ، •• الخ) • وهذه الوظائف المشتركة لا تختلف بحال عنها فى أى مجتمع محلى آخر ، ويختلف الأمر هنا عما هو هو فى المدينة حيث يقوم النظام على أساس مخطط يدخل فيه الجانب الفردى كطرف ، أما فى القرية فان الوظائف الأساسية تقوم على المبادرات الاجتماعية ، والعمل غير المأجور ، أو المساهمة الجماعية من الأهالى • ونظرا لنمو احتياجات القرويين ، وانكسار العزلة المضروبة حول القرى الصغيرة ، أخذ مجال النشاطات المشتركة للقرى يزداد فى الاتساع • وعندما أخذ البناء الاجتماعى ــ المهنى لسكان القرية يتسم بالتباين ، فان الشئون المشتركة قد أصبحت تحتل مكان الصدارة من اهتمام القرويين بغض النظر عن أوضاعهم المهنية • ولقد أدى ازدياد تلك النشاطات الى جعل هذه النشاطات يصعب القيام بها على سبيل « العمل الاجتماعى » ، فشيئا فشيئا ، أصبحت المؤسسات المتخصصة تظهر الى حيز الوجود وتتولى القيام بهذه الوظائف (كالمراكز الصحية التعاونية) ، بالاضافة الى المنظمات الدائمة (كفرق الاطفاء التطوعية) ، أو المنظمات المؤقتة التى تظل قائمة حتى تنتهى الأعمال المنوطة بها (كاللجان الخاصة ببناء المدارس أو كهربة القرى ، •• الخ) • وفى خلال السنوات الأخيرة أخذت الدولة أو المؤسسات الاجتماعية الكبرى تتولى مسئولية القيام بهذه الأعمال أو

المشاركة فى تمويلها . كما أخذت الدولة ، أو مثل هذه المنظمات الكبرى أيضا ، تتولى عن القرية مهمة القيام بوظيفة التأمين ، فضلا عن عدد من الوظائف الاقتصادية والثقافية .

ولقد كانت الحاجات الثقافية للمواطنين فى المجتمع القروى التقليدى تشبع من خلال الروابط السائدة فى هذا المجتمع . كما أن الطقوس المصاحبة لفصول السنة ، وبداية العمل الزراعى فى الحقل أو انتهائه ، والأداء الجماعى لأعمال معينة ، يرتبط ببعض الممارسات كالغزل ، والتسلية التى تنظمها الجمعيات أو المنظمات الموجودة فى القرية (كحلقات الشباب الريفى) ، ومناسبات الضيافة والحياة الثقافية ، بغض النظر عن المشاركة فى خدمات الكنيسة أو زيارة المراكز الحضرية القريبة[١٨] . وتشكل الحياة الثقافية داخل مجتمع القرية أساس الفنون الأهلية أو الفطرية ، والنشاطات الابداعية . وفى معظم المجتمعات فى الوقت الراهن تكسرت العزلة الثقافية المضروبة حول القرى . ولقد كانت الكنيسة والمدرسة فى أوربا تقومان بعدد من الوظائف الثقافية فى مجتمع القرية فيما مضى . واليوم أصبحت السينما ، والراديو ، والتليفزيون ، والصحف تجعل القرويين يشاركون فى تيار الحياة الثقافية الوطنية . وينطبق ذلك أيضا على الأنماط الحديثة من المؤسسات فى القرية كالمضايف ، ونوادى الحجرة ، وغرف الاطلاع والقراءة ، .. الخ . والملاحظ أن هذه المؤسسات ليست فحسب مراكز للمشاركة المنظمة فى الحياة الثقافية فى القرية ، وانما هى فوق ذلك وسائل للارتباط بالحياة الثقافية الوطنية .

ومن الوظائف الأساسية لمجتمع القرية ، الضبط الاجتماعى الذى يغطى سلوك العائلات المختلفة والأفراد . فالمجتمع المحلى يعرف معايير محددة ومتفق عليها ، وقواعد أخلاقية ، وقواعد للتقاضى وفض

المنازعات . والمجتمع المحلى عندما يمارس سلطة الضبط هذه فانه يمارسها باعتباره جماعة مسيطرة فى علاقتها بالعائلات التى تتألف منها . ويستمد سلطته من الاعتراف العام بهذه السلطة ، فالأهالى هم الذين يعترفون بتلك السلطة وهم الذين يمتثلون لها . وهذه السلطة لها تأثير هائل على حياة الأفراد . كما أن القرابة وعلاقات الجوار تجعل الأفراد ملتزمين بملاحظة معايير العائلة فى سلوكهم ، كما أن هذه العلاقات والروابط تضمن الاحتفاظ بسيطرة العائلة وحقها فى التدخل . ووظيفة الضبط التى يقوم بها المجتمع المحلى تعتبر مكملة للوظائف التعليمية التى تقوم بها العائلات . ومنذ اليوم الأول لولادة الفرد ، فانه لا يكون فى اطار عائلته فحسب ، وانما فى اطار مجتمع القرية . ويقضى الطفل فترة كعضو فى جماعة من أقرانه . وعندما ينمو ادراكهم الذهنى فانهم يشتركون كجماعة فى رعى الماشية ، كما أنهم يجتازون فترة المراهقة والنضج . وتتم عملية التنشئة الاجتماعية داخل العائلة وجماعة الأقران . وتشمل هذه العملية تمثل معايير المجتمع المحلى وقيمه . ثم يعقب ذلك تحقيق النضج الاجتماعى ، الذى يتوج بالزواج وقبول الفرد اجتماعيا كفلاح .

وبصفة أساسية فان وظائف مجتمع القرية تبدو كوحدة للضبط الاجتماعى ، وكمصدر لبناء نسق المعايير والقيم ، وكاطار مرجعى تتحدد من خلاله أوضاع الأفراد والعائلات ، وكعامل جوهرى فى التمثيل الاجتماعى للجيل الصغير .

وفى النهاية ، يجب أن نورد تحفظا مؤداه أن هذا الوصف لخصائص مجتمع القرية ووظائفه انما هو نمط مثالى . وفى الحقيقة ، أن هناك تباينات كبيرة بين المجتمعات المحلية القروية ، حيث تتشابه كل قرية بشكل جزئى مع ذلك النمط الذى عرفناه . ولكننا فى حاجة الى مثل ذلك النموذج ، ويمكن أن يأتى بشكل متطور لو أننا وقفنا على

الاتجاهات الرئيسية للتغير فى مجتمع القرية • كما أن تحليل الأنماط المحلية الريفية المختلفة ، والتغيرات التى تطرأ عليها يتطلب أن نفصل ما بين « المجتمعات المحلية القروية » الى قرى من جهة ، والى أنماط أخرى من الواحدات العمرانية الريفية من جهة أخرى •

أنماط المجتمعات المحلية الريفية : عملية التحديث

لعل من أقدم التقسيمات المعروفة فى هذا المجال تقسيم المجتمعات المحلية الريفية الى « قرية » و « ضيعة » • ويميز جرابسكى بين أنماط من القرى وفقا للبعد المحلى فى مواجهة الضياع[١٩] • وفى بولندا وغيرها من البلدان الأوربية المعينة كان تقسيم المجتمعات المحلية الريفية الى قرى وعزب أو ضياع له أصول من المجتمع الاقطاعى ، وقد قوى بظهور التقسيم الاقطاعى الى طبقة الفلاحين وطبقة النبلاء • ولم تكن هذه القسمة مقصورة على المجتمعات قبل الصناعية ، فلقد ظهرت فى صور مختلفة كالقسمة بين القرى والاقطاعيات الكبيرة من الأراضى التى كانت موجودة فى مجتمعات لم تكن تعرف نظام العلاقات الاجتماعية الاقطاعية ، أو أن هذه العلاقات كانت موجودة بها ولكنها اندثرت منذ زمن بعيد •

ويمكن التمييز بين نوعين من أنماط حيازة الأراضى على المستوى الكبير ، فالنمط الأول يقوم على أساس الايجار • وفى هذه الحالة يقوم الحائز بدفع القيمة الايجارية للأرض اما لأحد المشروعات الزراعية التى تقوم باستصلاح الأراضى والاتجار فيها بقصد الربح ، أو دفع الايجار النقدى أو العينى للعائلات التى تقوم بالعمل الزراعى وتتولى دفع الايجار لمالك الأرض • وفى بلدان معينة يتخذ هذا النمط صورة المشروع فى بعض الأحيان ، ويكون المستأجرون فى حقيقة الأمر عمالا

زراعيين يعملون فى نظير الحصول على جزء من المحصول[٢٠] • أما النمط الثانى فهو ذلك الذى كان شائعا ، قبيل أيام الحرب ، فى بولندا وألمانيا ، وهو المشروع الكبير الذى كان يكشف عن قدر يقل أو يزيد من اقتصاد القنانة أو عبودية الأرض ، ولكنه كان موجها نحو السوق وتحقيق الربح •

وفى الحالة الأولى (مع استبعاد الأراضى المؤجرة لمستأجرين يعملون فى زراعة الأرض على المدى الطويل) نجد أنه من الصعب أن نتحدث عن هذه الفئة كمجتمع محلى منفصل ، اذ أنها تتصل اتصالا وثيقا بالقرية ، منذ أن أصبح المستأجرون هم العائلات القروية • والأمر يصدق فى هذه الحالة فقط اذا كان مسكن المستأجر يقع خارج نطاق القرية • وفى الحالة الثانية حيث المشروع الزراعى الكبير (كوحدة انتاجية كبرى) ، فقد جرت العادة أن يجتمع عدد من العمال الزراعيين ويقيمون داخل المشروع بصفة دائمة ويكونون مجتمعا محليا منفصلا • وبين هذين النمطين ، هناك بطبيعة الحال عدد من الأنماط الوسيطة ، التى تصاحب عددا من العلاقات التبعية المتبقية من عهود الاقطاع فى الماضى : كحجم المشروع ، ومكانه ، وعلاقاته بأقرب قرية أو القرى المجاورة •• الخ •

ويمكن التمييز بين عدة أنماط من المجتمعات المحلية القروية ، بالاعتماد على طبيعة العلاقات بين القرية والعزبة ، حيث لاتزال الاقطاعيات الكبرى من الأرض الزراعية لها وجود فى الواقع • وعلى الرغم من أن الاصلاحات التى طبقت فى بعض البلدان قد قضت على طبقة الاقطاع ، فان التقسيم السابق الى « قرية » و « اقطاعية » لا يزال قائما على الرغم من أنه يحمل مضمونا مختلفا فى الوقت الحاضر • وفى بولندا نجد أن هذا التقسيم له أهمية خاصة ، فهناك تقسيم يوضح الوحدات العمرانية التى يسكنها العمال الزراعيون الذين يعملون فى المشروعات الزراعية الكبرى (ويمكن أن يدخل فى هذه الفئة التعاونيات الزراعية التى تضم

عمالا زراعيين) ، كما يوضح القرى التى تتركز فيها العائلات المشتغلة بالزراعة ـ والتى أصبحت تختلف اليوم اختلافا كبيرا ، حيث لا زالت محتفظة حتى الآن بخصائص الاقتصاد العائلى المتسع . وتتضمن القرية أيضا التعاونيات الانتاجية ، وحتى فى بولندا فان ذلك يشكل جزءا من المجتمع المحلى القروى على الرغم من أنه جزء يتميز وفقا لنظام هذه القرى فى العمل الزراعى .

وفى بلدان أخرى حيث التجمعات الريفية أصبحت متكاملة ، فان التقسيم يتخذ أحد شكلين مختلفين من المشروعات الزراعية الكبرى : وهما المزارع التعاونية ، ومزارع الدولة . ولا تزال المزرعة التعاونية محتفظة بعدد من خصائص العمل القروى الزراعى ، فى حين تحمل مزرعة الدولة خصائص المشروع الزراعى الكبير (من حيث تنظيم عملية الانتاج ، والتركيب المهنى لفريق العمل ، وخصائص الانتاج ، .. الخ) . وعلى كل حال فان هذه الفروق والتباينات قد قلت ، وقد ظهر نمط من المشروعات التى تعتمد أساسا على بناء سوحد . ولقد اختفى نمط المجتمع المحلى القروى القديم ، وأصبحت القرية وحدة عمرانية يسكنها العمال الزراعيون . وفى المستقبل ـ نظرا لتطور وسائل الاتصال وشبكة العمل على أساس مخطط ـ فمن المتوقع أن تتحول القرية الى وحدة عمرانية ذات ملامح حضرية ، يقيم فيها العمال الزراعيون جنبا الى جنب مع العمال المشتغلين فى مشروعات انتاجية أخرى .

ان التباين فى المجتمعات المحلية الريفية وانقسامها الى قرى وعزب ، والى أنماط من القرى وفقا لطبيعة علاقاتها مع الاقطاعية ، انما هو تقسيم مشتق من المعطيات التاريخية الماضية . وتكشف وثائق التاريخ الأوربى عن وجود القرية التى كان يملكها أحد النبلاء ، والقرى التى كانت تخضع لسلطان أحد الاقطاعيين ، والقرى الملكية ، والقرى الحرة ،

وقرى صغار النبلاء ، .. الخ ، فقد كانت هذه كلها أنماطا للمجتمعات القروية المحلية . وحتى اليوم فان تباين المجتمعات المحلية القروية راجع الى الأنماط المختلفة من العلاقات ، والأشكال المختلفة من التنظيم ، التى يترتب عليها اختلاف فى التفاعل والعلاقات الشخصية ، والمعايير ، والعادات ، والقيم .

ولقد كشفت عملية التصنيع عن صور التباين الموجودة فى المجتمع القروى فى مرحلة ما قبل التصنيع . وحتى فى ظل الاقطاع ، كانت المصانع تقوم على أساس علاقات الالتزام بين العبد تجاه سيده . والى جانب الفلاحين ، كانت طبقة الأقنان تستخدم فى مهن غير زراعية (كالتعدين والحرف المختلفة)[٢١] . وبتطور الصناعة ، ازدادت الطبقة التى تعرف بالعمال القرويين زيادة عددية . وقد فقدت كثير من القرى خصائصها الزراعية وتحولت الى وحدات عمرانية « للعمال » أو « الحرفيين » (وخصوصا بالنسبة للقرى المتحضرة التى تضم حيازات قزمية من الأراضى التى لا تكفى لدعم متطلبات الحياة بالنسبة للأسرة) . وفى ضوء ذلك يمكن تعريف المجتمع المحلى القروى وفقا للتركيب المهنى له ، حيث يكون هناك طرفان أحدهما يتمثل فى النمط التقليدى من المجتمعات المحلية القروية — الذى يعرف بتجمع من العائلات المشتغلة بالزراعة — ويتمثل الطرف الآخر فى الوحدات العمرانية التى تضم سكانا يغلب عليهم طابع الاشتغال بأعمال غير زراعية .

ويرتبط التقسيم الطبقى بالتقسيم الاجتماعى — المهنى . ويمكن تمييز القرى حينما يكون التقسيم المهنى بها متأثرا باشتغال سكانها فى أعمال خارجها وفى أعمال غير زراعية ، اذ أن ذلك من شأنه أن يضعف أو يحطم التمسك الذى يقوم عليه المجتمع المحلى ، أو يحول مجتمع القرية الى وحدة عمرانية للعمال أو المهنيين . غير أن هناك أيضا قرى

تتميز بعدد من التباينات الطبقية ، حيث تضم الرأسماليين ، والعمال الزراعيين (أو الفلاحين الفقراء) ، فضلا عن أنماط مختلفة من العلاقات الطبقية بين العائلات الغنية والعائلات الفقيرة التى تؤلف مجتمع القرية • وكلا من الدرجتين من التدرج الطبقى ، ومدى التقسيم المهنى لهما تأثير جوهرى على ثبات المجتمع المحلى القروى التقليدى نظرا لضيق ومحدودية التقسيم الطبقى فيه ، على نحو ما أشرنا ، فانه يتميز بنمط من العلاقات الداخلية الشخصية ذات الطابع الأبوى • فالفلاح الغنى والفلاح الفقير من جيرانه يرتبطان بروابط اقتصادية تتوارى خلف علاقات الجوار ، والقرابة •• الخ • ويتخذ الاسهام فى العمل غالبا شكل المساعدة ، أو تقديم الخدمة المتبادلة (أى ترد فى صورة عمل وهو ما يعرف بالمزاملة) • ويعامل الجار الفقير أو العامل باليومية وفقا لتقليد أبوى كواحد من أعضاء العائلة • أما ازدياد صور التباين الطبقى فانه عادة يتأسس على نمط من العلاقات الرأسمالية : فالعلاقة بين مالك المزرعة وبين العامل تقوم على اتفاق يحكم العمل ، ويقضى بأن يحصل العامل على أجره نقدا •

ان الاختلافات الموجودة بين القرى وبعضها وفقا للبعد الطبقى والتركيب المهنى ، تأتى متفقة مع النمط الانتاجى السائد • فلا شك أن الخصائص الأساسية والوظائف التى يقوم بها المجتمع المحلى القروى تختلف فى القرى المتحضرة ــ التى تتركز فيها صناعات الألبان وتجهيز الخضروات لتصديرها الى أقرب سوق ، وكذلك فى قرى الألب ــ كما تختلف أيضا فى القرى التقليدية التى يقوم الاقتصاد فيها أساسا على الرعى ، وكذلك فى القرى التى تتخصص فى زراعة أنواع معينة من المحاصيل (كالدخان مثلا ، •• الخ) • ويؤدى نمط الانتاج السائد الى اختلاف فى التركيبات الزراعية ، ومن هذه الاختلافات مثلا ، اختلاف

حجم القرية ، وكثافة السكان ، والتركيب المهنى للقرية ، ووجود المكانات المكتسبة ، والتقاليد والعادات .

ويمكن أن نجرى تقسيما آخر طبقا لدرجة التنظيم الداخلى للقرية . ويعنى ذلك منذ البداية درجة التنمية التى تحدث فى نمط المؤسسات الاقتصادية (كالأشكال المختلفة من التعاونيات الريفية) ، ودرجة تقسيم العمل فى الانتاج الزراعى ، وما يتصل بذلك من كون القرية تبلغ مدى معينا من التنظيم يجعلها متميزة كوحدة انتاجية . وكما ذكرنا فيما سبق ، أن أكثر الأنماط الاقتصادية عملا على تماسك المجتمع المحلى القروى هو النمط التعاونى ، الذى يحمل الى حد يزيد أو يقل خصائص المشروع الزراعى الكبير .

ومن أكثر محكات التمييز المستخدمة هو وقوع القرية فى مركز القطاع أو وقوعها على أطرافه . وكقاعدة ، فان القرى الواقعة فى مركز الاقليم تعتبر مراكز للسلطات الدينية والادارية ، كما أنها فضلا عن ذلك تعتبر مراكز للخدمات والتجارة بالنسبة لغيرها من القرى المجاورة . وهى أقرب ما تكون الى المركز الحضرى الصغير عادة وخصوصا فى شخصيته الاجتماعية ، فيما عدا أن معظم سكانه من المشتغلين بالزراعة . وتتخذ الوظائف التى تؤديها القرية بالنسبة للقطاع شكلا متعددا بطبيعة الحال . وعادة ما يوجد السوق فى أكبر القرى ، وحيث تكون مقرا للحرفيين والتجار . كما توجد هناك المدرسة ، فضلا عن المؤسسات الادارية الخدمية وغيرها من المؤسسات التى تخدم القطاع .

ولا يوجد فى بعض البلدان مثل ذلك التمييز بين قرى مركزية وقرى متطرفة . وذلك حيث تكون هناك مناطق تتضمن عددا من المزارع المبعثرة والتجمعات العمرانية القليلة بحيث يكون من الصعب الحديث

عن قرى (وهى أحيانا ما ترتبط فيما بينها على أنها تشكل عددا من جماعات الجوار) أو كما هو الحال بالنسبة للوحدات العمرانية ذات النمط الحضرى التى تمارس نشاطها كمراكز خدمية للوحدات الزراعية • والوحدات العمرانية المنشأة حديثا غالبا ما تنمو بهذه الطريقة (كما هو الحال فى مناطق معينة بالولايات المتحدة الأمريكية ، وألمانيا مثلا) • أو عندما يحدث اعادة ترتيب للنظام الزراعى (كما يحدث فى المناطق الخاضعة للاصلاح الزراعى فى ايطاليا) • كما أن هذه البلدان لا تعرف التمييز الذى أشرنا اليه أيضا بسبب نمط الانتاج السائد هناك ، ونظرا لأن السكان يتركزون فى وحدات عمرانية كبرى ذات طابع حضرى (حيث المناطق المنشأة على الطراز الحديث ، والشوارع ، ومراكز الخدمة والتجارة ، •• الخ) • وفى تلك الوحدات العمرانية أو المدن الزراعية نجد أن المنازل والحدائق تقع على مسافة من الحقول ، حيث أن نمط الانتاج لا يتطلب أن يقيم الفلاح بالضرورة فى بؤرة المزرعة •

ويعتبر تقسيم القرى الى قرى مركزية وأخرى متطرفة ، وظيفة للتمييز وفقا لبعد القرى أو قربها من المدن • وتختلف القرى المتحضرة عن باقى المجتمعات المحلية القروية من عدة جوانب : فهم تتسم بالتركيب ، والكثافة السكانية ، والتباين فى التركيب المهنى والطبقى ، وانتاج أنواع متعددة من السلع • كما أن قرب القرى من المدن يضعف من تماسك المجتمع المحلى القروى ، واقتصاده الداخلى ، ويجعله فى حاجة الى اشباع عدد من الحاجات (وبخاصة الحاجات الثقافية) التى يمكن أن يعتمد فى اشباعها على المدينة • أما القرى المنعزلة والبعيدة عن المدن فانها عادة ما تكون فى شكل جماعات متماسكة ومغلقة ، وهى بالضرورة تحقق قدرا من الاكتفاء الذاتى فى المجالات الاقتصادية والمعيارية ، فضلا عن أنها تعتبر هيئة لممارسة الضبط الاجتماعى لسلوك العائلات والأفراد •

ان المحك المستخدم فى تصنيف القرى على النحو السابق نادرا ما يرد ذكره فى المفاهيم النظرية فى كتب علم الاجتماع • وكقاعدة ، فان واحدا أو آخر من صور التمييز يمكن أن يحتل أولوية عن غيره وفقا لأهداف الدراسة والبحث • وقد درجت جميع مؤلفات علم الاجتماع على استخدام المحك المكانى فى تنميط القرى • وقد اعتمد تنميط القرى فى بولندا على وجهة النظر المكانية اعتمادا كبيرا ، وعلى الوصف الأثنوجرافى خاصة ، وكذلك من النواحى الأدبية[٢٢] التى أخذت تشكل ركيزة هامة فى هذا المجال •

ويمكن أن نجد فى مختلف المناطق ببولندا كل هذه الأنماط المكانية من القرى • ففى بعض المقاطعات الغربية ، مثلا ، حيث تتعدد المزارع ، يمكن أن تجد عددا من المبانى المبعثرة ، التى يصبح من الصعب أن نرسم حدودا تميز كل قرية منها عن الأخرى • وحتى انه يصعب فى تلك الحالة أن نتحدث عن القرية ، اللهم الا اذا كان المقصود بهذا الاصطلاح هو الاشارة الى المدينة الصغيرة التى تشكل مركزا لخدمة هذه المزارع المبعثرة ، والتى تبعد عنها بنحو ١٢ كيلومترا أو أكثر • وفى مناطق مختلفة من بولندا أيضا ، يمكن للمرء أن يجد القرى المنضمة ، والقرى المتفرقة على هيئة قرى صغيرة ، ومستعمرات المهاجرين ، والقرى الواقعة على مجرى نهر أو طريق ، والقرى الواقعة على مفترق شبكة من الطرق •• الخ •

وتعتمد الطريقة التى يتم بها بناء القرية على عدد من العوامل : كارتفاع المنطقة عن مستوى سطح البحر ، والظروف الطبيعية والجغرافية المناسبة للاقامة ، ونمط الانتاج ، ونظام الطرق والمواصلات ، والعادات التقليدية ، ودرجة تماسك الأرض ، وتوافر أو عدم توافر النشاطات المخططة من قبل الدولة • وتختلف خصائص كل نمط من هذه الأنماط

ووظائفه عن غيره من الأنماط الأخرى من المجتمعات المحلية القـروية • كما أن تشتت المزارع لا يتيح الفرصة لظهور مجتمع محلى متماسك • والابتعاد المكانى وزيادة المسـافات التى تفصـل بين المجتمعات المحلية وبعضها يضـعف من الروابط الاجتماعية بينهـا • ان اندماج الأراضى الزراعية يؤدى الى وجود نزعة لتفتيت المجتمع المحلى القروى : حيث تتخذ الأسرة أهمية كبرى ، ويصبح من الصعب على المجتمع المحلى أن يلاحظ عن كثب حياة العائلة • كما أن الضبط الاجتماعى يزداد ضعفا ، ويتشكل الرأى العام بصـعوبة أكبر ، كما أنه يبيت يلعب دورا قليـل الأهمية • وفى القرى التى تنفتت الى وحدات صغيرة ، أو القرى الواقعة على سلاسل الجبال ، نجد أن جماعات الجوار تقوم بأداء وظائف المجتمع المحلى القروى • وفى المستعمرات يلاحظ أن الأفكار المعيارية ، والرأى العام لا تتناغم دائما مع باقى أجزاء القـرية ، نظرا لاختـلاف أشكال السلطة • كما يشيع الشـعور بالانفصال ، ويزداد التعبير عن العداوة تجاه جماعات الجـوار • ويرجع ذلك الى طبيعـة التركيب الاجتماعى الموجود داخل المستعمرات ، التى تكون عادة مأهولة بواسـطة عائلات متمـاثلة فى أوضـاعها الاجتماعيـة ، كما أن الصراع الذى يدور بين المستعمرات انما هو تعبير عن الصراع الطبقى بين من هم أكثر فقرا ومن هم أكثر غنى (كالمتسـولين والفـلاحين ، وكالفـلاحين الفقـراء والكولاك ، •• الخ) •

وهناك ، بطبيعة الحال ، أنماط متعددة من المستعمرات • وبغض النظر عن الخاصية الطبقية الواضحة (على سـبيل المثـال ، تلك التى تستقطب عمالا زراعيين أو فلاحين أغنياء) ، فانه بامكاننا أن نميز بين :

(ا) المستعمرات التى تحيط بالمزارع الكبرى •

(ب) المستعمرات التى تتميز بالأصل المشترك (كصغار النبلاء ، أو العائلات المترابطة ترابطا وثيقا) •

(جـ) المستعمرات التى تتميز بنمـط مهنى خاص (كالحـرفيين ، وعمال المصانع ، .. الخ) .

وفى القـرى المفتتة يلاحظ أن المجتمع المحلى يفقد سمة التجمع ، ويكون أميل الى أن يعرف على أنه تجمعات من جماعات الجوار .

ويمكن أن نميز أنماط المجتمعات المحلية القروية وفقـا للمحكات السابقة على النحو التالى :

(ا) الأصل وطبيعة العلاقات مع العزبة أو الاقطاعية .

(ب) التركيب المهنى والطبقى .

(جـ) نمط الانتاج .

(د) مدى كون القرية وحدة انتاجية ، أو درجة تماسك المجتمع المحلى واتخاذ وظائفه شكلا مؤسسيا .

(هـ) المسافة بينها وبين المدينة ، وطبيعة الوظائف التى تؤديها فى علاقتها بالقرى الأخرى .

(و) تخطيطها العمرانى وشكلها الطبيعى .

وفضلا عن ذلك ، فانه يمكن اضافة محك آخر ، يعتمد على الهدف من البحث أو الدراسة الذى يسعى وراءه الباحث . فالأنماط التى أشرنا اليها فيما سبق هى أنماط متعددة ، ويأتى تعـدد تلك الأنماط نتيجـة للتغيرات التى تطرأ على المجتمعات القـروية المحلية على النحو المشـار اليه . كما أن تأثير المجتمع الصناعى وتخلله فى الحياة القروية ، قد أدى الى اضـعاف الفـروق بين المجتمع المحلى القـروى وغيره من أنماط المجتمعات المحلية الأخرى . ولم تعد المناطق الريفيـة فى الوقت الحاضر

تلعب دورا فى عملية الانتاج الزراعي وحدها ، كما أنها لم تعد مأهولة بواسطة السكان المشتغلين بالزراعة فحسب • ففى كل قرية يستطيع المرء أن يجد بالاضافة الى السكان الفلاحين ، عائلات تزاول أعمالا غير زراعية ، وعائلات تعتمد فى دخلها على الاشتغال بوظائف ومهن مختلفة • ولقد أصبحت القرى اليوم ، وخصوصا القرى المتحضرة ، أماكن مأهولة بالأشخاص الذين ينتمون الى فئات فنية ومهنية متعددة ، والى طبقات وشرائح اجتماعية متباينة • ويعمل التباين الاجتماعى ، والمهنى ، والطبقى على تحطيم التماثل فى الأوضاع الاجتماعية التى يتأسس عليها المجتمع المحلى القروى • ولقد أخذت مؤسسات ومنظمات من خارج القرية على عاتقها أداء الوظائف الاقتصادية ، والعمل على تنميتها • ولقد أصبحت المؤسسات التعاونية المحلية فروعا للتسويق ومراكز للخدمة تخضع لمنظمات مركزية • وفى بلدان معينة استطاع نمط الانتاج التعاونى أن يقوى من المجتمع المحلي القروى بشكل ما ، الا أن التكوينات الزراعية الكبرى كما تتمثل فى المشروعات الزراعية الكبيرة قد أدت الى طمس المعالم السابقة لمجتمع القرية ، حيث أصبحت القرية مكانا مأهولا بالعمال الزراعيين المشتغلين فى المشروعات الزراعية •

ولقد أصبحت الوظائف الثقافية والتعليمية أيضا تعتمد كذلك وبشكل متزايد علي مؤسسات ومنظمات خارجية • ولقد تحولت وظائفها الى جماعات الجوار ، ولكنها سوف تموت بمرور الوقت • ولقد توقف المجتمع المحلى القروى عن كونه اطارا مرجعيا أساسيا للجماعة : فالرأى العام أصبح يصاغ من خلال مراكز خارج القرية • كما أن قدرة المجتمع المحلى على الضبط الاجتماعى قد ضعفت هى أيضا : فلقد أصبح سلوك العائلات والأفراد يتم فى ضوء المصالح الخاصة ، وحتى عندما يحدث انتهاك للمعايير السائدة ، فان الجهات المعنية هى التى يكون لها حق التدخل • ومن جهة أخرى ، فان الوظائف الادارية للقرية تميل الى

الازدياد • وبطبيعة الحـال فان تلك الوظائف الادارية تتم من خـلال منظمات متخصصة تتولى تقديم التسهيلات الملائمة فى هذا المجال بشكل يفوق أداء المجتمع المحلى لها • وفى بلدان مختلفة نرى ميلا الى انعدام التكامل فى المجتمع المحلى القروى ، وقلة فى مظاهر التمييز بين الريف والحضر •

وكثيرا مما قيل حول تلك الميول أو النزعات المشار اليها ، يبـدو مبشرا بالنسبة لأغلب المجتمعات • وذلك على الرغم من أن الاتجاه العام للتغير واحد • ولا يزال فى العالم حتى اليوم وجود للنمط القـديم من المجتمعات القروية • اذ أن المرء يستطيع أن يقف على خصـائص ذلك النمط هنا وهناك • وبوسع المرء أن يظل مستخدما لمفهوم القرية كمحرك لسكانه ، وسوف ينجز من خلال ذلك الكثير •

وعلى كل حال ، فانه ما لم تفلح مثـل تلك الآراء فى العثـور على تعبير تنظيمى ملائم ، وما لم ترتبط بالبناء الحديث للمجتمع الصناعى ، فسوف يكون الأمر من قبيل الجهد الضائع فى أغلب الأحوال •

كما أن هناك اتجاها متزايدا نحو المزيد من تقسيم العمل ، والمزيد من الأهمية بالنسـبة للمؤسسات الرسمية ، واتحاد العـائلات المكونة لمجتمع القرية لتؤلف مجتمعا واسعا يقوم على أساس من البناء المتباين •

ان عملية التحديث التى تجرى فى الريف ، والتى تتمثل فى التغيرات التى أشرنا اليها فيما سـبق ، تقوم على أسـاس من انعدام التكامل فى المجتمع المحلى القروى التقليدى ، وظهور مجتمعات محلية حديثة توحى بعدم وجود فروق جوهرية بينها وبين المجتمعات المحلية الحضرية •

المراجع

1. A. Hillery, "Definition of Community : areas of agreement", Rural Sociology, Vol. XX, 1955, p. 119.

2. R.C. Buck, "Practical applications of community research : Some preliminary considerations", Rural Sociology, Vol. XIX, 1954, p. 294.

3. P. Sorokin and C.G. Zimmerman, Principles of rural-urban sociology, — pp. 13 ff.

4. E.M. Rogers, **op. cit.**, p. 136.

(٥) نحن هنا بصدد الحديث عن المشروعات الزراعية الكبرى . كما أ الملكيات الزراعية الكبرى التى تخص عائلات قروية معينة ، لا تشكل عادة مجتمعات محلية منفصلة . ولكن بوسع المرء أن يرى فيها مزرعة وبداخلها المبـانى .

6. B. Galeski and A. Wyderk, "Poglady Chlopow na przyszlosc wsi, cit.

7. P. Sorokin and C.C. Zimmerman, op. cit., pp. 23 ff.

8. P. Sorokin and C.C. Zimmerman, op. cit., p. 17.

9. See the comparison drawn by P. Sorokin, C. Zimmerman and C.J. Galpin in A systematic Source-book of rural sociology, Minneapolis, 1930.

10. K. Marx, The 18th Brumaire of Louis-Napoléon, cit.

11. E.G.P. Sorokin and C. Zimmerman, op. cit., pp. 49 ff.

12. C.F. P. Sorokin and C. Zimmerman and Galpin, op. cit., pp. 226 ff.

13. W. Grabski, "Systematic rural-sociology" Analysis of Rural Sociology, Vol. 1, 1936, p. 79.

14. E.G. A. Romanow, Local population and repatriates, The Contemporary Village, 1958, No. 6.

15. M. Pohoski, Migracje Z. wsi miast, cit., pp. 71 ff.

16. E.G. Lynn Smith, Sociology of rural life, cit., p. 178.

17. See J. Chałasinki, Mlode pokolenie chlopow, cit., p. 95.

18. See. J. Burszta, The village and the inn, War Saw, 1950.

19. W. Grabski, op. cit., pp. 121 ff.

20. E.G.T. Lynn Smith, op. cit., p. 204.

21. See R. Turski, Miedzy miastem a Wsia, cit., p. 284.

22. B. Zaborski, On the forms of the village in Poland, Cracow, 1926.

الفصل الرابع

دراسات ميدانية واقعية عن بعض المجتمعات الريفية

الهدف من هذا الفصل أن يقدم للقارىء بعض نماذج مختارة للدراسات الميدانية التى أجريت على بعض المجتمعات الريفية . وقد اخترت للعرض فى هذا الفصل دراستين الأولى أجريت على بعض قرى الهند ، والثانية على بعض قرى مصر . وأرجو أن تتاح الفرصة لزيادة عدد تلك النماذج والتوسع فيها فى طبعة قادمة من هذا الكتاب باذن الله .

الدراسة الأولى

القرى الهندية فى مرحلة التحول

تاليف : دورجاناند سنها(١)

يتضمن الكتاب الفصول التالية :

١ ــ مقدمة .

٢ ــ الاجراءات المنهجية .

٣ ــ تفصيلات العينة .

٤ ــ مفهوم الحياة السعيدة .

٥ ــ الآمال والمخاوف .

---

(١) Durgarand Sinha, Inclian Villages in Transition Associated Publishing House, New Delhi, 1969 (232 pages).

٦ ـ مستوى الطموح (١)

٧ ـ مستوى الطموح (٢)

٨ ـ ترتيبات السلوك .

٩ ـ الاتجاهات والآراء .

١٠ ـ خاتمة .

وسوف نفصل بعض الشيء فى عرض الاجراءات المنهجية وأهم النتائج .

تمهيد :

كتب الدكتور جورج جاكوب دين مقدمة للدراسة يقول فيها : ان انخفاض الانتاجية فى عملنا الزراعى راجع الى الطرق التقليدية الزراعية ، وعدم كفاية الموارد ، ونقص الاهتمامات الضرورية بتحسين أحوال الفلاحين .

ويعمل رجال الاقتصاد على تحسين الطاقات الضرورية لزيادة الانتاجية فى الزراعة . أما رجال علم الاجتماع الريفى وعلم النفس فانهم يؤكدون أنه بالاضافة الى تحسين الطاقات الضرورية ، فان تغيرا اجتماعيا ونفسيا لابد من وجوده أيضا لكى تتمكن جماهير الفلاحين من قبول الطرق الحديثة والوسائل الحديثة التى تقدم اليهم من خلال تطوير التكنولوجيا .

وبالرغم من الجهود الكبيرة التى تبذل من جانبنا ، فاننا نصادفه دائما نوعا من المقاومة من جانب الجماهير الريفية فيما يتصل بما يقترح من أجلهم ، بشأن تقدمهم وتنميتهم . اننا نهدف فى المحل الأول من

برامج تنمية المجتمع المحلى الى احداث ثورة عقلية لدى القرويين ونخلق لديهم الرغبة فى مزيد من الانتـاج ، ومزيد من الربح ، وبذلك تتحسن معدلاتهم الانتاجية وأحوالهم المعيشية • وليس ثمة شـك فى أن تنمية المجتمع المحلى خلال الست عشرة سنة الأخيرة فى الهند قد حققت نجاحا فى هذا الاتجاه ، غير أن انجازاتنا وجهودنا كثيرا ما تتوارى خلف تعقيدات وتشابكات المشكلات التى تتم دراستها • ومع ذلك فهنـاك الكثير مما يسـتحق الاهتمام • وفى مقـدمة ذلك المشكلة الانسانية بتشعباتهـا السـيكلوجية التى تدخل فى نطاق الدافعيـة ، ومستوى الطموح ، وتغيير الاتجاهات •

ان المعهد القومى لتنمية المجتمع المحلى يسـعى الى دراسة هـذه المعادلة ، أى العامل الانسانى فى مواجهة العـامل التكنولوجى • ولقد أخذ البروفيسور دورجاناند سـنها على عاتقه ومن خـلال المعهد مهمة القيام بهذه الدراسة ، والتقـرير الذى تتضمنه الصفحات التـالية يضم نتائج هذه الدراسة التى توصل اليها سنها وفريق الباحثين المعاونين له ، بعد انجـازها خلال المدة من ١٩٦٤ الى عام ١٩٦٦ • وربما كانت هذه الدراسة هى أول دراسة اجتماعية نفسية على مستوى واسع تجرى فى القرية الهنـدية ، وفضلا عن ذلك فانهـا أضاءت الطريق أمام المخططين والمسئولين المعنيين بتنمية القرى الهندية ، ذلك أنهـا لفتت أنظارهم الى أبعاد وعوامل جديدة يفيدون منها فى عملهم أيما فائدة • والى جانب ذلك فان هذه الدراسة تعتبر عملا قيما بالنسبة للعلماء الاجتماعيين والباحثين الآخرين العاملين فى مجال التنمية الريفية •

مقـدمة

تشهد البلدان الآسيوية والافريقية فى الوقت الحاضر تقدما كبيرا فى مجال التنمية الاجتماعية والاقتصادية • وما من جدال فى أن سكان المناطق الريفية فى هذه البلدان ينبغى عليهم أن يسهموا بنصيبهم من المشاركة فى هذا المجال • واذا كان للنمو الاجتماعى والاقتصادى أن يتحقق ، ولدولة الرفاهية أن تنبنى ، فان أسس ودعائم هذا البناء ينبغى أن تقع على كاهل (٥٥٨٠٠٠) قرية تنتشر فى جميع أرجاء الهند • ولقد جاء فى الاحصاءات السكانية لعام ١٩٦١ أن الذين يمارسون العمل الزراعى ويقومون بزراعة المحاصيل قد بلغ عددهم ١٣١ مليونا ، كان من بينهم ٩٩,٥ مليونا من المزارعين ، اما الباقون وعددهم ٣١,٥ مليونا فكانوا من العمال الزراعيين • وفى الحقبة ما بين عامى ١٩٥١ ، ١٩٦١ ازداد عدد المزارعين بنسبة ٤٣٪ كما ازداد عدد العمال الزراعيين بنسبة ١٤٪ • ويشكل المزارعون أقل من نصف اجمالى عدد القوى العاملة فى الهند بنسبة ضئيلة • وعلى ذلك فاننا لا نلبث أن نجد واحدا من المزارعين من بين كل اثنين من العاملين ، كما نجد واحدا من العمال الزراعيين من بين كل ستة منهم • والى جانب هؤلاء الذين يعتمدون على الاشتغال بالزراعة ويعتبرونها مصدرا لدخلهم ، هناك من يمت عملهم بصلة للزراعة كأصحاب البساتين وحدائق الفاكهة ، وعلى ذلك يبلغ اجمالى عدد السكان المشتغلين بالزراعة ٣١٠ مليونا • ان الزراعة هى الصناعة الكبرى فى الهند ، اذ أن ٧٠٪ من السكان يعتمدون عليها فضلا عن أنها تسهم بنصف اجمالى الدخل القومى •

ومنذ أن بلغت نسبة سكان المجتمعات المحلية الريفية فى الهند ٧٠٪ من اجمالى عدد السكان ، أخذ المخططون يدركون أهمية الوقوف على كل ما يحيط بعملية التنمية وذلك فيما لو حققت الخطط الخمسية النجاح المنشود • كما أدركوا أن مستقبل الريف مرهون بتقدم القرى •

ومن ثم كان الشغل الشاغل لبرنامج تنميـــة المجتمع المحلى فى الهند هو وضع أولوية كبرى لاعادة بناء الهند الجديدة . وتهدف الخطة الخمسية الثالثة الى استمرار نشاط هذا البرنامج وانتشاره حتى يغطى كافة القرى الـ ٥٥٨ ألفا . وقد أقر هذا الهدف فى أكتـــوبر عام ١٩٦٣ . ان برنامج تنمية المجتمع المحلى يمثـــل مجتمع الرفاهيـــة فى المناطق الريفية ، وهو بمثـــابة الخطوة الأولى فى هذا الســـبيل بعد قرون عديدة من البـــؤس والتخلف والركود الذى يصبغ الحياة القروية .

لقد ظلت القـــرية الهندية تحيا حيـــاة التخلف لعدة قرون . فالفقر ضارب أطنابه ، وبشق الأنفس يعيش النـــاس فى مســـتوى الكفاف . والانتاج الزراعى منخفض لدرجة البؤس بســـبب النقص فى المعدات ، والأساليب البدائية فى الزراعة ، ونقص مصادر استغلال رءوس الأموال ، كما أن الناس يجهلون مزايا العلم والتكنولوجيا ، أو أنهم لا يمتلكون المصـــادر التى تجعلهم يفيـــدون منها ويسخرونها لخدمتهم . وارتفعت نسبة البطالة حتى ان قطاعا كبيرا من الناس كانوا متعطلين . وظل القطاع الضخم من المجتمعـــات المحلية الريفيـــة فى حالة من العـــزلة الطبيعيـــة والثقافية ، كما أن الحياة الاجتماعية والأحوال المجتمعية لتلك المجتمعات المحلية قد أصـــابها التفكك والاضمحلال . وارتفعت نســـبة الأمية بين الناس ، واتسمت نظرتهم للحياة بالسمة الدينية . وكانوا يعتقدون كثيرا من الخرافات كما كانت لديهم اتجاهات وقيم مســـتمدة من الدين كانت تقف دائما حجر عثرة فى سبيل النمو الاقتصادى والتنمية المادية . وبالرغم من أحوالهم التى كانت تبعث على الأسى ، ظل النـــاس راضين قانعين ، وكانت اتجاهاتهم تؤكد قبولهم لواقعهم الذى يعيشون فيه . وبدلا من الحمـــاس والرغبة فى تحســـين هذا الواقع كانت لديهم ســـمة البلادة والســـلبية . ان البلادة الريفيـــة التى تولدت بين الأجيال تحت وطـــأة الاستغلال والاهمال ، انما هى حجر عثرة فى سبيل التقدم . ونتيجة لكل

ذلك ، ظلت القـرية الهنـدية طويلا فى حالة من الركود ، وكان الوقت لا يتحرك بها الى أبعد مما درجت عليه الحياة الاجتماعية والاقتصـادية فى المجتمعات المحلية الريفيـة ولقد ذهب مسـتر « كريشـنا ماكارى » فى أثناء مناقشته لفلسفة حركة التنمية فى المجتمعات المحلية (عام ١٩٥٨) الى أنه :

« لا يمكن التفكير فى أى تقـدم ما لم ننهض بالغالبية العظمى من سكان القرى ونحثهم على تغيير واقعهم » • ومنذ أصـبح القطاع الأكبر من السكان يعيشون فى الريف ، فانه لم يعد بالامكان تجـاهل القرى من جانب القائمين على أى نشاط من نشاطات التنمية • ومن هنا فان برنامج تنمية المجتمع المحلى خطوة هامة فى سـبيل التنمية ليس فى الريف الهندى فحسب ، ولكن فى الريف على وجه العموم • ان برنامج تنمية المجتمع المحلى يهدف الى بعث المجتمع القروى من جديد بعد طول استغلال وطول حرمان من التسهيلات الضرورية اللازمة للتقدم والحياة الجديدة • كما أن هذا البرنامج يهدف كذلك الى النهوض بكل ما يحيط بالمجتمعات الريفية اقتصاديا ، واجتماعيا ، وثقافيـا ــ فضلا عن أنه لم يدع خاصية من خصائص القرية الا وأثر فيها • انه برنامج لخلق وتوجيه التغير ، وحفز القرويين وتشجيعهم للاعتماد على أنفسـهم • انه يهدف الى جعل المجتمعات المحلية الريفية مكتفية بذاتها فيما يتصـل بالحاجات الأساسية الضرورية كالمأكل والملبس والمسـكن ، وذلك بالاضافة الى شحذ همم القرويين وايقاد حماسهم الكامن من أجل تنميتهم • انه يطمح فى تحقيق التنمية السريعة الشاملة لآلاف القرى التى ظلت أزمانا طويلة فى حالة من البلادة والبؤس •

وفى ضوء الاطار العام للخطط الخمسية فى الهند ، تم وضع تصور لبرنامج تنميـة المجتمع المحلى ، وبدأ تنفيـذه فى ٢ أكتوبر عام ١٩٥٢ لاحداث تنمية اقتصـادية مركزة ، والتعجيل بالتغير الاجتماعى لجماهير

الريفيين . كما أن أحد أهدافه الأساسية السعى وراء التنمية المركزة لملايين المواطنين فى كل أرجاء الهند وتغيير اتجاهاتهم ونظرتهم للحياة . وقد تكون أهدافه هذه محل اتفاق أو عدم اتفاق ، غير أن هناك حقيقة هامة لا يمكن انكارها وهى أن موضوعاته وخططه هى نفسها تلك الموضوعات والسياسات التى تحكم خططنا الخمسية . كما أن هناك حقيقة جديرة بالذكر وهى أن البرنامج يسعى وراء التأثير فى كل ما يحيط بعملية التنمية بطريقة مخططة وديموقراطية . وكما قال « **جونار ميردال** » **Cunnar Myrdal عام ١٩٦١ فى مقدمة كتاب « قوسيم نابر » (Kwsum Nair) الموسوم « زهور فى التراب » Blossms in the dust** :

« ان التخطيط الديموقراطى فى الهند يهدف الى احداث عملية اجتماعية ، يصبح الناس فى داخلها مدفوعين باضطراد الى تحسين أحوالهم كأفراد ، وفى نفس الوقت ، لتحسين مجتمعهم عن طريق الجهود التعاونية » . وما دام البرنامج يصطبغ بالديموقراطية فى اتجاهه ، فانه يقوم على الحث والتشجيع وليس على الاكراه والالزام . وذلك على أساس أنه اذا أريد للتنمية أن تنجح فلابد من اثارة حماس القرويين ، وجعلهم ينظمون أنفسهم لمرحلة من الاعتماد على النفس والاستجابة للأفكار الجديدة ، وادراك المزايا التى تتميز بها الأساليب والممارسات الحديثة فى الزراعة التى يقدمها العلم الحديث ، والاستعداد لتقديم المال والجهد فى سبيل تحسين أحوالهم . وعلى ذلك فان الخطط الخمسية وبرنامج تنمية المجتمع المحلى يهدفان الى تحقيق نمو اقتصادى سريع وعدالة اجتماعية . وعلى وجه الخصوص فان برنامج التنمية يركز اهتمامه بالقطاع الريفى ويهدف الى تحريك الركود الذى ظل يحكم حياتنا الريفية لمئات السنين .

وقد ظهر فى نشرة تسمى « دليل تنمية المجتمع المحلى » صدرت عام ١٩٦٢ بعض الموضوعات الهامة حول برنامج التنمية . وقد تبين **أن الموضوع الأول** منها يؤكد على الجانب السيكولوجى ، فقد جاء به أنه :

« تغيير نظرة جميع القرويين يعتبر من الموضوعات الجوهرية التى يحرص عليها البرنامج . وما لم تكن هنـاك زيادة فى توقعات القرويين ورغبتهم فى مستوى أعلى من المعيشـة ، فلن تكون هناك دافعية لديهم تكفل استمرار عملية التنمية وتحويل قيادتها الى قيادة شعبية » . كما جاء **الموضوع الثالث** من البرنامج ليؤكد أيضا أن : « الهدف الأساسى يجب أن يكون تطوير القرويين ليصبحوا معتمدين على أنفسهم ، ومواطنين مستجيبين ، لديهم القدرة والرغبة على المشـاركة بفاعلية ومعرفة وفهم فى بناء مجتمع جديد » . **أما الموضوع الرابع** فقد جاء كما يلى : « انه الى جانب الزيادة المتـوقعة من جانب القـرويين فى مزيد من الطعام ، والملبس ، والتعليم ، والخدمات الصحية ، والمسكن ، والطرق ، والترفيه ، فان برنامج التنميـة يهدف بشـكل جوهرى الى مسـاعدة القرويين فى العمل على زيادة دخولهم ، وذلك يعنى :

أولا : أن الجهود يجب أن تتركز فى تحسين وتحديث الأساليب والممارسات الزراعية حتى يمكن زيادة الانتاج الزراعى .

ثانيا : أنه يجب الاهتمام بتحسين وتنظيم الحـرف القـروية والصناعات التى تفى باحتياجات ومطالب القرية ، وتوفر المزيد من فرص العمل للأيدى العاطلة » .

وقد ذكر شستر باولز Chester Bowles فى محاضراته عام ١٩٦٣ بجامعة دلهى أنه « ما لم تسـتشر الحماسة وروح التعـاون فى نفـوس الجماهير التى ظلت لقرون عديدة أسـيرة للكبح واليـأس ، فان عملية التنمية تصبح مسـتحيلة » . كما أضاف أيضـا : « ان نجـاح التنمية الريفية يمكن أن يتحقق فقط عن طريق تحـرير طاقات الجمـاهير » . ومن ثم يتضح أن برنامج تنميـة المجتمع المحلى قد أخذ فى الاعتبـار

العامل السيكولوجى عندما أخذ يعد لتحقيــق النمو السريع والمتوازن فى الريف •

ان برنامج تنمية المجتمع المحلى يفترض سلفا حدوث بعض التغيرات السيكولوجية الهامة فى القرى • وقد تضمن البرنامج ما يوضح ذلك • ولقد قال مستر كريشنا ماكارى ذات مرة عندما كان رئيسا لاحدى لجان التخطيط : « انه لكى يمكن احداث ثورة عقلية ــ تملأ القرويين بالرغبة فى تحسين مستوياتهم المعيشيــة بجهودهم الذاتية وعن طريق التعــاون فيما بينهم ، يتعين على المختصين أن تكون وظيفتهم هى مساعدة القرى فى تحقيق ذلك بجهودها الذاتية » • لقد اتفق على أن بواعث ومستثيرات النمو انما يجب أن تأتى من داخــل القرويين أنفســهم • وذلك يقتضى احداث تغيرات دائمة فى اتجاهات الناس •• ان الارادة الطبيعية للناس ، وحماسهم ، ومشاركتهم من الأمور الجوهرية لتحقيق النجاح فى هــذا الصــدد • وقد ذكر ماكرجى Mukerji فى كتــابه الممتــاز عن تنميــة المجتمعات المحلية فى الهند Community Development in India (عام ١٩٦١) : انه من الممكن فقط عن طريق جعل القرويين ينهمكون فى عملية تحسين أنفسهم من خلال جهودهم الذاتية يمكننا تطوير قدرتهم واعتمادهم على أنفسهم ، ودعم الحياة التعاونية فيما بينهم ، والتماسك فى المجتمع المحلى الأساسى القانونى فقط ، وانما أيضا الدعم والمشاركة القــلبية من جانب ملايين الأفراد الذين يعيشــون فى مئات الآلاف من المجتمعات القروية التى تشكل القطاع الأكبر من الســكان فى البلدان النامية • انهم هم الذين لهم حق القبول أو الرفض فيما يتصل بالبرنامج المعد لتحسين أحوالهم • وعلى ذلك فانه يمكن بالتدريج أن يتحول مئات الآلاف من القروين من ديون راكدة الى مصدر للقوة يلهب الدم فى عروق عمليات التنمية القومية » •

واذا نظرنا الى الأمر من زاوية ســيكولوجية ، فســوف نتبين أن

برنامج التنمية يهدف الى توليد الحماسة فى نفوس القرويين ورفع طموحهم فى معيشة أفضل ، والرغبة القوية لديهم فى تحسين أحوالهم المادية ، والنظرة البناءة حيال تنميتهم المستقبلية . انه يهدف الى تدعيم مشاركة جماهير القرويين أنفسهم فى الجهود الرامية الى تحسين مستوياتهم المعيشية وذلك عن طريق الاعتماد على مبادرتهم الذاتية كلما أمكن ذلك. ان المسئولين يعملون على تقديم الوسائل والخدمات ، ولكنهم يتوقعون أن توظف هذه الوسائل وتلك الخدمات لتحقيق أقصى درجات الفائدة والفاعلية والتأثير فى كل ما يحيط بعملية التنمية فى القرية الهندية من خلال مبادرة القرويين واعتمادهم على أنفسهم . ويصبح مقبولا من جماع ذلك كله أن تنجح الدولة فى خلق الأحوال المرجوة وتحديد اتجاه ومسار النمو القومى . ولكن الدافع الرئيسى للنمو انما يتأتى من داخل عقول الناس أنفسهم حينما يعبرون عن ذلك فى شكل الرغبة فى حياة أفضل ، والاستعداد من جانبهم لتكريس جهودهم أفرادا وجماعات من أجل تحقيق تلك الأحوال المعيشية . وقد ذكر كريشنا ماكارى فى سمنار عن « نمط الادارة الريفية » (Pattern of rural Government) عقد بالمعهد الهندى للادارة العامة بنيودلهى (عام ١٩٥٨) : « ان الموضوع هو البحث فى تحقيق التغير الاجتماعى . اننا نسعى من أجل أن نجعل الناس راغبين فى حياة أفضل ، وذلك عن طريق خلق الرغبة الملحة لديهم فى تحسين مستوياتهم المعيشية من خلال جهودهم الذاتية ، وتعاونهم الكامل مع جيرانهم » . كما أنه ــ ماكارى ــ ذكر أيضا فى فصل بعنوان « التنمية الزراعية وعلاقتها بالتصنيع » : « لا يمكن لمحاولات التنمية أن تؤتى ثمارا ما لم تعمل الحكومات على جعل العاملين فى الزراعة يغيرون من نظرتهم التقليدية البالية ، ويتقدون حماسا للمعرفة الجديدة ، والأساليب الجديدة فى الحياة . ومن ثم فعليها أن تخلق فيهم

الرغبة فى مستويات معيشية أكثر ارتفاعا ، والارادة فى تحقيق الحياة الأفضل » .

ولكن السؤال الرئيسى الذى يطرح نفسه الآن هو : كيف يمكن ايقاظ هذا الحماس والابقاء عليه فى مستوى مرتفع ؟ وبمعنى آخر ، يمكننا أن نقول « ان المشكلة الجوهرية هى مشكلة سيكولوجية وليست مشكلة فنية » . كما يضيف مكارى قائلا : « ينبغى أن يهيأ المشتغلون بالزراعة الى الاحساس بحيوية وخطورة الدور الذى يلعبونه فيما يتعلق بنصيبهم فى الاقتصاد القومى ، وأن الحكومة على وعى بهذا جيدا ، وأنها مصممة عن طريق التخطيط الدقيق ، أن تدعم وتؤازر جهودهم فى تحقيق مستويات معيشية أعلى » .

وفى ضوء ما سبق تبين أن نجاح برنامج التنمية لا يمكن أن يقاس ببساطة من خلال نتائجه المادية الملموسة التى تحدث فى الخصائص الطبيعية للقرى ، وانما أيضا بقدر ما يثير حماس القرويين ويولد فيهم قوة دافعة لتحسين أنفسهم كأفراد ويزكى فيهم روح الحرص على تحقيق حياة أفضل لمجتمعهم المحلى . وذلك من خلال تغيير نظرتهم العقلية ، واتجاهاتهم ، وقيمهم ، ومستويات طموحهم ...

ولقد قال نهرو رئيس الوزراء عن هذا البرنامج : « حقيقة انه البرنامج ثورى منذ بدايته . واننى أعتقد أنه لم يحدث فى أى مجتمع ريفى فى العالم خلال السنوات القليلة الماضية ما هو عظيم فى مضمونه وثورى فى تصميمه كمشروع تنمية المجتمع المحلى فى الهند » .

وفى ضوء الموضوعات السيكولوجية التى تضمنها برنامج تنمية المجتمع المحلى تمت صياغة مشروع هذا البحث الذى نحن بصدده ومنذ البداية فانه قد قوبل بكل أنواع النقد . فهناك من تعاطفوا معه وتحمسوا له ، وهناك من أدانوه وحكموا عليه بالفشل .

ولقد أكدت التقارير السنوية الخاصة بتقييم برنامج تنمية المجتمع المحلى ، أكدت مرارا أنه فى **الوقت الذى يجرى فيه نمو المجتمع المحلى** وذلك بجعل القرويين يدركون الواقع السيىء الذى يعيشون له ، وجعلهم يتقبلون الأساليب الزراعية المحسنة ، ويدركون كيف يعيشون حياة صحية ، ويقدمون جهودهم طواعية للعمل فى حفر الآبار ، وبناء الطرق وتشييد المدارس ، **كان الناس أنفسهم يفتقدون الحماس الحقيقى حيال البرنامج** . ومن ثم فقد أحاطته الشكوك وبخاصة فيما يتصل بنجاحه فى الجانب الانسانى والسيكولوجى منه ، ذلك الجانب الذى يعتبر ، على نحو ما رأينا ، فى غاية الأهمية .

وهنا أثيرت عدة تساؤلات على النحو التالى :

- هل القرويون لديهم الدافعية للعمل على تحسين أحوالهم الخاصة وأحوال مجتمعهم المحلى ؟
- هل هم متحمسون للتقدم المادة .؟
- هل لدى الجماهير الرغبة فى حياة أفضل ، وهل تحقق ذلك من خلال برنامج تنمية المجتمع المحلى .؟
- هل هناك علامات على وجود الركود الذى ظل يسيطر على الحياة القروية لعدة عصور ؟
- هل يظهر القرويون تغيرا فى اتجاهاتهم التقليدية ؟
- ألم تحدث بعد ، « ثورة التطلعات » ، وانما هناك علامات توضح أن مثل هذه الثورة قد بدأت تعرف طريقها الى أذهان القرويين ؟

وكانت هذه التساؤلات تمثل المشكلة قبل أن تجرى هذه الدراسة التى تتناول الدافعية والطموح لدى القرويين ، وذلك فضلا عن الوقوف

على الآثار التى نجمت عن برنامج تنميـــة المجتمـــع المحــلى • والبحث لا يهدف على الاطلاق الى اجراء أى نوع من التقويم لأعمال البرنامج ، أو اصدار أى أحكام تتصل بذلك ، ولكن لما كان الهدف منه هو هدف تحليـــلى بحت ، فانه يهدف فى المحل الأول الى تجربة وتطوير تكنيـكات معينة للتعرف على الطموح والدافعيـــة فى مجتمعات محلية ريفيـــة ، ثم تحليل ذلك بالاضافة الى دراسة اتجاهات القـــرويين وقيمهم ، ونظرتهم للحياة ، والتغيرات التى تطرأ على ذلك كله والتى قد تكون راجعة الى تأثير برنامج تنمية المجتمع المحلى •

الاجراءات المنهجية للدراسة

تضمنت الاجراءات المنهجية للدراسة العناصر التالية :

ـــ تحديد مجالات الدراسة بما فى ذلك المجال الجغرافى ، والمجـــال البشرى ، والمجال الزمنى •

ـــ العينة ، وكيفية اختيارها ، وشرح خصائصها •

ـــ اعداد الأدوات والمقاييس اللازمة لجمع البيانات الميدانية •

ـــ تدريب باحثى الميدان •

ـــ الدراسة الاستطلاعية ، وتجربة الأدوات والمقاييس ، وتعديلهـــا والاتفاق على الصورة النهائية لها •

مجالات الدراسة

ـــ المجال الجغرافى :

٦ قرى من قطاع الله أباد الذى تم تغطيته ببرامج لتنميـــة المجتمع المحلى •

- **المجال البشرى :**

السكان القرويون المقيمون بهذه القرى المختارة .

- **المجال الزمنى :**

بدأ تنفيذ مشروع البحث فى سبمتبر ١٩٦٤ على مرحلتين :

* **المرحلة الأولى :**

هى مرحلة الدراسة الاستطلاعية ، وقد استغرقت ٤ شهور جرى فيها تدريب الباحثين الميدانيين ، واعداد الأدوات ، واختبار هذه الأدوات وتعديلها لتصبح فى صورتها النهائية .

* **المرحلة الثانية :**

هى مرحلة جمع البيانات من القرى الست ، وقد بدأت هذه المرحلة فى الأسبوع الأول من يناير ١٩٦٥ واستغرقت عاما واحدا . وقد جرى خلالها جمع البيانات وتحليلها ، واستخلاص النتائج التى تم الاعتماد عليها فى رسم صورة لتوضيح الدافعية للانجاز ، والطموح لدى القرويين فى هذه القرى .

تفصيلات العينة

* تهدف خطة مشروع البحث أساسا الى دراسة الآثار التى خلفها برنامج تنمية المجتمع المحلى على القرويين وبخاصة مستويات الطموح ، والدافعية لديهم وذلك عن طريق مقارنة عينة من القرى التى تعرضت لهذا البرنامج بعينة أخرى من القرى التى لم تتعرض له . ولكن تحقيق ذلك لم يكن سهلا حيث ان اقليم الله أباد كله كان قد تعرض لهذا البرنامج . وبالرغم من ذلك ، فان الاقليم يضم قطاعات عديدة

تختلف استجابة كل منها عن غيره من القطاعات فيما يتعلق بدرجة الاستجابة للبرنامج • وهنا رأينا على الفور استخدام تكنيك « الجماعات المتطرفة » وذلك باجراء تحليل مقارن لمجموعتين من القرى احداهما أظهرت استجابة طيبة ومرتفعة للبرنامج ، والأخرى أبدت استجابة منخفضة جدا • وذلك على أمل أن تفيد هذه المقارنة فى القاء الضوء على العوامل المتصلة بالطموح والدافعية والاتجاهات ، والفروق بين القرويين فى هذا المجال •

* تم الاستعانة بالخبراء القائمين على برنامج التنمية فى اختيار مجموعتين من القرى ثلاث منها مرتفعة الاستجابة للبرنامج ، وثلاث أخرى منخفضة ، وذلك بناء على تحكيم واجماع مشترك بين فريق البحث وهؤلاء الخبراء فى الحكم على نوعية هاتين المجموعتين من القرى من حيث درجة استجابتها للبرنامج •

* بعد اختيار القرى تم **اجراء جرد سكانى للعائلات الموجودة بكل** قرية وذلك باعداد جداول وكشوف خاصة بها حصلنا عليها من المسئولين عن البرنامج وتمت مراجعته والتحقق من دقته بواسطة الباحثين الميدانيين • وقد تبين فى ضوء تلك المراجعة أن ٩٠٪ من الأسر المدرجة بالكشوف مطابقة للواقع • أما باقى النسبة فانها تشير الى الأسر التى هاجرت أو لا تنطبق عليها الشروط • وعلى العموم كانت هناك مقاومة وعدم تعاون من جانب القرويين خلال عملية اختبار هذه الكشوف ولكنها لم تكن كبيرة •

* كانت محكات الحكم على درجة استجابة القرية لبرنامج التنمية غير محدودة ولكن القائمين على البرنامج ــ بالاشتراك مع فريق البحث ــ أمكنهم التوصل الى عدد من هذه المحكات أو المؤشرات ، ومنها :

ـ استعداد القرويين لقبول الأساليب الحديثة فى الزراعة .

ـ استخدام الأدوات الزراعية الحديثة ، وتحسين البذور .

ـ تبنى بعض الممارسات التى تكفل الوقاية الصحية .

ـ التعليم .

ـ تهجين الماشية وتحسين سلالتها .

ـ المشاركة فى نشاطات المجتمع المحلى .

نوع القرية	المسافة بينها وبين المركز الاقليمى الرئيسى بالميل	المسافة بينها وبين المدينة بالميل	عدد السكان	عدد العائلات	عدد المبحوثين	للمبحوثين من القرية
مرتفعة	٦	٢٤	٥٦٨	٧٩	٨٠	٨٩,٨٩
مرتفعة	١٢	٢٠	٧٨١	١٢١	١١٤	٩٤,٢١
مرتفعة	٧	٢٢	٧٦٧	١٢٠	١٠٦	
المجموع			٢١١٦	٣٣٠	٣٠٠	
منخفضة	٩	١٩	٦٧٢	١١٥	١٠٧	٩٣,٠٤
منخفضة	٣	٢٥	٤٨٥	١١٦	٩٩	٨٥,٣٤
منخفضة	٥	٢٦	٥٦٥	٩٣	٨٤	٩٠,٣٢
المجموع			١٧٢٢	٣٢٤	٢٩٠	

	تاريخ اتمام البرنامج	المساحة الكلية بالميل٢	اجمالية عدد السكان	عدد القرى
قطاع مرتفع	٥٣/١٠/٢	١٠٣	٦٩,٦٥٤	١٤٥
« «	٥٦/١٠/٢	٩٠	٥٩,٠٧٠	٩٣
قطاع منخفض	٦٠/١٠/١	٩٤	٩١,٢٠١	٢١٣
« «	٦١/١٠/١	١٢٢	٦٤,٤٩٤	٩٢

※ محكات تقويم التقدم المادى للقرى

※ مظاهر تقدم القــرى منذ عام ١٩٥٣ حتى عام ١٩٦٥ (٥٣ ، ٥٧ ، ٦٥) والتى روعيت كمحكات لتقويم **هذا التقدم فى قرى العينة** :

١ ــ نمط المسكن .

٢ ــ الصناعات الصغيرة .

٣ ــ عدد الآبار .

٤ ــ عدد آلات الحرث الجديدة .

٥ ــ عدد المضخات .

٦ ــ عدد **آلات الحصاد** .

٧ ــ عدد آلات الحفر .

٨ ــ عدد الدراجات .

٩ ــ عدد أجهزة الراديو .

١٠ ــ عدد البنادق .

١١ ــ عدد المدارس .

١٢ ــ عدد مخازن السماد .

* توزيع افراد العينة بمجموعتى القرى
على حسب فئات السن (*)

القطاع	القرية	فئات العمر ١٦ ـ ٢٥	٢٦ ـ ٣٥	٣٦ ـ ٤٥	٤٦ ـ ٥٥	٥٦ +
المرتفع	ر	٩	٣٤	١٨	١٤	٥
	ج	٢٢	٣٩	٢٥	١٣	١٥
	ت	١٤	٣٦	٢٢	٢٠	١٤
	المجموع	٤٥	١٠٩	٦٥	٤٧	٣٣
	٪	١٥,ـــ	٣٦ر٣٣	٢١,٦٦	١٥,٦٨	١١,٣٣
المنخفض	ب ك	٢٠	٤٥	١٩	٩	١٤
	ب	٢٢	٣٤	٢١	٩	١٣
	م	١٤	٢٩	٢٢	١٢	٧
	المجموع	٥٦	١٠٨	٦٢	٣٠	٣٤
	٪	١٩,٣١	٣٧,٢٤	٢١,٣٨	١٠,٣٥	١١,٧٢
	الاجمالى	١٠١	٢١٧	١٢٧	٧٧	٦٧
	٪	١٧,١٦	٣٦,٧٩	٢١,٥٢	١٣,٠١	١١,٥٢

(*) هكذا جاء الجدول كما هو موضح بالكتاب ، ولكن لنا ملاحظة على كيفية تحديد بدايات ونهايات الفئات العمرية المذكورة : فالأصوب ـ فى رأينا ـ أن تكون هذه الفئات ممثلة لخط متصل غير متقطع ، بمعنى أن تكون نهاية الفئة العمرية السابقة هى بداية الفئة اللاحقة لها . وتصبح على النحو التالى : ١٦ ـ ٢٥ (أى ١٦ وحتى أقل من ٢٥) ، ٢٥ ـ ٣٥ (أى من ٢٥ واقل من ٣٥) ، ٣٥ ـ ٤٥ (أى من ٣٥ وحتى أقل من ٤٥ سنة) ... وهكذا . ذلك لأن وحدات السن هى وحدات متصلة وليست وحدات متقطعة ، فلو كان هناك مبحوث يبلغ من العمر ٢٥ عاما ونصف العام فانه فى تلك الحالة يدرج فى الفئة العمرية الثانية (٢٥ ـ ٣٥) التى تشمل من لا تقل أعمارهم عن ٢٥ عاما وانما تزيد عن ذلك حتى تصل الى أقل من ٣٥ عاما . أما بالشكل الراهن الموضح بالجدول السابق كما ورد بالكتاب فانه يصعب توزيع مثل صاحب هذه السن ـ ٢٥ عاما ونصف ـ اذ انه فى هذه الحالة يتعين تقريب عمره بالحذف أو الاضافة (أى بالنقصان أو الزيادة) لكن يمكن ادراجه فى احدى الفئتين العمريتين الأولى أو الثانية على التوالى .

*** توزيع أفراد العينة على حسب الديانة :**

يدين أفراد العينة بالديانة الهندوكية وذلك باستثناء عدد قليل من المسلمين باحدى قرى القطاع المرتفع تبلغ نسبتهم ٥,٣٣٪ ، وذلك بالاضافة الى عدد قليل من المسلمين أيضا باحدى قرى القطاع المنخفض تبلغ نسبتهم ١,٠٣٪ •

* جميع أفراد العينة من الذكور البالغين • وقد تم استبعاد بعض الأسر فى القرى المختارة ولم تمثل فى العينة نظرا لعدم وجود أفراد من الذكور البالغين بها(*) •

(*) جاء ذلك فى ص ٤٩ دون ذكر تفاصيل . ولا بأس ــ فى رأينا ــ من ذلك ، فمن الممكن ان تكون هناك أسرة توفى عائلها (الأب) ، ولا يوجد بها سوى الأم والأطفال .

* توزيع أفراد العينة طبقا للمستويات التعليمية

القطاع	القرية	المستويات التعليمية						
		أمى	يقرأ فقط	يقرأ ويكتب	ابتدائى	اعدادى	ثانوى	عال
المرتفع	ر	٥٥	٣	١١	٩	٢	—	—
	ج	٧٥	٥	٢٥	٦	٢	١	—
	ت	٥٠	٢	٢١	١٨	٩	٥	١
	المجموع	١٨٠	١٠	٥٧	٣٣	١٣	٦	١
	٪	٦٠,٠١	٣,٣٣	١٩,—	١١,—	٤,٣٣	٢,—	—,٣٣
المنخفض	ب ك	٧٢	١	١٥	١٠	٥	٤	—
	ب	٥٧	—	٤	٢٧	٨	٢	١
	م	٥٨	١	١٣	٨	٣	١	—
	المجموع	١٨٧	٢	٣٢	٤٥	١٦	٧	
	٪	٦٤,٤٨	—,٦٩	١١,٠٣	١٥,٥٢	٥,٥٢	٢,٤١	—,٣٥

ولا يحتاج الأمر الى مزيد فى التعليق على البيانات الواردة بالجدول السابق اذ أن الغالبية من أفراد العينـــة من الأميين ، وكلمـــا تدرجنا فى الارتفاع على سلم التعليم ، انخفضت النســـبة حتى كادت تنعدم عنـــد المستوى التعليمى العالى •

* توزيع أفراد العينة على حسب حيازتهم للأرض الزراعية (بالفدان)(*)

القطاع	القرية	فئات الحيازة(**) غير حائز	أقل من ١	١ ــ ٥	٦ ــ ١٠	١١ ــ ١٥	١٦ ــ ٢٠	أكثر من ٢٠
المرتفع	ر	٧	١٠	٣٥	٢٥	٢	ــ	١
	ج	١٣	٣١	٤٥	١٧	٤	٢	٢
	ت	٢١	١٩	٤٢	١٢	٥	١	٦
	المجموع	٤١	٦٠	١٢٢	٥٤	١١	٣	٩
	٪	١٣,٦٧	٢٠,ــ	٤٠,٦٦	١٨,ــ	٣ ,٦٧	١,ــ	٣,ــ
المنخفض	ب ك	٩	١٤	٥٨	١٨	٧	١	ــ
	ب	١٥	١٤	٤٦	١٢	٧	٥	ــ
	م	٤	١١	٥٨	٧	٢	ــ	٢
	المجموع	٢٨	٣٩	١٦٢	٣٧	١٦	٦	٢
	٪	٩,٦٦	١٣,٤٥	٥٥,٨٦	١٢,٧٥	٥,٥٢	٢,٠٧	٠,٦٩

(*) لم يتضح من الكتاب نوعية هذه الحيازة وما اذا كانت مملوكة أم مستأجرة ، أم النوعين معا ، أم أى شكل آخر من أشكال حيازة الأرض الزراعية .

(**) نفس ما ذكرناه حول الفئات العمرية على نحو ما سبق ينسحب ايضا على فئات الحيازة كما وردت بالجدول الموضح الخاص بتوزيع الأرض الزراعية بالنسبة للمبحوثين .

أساليب جمع المادة العلمية :

اتفق على أن يتم جمع المـادة العلمية الميدانية وفقـا للأسـاليب الثلاثة التالية :

١ ـ أسلوب مباشر فى جمع البيانات : وذلك عن طريق استخدام مقاييس واختبارات للآراء والكشف عن الاتجاهات والقيم •

٢ ـ أسلوب اسقاطى (غير مباشر) : وذلك عن طريق اسـتخدام مقاييس واختبارات اسـقاطية ، كاختبار تكملة الجمـل ، واختبار تفهم الموضوع (T. A. T) المصور الخاص بالكشف عن الدوافع المتصـلة بالانجاز ، فضلا عن مقياس اسقاطى للكشف عن مستوى الطمـوح • ويعتمد هذا المقياس على تحليل استجابات المبحوثين حول احدى القصص التى تصف الحياة النمطية للفلاح ، وآرائهم حول مضمون هذه القصة •

٣ ـ رصد التغيرات التى تطرأ على السلوك الأصـلى التقليـدى للفلاحين ، وترتيب هذه التغيرات فى ضوء الممارسـات الجديدة التى تم ادخالها الى القرى موضوع الدراسة •

ويتم تطبيق هذه الأدوات بواسطة باحثين ميدانيين مدربين تدريبا جيدا خلال مقابلات شخصية مع المبحوثين •

الأدوات والمقاييس المستخدمة

ـ الأدوات والمقاييس التى تم اعدادها قبل اجراء التجربة عليها :

١ ـ صحيفة بيانات شخصية خاصة بالمبحوث •

٢ ـ مقياس للمكانة الاجتماعية والاقتصادية •

٣ ـ مقياس اسقاطى للكشف عن مستوى الطموح (قصة شياما Shyama Story) .

٤ ـ اختبار لتكملة الجمل .

٥ ـ مقياس للكشف عن الاستعداد للكفاح والنضال .

٦ ـ الاختبار المصور للكشف عن الحاجة للانجاز .
(Need Achievement Pictures)

٧ ـ اختبار الأداء الخاص بالكشف عن مستوى الطموح
(Level of Aspiration Performance Test)

٨ ـ ترتيب السلوك الدال على الدافعية ومستوى االطموح
(Behaviour ratings for assessment of motivation and level of aspiration).

٩ ـ اختبار « ما الذى يجعلنى أحيا حياة سعيدة » ؟
(What I consider to be a happy life test).

١٠ ـ استمارة للكشف عن الاتجاهات والآراء .

وبعد اجراء التجربة على هذه الأدوات والمقاييس ـ بتطبيقها على ٤٠ مبحوثا ـ أدخلت عليها بعض التعديلات من حيث الصياغة ، فضلا عن بعض التفصيلات الداخلية ، كما تم ادماج بعضها فى بعض ليصبح فى النهاية عدد هذه الأدوات والمقاييس ثمانية على النحو التالى :

١ ـ صحيفة بيانات شخصية تتضمن مقياسا للمكانة الاجتماعية الاقتصادية فضلا عن الاختبارات والمقاييس المشار اليها فيما سبق تحت أرقام :

(٣) ، (٥) ، (٦) ، (٧) ، (٨) ، (٩) ، (١٠) .

ومن اللافت للنظر أن بعض هذه الاختبارات والمقاييس ينبنى على مادة من صميم التراث الشعبى المألوف لدى القرويين الهنود وعلى الأخص فى النطاق الجغرافى التى أجريت فيه الدراسة الراهنة • ومن ذلك مثلا « قصة شياما » Shyama Story التى أسس عليها مقياسا اسقاطيا للكشف عن مستوى الطموح ؛ اذ أن مضمون هذه القصة — وان لم يتضح ذلك صراحة فى ثنايا التقرير الخاص بالدراسة — يجعلنا نذهب الى أنه من الأرجح أن يكون « شياما » صاحب هذه القصة شخصية بارزة — بشكل أو بآخر — فى سياق اجتماعى تاريخى أدبى ، تحتل مكانة ما فى وجدان القرويين الهنود بوجه خاص ••

تدريب الباحثين الميدانيين واعدادهم

— **كيفية اتصال الباحث بالمبحوثين خلال الدراسة الاستطلاعية ، وتجربة الأدوات :**

* كشف بأسماء الأسر لدى كل باحث •
* اختيار فرد واحد من البالغين فى الأسرة •
* اجراء بعض الاختبارات عليه واعطائه فكرة عن طبيعة الاختبارات وكيفية تطبيقها ، ثم البدء فى تطبيق الاختبارات والمقاييس •

— **تدريب الباحثين الميدانيين واعدادهم :**

* الاقامة لمدة أسبوعين أو بالقرب منها •
* الاختلاط بالقرويين ومعايشتهم والتحدث اليهم فيما يتصل بمشكلاتهم الجارية •
* الهدف من ذلك القضاء على الخوف والشك فى نفوس القرويين حتى يتأكدوا من أن الباحثين ليسوا من رجال الحكومة أو المشتغلين بالضرائب •

* قام القسم فى جامعة الله أباد بدعوة عدد من القرويين وأجرى لهم احتفالا شارك فيه الباحثون ، وأدى ذلك الى خلق جو من الثقة والارتياح لدى القرويين •

* دلت التقارير على أن الباحثين قد اكتسبوا ثقة الناس هناك •

- **تعليمات التطبيق :**

- على الباحث أن يتجنب الآلية أو الميكانيكية فى تطبيق الاختبارات وأن يجعل المقابلة أشبه بالحديث الودى وليس بالاستجواب الرسمى •

- على الباحث ألا يبدأ المقابلة الا بعد التأكد من قيام علاقة ألفة وثقة بينه وبين المبحوث •

- يستغرق تطبيق المقاييس مدة من ٤ — ٥ ساعات • وذلك من شأنه أن يخلق مقاومة من جانب المبحوثين وحتى عدم التعاون من جانبهم ، ويظهر ذلك فى شكل ملل أو تعب أو حتى طلب المبحوث لانهاء المقابلة • فلو ظهر شىء من ذلك على الباحث أن يتوقف فورا ويستكمل المقابلة فى موعد لاحق •

- اذا استرسل المبحوث فى الاجابة فلا يصح أن يقاطعه الباحث لكى يتمكن من تدوين الاجابة • بل يترك ذلك حتى تنتهى المقابلة ثم يستكمله •

- خلال فترة الاقامة بالقرى كان المبحوثون يقومون بتدوين أسماء القادة الرسميين والقادة غير الرسميين فى هذه القرى • وكذلك الأسر التى تبدى تحمسا للأساليب الزراعية الجديدة ، والتى تبدى اتجاهات ايجابية حيال برنامج التنمية •

- كان يطلب من كل باحث أن يكتب تقريرا يوضح فيه خصائص القطاع ، وخصائص القرية بشكل عام من كافة الجوانب •
- كانت هذه التقارير تجمع ويجرى لهـا تحليل مقارن لمعرفة ما اذا كان هناك درجة من الاتفاق بين الباحثين حول طبيعة هذه الخصائص ، فضلا عن الكشف من خلال هذه التقارير عن دقة الملاحظة بالنسبة لكل باحث على حدة •

النتائج

يتضح من نتائج الدراسة ما يلى :

١ ـ أن القرويين بالقرى موضع الدراسة قد أظهروا اهتماما بالحاجات والمطالب المادية العاجلة ، ثم بالأمور التى تتصل بعائلاتهم ، ثم يأتى بعد ذلك فى مرتبة أقل مصالح القرية والمجتمع الأكبر ، وذلك عندما ذكروا مقومات الحياة السعيدة كما يرونها • ومن جهة أخرى فقد احتلت الحاجات والمطالب المادية مرتبة أعلى ، أما الجوانب المجردة أو غير المادية فقد احتلت مرتبة أقل • وعلى العموم فانه لا توجد فروق جوهرية بين المجموعتين من القرى فى هذا الصدد ، غير أن استجابات المبحوثين بالقرى المرتفعة كانت أكثر وضوحا وصدقا من استجابات المبحوثين بالقرى المنخفضة • وقد جاء تحديد الأولويات وترتيبها على نحو ما هو موضح بالجدول التالى الذى يبين الحاجات والمطالب أو المقومات المختلفة للحياة السعيدة ، والنسبة المئوية للاستجابات مرتبة ترتيبا تنازليا بالنسبة للمبحوثين فى المجموعتين من القرى :

ترتيب تنازلى لأولويات مقومات الحياة الحديثة
فى القرى المرتفعة والقرى المنخفضة

مجموعة القرى المرتفعة			مجموعة القرى المنخفضة		
المقومات	النسبة المئوية لأهميتها	ترتيب الأولوية	المقومات	النسبة المئوية لأهميتها	الأولوية ترتيب
الفـذاء	٧٧,٦٦	١	الفـذاء	٧٥,١٧	١
الماشـية	٦٧,٩٩	٢	الماشـية	٦٣,١٠	٢
المسكن	٦٢,٦٦	٣	النقود	٦٣,١٠	٣
النقود	٥٤,٩٩	٤	الأرض	٥٩,٩٠	٤
الأرض	٥٤,٦٦	٥	النقل والمواصلات	٥٠,٠٠	٥
الملابس	٤٩,٦٦	٦	المسكن	٤٨,٩٦	٦
الرى	٤٩,٠٠	٧	الملابس	٤٨,٢٨	٧
مصلحة العائلة	٣٨,٦٦	٨	مصلحة العائلة	٣٨,٦٢	٨
أدوات العمل	٣٥,٣٣	٩	الرى	٣٥,٥٢	٩
النقل والمواصلات	٣٣,٦٦	١٠	التعليم	٢٩,٣١	١٠
التعليم	٣١,٣٣	١١	أدوات العمل	٢٨,٢٨	١١
محصول زراعى جيد	٣٠,٠٠	١٢	طموح غير واقعى	٢٢,٠٧	١٢
التحرر من الهموم	٢٨,٠٠	١٣	محصول زراعى جيد	٢١,٣٨	١٣
الأمان	٢٤,٠٠	١٤	الخدمات	٢٠,٦٩	١٤
الخدمات	٢٢,٦٦	١٥	التحرر من الهموم	١٩,٣١	١٥

مجموعة القرى المرتفعة			مجموعة القرى المنخفضة		
المقومات	النسبة المئوية لأهميتها	ترتيب الأولوية	المقومات	النسبة المئوية لأهميتها	ترتيب الأولوية
الكفاءة (بوجه عام)	٢١,٠٠	١٦	القيم والمثل العليا	١٦,٥٥	١٦
المكانة والهيبة	٢٠,٠٠	١٧	الكفاءة (بوجه عام)	١٥,٨٦	١٧
طموح غير واقعى	١٧,٠٠	١٨	حاجات غير محددة	١٥,٨٦	١٨
الترويح والاسترخاء	١٥,٧٦	١٩	الترويح والاسترخاء	١٥,٥٢	١٩
رفاهية الأولاد	١٢,٦٦	٢٠	رفاهية الأولاد	١٤,١٨	٢٠
حاجات غير محددة	١٢,٣٣	٢١	الأمان	١٤,١٤	٢١
القيم والمثل العليا	١٠,٠٠	٢٢	الاعتماد على القوى الغيبية	١٣,٧٩	٢٢
الصحة	٩,٦٧	٢٣	المكانة والهيبة	١٢,٤١	٢٣
الاعتماد على القوى الغيبية	٨,٣٣	٢٤	الصحة	١٢,٠٧	٢٤
علاقات اجتماعية طيبة	٧,٦٧	٢٥	علاقات عائلية طيبة	٩,٦٦	٢٥
سلام وتقدم ووحدة القرية	٥,٦٧	٢٦	علاقات اجتماعية طيبة	٩,٣١	٢٦
علاقات عائلية طيبة	٤,٠٠	٢٧	سلام وتقدم ووحدة القرية	٦,٢١	٢٧
سلام وتقدم ووحدة الأمة	٣,٣٣	٢٨	الاعتماد على الحكومة	٤,١٢	٢٨
الأسمدة ووقاية المزروعات	٢,٠٠	٢٩	الأسمدة ووقاية المزروعات	٤,١٢	٢٩
الحاجة الى الانجاز	٢,٠٠	٣٠	سلام وتقدم ووحدة الأمة	٣,٧٩	٣٠
الاعتماد على الحكومة	٢,٠٠	٣١	الخدمات الاجتماعية	٣,١٠	٣١
الخدمات الاجتماعية	٠,٣٣	٣٢	الحاجة الى الانجاز	٠,٣٥	٣٢

٢ ـ جاءت استجابات المبحوثين فيما يتصل بآمالهم ومخاوفهم ، أى الآمال والأهداف التى يتمنون بلوغها ، والمخاوف التى تنتابهم وتحد من امكانية نجاحهم فى بلوغ هـذه الأهداف ـ كما يكشـف عن ذلك مقياس المخاطرة والكفاح ـ جاءت الاستجابات معبرة عما يلى :

(ا) أن القرويين المبحوثين يبدون آمالا شخصية وذاتية بشـكل أساسى ويلى ذلك فى الأهمية آمالهم التى تتصل بالغير سواء كان ذلك على مستوى القرية أو المجتمع .

(ب) أن القرويين المبحوثين لا ينظرون الى الماضى باعتباره مصدرا لمخـاوفهم وهمومهم . ولكن ذلك يبدو الى حد قليـل فى الوقت الحـاضر . أما نظرتهم الى المستقبل فانهـا تتسـم بالتفاؤل . وأنهم يظهرون تخوفا من الموت (وبصفة خاصة موت الأبنـاء الكبار) ، كما يبدون تخوفا من الكوارث الطبيعية .

٣ ـ تبين من نتائج الدراسـة أن المبحوثين قد أظهـروا درجة محدودة جدا من الأخذ بروح المخاطرة ، وأنهم يميلون الى ربط أدائهم لتحقيق أهدافهم الحاضرة بالأساليب النمطية المعتادة فى الأداء . كما أن خوفهم من الفشـل هو من العـوامل المؤدية الى افتقـارهم الى روح المخاطرة ، فضلا عن جعل تحقيقهم لأهدافهم يبدو مغلفا تغليفا شـديدا بأدائهم وممارساتهم السابقة .

٤ ـ فيما يتصـل باتجاهات وآراء المبحـوثين حول عـدد من الموضوعات ، تبين ما يلى :

(ا) أن الاحتياجات الضرورية للأسرة تتمثل ـ علىالترتيب ـ فى :

ـ الضرورات الشخصية كالمأكل والملبس والمسكن والنقود .

ـ مسائل تتصل بالزراعة وتحسينها بوجه عام ، كما تتصل بالرى والماشية .

ـ الأسرة والأطفال .

ـ التعليم .

ـ الترف أو الرفاهية .

(ب) أن الاحتياجات الضرورية بالنسبة للقرية تتمثل فيما يلى :

	ترتيب الأولوية	
	القرى المرتفعة	القرى المنخفضة
ـ النقل والمواصلات	١	٣
ـ الاضاءة	٢	٦
ـ الرى	٣	١
ـ المستلزمات الزراعية	٤	٢
ـ التعليم	٥	٤
ـ المسكن	٦	٨
ـ الطعام والملبس	٧	٥
ـ الماشية	٩	٩
ـ الأمن	١٠	١١

	المرتفعة	المنخفضة
ـ تحسين الأساليب الفنية	١١	١٢
ـ النقود	١٢	٧
ـ أخرى	٨	١٠

(جـ) أن المبحوثين يرون أن أحوالهم المعيشية الراهنة قد تحكمت في صياغتها العوامل التالية :

	٪المجموعة المرتفعة	٪المجموعة المنخفضة
ـ ارادة الله	٤٦	٤٣
ـ القضاء والقدر	٢٤	٣٢
ـ عدم تلقي المساعدة من جانب الحكومة	١٠	١٣
ـ الرضا بالحال	١٠	٦
ـ عدم بذل الجهد في سبيل تحسين الأحوال	٨	٣
ـ غير مبين		

(د) أن المبحوثين يرون أن تقدم المرء وبلوغه مكانة مرموقة يمكن أن يتحقق في الوقت الحاضر بالوسائل التالية :

	٪ للمرتفعة	٪ للمنخفضة
ـ العمل وبذل الجهد	٦٢	٤٩
ـ مساعدة الأصدقاء	٧	٦

	٪ للمرتفعة	٪ للمنخفضة
ـ التقرب للمسئولين	٣	٥
ـ الثروة	٢٨	٥
ـ الحظ أو القضاء والقدر	٤٤	٣٧
ـ التعليم	٦٢	٢٢

وعلى كل حال فان المبحوثين يعتقدون اعتقادا كبيرا فى أن أحوالهم الاقتصادية سوف تزداد تحسنا فى المستقبل • كما أن توقع امكانية تحقق المطالب والخدمات اللازمة للقرية يبدو واضحا لديهم وبشكل خاص لدى أفراد القرى المرتفعة •

نقد الدراسة

الايجابيات :

١ ـ الدراسة ذات قيمة كبيرة من حيث انها ـ كدراسة سيكولوجية ـ تلفت الأنظار الى الاهتمام بموضوع بالغ الأهمية ، وقضية غاية فى الخطورة من قضايا الدول النامية ، وهى قضية التنمية الريفية والنهوض بالغالبية العظمى من سكان تلك الدول وهم سكان المجتمعات المحلية الريفية •

٢ ـ تتميز الدراسة باستخدام عدد غير قليل من التكنيكات والمقاييس وأدوات جمع المادة الميدانية •

٣ ـ تتناول الدراسة جانبا غاية فى الأهمية من جوانب عملية التنمية وهو الجانب الانسانى بما يتضمنه من عناصر لامادية كالدافعية للانجاز ، ومستوى الطموح ، والقيم والاتجاهات •• الخ • وهى عناصر لا تقل فى أهميتها عن العناصر التى يتضمنها الجانب المادى كالتكنولوجيا وغيرها •

السلبيات :

١ ــ ان الجانب التحليلى فى الدراسة جانب ضيق • ولعل أسباب ذلك تتضح اذا عدنا بذاكرتنا الى الوراء لنتأمل ما ذكره الأستاذ « سنها » فى مقدمة الدراسة من أنها « لا تهدف الى الاطلاق الى اجراء أى نوع من التقويم لأعمال البرنامج (برنامج تنمية المجتمع المحلى) ، أو اصدار أى أحكام تتصل بذلك • ولكن لما كان الهدف منها هو هدف تحليلى بحت ، فانها تسعى فى المحل الأول الى تجربة وتطوير تكنيكات معينة للتعرف على الطموح والدافعية فى مجتمعات محلية ريفية ، ثم تحليل ذلك فضلا عن دراسة اتجاهات القرويين وقيمهم ، ونظرتهم للحياة ، والوقوف على التغيرات التى تطرأ على كل ذلك والتى قد يكون مرجعها الى تأثير برنامج تنمية المجتمع المحلى »(*) • فالتزام الدراسة منذ البداية بأنها لا تهدف الى اجراء تقويم لبرنامج التنمية ، واعتراف الباحث صراحة بأنه يسعى الى تجربة وتطوير بعض التكنيكات ، جعل عملية التحليل تجرى فى حلقة ضيقة جدا لا تتجاوز وصف الاستجابات التى جاءت من المبحوثين من خلال استخدام هذه التكنيكات • كما جعل التحليل يفتقد سمة العمق والدلالة التى كان بالامكان توافرها لو بذلت محاولة لايجاد الارتباطات والعلاقات بين المتغيرات وبين بعضها البعض ، فى ضوء خصائص العينة المختارة • ومن ثم فاننا نرى أن النتائج الواردة بالدراسة تستأهل مزيدا من التحليل من وجهة نظر باحث سوسيولوجى مدقق •

٢ ــ عند اختيار القرى مجال الدراسة لم يؤخذ فى الاعتبار البعد الزمنى لاتمام برامج التنمية ، وأنه كلما كان البرنامج أسبق فى التنفيذ كانت الآثار الناجمة عنه أكثر وضوحا • فقد تم اختيار مجموعة

(*) انظر الكتاب المشار اليه ، ص ٩ •

القرى المرتفعة فى استجابتها لبرنامج التنمية من قطاعين أجرى فيهما برنامج التنمية عامى ٥٣ ، ١٩٥٦ . أما القرى المنخفضة الاستجابة فقد تم اختيارها من قطاعين أجرى فيهما البرنامج عامى ٦٠ ، ١٩٦١ . وعلى ذلك فاننا لا نكون مبالغين اذا ذهبنا الى أن الفروق الايجابية لصالح المجموعة المرتفعة كما جاءت بها النتائج يمكن ارجاعها الى طول الفترة الزمنية التى انقضت على اتمام البرنامج .

٣ ـ جاءت الدراسة خالية تماما من الاشارة الى مضمون برنامج تنمية المجتمع المحلى الذى جرى تطبيقه فى القطاعات مجال الدراسة . ويمكن ارجاع الفروق فى النتائج بين كل من المجموعتين من القرى مجال الدراسة الى الاختلاف فى مضمون برامج التنمية التى تم تنفيذها ، أو الاختلاف فى أسلوب التنفيذ من جانب القائمين على هذه البرامج .

الباب الثالث

دراسة المجتمعات الحضرية

الفصل الأول : النمو الحضرى .

الفصل الثانى : المدينة : دورها وشكلها وبناؤها .

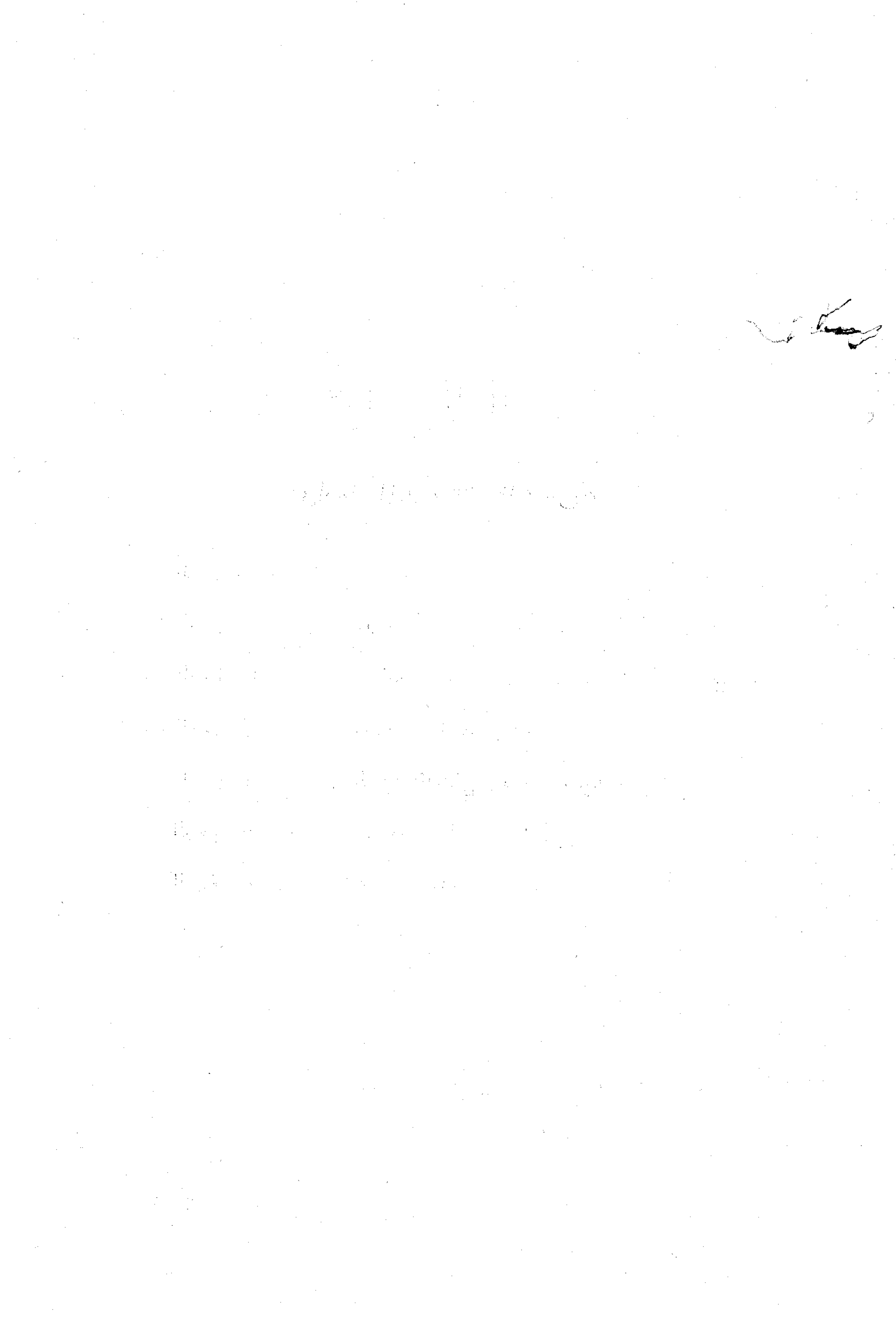
الفصل الثالث : مشكلات النمو الحضرى فى الدول العربية .

الفصل الرابع : خصائص المجتمع الحضرى .

الفصل الخامس : البحث العلمى ونشأة المدينة .

الفصل السادس : مشكلات التحضر السريع .

الفصل السابع : تخطيط المدن .



الفصل الأول

النمو الحضرى(*)

تاريخ النمو الحضرى :

ارتبط تاريخيا نشوء التجمعات الحضرية التى يطلق عليها اصطلاح « المدينة » بعدة عوامل رئيسية تشمل :

(ا) الاستقرار السكانى فى بعض المواقع التى تقع عادة عند مفترق الطرق والمواصلات .

(ب) تحرر نسبة من السكان من العمل فى الزراعة .

(جـ) توفر مستوى معين تكنولوجى يعتمد على استعمال المعادن والآلة بدلا من الأدوات البدائية .

(د) نوعا جديدا من التنظيم والضبط الاجتماعى لم يعرفه من قبل المجتمع الزراعى .

وقد ظهر لأول مرة هذا النوع من التجمعات حوالى عام ٣٥٠٠ قبل الميلاد فى وادى الفرات وانتشر شرقا الى وادى الأندوس فى الهند

(*) اعتمدنا فى هذا الفصل على المصدرين التاليين :

١ ـ دكتورة هيفاء الشنوانى ، « ظاهرة النمو الحضرى » ، فصل فى كتاب : النمو الحضرى فى الوطن العربى ، وهو اعمال المؤتمر الرابع عشر للشئون الاجتماعية الذى عقد فى طرابلس / ليبيا ، من ٣ ـ ٨ يوليو ١٩٧١ ، الأمانة العامة للجامعة العربية ، ادارة الشئون الاجتماعية والشباب ، القاهرة ص ١ ـ ٤٦ .

٢ ـ دكتور جمال حمدان ، المدينة العربية ، معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

وجنوب الصين ، وغربا عبر سهول وادى دجلة والفرات ووادى النيل • واعتمد نشوء هذه التجمعات على انتشار بعض الأساليب الفنية التى تساعد على زيادة الانتاج الزراعى فى مجال الرعى ، واستخدام المحراث والعربة ذات العجلات وعلى استعمال المعادن • ولكن هذه التجمعات الحضرية أو مدن العالم القديم تختلف كل الاختلاف عن المدن التى نشأت فيما بعد ، ذلك لأن مقدرتها على استيعاب أعداد من السكان كانت محدودة لأن فائض الانتاج الزراعى كان بالتالى محدودا • وتقدر نسبة من لم يعملوا فى الزراعة فى تلك التجمعات الحضرية بما لا يزيد على ٣ أو ٤٪ من مجموع سكانها أو ٥ ـ ٨٪ على أقصى تقدير •

وقد نشأت مدن سواحل البحر الأبيض المتوسط فى العام الألف قبل ميلاد المسيح وكانت بداية المدن التجارية ، ومثال ذلك ميلتوس وأثينا والاسكندرية وقرطاجة وسيراكيوز ، وكان فى طاقة تلك المدن استيعاب أعداد أكبر من السكان تتراوح بين ٢٠ و٣٠ ألف نسمة ، بل بلغت فى حالة أو حالتين استثنائيتين ١٠٠ر٠٠٠ نسمة ويعود ذلك أساسا لأن المدن التجارية نجحت فى أن تحرر نسبة كبيرة من السكان من الاعتماد الرئيسى على الزراعة نتيجة لزيادة فائض الطعام • وبلغ التقدم الحضرى ذروته فى العالم القديم فى الامبراطورية الرومانية وخاصة خلال القرون الثلاث الأولى بعد الميلاد ، وباتساع الامبراطورية فتحت مجالات عديدة للتجارة وكبر بالتالى حجم السلطة الادارية ، مما أدى الى قيام مدن جديدة فى حوض البحر الأبيض المتوسط وفى مجارى المياه الداخلية والمواقع الساحلية الأمامية • وبلغ تعداد سكان العاصمة روما فى ذلك الحين ٣٥٠ر٠٠٠ نسمة • وللأسف لم يعط التاريخ اهتماما موحدا لدراسة كل المدن فى الفترات المبكرة أو حتى فى العهد الرومانى ، ومن ثم قد تأخذ انطباعا عاما بأن المدن كانت كبيرة الحجم فى ذلك الحين • ومن المحتمل أن سكان الحضر فى ايطاليا حينئذ كانوا يمثلون

١٥٪ من مجموع السكان ، وان كان لا يجب أن ننسى أن ايطاليا حينئذ كانت تعتمد الى حد كبير على استيراد معظم احتياجاتها من الطعام من شمال أفريقيا ، وأن نسبة من لم يعملوا فى الزراعة كانت أقل بكثير فى بقية مدن الامبراطورية الايطالية •

وبانهيار الامبراطورية الرومانية فى القرن الخامس توقف التجارة والتبادل التجارى بين المنـاطق المختلفة وانكمش بالتـالى حجم بعض المدن بسبب هجرة سكانها أو تدميرها نتيجة لهجوم بربرى • واختفت الحياة الحضرية من كل أوربا لفترة زمنية امتدت مئات السنين •

وساعد انتعاش التجارة فى أوربا فى أوائل القرن العاشر على قيـام المدن من جديد واستعادت المدن السابقة التى كانت ذات نشاط مميز قبل انهيار الامبروطورية الرومانية حيويتها بانتعاش التجارة والمواصلات، الى جانب ذلك نشأت مدن جديدة حيث توجد الكاتدرائيات • وجاءت تلك اليقظة تدريجيـة ولكن فى تزايد مستمر • واعتمد التقدم الحضرى لفترة طويلة (امتدت حتى القرن السابع عشر) على اقتصاد يقوم على الصناعات الصغيرة اليدوية التى كان يتم تبادلها مع بضائع استهلاكية عادية وبعض الكماليات • ولم تتأثر غالبية السكان بالأحداث الجارية ذلك لأن استمرار أسلوب الحياة الزراعى التقليدى وصعوبة المواصلات وقفا عائقا أمام نمو المدن • ولم يزدحم المدن فى تلك الحقبة التاريخية عن ٢٥,٠٠٠ نسمة وكان سكان الريف يكونون ٩٠٪ من السكان •

ويتوقف النمو الحضرى الى مستوى أكثر تقدما على عدة تغيرات هامة تشمل :

١ ــ التحسن الملموس فى انتاج الغذاء حتى تتحرر أعداد كبيرة من السكان من العمل الزراعى •

٢ - تنويع وتوسيع الاتجار (فى الخدمات والسلع) حيث ان التجارة توفر سبل المعيشة لسكان الحضر ، الى جانب أنها تخلق حلقة من الاتصالات وتذيب التباين الثقافى • ولكن التجارة تكون عادة محدودة قبل نشوء الصناعة • وهذا لا يعنى أن أوجه نشاط كل مجتمع حضرى يجب أن تشمل التصنيع ، ولكن يجب أن يتمكن على الأقل من أن يوفر المنتجات الصناعة لسكانه عن طريق التجارة • وعموما يعتمد الانتاج والتبادل التجارى على تكوين رأس المال وتحسين سبل المواصلات حتى يمكن نقل الغذاء والبضائع المصنعة من المنتج الى المستهلك ، كما يحتاج الى تنظيم اجتماعى معين يشمل مركزية السلطة السياسية ، تأمين الطرق ، وتوحيد العملات المالية والموازين والمقاييس ••• الخ • وكانت تلك العوامل فى سبيلها الى التكوين وأصبحت ذات أثر واضح خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر فى أوربا ، وهى فترة تغير اجتماعى واقتصادى كبير يعتمد على نوع جديد من التكنولوجيا أحدث تغيرات أخرى واسعة النطاق ميكانيكية واقتصادية وسياسية شاملة ساهمت فى تقصير المسافات وتجميع السكان الذين كانوا يعيشون فى تجمعات سكانية متناثرة فى تجمعات كبيرة •

واذا انتقلنا الى القرن التاسع عشر لوجدنا أن أقل من ٢٪ من سكان العالم كانوا يعيشون فى مدن يبلغ عدد سكانها ١٠٠,٠٠٠ نسمة أو أكثر (٢٢ مدينة) و ٢,٥٪ من سكان العالم يعيشون فى مدن تستوعب ٢٠,٠٠٠ نسمة أو أكثر • ولم تكن درجة التحضر فى أوربا تختلف كثيرا عن بقية العالم فى ذلك الحين • وفيما يلى النسبة المئوية لسكان المدن التى بلغ عدد سكانها ١٠,٠٠٠ نسمة أو أكثر من مجموع سكان كل بلد :

النمسا	أقل من ٥ ٪
السويد	٦ ٪

فرنسا	١٠٪
انجلترا	حوالى ٢١٪

بينما كان ٤٪ فقط من سكان الولايات المتحدة الأمريكية يعيشون فى مدن يزيد سكانها عن ٢٥٠٠ نسمة .

وفى نهاية القرن التاسع عشر كان الريف يضج بالتضخم السكانى بسبب استمرار انخفاض الوفيات (بدأ انخفاض الوفيات عام ١٧٥٠) نتيجة لزيادة الغذاء واستقرار الكميات المنتجة . وزادت مشكلة التضخم السكانى فى الريف استفحالا لاستغناء الأرض عن كثير من الأيدى العاملة نتيجة لتطبيق الأساليب الزراعية الحديثة فى مساحات كبيرة . ونتج عن ذلك الموقف فائض كبير فى العمالة بدأ يتدفق بالآلاف على المدن .

وتضاعف سكان مدن أوربا مثنى وثلاث خلال المائة سنة التالية حتى بلغت نسبة السكان الذين يعيشون فى مدن يبلغ تعدادها ١٠٠,٠٠٠ نسمة أو أكثر خلال العشرين سنة الأخيرة من القرن التاسع عشر ما يزيد على ٦١٪ من سكان انجلترا ، ٢٦٪ من سكان فرنسا ، ١٥٪ فى كل من ألمانيا والنمسا والسويد . وتكررت نفس الظاهرة فى شمال غرب أوربا وخاصة فى المدن الواطئة . وارتفع عدد المدن الأوربية التى يبلغ عدد سكانها ١٠٠,٠٠٠ نسمة أو أكثر من ٢٢ فى عام ١٨٠٠ الى ١٢٠ عام ١٨٩٥ وارتفعت نسبتهم الى جملة السكان من ٣ الى ١٥٪ . ولا تمثل هذه الأرقام بالطبع الحجم الكلى لسكان الحضر اذ أن عددا كبيرا من التجمعات التى يقل سكانها عن ١٠,٠٠٠ نسمة كانت أيضا حضرية .

وكان لهذا التدفق البشرى على المدن ثمنه الاجتماعى مثله مثل أى تغير اجتماعى جذرى . ذلك أنه بالرغم من أن كفاءة المدن كمراكز للتنظيم الاقتصادى كانت فى تقدم/فان كفاءتها كمراكز للحياة الاجتماعية

كانت متخلفة حوالى نصف قرن من الزمان • فكان النازحون المتدفقون يعيشون فى مساكن غير مهيأة فى شوارع ضيقة تنقصها المرافق العامة • وحيث ان قواعد الصحة العامة وأساليب الوقاية كانت لا زالت متخلفة فقد زاد الازدحام السكانى الحالة الصحية سوءا • وعمت الفوضى المدينة لأن معظم الذين انتقلوا اليها كانوا شبابا انفصلوا عن الارتباطات الأسرية التقليدية فى القرية ، واضطروا أن يعيشوا فى بؤر لا تليق بآدمى ووجدوا صعوبة فى الحصول على عمل تمكنه ظروف العرض والطلب • وأدى هذا التجمع شبه الآدمى الى نشوء الجريمة والعنف • ولم تكن الخدمات أو وسائل الضبط والتنظيم متــوفرة ، ولم تكن هناك قواعد تنظم ظروف العمل وتوفر أى نوع من التأمين والضمان للعامل فى المنظمة الصناعية • وتضافرت المخاطر المهنية والظروف الصحية السيئة على استقرار معدل الوفيات مرتفعا ، فى حين كانت الوفيات منخفضة خارجها • ولولا هجرة أعداد كبيرة من السكان الى ما وراء البحار لتفاقم الموقف بشــكل أحد خطورة • ولم تنخفض معدلات الوفيات فى المدن الا بعد سنوات طويلة لعوامل جديدة • وان كانت الوفيــات لا زالت مرتفعة عن مثيلتهــا فى الريف حتى اليوم •

وكانت هناك عدة مؤثرات خففت من حدة تلك العوامل فى المدن الصناعية الأولى ، وأدت بالتالى الى عدة اصلاحات • ولكن فترة طويلة انقضت قبل أن يتعلم الانسان الغربى كيف يعيش فى المدينة • وقد تعلم درسا هاما خلال فترة تأقلمه ألا وهو أهمية موازنة خصوبته مع ظروف المعيشة فى المدينة • ومن ثم تبعت فترة النمو السكانى المتزايد ، وبعــد مئات السنوات من انخفاض الوفيات حقبة انخفاض مستمر فى معدلات مواليد الدول الأوربية •

ويعود السبب الرئيسى لانخفاض المواليــد الى أن الأسرة لم تعد

الوحدة الانتاجية وحلت محلها مؤسسات العمل ، ومن ثم لم يعد انجاب عدد كبير من الأولاد ذا أهمية اقتصادية بالنسبة للأسرة ، مما أدى الى انخفاض معدلات النمو السكانى فى أوربا .

وقد انتقل مركز ثقل النمو الحضرى الى الغرب والشمال منذ بدء التاريخ حتى نهاية القرن التاسع عشر ، وتغير نمط التجمع السكانى فلم يعد يتكون من مراكز متناثرة متباعدة ذات أجسام متوسطة تتحكم فى المناطق المحيطة بها سياسيا واقتصاديا (وان كانت علاقتها الاقتصادية والاجتماعية بتلك المناطق غير وثيقة) ، وأصبح يتكون من مجموعة من المدن المتداخلة والمتشابكة التى تقوم أساسا على تكنولوجية الآلة وعلى التخصص الواسع المدى والاقتصاد المخطط والأسواق الواسعة ، وأصبح اقتصادها يسعى الى التوسع وراء موارد جديدة وأسواق كبيرة وأحدث الاقتصاد الصناعى التجارى تغييرا جذريا فى تلك المجتمعات .

وانتشر النمو الحضرى من الركن الشمالى الغربى فى أوربا الى جميع الاتجاهات أينما وقعت المناطق المجاورة تحت التأثير الأوربى . وبلغ نمو المدينة الذروة فى انجلترا أو الدول الواطئة خلال الجزء الأول من القرن التاسع عشر ، فى حين بلغ ذروته فى وسط وجنوب أوربا وأمريكا الشمالية خلال الجزء الأخير من القرن التاسع عشر . ونجد أن معظم النمو الحضرى السريع فى قارات أفريقيا وآسيا اللاتينية قد حدث فى القرن العشرين .

وبالرغم من وجود تقاليد حضرية قديمة فى قارات أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية فان الاستعمار الأجنبى أدخل اليها حديثا أنماط التحضر الأوربى وساعد على نشوء المراكز التجارية فى مستعمراته فى العالم القديم ومدن المستودع (كما ترجمها الدكتور جمال حمدان) . ولكن تلك المدن التى أوجدها الاستعمار فى بومباى وكلكتا وسنغافورة ومانيلا

وجاكرتا وهونج كونج كان لها طابع خاص • ذلك أنها كانت معـزولة متجهـة الى الخـارج وليس لهـا تأثير مذكور على ما يحيطها • وكان الاستعمار يختار مواقع المدن الهامة (المتربوليتانية أو المائة ألفية) على أطراف السواحل وشواطىء الممرات المائية حتى يمكنها الانتفاع بمزايا وسائل المواصلات ذات التكلفة المنخفضة للحمولات الضخمة • وتتميز المدن التى خلفها الاستعمار بعدم اعتمادها على المناطق المجاورة ، بل على تبادل الاحتياجات بينها وبين المدن الأخرى • والدارس لتلك المدن يلاحظ أنها تتشابه بعضها مع بعض أكثر مما تماثل الاطار الثقافى للدولة ككل • ولم يبدأ تاريخيا اهتمام تلك المدن يتجه الى خلق ارتباطات مع المنـاطق الداخلية بدلا من الخـارج الا بعد أن بلغ المجتمع فى مجموعه مستوى متقدما من النضوج الحضرى •

واذا ألقينا نظرة على العالم القديم وأمريكا اللاتينيـة ـ وهما معا يضمان معظم الدول النامية ـ نجد أن المدن تنمو حاليا نموا سريعـا • ويتسبب تفاوت البيانات الاحصائية بين دول العالم النامى مع تفـاوت اصطلاح « التجمع الحضرى » بين تلك الدول فى صعوبة قيـاس النمو الحضرى • ولكن من السهولة بمكان التعرف على التجمعات التى يبلغ تعداد سـكانها ١٠٠,٠٠٠ نسمة فأكثر ، واسـتخدامها كمقياس للنمو الحضرى • وتدل الاحصائيات على أن المدن المائة ألفية نمت بمعدل ٥٪ سنويا خلال عشر سنوات (١٩٥٤ ـ ١٩٦٤) ويمثل هذا المعدل ضعف معدل النمو السكانى فى تلك المناطق • وقد بلغ متوسط معدل نمو المدن الكبيرة سـنويا ٧٪ ، ارتفع الى ١٢٪ فى كينيا ، وفى ليبولدفيـل فى الكونغو ، وكولومبيا والاكوادور والجزائر ، ويعد هذا النمو أربعة الى ستة أضعاف النمو السكانى فى تلك البلاد •

ما معنى سرعة معدل النمو الحضرى فى تلك القارات ؟ وهل يماثل

نمط تحضر الدول النامية ما حدث فى تاريخ أوربا ؟ وهل يتشابه فيه نتاج التحضر من تغيرات اقتصادية وثقافية ؟! قد يمكننا أن نجيب عن هذه الأسئلة من واقع ما حدث فى الماضى بدلا من أن نرجع ما قد يحدث فى المستقبل ، حيث ان الدول التى تمر حاليا بمرحلة من النمو الحضرى السريع غير متجانسة فى ظروفها •

وعموما يلاحظ أن معدل الزيادة السريعة فى سكان الحضر فى الدول النامية لا يرتبط دائما بمؤشرات التغير الاقتصادى مثل استعمال الصناعة الآلية ووفرة رأس المال أو زيادة فائض الانتاج الزراعى • بل ان التحضر قد سبق التنمية الاقتصادية فى عدد كبير من الدول النامية • ومثال ذلك نجد أن بعض الدول التى تعيش نسبة كبيرة من سكانها فى الحضر لا يتجاوز متوسط دخل الفرد فيها ١٢٥ دولارا فى السنة ولا تزيد حصة كل ألف نسمة فيها عن تليفونين فى حين تبلغ حصة كل ألف نسمة فى الدول ذات المستوى الاقتصادى المتوسط ٤٩ تليفونا ، وفى الدول المتقدمة ٢٥٣ تليفونا • واذا أخذنا قراءة الصحف كمؤشر لوجدنا أن ٢٣ نسخة توزع على كل ١٠٠٠ نسمة فى الدول النامية و١٤٠ نسخة فى الدول المتوسطة الدخل و٣٢٢ نسخة فى الدول المتقدمة •

ومن المحتمل أن بعض مكاسب التنمية الاقتصادية الحديثة فى الدول النامية قد ساعدت على الزيادة الكبيرة فى اعداد سكان الحضر الى جانب عوامل أخرى تشمل : استبدال الأجانب بالوطنيين فى الوظائف الحكومية والادارية والتوسع فى الوظائف الحكومية ، الى جانب الانخفاض السريع فى الوفيات نتيجة لتطبيق تكنولوجيا الغرب فى مجال الخدمات الصحية والطبية الذى أدى الى زيادة أعداد سكان الريف زيادة فجائية فلم تجد أمامها مخرجا الا التوجه الى المدينة • ونزح آلاف اللاجئين هاربين من فقر الريف الى المدينة قبل أن تستعد المدينة

لاستقبالهم • وعادة لا تنجح الا نسبة ضئيلة فى الاستقرار فى المدينة فى حين تعيش غالبية المهاجرين اليها فى أطرافها يمزقهم اليأس والأمل والتنافس على العمل • وبالرغم من أن هذه الأعداد الهائلة المتدفقة تخلق مشاكل متعلقة بالأمن ... الخ • فانهم يكونون مصدرا للعمالة الرخيصة التى قد تفى بحاجة الصناعة • لولا أنهم غير مدربين فنيا وفى نظرتهم الى الحياة مما يجعل مساهمتهم فى الاقتصاد الحديث أمرا صعبا •

وتشابه الى حد ما مظاهر النمو الحضرى فى الدول الحديثة ما حدث فى أوربا من حوالى مائة عام أو أكثر حين كانت أعداد المهاجرين كبيرة وهم ينزحون ويندسون فى المدن ويتزايدون بسرعة فائقة نتيجة لاتساع الفجوة بين المواليد والوفيات ، وكانت المدينة الأوربية تعانى اجتماعيا فى امتصاصها لهذه الأعداد • ولكن هناك فارق جوهرى بين التجربتين فلم يعد هناك فضاء واسع خال فى العالم يمكنه أن يخفف الكثافة السكانية فى الدول النامية ويستوعب فائضها البشرى ، بل ان الموقف الحالى يحتم على الدول النامية أن تحل مشاكل السكان داخل حدودها الجغرافية • ومن ثم فان احداث توزيع داخلى للسكان بين حضرها وريفها بدون أن تتحمل ثمنا باهظا يحتاج الى احداث تغيير جذرى فى أسلوب الزراعة وزيادة الانتاج الزراعى زيادة ملموسة وفتح آفاق العمالة فى الحضر •

والاختلاف الثانى بين تجربة الدول المتقدمة والنامية ينبثق من اختلاف معدل وطبيعة عملية التحضر • ذلك أن التغيرات سريعة الحدوث فى الدول النامية لم تستغرق عشرات السنوات فى حين استغرقت قرنين أو أكثر فى الدول الصناعية • وكان الانتقال الى الاقتصاد الصناعى فى الغرب تدريجيا وصاحبه تغيير جذرى فى عادات الناس وانشاء شبكة من المواصلات والمساكن وغيرها من الاحتياجات البشرية ، الى جانب تكوين

رأس المال والاستثمار الصناعى ، مما أدى الى تتابع جوانب التقدم تدريجيا بتقدم الآلة تكنولوجيا . على النقيض نجد أن الدول النامية تخطت كل هذه المراحل وقفزت قفزا فى مرحلة زمنية قصيرة عبر التطور التدريجى . وقد تتساءل عن الآثار التى قد تترتب على تجاوز بعض المراحل مثل مرحلة التصنيع المحلى ، واستعمال الطائرات قبل تحسين أساليب المواصلات الداخلية ، وتطبيق أنظمة غربية بدلا من تنمية أساليب محلية ، ولا شك أن نمط التغير الاجتماعى سيكون مختلفا كل الاختلاف فى الدول النامية .

ولقد طرأ تغير كبير على نمط الاستقرار فى تجمعات بشرية منذ أوائل القرن التاسع عشر فبينما كان ٢٪ فقط من سكان العالم يعيشون حينئذ فى أماكن تستوعب ٢٠,٠٠٠ نسمة وأكثر ارتفعت النسبة الى ٢٥٪ عام ١٩٦٠ . وأصبح سكان الحضر لا يقلون عن ١٣٪ من مجموع سكان أى قارة . فى حين نجد أن ١٦٪ من سكان العالم يعيشون عام ١٩٦٠ فى ١٤٤٠ مدينة متروبوليتانية يبلغ سكان كل منها ١٠٠,٠٠٠ نسمة لم تتجاوز هذه النسبة ٢٪ عام ١٨٠٠ . وتتراوح النسبة بين ١١٪ فى آسيا وأكثر من ٥٠٪ فى الأيقونيسية (أستراليا ، ونيوزلندة ، وجزر الهند الغربية) .

ولا شك أن النمو الحضرى فى الدول النامية سيستمر فى المستقبل خاصة وهى تشهد عن قرب التغيرات الحديثة فى العالم المعاصر المتقدم ولا يمكنها أن تعيش فى ظلال التخلف والتقاليد أو تعود الى ظروفها القديمة . ولا يسعنا أن نتنبأ الى أى مدى ستذهب فى تحضرها وان كان ذلك يتوقف بالطبع على الأنماط الاقتصادية فى الدول المختلفة . ومن المؤكد أن الزراعة لن تحتاج فى المستقبل الى أكثر من ٢٥ — ٣٠٪ من

سكان أى دولة ، بعكس الظروف السائدة بها حاليا حيث تستوعب الزراعة ٥٠ ــ ٧٥٪ من السكان .

وبينما انتشرت التجمعات الحضرية فى جميع أنحاء العالم بدأ طابعها يتغير فى أوربا وأمريكا الشمالية . ذلك أن اتجاه حركة السكان كان أساسا الى وسط المدينة وتغير النمط فى القرن العشرين وأصبحت التجمعات الحضرية متناثرة فى مساحات شاسعة متداخلة ، وساعد على ذلك تقدم المواصلات واستخدام السيارة والقوى الكهربائية ذات التكاليف المنخفضة والتليفون والراديو والتليفزيون . وكلها عوامل ساعدت على التقليل من عامل التزاحم على استعمالات الأراضى ، فلم يعد هناك داع لارتفاع كثافة المدن . ومن ثم حلت المتروبوليتانية الكبيرة محل المدينة فى الغرب . ولا يمكن أن نتوقع تكرار هذا النمط فى دول أخرى الا بعد أن يرتفع مستوى المعيشة بها وتنتشر أساليب المواصلات الحديثة لجماهير سكانها .

النمو الحضرى فى العالم المعاصر :

بالرغم من انتشار المدن فى جميع أنحاء العالم الرئيسية باستثناء المنطقتين القطبيتين الجنوبية والشمالية يلاحظ أن توزيعها غير متساو . اذ نجد نسبة التحضر مرتفعة فى بعض المناطق عن الأخرى . ولم يحدث ذلك مصادفة بل جاء نتيجة عوامل معينة سنتحدث عنها بالتفصيل فيما بعد .

ويمكن تقسيم النمو الحضرى فى العالم المعاصر الى ثلاثة (٤) مستويات يؤثر فى كل منها ثلاثة عوامل : ظروف البيئة والمستوى التكنولوجى والتنظيم الاجتماعى . وتوضح المقارنات خصائص النمو الحضرى فى أوربا وفى العالم ككل .

وتحتاج مناقشة النمو الحضرى فى العالم الى عقد مقارنات بين مستويات النمو الحضرى بين الدول والمناطق المختلفة ولكن يعيقنا عن عقد تلك المقارنات بدقة ضآلة البيانات الدولية وتنوع أساليب حجمها لأن بعضها يعتمد على التعدادات التى تختلف فى درجة دقتها ، وبعضها الآخر يعتمد على التقديرات الى جانب أن أحدث الاحصائيات فى عدد كبير من الدول متقادم ، وأكثر صعوبة تجابه الدارس هى تفاوت تعريف مفهوم « التحضر » من دولة الى أخرى •

ويستعمل المؤلفان جست وفافا كأساس لتوحيد تعريف التحضر نسبة سكان الدولة الذين يعيشون فى مدن تبلغ أحجامها ١٠٠,٠٠٠ نسمة أو مايزيد • ويقسمان على هذا الأساس العالم الى ثلاثة مستويات :

أولا ـ مناطق ذات نسبة عالية من التحضر ، وهى المناطق التى تزيد فيها نسبة من يعيشون فى المدن المائة ألفية عن ٢٠٪ من سكانها ، وتتفاوت الدول التى تشتملها هذه المناطق فى مستوياتها الثقافية والاقتصادية تفاوتا كبيرا • وتنقسم الى ثلاث مجموعات :

(أ) الدول المتحضرة الصناعية التى نشأت بها الصناعة فى القرن التاسع عشر •

(ب) الدول التى نهضت صناعيا حديثا فى أوائل القرن العشرين •

(جـ) الدول التى طفرت فجأة الى التحضر قبل أن تبدأ مرحلة التصنيع تترجمها بالتحضر المبكر •

(ا) وتشمل المجموعة الأولى الدول التى نشأت بها الصناعة وأصبحت دولا صناعية منذ فترة طويلة وبالتالى نشأت بها أنظمة اجتماعية جديدة فى مجال الأسرة والحكومة والديانة

والتعليم • وقد تمت التنمية الصناعية الحضرية فى هذه المجموعة من الدول خلال القرن التاسع عشر ، وبلغت معدلا مرتفعا فى نهاية القرن التاسع عشر • وتشمل هذه المجموعة انجلترا ودول شمال غرب أوربا والولايات المتحدة الأمريكية ، وأستراليا ، ونيوزيلندة ، وكندا ، وتوجد أعلى نسبة من سكان الحضر بهذه المجموعة من الدول • وعلى سبيل المثال يعيش ثلث أو أكثر من سكان انجلترا وويلز وألمانيا الغربية وهولندة فى مدن مائة ألفية أو أكبر •

(ب) وتشمل المجموعة الثانية الدول التى نهضت صناعيا حديثا منذ أوائل القرن العشرين ونلاحظ أن تقاليد المدينة الغربية بها أقل وضوحا • وتشمل حزام دول جنوب وشرق أوربا أى أسبانيا وايطاليا والمجر وبولندة والاتحاد السوفيتى •

كما تشمل هذه المجموعة اليابان وهى الدولة الوحيدة غير الغربية التى نمت صناعيا حديثا وحدثت بها تغييرات جذرية فى أنظمتها الاجتماعية • وقد ارتفعت نسبة السكان الذين يعيشون فى المدن المائة ألفية فى اليابان من ١٢٪ عام ١٩٢٠ الى ٤١٪ عام ١٩٥٩ ، وانخفضت نسبة القوى العاملة المنتجة التى تعمل فى الزراعة من ٤٤٪ الى ٢٩٪ فى نفس الفترة •

(ج) وتشمل المجموعة الثالثة التى بها تحضر مبكر عدد كبير من الدول النامية وتوجد أعلى نسبة للتحضير فى ثلاث دول فى أمريكا اللاتينية وتشمل فينزويلا والأرجنتين وأوروجواى حيث يعيش أكثر من ٣٠٪ من سكانها فى مدن مائة ألفية وأكبر ، ولكن تلك الدول لم يتم تصنيعها ، ويعود السبب الأساسى لارتفاع نسبة سكان الحضر بها الى ارتفاع المواليد

فى الحضر والريف وتدفق الهجرة اليها من خارج البلاد تحت حكم الأسبان • وفينزويلا هى الدولة الوحيدة التى بها حاليا نهضة اقتصادية ملموسة • وتضم هذه المجموعة أيضا المكسيك وكوستاريكا وكوبا وجاميكا وكولومبيا ومصر وسوريا ولبنان وكوريا حيث يعيش حوالى ٢٠ — ٣٠٪ من سكانها فى مدن مائة ألفية وهى نسبة تقل بعض الشىء عن فنزويلا والأرجنتين وأوروجواى • وان كانت نسبة سكان الحضر بها عموما أعلى مما يتطلب مستواها الاقتصادى والاجتماعى الحالى •

ويمكن قياس درجة التحضر المبكر فى دولة ما بمقارنة مستوى العمالة فى الصناعة الى نسبة سكان الحضر • ومثال ذلك كان ٢٠٪ من سكان مصر يعيشون فى مدن مائة ألفية عام ١٩٥٨ ، فى حين كان ٥٦٪ من القوى العاملة المنتجة لا زالت تعمل فى الزراعة • وبالمقارنة نجد ٢٨٪ من سكان الولايات المتحدة الأمريكية يعيشون فى مدن مائة ألفية وما يزيد و ٨٪ فقط من قواها العاملة المنتجة تعمل فى الزراعة • ومن جانب آخر نجد أن ٦٪ فقط من العمالة المنتجة بمصر تعمل فى مهن حضرية تضم التجار والكتبة والمهنيون فى حين يعمل ثلث الى خمس القوى العاملة المنتجة فى الدول الغربية فى تلك المهن • ويلاحظ عموما فى الدول التى حدث بها التحضر مبكرا أن تدفق المهاجرين الى المدن جاء نتيجة للفظ الأرض الزراعية لفائض العمالة قبل أن تتهيأ المدن لتوفير العمل لتلك الأعداد الكبيرة •

ثانيا — وتشمل المستوى الثانى من التحضر تلك الدول التى يعيش ٢٠ — ٣٠٪ من سكانها فى مدن مائة ألفية وأكبر والتى لا زال مستوى التصنيع بها منخفضا • ومعظمها دول نامية وعدد قليل من الدول

الغربية • وتشمل عددا كبيرا من دول وسط وجنوب أمريكا اللاتينية : جواتيمالا ، ونيكاراجوا ، والاكوادور ، وبيرو ، والبرازيل ، وبوليفيا ، وبرجواى وبعض دول الشرق الأدنى تشمل تركيا والعراق وايران ••• وعدد كبير من دول آسيا : تايلاند ، وماليزيا ، وفيتنام ، وأندونيسيا ، والفلبين ، وبعض دول شمال أفريقيا وتشمل الجزائر وتونس وليبيا ومراكش •• ويلاحظ أن دول هذا المستوى من التحضر فى آسيا وأفريقيا تقع فى أطراف القارات حيث تنقسم التجارة عند مفترق الطرق •• ولا يوجد هذا المستوى من التحضر فى دول أمريكا الشمالية ويوجد فى عدد قليل من دول أوربا فى الجنوب والشرق فى رومانيا وبلغاريا واليونان وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا الشرقية والبرتغال والنرويج وفنلندة •

ثالثا — ويشمل المستوى الثالث من التحضر الدول التى يعيش أقل من ١٠٪ من سكانها فى مدن مائة ألفية وأكبر ، ولازال هذا المستوى من التحضر يوجد فى عدة مناطق رئيسية بالعالم بالرغم من انتشار المدن فى جميع أنحاء العالم • وتشمل الدول التى بها أقل نسبة من التصنيع والتى لا تماثل الثقافة الغربية • وتمثل دول آسيا وأفريقيا التى تعانى من انخفاض المستوى الاقتصادى معظم دول هذه المجموعة • ويتضح ذلك من مقارنة متوسط دخل الفرد فى آسيا وأفريقيا بالدول الصناعية •

متوسط دخل الفرد بالدولار سنة ١٩٦٥

أفريقيا	١٢٣
آسيا	١٢٨
أوربا (باستثناء الاتحاد السوفيتى)	١٠٦٩
الاتحاد السوفيتى	٩٢٨
أمريكا الشمالية	٢٧٩٣

ولا توجد دول فى أمريكا الشمالية والجنوبية فى هذا المستوى

من التحضر باستثناء بعض الدول الصغيرة هى السلفادور وغانا • وتوجد دولتان فقط فى أوربا فى هذا المستوى وهما ألمانيا ويوجوسلافيا • أما فى أفريقيا فتشمل ليبريا وأثيوبيا وغانا ونيجيريا والكونغو ، وموريتانيا ، ومالى ، والنيجر ، وتشاد ، ومعظم دول آسيا باستثناء الأطراف الشرقية والغربية ، ولا تزيد نسبة سكان المدن المائة ألفيـة فى الهند والصين عن ٨٪ من مجمـوع سـكانها • ويعيش أقل من ١٠٪ من سـكان بورما وكامبوديا وسـيلان ، ولاوس ونيبال والباكسـتان والمملكة العـربية السعودية فى مدن مائة ألفية •

النمو الحضرى فى الدول النامية :

آسـيا :

سنحاول أن نلقى نظرة أكثر تفصـيلا على نمط النمو الحضرى فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية وسنبدأ بآسيا • وهى تضم دولا مختلفة الأحجام والأنواع مما يصعب معه اعطاء فكرة دقيقة عن التحضر فى آسيا ومن ثم عمـد الكاتب جيرالد بريز الى اعطاء فكرة عامة للقـارة مهيبا بالدارس مراعاة التباين التاريخى واختلاف المناطق والدول •

وتشمل الدراسات الخاصة بمدن آسـيا قبل الخمسينات دراسـة متعمقة لجان شيزنو بها عدة ملاحظات رئيسية :

١ ـ ان عـددا كبـيرا من المدن الآسـيوية كان جـزءا من الامبراطوريات القديمة الزراعية وتدريجيا بدأت حديثا تأخذ طابع المدن الغربية •

٢ ـ ان نمو المدن المتوسطة الموقع فى عدد كبير من دول آسـيا جاء نتيجـة للنزاع والصراع المدنى الداخلى كما هو الحـال فى الصين والهند والأراضى المقدسة مما أدى الى تدفق أعداد كبيرة من اللاجئين الى تلك المدن • وعلى سبيل المثال ارتفع عدد سكان شنغهاى من أربعة

ملايين الى ستة ملايين نسمة فى فترة زمنية قصيرة ، وزاد تعداد كراتشى من ٢٠٠,٠٠٠ نسـمة الى أكثر من مليون نسـمة وبعد أن كانت دلهى مدينة تجمع المسلمين والهندوس أصبحت مدينة كبيرة يعيش فيها السيخ الهندوس •

٣ ـ تتفاوت نسبة سكان الحضر فى مدن متنوعة الأحجام فى دول آسيا المختلفة تفـاوتا كبيرا (١٩٦٠) • فمثـلا لا تزيد نسبة السكان الذين يعيشون فى مدن يزيد حجمها على المليـون على ١٠٪ فى كتلة من الدول تضم الباكستان ، الصين ، الهند ، تايلاند ، أندونيسيا والفلبين • فى حين تتضـاعف النسـبة فى مجمـوعة من الدول تضم تركيا وكوريا الجنوبية وفيتنام الجنوبية • وتتضاعف ثانيا فى اليابان (التى لا تعد من مجموعة الدول النامية) وترتفع سـنغافورة حتى تشمل جميع السكان فى جزيرة هونج كونج •

نسبة السكان الذين يعيشون فى مدن حجمها مليون نسمة وأكثر عام ١٩٦٠ :

فى آسـيا :

باكستان	٢,٢ ٪
الصين	٤,٨ ٪
الهند	٥,١ ٪
تايلاند	٥,٢ ٪
أندونيسا	٦,١ ٪
الفلبين	٨,٢ ٪
تركيا	١١,٦ ٪
كوريا الجنوبية	١٢,٠ ٪

فيتنام الجنوبية	١٤,٣ ٪
اليـــابان	٢٤,٥ ٪
سنغافورة	٦١,٢ ٪
هونج كونج	١٠٠,٠ ٪

ويشمل عددا كبيرا من دول آســيا (باستثناء سنغافورة وهونج كونج وفيتنام الجنوبية) عدة مدن يزيد حجمها على المليون نسمة ، كما تشمل عددا كبيرا من المدن المائة ألفية وما يزيد .

وعلى حسب التقديرات الخاصة بالصين الشــعبية هاجر ٢٠ مليون نسمة من ريفها الى حضرها فى الفترة من ١٩٤٩ ــ ١٩٥٦ ويماثل هــذا العدد التعــداد الكلى لبلجيكا وهولنــدة ولوكسمبورج ، ويعد أكبر الطفرات التاريخية فى مجال الهجرة الداخلية . وترتب على ذلك زيادة حجم المدن الداخلية فى الصــين زيادة مذهلة . ويعود السبب الرئيسى للهجرة الداخلية الى عوامل الطرد من الأرض الزراعية بعد ادخال نظام الزراعة الجماعية وعامل جذب الصــناعة فى المدن . وكان حجم الهجرة الداخلية من الضخامة بدرجة دفعت المسئولين الى اتخاذ سياسة لاعادة بعض سكان المدن الى المناطق الريفية واتخــاذ اجراءات لايقاف الهجرة الى المدن . بالرغم من ذلك تواجه الصين الشــعبية حاليا نموا حضريا سريعــا .

واذا ألقينا نظــرة على الشرق الأوســط أو دول البحــر الأبيض المتوسط سنلاحظ فى الدول التى تقع شرقا ضمن قارة آســيا أن نسبة الســكان التى تعيش فى مدن مائة ألفية تمثــل ٧,٣٪ من السكان فى الأردن ، ٨,٢٪ فى المملكة العــربية الســعودية ، ١٦,٢٪ فى تركيــا ، ١٧,٩٪ فى العــراق ، ٢٧,٣٪ فى ســـوريا ، ٣٣,٢٪ فى لبنــان ،

٤٧,٧٪ فى اسرائيل • أما فى دول الشرق الأوسط التى توجد بقارة أفريقيا فتشتمل مصر (٢١,٧٪) والجزائر (١٢,٧٪) وليبيا (١٤,٥٪) •

أفريقيا :

توجد أقل نسبة للنمو الحضرى فى أفريقيا ، أى نسبة سكانها الذين يعيشون فى مدن مائة ألفية • وتقل عن ١٠٪ فى القارة كلها وفى كل دولة أفريقية على حدة باستثناء مصر وجمهورية جنوب أفريقيا •

ويلاحظ فى غرب أفريقيا أن الوحدات القومية تمثل حدودا تعسفية رسمها الاستعمار الأجنبى وفق مصالحه الخاصة مما أدى الى تفتت المناطق الثقافية والوظيفية • ومن ثم جاء النمو الحضرى لتلك الدول نتيجة لضغوط غير طبيعية • ويلاحظ أن النمو الحضرى فى غرب أفريقيا مركز على السواحل (مع استثناء واحد) •

ويجدر بنا القاء نظرة على النمو الحضرى القديم فى بورما أو نيجيريا حاليا • وقد كان سكان بورما يعيشون فى مدن ذات أحجام كبيرة حتى قبل الاحتلال الأجنبى • وكانت هناك تسع مدن يزيد تعداد سكانها على ٢٠,٠٠٠ نسمة عام ١٨٥٦ منها ثلاث مدن يزيد سكانها على ٦٠,٠٠٠ نسمة • وارتفع عدد مدنها الى احدى عشرة عام ١٩١١ (منها خمسة يزيد سكانها على ٦٠,٠٠٠ نسمة) • وفى عام ١٩٥٢ بلغ عدد المدن التى يزيد سكانها على ٦٠,٠٠٠ نسمة تسعة • وفى نفس الوقت كانت كثافة المدن مرتفعة •

وتحاول المدن المتروبوليتيانية أو المائة ألفية فى أفريقيا مواجهة تدفق الهجرة الداخلية منذ الحرب العالمية الثانية وما تلاها من صراع دولى • وعلى سبيل المثال بلغ عدد اللاجئين فى بوروندى عام ١٩٦٤ ،

٨٠,٠٠٠ نسـمة وفى الكونغو ٤٠,٠٠٠ نسـمة وفى أوغندة ٩٠٠,٠٠٠ نسمة .

أمريكا الجنوبية واللاتينية :

يرتفع معدل النمو الحضرى فى أمريكا الجنوبية ارتفاعا يفوق بكثير بقية الدول النامية الا فى بوليفيا حيث تقل نسبة سكان المدن المائة ألفية عن ١٥٪ من مجموع السكان فى حين تتراوح النسبة بين ٣٠ ــ ٣٥٪ فى بقية الدول وتقفز الى ٥٢,٢٪ فى الأرجنتين (احصائيات عام ١٩٦٠) .

وتقل نسبة سكان المدن المائة ألفية عن ١٠٪ فى دول جزر أمريكا اللاتينية (كوستاريكا والسلفادور وهايتى وهندوراس) فى حين ترتفع الى ٢٣ ــ ٣١٪ فى جاميكا وبنما وكوبا والمكسيك وبورتريكو .

ويعيش ٨٪ من سكان كولومبيا فى مدن يزيد حجمها على المليون ، و١٠,٧٪ فى المكسـيك ، و١٨,١٪ فى كوبا ، و١٢,٧٪ فى البرازيل ، و١١,٦٪ فى بيرو ، و٢٢,٣٪ فى شيلى ، و٢٠,٢٪ فى فنزويلا .

وعموما يعيش ٢٧,٤٪ من سـكان مجموع دول أمريكا الجنوبية فى مدن مائة ألفية و١٤,٧٪ فى مدن تزيد على المليون نسـمة . وترتفع نسبة النمو الحضرى على وجه خاص فى الأرجنتين وشـيلى وأورجواى وكوبا وفنزويلا . وقد جاوزت أمريكا اللاتينيـة خلال تجـربة نموها الحضرى مراحل النمو التـدريجى بين الاقتصـاد الزراعى والتصنيع الحديث .

ويلخص الجدول التالى النمو الحضرى للتجمعات السـكانية التى يزيد حجمها على ٢٠,٠٠٠ نسـمة فى الفترة ١٩٥٠ ــ ١٩٦٠ ، فى مناطق العالم المختلفة ، كما يلخص الجـدول الذى يليه التفاوت الحضرى بين الدول المختلفة .

نسبة سكان العالم فى المناطق المختلفة ونسبة السكان الذين يعيشون فى تجمعات حجمها ٢٠,٠٠٠ نسمة وما يزيد ١٩٥٠ – ١٩٦٠

نسبة السكان الذين يعيشون فى أماكن تزيد على ٢٠,٠٠٠ نسمة

نسبة سكان العالم المنطقة	١٩٥٠	١٩٦٠	المتوسط التقديرى لجميع البلاد		نسبة الزيادة فى سكان الحضر	المتوسط فى الدول التى تتوفر بها بيـانات		نسبة الزيادة فى سكان الحضر
			١٩٥٠	١٩٦٠				
العـالم	١٠٠	١٠٠	١١	٢٤–٢٥	١٢–١٧	٢٧	١٠	١٢
المناطق النامية	٧٠	٧٢	١٤	١٧–١٨	١٧–٢٨	١٨	٣٢	١٩
أفريقيا	٩	٩	١٠	١٣	٣٧	١٤	١٨	٢٧
شمال أفريقيا	—	—	٢١	٢٦	٢٣	٢٥	٣١	٢٣
صحارى أفريقيا	—	—	٦	٩	٥٠	٨	١١	٣٥
آسـيا	٥٥	٥٦	١٤	١٦–١٨	١١–٢٦	١٩	٢١	١٤
باستثناء الصين	٣٢	٣٤	١٧	١٩	١٥	١٩	٢١	١٤
الصين الشعبية	٢٢	١٢	١٠	١٠–١٥	صفر–٥٠	—	—	—
أمريكا اللاتينية	٦	٧	٢٥	٣٢	٢٨	٢٨	٣٦	٢٩
الارجنتين، شيلى، أورجواى	—	—	٤٧	٥٦	١٩	٤٨	٥٧	٧٠

بقايا أمريكا اللاتينية	—	—	٢١	٢٨	٣٣	٢١	٢٩	٤٠
المناطق المتقدمة	٣٠	٢٨	٣٧	٤١	١٠	٣٨	٤١	١٠
أمريكا الشمالية	٧	٧	٤٣	٤٦	٦	٤٣	٣٦	٦
أوربا (باستثناء الاتحاد السوفيتى)	١٦	١٤	٣٧	٤٠	٨	٣٧	٤٠	٨
الشمال الغربى	—	—	٥٢	٥٤	٣	٥٢	٥٤	٣
الوسط	—	—	٣٧	٤٠	٩	٣٧	٤٠	٩
الجنوب	—	—	٢٣	٢٧	١٦	٢٣	٢٧	١٦
الاتحاد السوفيتى	٧	١	٣١	٣٦	١٧	٣١	٣٦	١٧
الأيقونيسية	١	١	٤٦	٥٣	١٥	٥٦	٦٤	١٣
أستراليا ونيوزلندة	—	—	٥٨	٦٥	١٢	٥٨	٦٥	١٢
بقية الأيقونيسية	—	—	—	٣	—	—	١٥	

توزيع الدول على حسب مستوى التحضر (حوالى عام ١٩٦٠) أو أحدث تعداد

	منخفض اقل من ٢٠ ٪ من السكان ومدن حجمها ٢٠,٠٠٠ نسمة وما يزيد	متوسط منخفض ٢٠ــ٢٩,٩ ٪ من السكان فى مدينة حجمها ٢٠,٠٠٠ نسمة ما يزيد	متوسط مرتفع ٣٠ــ٢٩,٩ ٪ من السكان فى مدن حجمها ٢٠,٠٠٠ نسمة وما يزيد	مرتفع ٤٠ ٪ أو أكثر من السكان فى مدن حجمها ١٠,٠٠٠ نسمة وما يزيد
افريقيــا				
شمال أفريقيا	السودان	الجزائر	جمهورية مصر العربية	
		ليبيا		
		مراكش		
جنوب ، غرب وشرق أفريقيا		تونس		
		جمهورية سنفال	اتحاد جنوب أفريقيا	
	بستولند			
	بورندس			
	جمهورية الكاميرون			
	جمهورية وسط أفريقيا			

جنوب ، وغرب وشرق أفريقيا	جمهورية تشاد جمهورية الكنغو (ليوبولد فيل) جمهورية داهومى جمهورية جابون جامبيا غانا كينيا ليبريا جمهورية ملقاش (١) ملاوى موزامبيق جمهورية النيجر (١) جنوب غرب أفريقيا جنوب روديسيا تنزانيا (١) جمهورية توجو أوغنـــدة جمهورية الفولتا العليا زامبيا			

توزيع الدول على حسب مستوى التحضر (حوالى عام ١٩٦٠) أو أحدث تعداد

	منخفض أقل من ٢٠٪ من السكان ومدن حجمها ٢٠,٠٠٠ نسمة وما يزيد	متوسط منخفض ٢٠ – ٢٩,٩٪ من السكان فى مدن حجمها ٢٠,٠٠٠ نسمة وما يزيد	متوسط مرتفع ٣٠ – ٣٩,٩٪ من السكان فى مدن حجمها ٢٠,٠٠٠ نسمة وما يزيد	مرتفع ٤٠٪ أو أكثر من السكان فى مدن حجمها ٢٠,٠٠٠ نسمة وما يزيد
أمريكا الشمالية				كندا
				الولايات المتحدة الأمريكية
أمريكا اللاتينية	كوستاريكا	جاميكا	كوبا (١٩٥٣)	الأرجنتين
	جمهورية الدومنيك	نيكاراجوا	المكسيك	شيلى
	السلفادور	بورتريكو	بناما	فينزويلا
	جواتيمالا	البرازيل		أورجواي
	هندوراس	الاكوادور		
		كولومبيا (١٩٥١)		
		بيرو		
آسيا	سيلان (١٩٥٣)	قبرص	الأردن	إسرائيل

	الهند	إيران	جزر ديوكو	اليابان
	سراواك	ماليزيا (١)		
	الباكستان	تركيا		
	سابا			
أوربا		فنلندة	أيرلندة	بلجيكا
الشمال الغربي			لوكسمبرج	الدانمارك
			النرويج	فرنسا
			شمال ايرلنده	هولندا
				السويد
				انجلترا وويلز
				سكوتلنده
وسط أوربا		تشيكوسلوفاكيا	أستراليا	ألمانيا الشرقية
			المجر	ألمانيا الغربية
			سويسرا	
جنوب أوربا	ألبانيا	بلغاريا	اليونان	
	مالطة وجوزو	رومانيا	ايطاليا	
	البرتغال		اسبانيا	
	يوغوسلافيا			
الأيقونيسية	فيجى			أستراليا
				نيوزيلندة
الاتحاد السوفيتى			الاتحاد السوفيتى	

(١) تغيرت أسماء هذه الدول منذ عام ١٩٦٠ .

النمو الحضرى فى الدول العربية :

ان للمدينة دورا غير عادى فى الحضارة العربية • ويعد العالم العربى أو الشرق الأدنى مهـدا لأقدم الحضـارات فى مصر ودجلة والفـرات والحضارات اليهودية والفينيقية والاسلامية الى جانب حضارات الحيثيين واليونانيين والرومان والأتراك والأوربيين وكلهـا تركت بصماتها على مظاهر حياتها • لذلك أطلق المؤرخون بحق على هذه المنطقة مهد الحضارة لأنها غنية بالمدن •

وقد نشأت المدن وعمارتها على أرض عربية مثل الكرنك ــ طيبة ــ نينيفيـة ببيلوس ــ قرطاجـة ــ ايربل ــ بعلبك ــ أورشـليم (بيت المقدس) وكثير غيرها مما جاء فى تاريخ هذه المنطقة من العالم • وما زال علم الآثار الحديث يكشف عن العجائب الحضرية ، كان أحدثها ما وجد بجزيرة الفيلقة بالخليج العربى • كما توجد بالعالم العربى المدن التاريخية التى شـهدت أطول حقبة من الاسـتيطان البشرى وهى رمل بالعـراق ودمشق بسورية والهفوف بالمملكة العربية السعودية • وثمة مدن بالعالم العربى مثل مكة والمدينة يرجع تاريخها الى ما قبل الاسلام بأجيـال • وما زلنا نفتقر الى الدراسـات التاريخية فى المملكة العربية السـعودية واليمن لكى تحدد كل من المشاركة العربية الخالصة (فى الجاهلية قبـل الاسـلام) ومشاركة الشعوب السامية فى حياة الحضر • والمعـلومات التاريخية بشأن هذا جزئية ، ولكنها مع ذلك تقطع بأن شـبه الجزيرة العربية كانت مزدهرة فى وقت ما حتى تعرضـت لكوارث طبيعية • أما مجتمعات الخليج العربى والفارسى فقد كانت أيضا فى وقت ما لها تجارة مزدهرة مع الهند والصين • وقد صور المؤرخون والرحالة العرب أوصافا حية لمدن الخليج مثل البصرة والبحرية والحسا وعمان وصيراف وهرمز • وكان البحارة يقلعون بسفن متينة من هذه المدن يجوبون بهـا البحار ، وما زالت هذه السفن تبنى بالكويت • كما لا تزال بقايا هذه المدن التى

تضح بالحياة ترى فى صورها النمطية الأصلية التى ترجع الى القرنين التاسع والعاشر الميلادى والتي تشتمل على : القلعة والميناء وأسوار المدينة والسوق والمسجد .

وتوجد المدن العربية والقرى :

١ ــ حيثما تتوفر مياه الشرب والرى والمواصلات .

٢ ــ حيثما يوجد سوق أو تقاطع للطرق .

٣ ــ مكان مدن قديمة .

٤ ــ على شواطىء البحر الأبيض والبحر الأحمر ــ الخليج العربى .

٥ ــ مدن المصايف مثل بلودان فى سوريا وأريحا فى فلسطين .

ويلاحظ كثرة المدن والقرى عند الأنهار مثل الدجلة والفرات . وقد كان لوفرة المياه دور هام فى النمو الحضرى العربى وما قبله . وقد نمت مدن أخرى لأسباب دينية مثل القدس التى توجد بها معابد اسلامية ومسيحية ويهودية ، ومثل مكة والمدينة فى السعودية وبيت لحم فى فلسطين وكربلاء فى العراق .

وقد كانت المدينة العربية ضحية لظروف قاسية فى تاريخ نشوئها لوقوعها تحت الحكم العثمانى حوالى ٤٥٠ سنة مما أوقف تيار تطورها . وأتى على المدينة العربية حين من الدهر لم تكن شيئا مذكورا . ففي القرون الخمسة الماضية ، حين كانت أوربا قد خرجت من عصورها المظلمة وازدهرت حضارتها ، كان العالم العربى قد ودع عصره الذهبى وتدهور اقتصاده وبالتالى مدنه . ولم ينعكس الاتجاه الا فى القرن التاسع عشر

حين بدأ الاحتكاك الحضارى مع الغرب ، وبدأ كما لو أن العالم العربى الذى كان أساسا مهد المدينة الأولى التى منها انتشرت الى أوربا — قد أخذ يقترض حياة المدن ضمن بقية مركبات الحضارة الحديثة من تلك القارة — ولكن هذه الاستعارة لم تكن قط خلقا وانما بعثا • ومع ذلك فبالقياس العالمى الجديد لا شك أننا بدأنا الفترة الحديثة بتخلف حضرى محقق • ثم مع تجمع خيوط الزيادة السكانية بدأت حركة تحضر وئيدة ولكنها أكيدة • على أن النمو الحضرى لم يتمش مع طفرة السكان العامة زمنيا ولم يناظرها حجما • ففى مصر مثلا تخلفت موجة التحضر عن موجة النمو السكانى وظل معدل نمو المدن أقل من معدل نمو السكان العام حتى نهاية القرن الماضى ، ثم انعكست العلاقة بعد ذلك وبتزايد مطرد حتى أصبح معدل النمو الحضرى فى العقدين الأخيرين نحو أربعة أمثال المعدل السكانى • ومن الطبيعى أن تتخلف بداية التحضر عن بداية النمو السكانى ، لأن المدينة انما تستمد خامتها ومادة جسمها من الريف ، فكان طبيعيا أن ينمو الريف أولا وبعده تنمو المدن • ولكن ان صح هذا فى البداية ، فان عاملا آخر تدخل فى النهاية ليعوق انطلاقة المدينة بالنسبة لانفجار السكان • هذا هو الاستعمار الذى فرض التوجيه الزراعى لبدأ الصناعة • ولهذا لم تنطلق المدينة حقا الا منذ تقهقر الاستعمار وتقدم التصنيع مع الحرب الأخيرة • وعلى هذا يمكن أن نميز ثلاث مراحل فى تطور المدينة الحديثة فى مصر : مرحلة أولية تغطى القرن التاسع عشر كله وهى طويلة بطيئة شاقة تقل فيها سرعة الزحف المدنى عن النمو السكانى ، ثم مرحلة تكوينه من بداية القرن الحالى حتى الحرب العالمية الثانية وفيها تغلب معدل نمو المدن على معدل نمو السكان العام كثيرا وارتفعت نسبة التحضر الى ٢٥٪ من مجموع السكان ، أخيرا مرحلة انفجارية منذ الحرب الأخيرة وفيها أصبح معدل

المدن عدة أضعاف معدل نمو السكان العام حتى بلغت نسبة سكان الحضر ٤٠٪ من مجموع السكان (تعداد ١٩٦٦) .

وبطبيعة الحال لا تنطلق هذه الدورة التطويرية تماما على سائر أجزاء العالم العربى .فقد تخلفت بدية النمو الحضرى فى أجزاء كثيرة منه بدرجة أو أخرى ، فهى لم تتضح فى المغرب والشام والعراق الا منذ النصف الثانى من القرن الماضى ، فى حين تأخرت حتى الحرب العالمية الثانية فى بقية الأجزاء. فقد شل الاستعمار فى المغرب نمو السكان والمدن على السواء بحروب الابادة والطرد الى الصحراء والجبال ، ثم تركز الاحتلال الأجنبى فى المدن ودفع نمو المدن بانتزاع الملكيات الزراعية من المواطنين فتحولوا بالهجرة الى بروليتارية مدنية. وبوجه عام ، لاتختلف مراحل دورة التحضر فى المغرب عنها فى مصر تاريخيا الا بعقود قليلة . وبالمثل فى الشام حيث كان الموقع وكانت تجارة المرور دائما دعامات التحضر . بل ان عملية التحضر هنا بسبب ضآلة حجم السكان العام تقدمت بسرعة كبيرة حتى وصلت حديثا الى نسب تفوق مصر كما فى لبنان مثلا ، وقد كان تطور فلسطين يسير تقريبا فى خط سوريا الى أن دهمها الخطر الصهيونى الذى يتركز فى المدن تحت الانتداب ثم تحولت فلسطين المحتلة على أيدى اسرائيل الى مخلوق شاذ حضريا فى أقل من عقد . ولقد تأخر العراق عن الشام بضعة عقود ولكن لا شك أنه الآن ، ومنذ العقد الأخير فى مرحلته الانفجارية حضريا . أما فى الجزيرة العربية فقد كان البترول منذ الحرب الأخيرة هو المحرك الأول والأخير لنمو السكان والمدن على السواء . ومعنى هذا أن بداية التحضر قد تأخرت جدا ، ولكنها فى بعض الحالات عوضت بأن انتقلت من المرحلة الأولية الى المرحلة الانفجارية دفعة واحدة وبلا تدرج كما فى الكويت بالذات . على أن السعودية وبقية وحدات الجزيرة مضافا اليها السودان وليبيا لا تزال بدرجة أو بأخرى فى المرحلة الأولية ولم تدخل بعد المرحلة التكوينية .

النمط الجغرافى للمدينة العربية :

وعلى أساس هذه الفروق الزمنية فى دورة التحضر يمكننا أن نعرض لدرجة التحضر فى الستينات فى مختلف أجزاء العالم العربى • (وان كانت المشكلة المزمنة تقليديا هى صعوبة المقارنة بين نسب سكان الحضر عامة بين الوحدات المختلفة لاختلاف المفهوم الحقيقى للمدينة من وحدة الى أخرى ، بل داخل الوحدة الواحدة • ولكن المهم أن ندرك أن كل النسب المئوية للنمو الحضرى ليس مقياسا ولا دليلا حساسا على درجة التحضر الفعلى •

ويصنف الدكتور جمال حمدان العالم العربى الى ثلاثة أنماط رئيسية :

قاعدى ، وبدائى ، وشاذ • فالنمط القاعدى هو الذى يسود الجزء الأكبر من المنطقة ويمثل العمود الفقرى للنمو الحضرى العربى ، وفيه تتراوح النسبة بين الثلث والربع ، ويشمل مصر وسوريا والعراق وتونس والجزائر والمغرب • وهذا النمط يدل على قدر معقول من التحضر ينبعث عادة من قدر متوازن من الزراعة التصنيع والنشاط التجارى وهو يعنى بالقطع « انفجارا حضاريا » ولكن لا يعنى « ثورة حضارية » بالمعنى الصحيح وسيلاحظ أن هذه هى أكثف وأغنى أجزاء العالم العربى سكانا وانتاجا : هى دول « النواة » أو « الدول القديمة » وثمة حالة خاصة تمثل تطورا لهذا النمط دون أن تصل الى النمط الشاذ ، وهى لبنان ، فهنا تتعدى النسبة الثلث بكثير وتقترب من النصف ، كما أن نحو ١٤٪ من مجموع السكان يعيش فى الريف ولكنه يمارس فيه حرفة غير الزراعة ، عدا أن الكثير من سكان الجبل يهاجرون موسميا الى أسفل خاصة الى بيروت وأكثر من هذا كان نمط القرى اللبنانية

وتركيبها يجعلها كلها حضرية بدرجة أو أخرى بسبب الطبيعة الجبلية والوظيفة السياحية •

أما النمط البدائى فيمثل التخلف فى النمو الحضرى ، ويشمل السعودية (حتى عهد قريب) والسودان وليبيا ، وكلها دول جديدة نسبيا فى ميدان التنمية الاقتصادية والانتاج ، وتمتاز بالمساحة لا الكثافة • فاثنتان منها دول صحراوية والثالثة دولة صحراء وسفانا • مع ذلك ينبغى ألا نقبل هذه النسب الشديدة الانخفاض بلا تمحيص • فكما قد يشك فى أن نسب التحضر فى الدول الزراعية السابقة أو بعضها قد يكون مبالغا فيها بحكم كثرة القرى المتورمة بها ، فهنا فى دول الرعى والصحراء ربما كان العكس محتملا • فمنذ القدم ، والقطاعات الصحراوية فى العالم العربى ترتبط ارتباطا وثيقا بتجارة المرور بدرجة لا تقل عن ارتباط قطاعاته الساحلية الزراعية • فقد كان البدوى هو الواسطة الحقيقية بين جانبى العالم العربى • ولذا شاركت واحات الصحراء فى الوظيفة التجارية وفى مكاسبها • وعدا هذا فان نمط حياة المدن فى الصحراء له لونه الخاص • فالواحة بالضرورة ريف الصحراء وحضره فى وقت واحد • فبحكم العزلة ، تحتم الواحة الزراعية على سكانها أن يمارسوا وظائف المدينة لها من تجارة ودفاع وادارة • وهكذا تمثل الواحة فى صميم تركيبها جرثومة حياة المدن • انها كالسفينة فى البحر يجب أن تحمل ماءها معها • ولئن كانت المدن الكبيرة نسبيا قليلة فى المناطق الصحراوية ، فان الهجرة بالوظيفة لا بالحجم • ولهذا يقول الدكتور جمال حمدان نحن أميل الى الاعتقاد بأن هذه النسب الممعنة فى الانخفاض التى تحملها أرقام التحضر فى الوحدات الصحراوية مضللة الى حد ما • وان كان هذا لا ينفى أن وحدات السودان تظل تقع فى النمط البدائى من أنماط التحضر •

أما النمط الشـاذ فلا يشـل حالة طبيعية وتطورا بل طفرة وثورة لأسباب دخيلة مفروضة أو صدفة عشوائية • وفى الحـالين يعنى هـذا عنصرا اصطناعيا كامنا فى كيان الوحدة • ويشـمل هذا النمط حالتين : الكويت وفلسطين المحتلة • فأما الكويت فقد خصتها الصدفة الجيولوجية بشذوذ خاص جدا جعل السكان فيها والمدن مرادفا واحدا ، ونكاد نقول ان نسـبة التحضر هنا ١٠٠٪ • والواقـع أن البترول أعـاد فى العصر الحديث خلق دول المدن الوسيطة ، والكويت « دولة مدن » بكل معنى الكلمة • أما فى فلسطين المحتـلة فالاحتلال الاسرائيلى سرطان حضرى تماما • وقد أدخل الاسـتعمار الصهيونى التحضر الى فلسـطين بدرجة صارخة ، ولا يعرف العالم دولة قزمية يعيش ٧٥,٩٪ من سكانها فى المدن الا فى اسرائيل • فهى بهذا ثالثـة دول العـالم فى نسـبة التحضر بعد أسكتلندة ثم انجـلترا وويلز • وهذا وحده يدمغ اسرائيل بالشـذوذ والاصطناعية • بل ان نسـبة التحضر بين اليهود فى اسرائيـل أعلى من نسبتها العـامة : ٧٧,٤٪ وقد ارتفعت هذه النسـبة أخيرا الى ٨٤٪ ، مقابل ٢٣٪ من غير اليهود فى اسرائيل يعيشون فى المدن • أى أن تورم التحضر بين اليهود يتحقق جزئيا على حساب العرب الذين تفرض عليهم حياة الريف • وتتأكد هذه الحقيقة بصورة أخرى اذا علمنا أن الـ ٣٣ وحدة التى يزيد حجمها عن ١٠ آلاف نسمة تضم ٧٦٪ من يهود اسرائيل ، فى حين أن ٦٨٪ من العرب يسكنون فى وحدات أقل حجما من ١٠ آلاف نسمة •

وعموما يمكن القول أن حياة المدن تقليد قديم متوطن وأصيل فى العالم العربى وحضارة العرب فى جوهر كيانها حضارة مدن • وقد كانت القاعدة الزراعية العريضـة الفنية دعامة أولى فى بناء المدينـة العربية ، ولكن الى جانبها أضيف منذ فجر التاريخ عامل هام هو التجارة • وظل هذان العنصران الزراعة والتجارة يساندان التراث الحضرى العربى معا

أو على التناوب . لكن فى العصور الوسطى المتأخرة تداعى هذا التراث مع انهيار هذين العاملين ثم مع الفترة الحديثة والحضارة الجـديدة عاد النمو والازدهار واليوم يمكن أن نقدر أن ثلث العرب من أهل المدن . وقد تزيد نسبة سكان الحضر هنا أو تقل هناك ، ولكنها فى المتوسـط تتراوح حول الثلث . وهـذا النمو الحضرى يعنى أننا نتقدم حضريا ، فتوسع المدن فى حدود معينة ظاهرة صحية يرحب بها كدليل على التطور والنمو المادى والاقتصادى وغير الاقتصادى . واذا كان وراء هذا النمو بعض عوامل عشوائية كالبطالة المقنعة فى الريف أو التضخم السكانى فى الريف فليس معنى الهجرة الريفية أن مدننا مجرد طفح سكانى لا وظيفى ، مجرد فقاعات وزبد للريف تراكم فى ارسـابات مدنية غير هادفة . وانما يعنى زيادة فى كفاءة الزراعة وتوسعا فى حاجاتهما الحضرية ، وزيادة فى قدرة المدن ونموا فى امكانياتها وخدماتها .

وقد تأثرت العواصم العـربية أو المدن الكبرى والمدن التى تزيد أحجامها عن عشرة آلاف نسمة بالعوامل التى تؤثر على نمو المدينـة ، وهى عوامل مشتركة بين العالم كله الذى يتميز بالنمو الحضرى الواسع النطاق والسريع الخطى ، وعوامل خاصـة نابعة من الظـروف المحيطة ببعض المدن . وينطبق ذلك بصفة خاصة على العالم العربى حيث أثرت مجموعة عوامل غير عادية على نمو أو تدهور بعض المدن أو تسببت فى وثبات واسعة نحو التحضر لبعضها . وعلى سـبيل المثال النمو الكبير لمدينة عمان خلال أربعة عشر عاما (١٩٥٣ ــ ١٩٦٧) بسبب نزوح أعداد كبيرة من لاجئين فلسطينيين والنمو المذهل لمدينة الكويت نتيجة استغلال البترول . كما تأثرت الدول العربية عموما لأنها تشغل مكانا استراتيجيا فى العالم بالتغييرات الشاملة التى تجتاح العالم .

ويمكن تلخيص أهم العوامل التى ساعدت على نمو بعض المدن العربية وأخرت نمو غيرها من المدن فيما يلى :

١ ـ استقلال الدول العربية ونمو بعض العواصم الجديدة كمراكز ادارية ، وكمقر للجهاز الحكومى القومى وللتجارة والتمثيل الدبلوماسى . (أصبحت الكويت عاصمة فى ١٩ يونية ١٩٦١ وعدن عاصمة فى ٢٩ نوفمبر ١٩٦٧) .

٢ ـ ساعد اكتشاف واستغلال مصادر البترول على النمو الحضرى وخاصة فى المملكة العربية السعودية وعلى شواطىء الخليج العربى . كما كان له تأثير على العراق .

٣ ـ أثر انتقال رءوس الأموال من الدول التى يعتمد دخلها على البترول الى الدول المجاورة على نمو المدن المجاورة (وعلى وجه خاص لبنان) .

٤ ـ أثر اضمحلال فلسطين المحتلة الفجائى ونزوح مليون نسمة من سكانها الى المناطق المجاورة على توزيع السكان أدى الى نمو ما يحيط بها من مدن عربية .

٥ ـ لم يعد النمو الحضرى نتاج الظروف والموارد الطبيعية لكل منطقة فى العالم العربى بل أثرت عليه ديناميكية التغيرات السياسية .

٦ ـ ساعد انخفاض مستوى المعيشة فى القطاع الزراعى فى الدول العربية وعدم وجود سياسة زراعية فى عدد منها على دفع أعداد كبيرة من سكان الريف الى الانتقال الى المدن بحثا عن عمل .

٧ ـ ساعدت المعونات والاستثمارات الأجنبية على نمو بعض المدن فى كثير من الدول العربية .

وسنعطى مثلا أو اثنين يوضحان كيف ساعد تفاعل العوامل السابقة على نمو المدينة .

لا شك أن استغلال البترول فى الكويت ساعد على نمو المدينة المتروبوليتانية بسرعة غير طبيعية لم تكن لتحدث تحت ظروف عادية مما أدى الى نقلها خلال عشر سنوات من مدينة صغيرة على الخليج العربى الى متروبوليتانية تمتد الأميال على الرمال المحرقة وتخترقها وسائل المواصلات الحديثة والطرق السريعة وتعلوها المبانى الشاهقة المكيفة ، وعلى بعد ١٥٠٠ كيلو متر غرب الكويت نجد بيروت تضج بالحياة وبمظاهر التقدم الحضرى (وان كان لا يزال بها مخلفات الشوارع القديمة النمط) . وقد ساعد على نموها الحضرى تفاعل عدة عوامل تشمل دينامية موقعها الدولى كمركز بحرى وجوى ، ومجاورتها لموانىء ومطارات فلسطين ، ونزوح ٥٠,٠٠٠ فلسطينى اليها ، وتدفق استثمارات الكويتيين والسعوديين (من دخل البترول فى بلادهم) ، ثم الدخل غير المباشر الذى تحصل عليه الحكومة من امتيازات مد أنابيب البترول بين العراق وشبه الجزيرة العربية التى تنتهى عند طرابلس وصيدا . بالاضافة الى ذلك تحول نقل البضائع الى الأردن وسوريا ومن موانى فلسطين الى بيروت . كما أن اغلاق قناة السويس نحو عشر سنوات ومشاكل العراق وسوريا ، والكويت أدى الى تحويل رءوس الأموال الى بيروت . وزاد أهمية موقع بيروت كمدخل للدول العربية حيث أصبحت مركزا للمكاتب الرئيسية للمنظمات الدولية مثل الأمم المتحدة ، والنقطة الرابعة ، ومؤسسة فورد ، والاتحاد الدولى لتنظيم الأسرة ... الخ . والمقر الرئيسى للشركات التجارية الدولية . وفوق ذلك تتلقى لبنان أموالا كثيرة من مهاجريها فى الدول الأخرى وكثير منهم يستثمر أمواله فيها مما ينعكس بالتالى على ازدهارها .

ويمكننا أن نعطى أمثلة للعوامل المناهضة للنمو الحضرى • وعلى سبيل المثال أقامت سوريا حديثا ميناء اللاذقية حتى تتجنب دفع مصاريف مرور الترانزيت خلال بيروت ، كما شيدت الأردن ميناء العقبة لأسباب مماثلة • وكل هذه العوامل المتداخلة يؤثر بعضها على نمو المتروبوليتانية العربية •

نمو المتروبوليتانية :

تعد نسبة سكان المدن الكبيرة أو المائة ألفية ــ وهى التى تسمى المتروبوليتانية تمييزا لها عن التحضر عامة ــ مقياسا دقيقا لحضارة المدن الحقيقية • وفى الاطار الحضارى المعاصر للعالم العربى لا شك أن المدينة الكبيرة هى الموطن الحقيقى لحيـاة المدن الكاملة • وقد نمت المدينـة المتروبوليتانية الحديثة العربية (باستثناء القاهرة) خلال الثلاثين (خمسة وثلاثين) عاما الماضـية • وكان بعضها مثل الكويت منذ عشر سـنوات فقط فى مرحلة بدائيـة فى حين لا يزال البعض الآخر كما فى حضرموت واليمن عربى الطابع • وان كان قليل من المدن العربية جديدا كل الجدة بمعنى أنها لم تقم على أنقاض مدينة قديمة •

وحتى منتصف القرن الماضى لم يكن بالعالم العربى الا عدد قليل من المدن الكبيرة تشمل القاهرة (٢٥٤ ألفا) والاسكندرية (١٣٤ ألفا) ودمشق (١٥٠ ألفا) الأولى منهـا فقط هى التى بلغت ربع المليـون • وحتى نهاية القرن لم تكن الزيادة فى عدد المدن الكبرى زيادة خطيرة ، وقد ظهرت حينئذ أول مدينة نصف مليونية فى العـالم العربى ألا وهى القاهرة (٥٨٩ ألفا عام ١٨٩٧) وحتى فترة ما بين الحربين وقبل الحرب الأخيرة لم يزد عدد المدن المائة ألفية العربية عن عشرة الا قليلا كما يتضح من الجدول الآتى :

المدن المائة الفية فى العالم العربى ١٩١٠ - ١٩٣٧

الدولة	١٩١٠	١٩٢٧ - ١٩٣٠			١٩٣٢ - ١٩٣٧	
	نسبة المدن الكبرى من مجموع السكان ٪	عدد المدن الكبرى	مجموع سكانها بالمليون	نسبتهم من مجموع السكان ٪	مجموع سكان المدن الكبرى	نسبتهم من مجموع السكان ٪
سوريا ولبنان	١٠,١	٢	٠,٣١	١٥,٥	٦٠٩	٢٠,٣
فلسطين	—	—	—	—	٢٦٥	٢٠,١
العراق	٧,٢	٨	٠,٢٥	٨,٩	٣٠٠	٩,١
مصر	٩,٢	٣	١,٧٤	١٢,٧	١٢٣	١٣,٣
تونس	—	١	٠,١٩	٨,٥	—	—
الجزائر	—	٢	٠,٣٨	٦,٢	—	—
المغرب	—	٣	٠,٢٦	٤,٨	—	—

المصدر : منقولة من كتاب الدكتور جمال حمدان ، المدينة العربية ، معهد الدراسات العربية العالمية ، ١٩٦٤ صفحة ٢٢

المدن فى العالم العربى ١٩٥٠ ، ١٩٦٠

الدولة	١٩٥٠	١٩٦٠			
	عـدد المدن	عدد المدن	مجموع سكانها	مجموع سكان الدولة	النسبة المئوية
المغرب	٦	٦	١,٥٩٠,٠٠٠	٩,٠٠٠,٠٠٠	١٧,٧
الجزائر	٤	٥	١,٦٧١,٠٠٠	١٠,٤٨٤,٠٠٠	١٥,٩
تونس	١	١	٦٨٠,٠٠٠	٤,٠٠٠٠,٠٠٠	١٧,٠
ليبيا			١٨٤,٠٠٠	١,٠٩٢,٠٠٠	١٦,٧
مصر	٨	١٦	٧,٣٤٧,٠٠٠	٢٦,٠٠٠,٠٠٠	٢٨,٢
السودان	٢	٢	٢٠٦,٠٠٠	١٠,٢٦٢,٠٠٠	٢,٠
سوريا	٣	٤	١,١٥٦,٠٠٠	٤,٤٢٠,٠٠٠	٢٦,٤
لبنان			٦٠٠,٠٠٠	١,٤٠٠,٠٠٠	٤٣,٠
الأردن	١	٢	٣٤٩,٠٠٠	١,٦٠٠,٠٠٠	٢١,٨
فلسطين المحتلة	٣	٣	٧٩٤,٠٠٠	٣,٠٣١,٠٠٠	٣٥,٥ ـــ ٥٠,٦
العراق	٣	٤	١,٢٤٩,٠٠٠	٦,٥٣٨,٠٠٠	١٩,١
السعودية	٢	٤	٥٢٠,٠٠٠	٦,٠٠٠٠,٠٠	٨,٦

ـدن	١	١	١٣٨٠٠٠٠	٦٦٠,٠٠٠	—
الكويت	١	١	٢٥٠,٠٠٠	٦٢١,٠٠٠	٨٠,٠
أفريقيا العربية	٢٢	٣١	١١,٦٧٨,٠٠٠	٦٠,٨٣٨,٠٠٠	١٩,١
آسيا العربية	١٥	٢١	٥,١٣٥,٠٠٠	٢٨,٣٤٥,٠٠٠	١٨,١
العالم العربى	٣٧	٥٢	١٦,٨١٣,٠٠٠	٨٩,١٨٣,٠٠٠	١٨,٨

وهكذا لم يأخذ النمو صورة ثورية الا مع الحرب الأخيرة حين اشتدت الهجرة الى المدن الكبرى والجدول يعطى الصورة عند منتصف القرن فى الوقت الحالى .

المصدر : كتاب الدكتور جمال حمدان ، المدينة العربية ، معهد الدراسات العربية العالمية ١٩٦٤ ، صفحة ٢٣ ــ ٢٤ .

ويتضح من الجداول السابقة أن المدن الكبيرة فى العالم العربى فى منتصف القرن العشرين بلغت ٣٧ مدينة يزيد مجموع سكانها على ١٠ ملايين نسمة أو ما يعادل ١٣٪ من مجموع العرب ثلثهم فى آسيا والثلثان فى أفريقيا . ثم فى عقد واحد طفر العدد الى ٥٢ مدينة بمجموع سكانى قدره نحو ١٧ مليونا تمثل أقل قليلا من خمس مجموع العرب الذين بلغوا التسعين مليونا فى الستينات . (بلغ التعداد الحالى للدول العربية ١١٣ مليونا) . وهناك بعد هذا كوكبة كاملة من المدن على تخوم المائة ألف تتأهب لتضاف الى القائمة بعد قليل ، وتشمل جدة وتطوان ومستغانم وستيف وتلمسان وبنغازى والنجف . معنى هذا أنه فى السنوات القليلة القادمة سترتفع المدن المائة ألفية العربية الى ٦٠ مدينة . وحتى نأخذ فكرة عن هذا الموقف بالمقياس العالمى ينبغى أن نذكر أنه فى ١٩٥٠ كان بالعالم كله ٨٧٥ مدينة مائة ألفية ، تبلغ نسبة سكانها ١٣٪ أى أن مستوى متروبوليتانية العالم العربى أعلى بعض الشىء من مستواها فى العالم ككل . ومعنى هذا أن العالم العربى لم يعد متخلفا فى أى معنى من حيث حضارة المدن ، ولكن يقف موقفا وسطا معتدلا . وكذلك نذكر أن عدد مدننا الكبيرة يقارب نظيره فى دولة كألمانيا الغربية (٥٩ مليونا فى ١٩٥٥) برغم أن عدد السكان فى الأخيرة ٥١ مليونا تقريبا . هذا فى حين أن اليابان التى تكاد تناظر العالم العربى سكانا (٨٩ مليونا فى ١٩٥٥) لا تزيد كثيرا فى عدد مدنها الكبيرة عن العالم العربى (٦٠ مدينة) .ولكننا ينبغى ألا ننسى الفارق فى المحتوى السكانى لهذه المدن .

أنماط المتروبوليتانية :

أما من الداخل فلعل أول ما يسترعى الانتباه ويستدعى التعليق هو أنه برغم أن آسيا العربية تضم ٣٠,٥٪ من مجموع سكان المدن الكبيرة فى العالم العربى مقابل ٦٩,٥٪ فى أفريقيا العربية ، فان درجة ونسبة المتروبوليتانية فيها متقاربة للغاية . والشىء المثير أن توزيع حصص

سكان المدن الكبيرة بين شطرى العالم العربى الرئيسية يتفق تماما مع توزيع حصص السكان عامة بينها وهى ٦٨,١٪ ، ٣١,٩٪ للقطاع الأفريقى والقطاع الآسيوى على الترتيب •

أما تقارب درجة المتروبوليتارية بينها فدليل على تجانس حضارى عام وتقارب فى مرحلة النضج المادى بوجه عام • ولكن الفروق تظهر بشدة بين الوحدات المختلفة ، والواقع أن هنا كما فى نسبة التحضر عامة يصنف الدكتور جمال حمدان البلاد العربية الى نفس المجموعات الثلاث السابقة القاعدى والبدائى والشاذ •

ففى النمط القاعدى لا تقل نسبة المتروبوليتانية عن ١٦٪ من مجموع السكان ، وتتأرجح غالبا على جانب العشرين • وهذه المجموعة تشمل العراق وسوريا والأردن ثم مصر ووحدات المغرب الأربع بزيادة ليبيا هذه المرة • ولكن النسبة هذه المرة أكثر تفاوتا بين أعضاء المجموعة منها فى حالة درجة التحضر عامة • وهى تكاد تتقارب بين وحدات المغرب الأربع حيث لا يستلفت النظر هنا الا ليبيا التى تعنى أن أغلب حياة المدن فيها مركزة أساسا فى المدينتين الكبيرتين وذلك برغم أن عدد سكان المدن الكبرى المطلق فيها هو أقل ما فى وحدة سياسية عربية • أما العراق حيث كانت النسبة ٧,٢٪ فى ١٩١٠ ، ٩,١٪ فى ١٩٣٧ ، فقد قفز الى ١٩,١٪ فى ١٩٦٠ ، وهذا هو نفس رقم مصر عام ١٩٤٧ على أن درش يعطى سكانا أكبر من أرقام الدكتور جمال حمدان للموصل (٤٣٠ ألفا) وكركوك (٤٨ ألفا) والبصرة (٢٠٦ آلاف) وبذلك ترتفع نسبة سكان المدن الأربع الكبرى فى العراق الى ربع سكانها • ثم تلى الأردن بنسبة عالية ٢١,٨٪ تناهز نسبة فلسطين قبل النكبة ويفسرها تيار اللاجئين الفلسطينيين على المدن الكبرى من ناحية ومن ناحية أخرى سيادة البيئة شبه الصحراوية التى تفرض على الاستقرار أن يتركز فى عدد قليل من

النقط الضخمة • ثم تلى سوريا حيث ربع السكان جميعا يتركز فى المدن المائة ألفية • وهذا يؤكد مرة أخرى تأصل ورسوخ المدينة الكبيرة فى التقاليد والبيئة الشامية التجارية • والواقع أن كل منطقة الشام كانت منذ الثلاثينات تسجل أعلى نسب للمتروبوليتانية فى العالم العربى حيث كانت ٢٠٪ فى كل من سوريا وفلسطين فى الوقت الذى كانت فيه ١٤٪ فى مصر • ويصل الوضع الى قمته فى لبنان ، حيث يعيش ٤٣٪ من كل السكان فى المدن الكبرى ، وتكاد بذلك تؤلف نمطا خاصا بها • أما مصر التى قفزت من ٩,٢٪ فى ١٩١٠ ، الى ١٣,٣٪ فى ١٩٣٧ ، الى ١٩,١٪ فى ١٩٤٧ ، تشمل الآن أكثر من ربع سكانها فى المدن الكبرى • وهى بهذا تأتى قبل سوريا وبعد لبنان فى نسبة المتروبوليتانية • ولكن هذا ينبغى أن ينبهنا الى النقص الكامن فى الدراسات النسبية • فالمدن الكبرى فى مصر تضم وحدها من السكان أكثر من كل سكان المدن الكبرى فى آسيا العربية أو أقل قليلا من نصف مجموع المدن الكبرى فى كل العالم العربى ، وبصورة أخرى تعادل أكثر من مجموع سكان العراق عامة أو سوريا ولبنان والأردن معا •

أما النمط البدائى فيشمل السودان ويتراوح بين ٢٪ و٦٪ وهذا يمثل فى الحقيقة بداية النمو الحضرى الذى يشق طريقه بصعوبة • والسعودية بهذا تمر فى المرحلة التى كان فيها العراق تقريبا فى عام ١٩١٠ ، فى حين يمكننا أن نقرر الآن بسهولة أن السودان هو أقل وحدات العالم العربى تحضرا سواء بالمعنى العام أو بالمعنى المتروبوليتانى •

وباستثناء ليبيا يمتاز السودان بأقل عدد مطلق من سكان المدن الكبرى فى أى جزء من العالم العربى • ان قطاع المدن فى جسم السكان فى السودان ليس أكثر من قطرة فى بحر •

النمط الشاذ ــ أخيرا ــ هو نفس النمط الشاذ فى تصنيف النمو الحضرى ، فليس السكان هنا سكان مدن أساسا فقط ، ولكنهم سكان مدن كبرى أولا وقبـل كل شىء . وهـذا يعنى فى الكويت أن الدولة ببساطة ليست الا مدينة واحدة تضم السـكان جميعا . أما فى فلسطين المحتلة فيتجمع الصهيونيون فى المدن الكبرى أساسا حيث ترتفع النسبة الى ٣٥,٥٪ اذا اعتبرنا حدود المدن الشـكلية والى ٥٠,٦٪ اذا اعتبرنا المجمعات الحضرية الحقيقية . أى أن نصـف سكان اسرائيل يتركز فى ثلاث نقط محددة . وهذه حقيقة مدنية هامة جدا للجغرافى السـياسى والاستراتيجى العربى من حيث قيمتها فى جغرافية التحرير الفلسطينى .

الفصل الثانى

المدينة : دورها وشكلها وبناؤها(*)

يبدو التحضر مواكبا دائما لنمو البلاد الجديدة • فكيف يحدث هذا ؟ لعله مما ييسر علينا فهم هذه الظاهرة الوقوف على الظروف البعيدة والقريبة المصاحبة لظهور المدن ، ومعرفة عوامل البقاء والنمو التى ترتبط بها تلك المدن •

الأدوار التاريخية للمدن قبل التحديث

السوق :

تعتبر المراكز الحضرية فى غرب أفريقيا أمثلة مفيدة لتوضيح الأدوار التاريخية للمدن لسبب وجود درجة لا بأس بها من « التحضر » منذ أمد بعيد عند اليوروبا فيما يعرف الآن باسم نيجيريا • وقد سبقت الاشارة الى موضوع التحضر عند اليوروبا ولن نعود الى تفصيل القول فيه هنا • الا أنه من الطريف أن نلاحظ أن بعض مدن اليوروبا قد ظلت قائمة حتى الوقت الحاضر كمراكز حضرية هامة فى البلاد النامية التى أصبحت جزءا منها • وباستثناء هذا الطراز الخاص القديم من التحضر ، فان غرب أفريقية لم تعرف بصفة عامة تجمعات بشرية تذكر أكبر من مستوى حجم القرية قبل الاتصال بالتجارة والمصالح الاستعمارية • حقيقة أنه كان هناك نوع من النقل البحرى بمحاذاة الساحل من نقطة الى نقطة

(*) اعتمدنا فى هذا الفصل على المصدر التالى : جيرالد بريز ، مجتمع المدينة فى البلاد النامية . دراسة فى علم الاجتماع الحضرى ، ترجمة وتقديم الدكتور محمد الجوهرى ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، ص ص ٨٩ ــ ١٤٦ .

فى غرب أفريقية ، ولكن المدن لم تصبح « ضرورية » بالنسبة لغرب أفريقية الا بعد بدء التجارة مع العالم الخارجى فى مجال تجارة الرقيق وتجارة السلع الصغيرة • وهناك من ناحية أخرى تاريخ طويل نوعا لأماكن بعض المدن ، أو ما أصبح فيما بعد للمدن عند التقاء الطرق ، وموارد المياه ، والمزارات بأنواعها •

مركز الادارة الاستعمارية :

أصبح من الضرورى ــ بعد تقسيم منطقة غرب أفريقية الى مناطق نفوذ للدول الأوربية الكبرى ــ انشاء محلات صغيرة تكون بمثابة مراكز ادارية للتجارة والتوسع الاستعمارى • وحيثما قامت حياة قروية ، أو حياة مدينة صغيرة ، كان من المحتم توسيعها ، وذلك لاعتبارين : الأول توفير المواد الغذائية والخدمات للمستوطنين الجدد ــ سواء بشكل مؤقت أو دائم ــ والثانى لخلق المراكز والتنظيمات اللازمة لجمع السلع من داخل البلاد وتوزيع المواد التى تقدم فى مقابل السلع المحلية •

والملاحظ خلال الفترات الأولى من الاستقلال عن مؤثرات خارج المنطقة المحلية أن التجارة كانت نادرة ، وأن السلع الضرورية التى كانت تتبادل كانت محدودة نسبيا فى كميتها وفى أنواعها • الا أنه أصبح من الضرورى بعد ظهور الاعتماد المتبادل بين المناطق المحلية توفير خدمات السوق وتعيين أو اعداد الموظفين اللازمين للعمل كوكلاء تجاريين ومسجلين للاتفاقيات التى تبرم بين الأجانب والسكان المحليين •

وقد أدت الزيادة التدريجية فى سكان المناطق الوطنية الى خلق فائض من السكان سلك الطريق الطبيعى للأحداث فى مثل تلك الحالات ، وهو : الهجرة الى القرى ، والمدن الصغيرة ، والمدن حيثما كانت ، وبما ينطوى عليه ذلك فى غلب الأحيان من كثير من التضحية والمتاعب • وقد

عمد بعض السكان الذين ذهبوا فى بداية الأمر الى المدن الكبرى فى تلك البلاد الى الاستقرار هناك ، فى حين صدر بعضهم الى الخارج كعبيد ، وفضـل البعض الآخـر الانتقال على طول السـاحل بحثا عن أماكن أخرى يستوطنونها •

وما ان تنمو المدينة حتى يصبح اعتمادها على فائض الانتاج الزراعى أكثر صعوبة وحرجا ، مما يفرض عليها اللجوء الى قدر معين من التبادل • وهنا يزداد التعامل بالنقد وغيره من رموز القيمة كبديل عن السلع عندما تتجاوز قيمة المنتجات المتعامل فيها مجرد احتيـاجات الأطراف المشتركة نفسها • وفى النهاية يصبح سـكان الريف أكثر اعتمادا على المدينـة ، اذ يقدمون للمدينة احتياجاتها ، ويتحتم لذلك اشباع احتياجاتهم بالتعامل النقدى •

واذا ما ازدهرت التجارة الجديدة والمصالح الاستعمارية ، فالمحتمل أن يزداد التحضر فى ذلك البـلد • اذ يبدو أن هنـاك علاقة بين درجة التحضر وظهور البلاد التى تحكم نفسها ذاتيـا • وبمرور الوقت تؤدى أهمية المواقع الأصلية للتجارة والمشروعات الاستعمارية الى ظهور المدينة كسوق متخصصة لتبادل السلع •

وبانتهاء مرحلة التجارة الاسـتعمارية أو الخارجية أو على الأقل استبدالها بظهور الدولة التى تحكم نفسها ذاتيا تستمر المنطقة الحضرية ـ التى تتجه الى أن تصـبح مركز الدولة الجـديدة ـ فى أداء دورها كسوق ممتاز ، علاوة على أدائها بعض الوظائف الأخرى فى خدمة الدولة الجديدة •

الأدوار الحضرية للدول الجديدة

نقطة الاتصال بالعالم ((الخارجى)) :

تصبح المدينة أبرز نقط اتصال البلد الجديد بالعالم «الخارجى» • فالدولة الجديدة تجتذب الممثلين السياسيين للدول الأخرى ، وربما كذلك الرحالة والتجار المهتمين بعقد صلات مع الدولة الجديدة وموظفيها • ومن ثم تلعب المدينة التى تقف على رأس الدولة الجديدة دورا بالغ الأهمية فى تقديم صورة الدولة الجديدة أمام زوارها الأجانب • ومن شأن هذا الوضع أن يحفز الدول الجديدة فى بعض الأحيان الى انشاء الأبنية العامة الضخمة الثرية للأغراض المظهرية أمام الأجانب ، وكرموز للدولة الجديدة أمام السكان الوطنيين •

مكان تركز القوة :

كما تصبح المدينة بالغة الأهمية باعتبارها مكان تركز قوة الدولة الجديدة • ولا تتمثل هذه القوة فى الادارات الحكومات الوطنية فقط ، التى يجب أن تقام دائما فى بيئة حضرية • وانما تصبح المدينة المكان الذى ترسم فيه السياسات وتوضع فيه البرامج التى تحدد سيطرة أو نفوذ هذا التنظيم السياسى الحضرى على بقية أنحاء البلاد •

كما تصبح المدينة مكان تركز القوة الاقتصادية • ويرجع هذا — من ناحية — الى أنها تصبح مكان تركز المشروعات الصناعية ، والتجارية وغيرها من المشروعات التى تنشأ داخل الدولة ، أو يكون لها صلات مع بلاد خارجية • وتميل الحكومة الوطنية فى سياستها الانفاقية الى دعم مركز القوة هذا ، اذ تعمد — عن تخطيط أو بدون تخطيط الى تركيز انفاقها فى العاصمة الوطنية قبل أى مدينة أخرى فى البلاد ، اذا كان هناك أكثر من مدينة رئيسية واحدة • ويرجع تركز القوة الاقتصادية

فى المدينة الرئيسية للدولة الحديثة النمو الى بعض عوامل القصور الذاتى . فما ان ينشأ فى احدى المدن ــ لأسباب اقتصادية أو غير ذلك من أسباب ــ مركز قوة معين ، حتى يكون من غير المحتمل أن ينقل هذا المركز الى مكان آخر ، اللهم الا أن تنقل العاصمة الوطنية نفسها الى مدينة أخرى ، وهذا نفسه أمر نادر الحدوث . ومثال ذلك ما حدث فى الباكستان وبعض البلاد الأخرى القليلة . ولا شك أن الدلالات التى ينطوى عليها هذا التركيز فى مدينة معينة كبيرة الأهمية بالنسبة لسيطرة المدينة على بقية البلاد . فما ان يحدث هذا التركز حتى تنمو بسرعة فلسفة « كل الطرق تؤدى الى روما » .

وسيلة التغير الاجتماعى ونقطة نشره :

من الوجوه الأخرى لأهمية المدينة فى البلاد النامية كونها وسيلة أساسية للتغير الاجتماعى ونقطة نشره فى الدولة الجديدة . ومن المرجح أن تنشأ هنالك الأفكار الجديدة للسياسة الوطنية ، ويكتشف القادة الجدد ، وتوضع البرامج الوطنية الحديثة ، وتتركز المراكز الادارية لنشر وتنفيذ هذه البرامج . كما أنه من المرجح أن تمارس البيروقراطية من هنا ــ على الأقل الى أن تتطور بحيث تستطيع أن تخلق لنفسها ادارات فرعية فعالة ــ رقابة شاملة وكثيفة على حياة المدينة وبالتالى على حياة الريف ، ومن ثم على الدولة بأجمعها .

وعاء المواهب والقوة العاملة :

سرعان ما تصبح العاصمة أو المدينة الرئيسية الوعاء الذى يستقبل أعلى المواهب الموجودة فى الدول ، والقوة العاملة للمجتمع الجديد التى يحتاج اليها أشد الاحتياج ، ويستقبل بالتالى أموال الاستثمارات الرئيسية فى الدولة . على أنه لم يوضح بشكل قاطع بعد أن للمدينة آثارا متفاوتة على اختيار وجذب أفضل السكان فقط اليها . ولو أنه

يبدو أن احتمال ميل الكفايات الى الهجرة الى المنــاطق الحضرية احتمال كبير • ووجه الخطورة هنا أن المدينة أو المدن المركزية قد تمتص باستمرار أفضل كفايات الدولة ، دون مقدرة كبيرة على اعادة توزيعها من جديد • فما ان يعش هؤلاء الأشخاص فى المدينــة حتى يصيبهم ــ عن عمد أو عن غير عمد ــ عزوف عن العودة الى الريف مرة أخرى • ومن الواضح تمام الوضوح أن ذلك يمثل خسارة حقيقية وخطيرة فى صفوف القيــادة الريفية والقروية • وهذه ظاهرة طرازية للتحضر فى كل مكان ، اذ يبدو أن نفس العملية تحدث فى هجرة سكان الريف الى المدينة فى جميع البلاد الغربية والنامية على السواء •

ومن شأن جذب المنــاطق الحضرية للكفايات العالية من المنــاطق القروية والزراعية أن يؤثر أبعد التأثير فى المناطق الريفية التى تهاجر منها تلك الكفايات • بل قد يكون لهذا الجذب دلالات ادارية بعيدة الأثر على المستوى القومى ، مثل تسرب الأفراد من المناطق الريفية والقروية الذين كان يمكن أن يصبحوا ممثلين للبرامج الحكومية اللامركزية • وهكذا يمكن أن يحدث اختلال اقتصــادى ، أو اختلال وظيفى ، من جراء ميل هؤلاء الى ترك القرى حيث تحتم الضرورة عودة أكبر عــدد منهم الى تلك القرى للاضطلاع بعبء تنفيذ السياسات الادارية الوطنية •

ومن الواضــح أن المهــاجرين الى المناطق الحضرية يضــمون بين صــفوفهم أنواعا أخرى أكبر عددا من أصحاب الكفايات العــالية • اذ ما دامت نسبة المواهب غير العادية فى أى شعب محدودة نســبيا ، كان لابد أن تتوقع أن الغــالبية العظمى من المهــاجرين الى المناطق الحضرية ليست لها نفس خصائص القادة أو من يتوسم فيهم شغل المراكز القيادية • بل ان الغالبية العظمى من السكان تتضمن ــ كما ســنوضح فى الفصل الثالث ــ كثيرا من الأشخاص الذين يكونون فى أشد الحاجة الى الانتاج

الزراعى ، وأكثرهم عالة عليه ، وأقلهم خبرة قيادية وكفاية ومن ثم أكثر استعدادا لأن يقادوا . ان أنواع الخطب والأحاديث التى يمكن أن يوجهها — بنجاح — قادة العواصم الوطنية الى عامة الناس قد تعكس الطابع المنخفض نسبيا للفئة العريضة من المهاجرين الى المناطق الحضرية .

وهناك بين فئتى المهاجرين هاتين ، أعنى أولئك أصحاب الكفايات العالية ، وأولئك المحتاجين ، فئة ثالثة تخرج من بين صفوفها — اذا أتيحت لها الفرص المناسبة — الأخصائيين ، والموظفين ، والتجار ، والعمال الفنيين ، وكذلك الغالبية العظمى من متوسطى الموظفين فى العمليات الحكومية والادارية .

مقر الاستثمارات :

من الحقائق المهمة بنفس الدرجة أن المدينة — أو المدن — تصبح الوعاء الذى يستقبل أغلبية أموال الاستثمارات المحلية والمستقدمة من الخارج ، عن طريق المعونات الأجنبية ، وكذلك المشروعات الصناعية والتجارية . والمسألة الحرجة هنا هى ما اذا كان هذا الوضع يعوق — أو يمكن أن يعوق — توزيع أموال هذه الاستثمارات الوطنية على البلد ككل . وتبدو الاجابة عن هذا التساؤل على جانب كبير من الأهمية بالنسبة للدولة ذات المدينة الأولى الواحدة ، اذ أن موارد الدولة النامية ليست مطلقة بلا حدود .

نلاحظ هنا أن الجانب الأكبر مما عرضناه فى سياق حديثنا ، عن الدور المتزايد للمناطق الحضرية فى البلاد النامية ، قد اتضح على مدى فترة زمنية طويلة . كما أن تطور الجوانب المختلفة قد تم بمعدلات متباينة . وقد خضع هذا التطور للاختيار فى ظل بعض الظروف تحت رقابة السلطات الاستعمارية أو — بعدها — تحت رقابة الحكومات

الوطنية الجديدة • وقد حدث فى ظروف أخرى أن عمدت نفس مصادر السلطة الى تعجيل بعض جوانب هـذا التطور بمرور الوقت ، فى حين ترك التطور فى أحيان ثالثة لمصيره دون تدخل يذكر من جانب المستعمرين أو الوطنيين فيما بعد • غير أن دراسة عدد من ظروف تلك المدن فى البلاد النامية ستقودنا الى رؤية تتابع متماثل تقريبا للأحداث ــ أو على الأقل تتيجة متماثلة نسبيا ــ ناشىء عن نفس العمليات التى أشرنا اليها •

الأدوار المعاصرة للمناطق الحضرية

الوظائف المستمرة :

للمناطق الحضرية ثلاث خصائص رئيسـيـة مترتبة على تاريخ تلك المناطق عبر فترة طويلة من الزمن • فقد كان على المدينة أن تعمل ــ فى المقام الأول ــ على المحافظة على الوظائف القـديمة التى كانت تضطلع بها تحت الحكم الاستعمارى ، كما كان عليها أن تطورها أيضا • ثم كان عليها ــ فضلا عن ذلك ــ أن تواجه مسـئوليات اتسـاع عملها ونمو دورها • من هـذا مثلا أن الاسـتقلال الوطنى قد تطلب حتما انشاء وحدات ادارية جديدة واعادة تنظيم التجـارة والصـناعة ، علاوة على الأمور السياسـية طبعا ، اذ يجب تطوير أجهزة الموظفين والاجـراءات اللازمة للاشراف على وسائل المواصلات ، والشرطة ، والجيش الوطنى الجديد ، وغيرها من أوجه النمو الادارى فى الدولة الجديدة •

مركز لأوجه النشاط المحلية والخارجية :

والدور الثانى الذى تضطلع به المدينة الأولى حاليا ــ وربما لفترة طويلة أخرى فى المستقبل ــ أن تكون مركزا لأوجه النشاط التجارية ، والخارجية ، والدولية • ونحن لا ننكر امكان قيام وحدات ادارية خارج المدينة الرئيسية فى حالة وجود استثمارات أجنبية أو وطنيـة فى بعض أوجه النشاط ذات الطابع الريفى ، مثل مزارع المطاط أو مختلف أنواع

العمليات التعدينية • ولكن المؤكد ــ من ناحية أخرى ــ آنه سيترتب على ذلك على الأقل انشاء مكتب صغير للأغراض الادارية والاتصال مع الحكومة الوطنية فى العاصمة الوطنية •

مركز جذب سكان الريف :

والوظيفة الثالثة حاليا للمراكز الحضرية فى البلاد النامية أنها تكون بمثابة مغناطيس يجذب سكان البلاد ، بحيث تحدث هجرات اليها بجموع تفوق عادة طاقة المدينة على تشغيلهم واسكانهم واطعامهم وخدمتهم وتعليمهم • ومع ذلك يظل هناك نوع من « الانتماء » الذى لا يفتر يؤثر فى سكان البلاد النامية ، مما يترتب عليه فى النهاية التضخم المستمر فى سكان الحضر •

الدلالات السياسية :

لن نستطيع أن نعرض هنا لكل الدلالات السياسية لتلك الوظائف الحضرية ، ونكتفى بالتركيز فيما يلى على أربع دلالات فقط •

ويجب أن تكون أولى تلك الدلالات واضحة لنا تمام الوضوح ، وان كانت لا تجد فى بعض الأحيان الا اعترافا على مضض من جانب أولئك الذين يفهمون ــ بحكم موقعهم ــ لماذا يجب أن يأخذوها فى الاعتبار • اننا نشير بذلك الى الأهمية ــ بل فى الواقع للضرورة ــ الحرجة لوجود مركز حضرى لتنفيذ النشاطات التى لا غنى عنها للوطن فى العصر الحديث • ان رجال الادارة والسياسة فى البلاد النامية لا يعزفون ــ الا بأسى ــ عن مواجهة مشكلات تلك المناطق الحضرية علاوة على كل المشكلات الأخرى التى تواجههم ، التى يمثل التحضر بالتأكيد واحدا من أكثرها جميعا أهمية • ومع ذلك سرعان ما يقر هؤلاء الأشخاص أنه لا يمكن لأى دولة حديثة أن تعيش دون منطقة حضرية

واحدة على الأقل • وأسباب ذلك واضحة ، وقد عرضنا لها فى قوائم العوامل التى يجب أن تؤخذ فى الاعتبار عند تقدير دور المناطق الحضرية فى البلاد النامية •

وتتصل الدلالة السياسية الرئيسية الثانية للتحضر بالضغط الهائل لاستثمار قدر كبير – غير متناسب – من رءوس الأموال الوطنية فى المناطق الحضرية • فبالنسبة للبلاد التى لا يوجد فيها سوى مدينة واحدة فقط من هذا النوع يترتب على ذلك الحاجة الى تخصيص أكثر قدر من الاستثمارات فيها • أما حيث توجد مدن متعددة ، فان مشكلة تخصيص نصيب كل مدينة من الاستثمارات تصبح أكثر تعقيدا • ومن شأن مقتضيات المسئوليات الأخرى التى تواجه الدول الجديدة أن نخلق ميلا الى تعود معايشة الاختلافات التى تبدو حتمية فى تخصيص الأموال على النحو الذى يعطى الأفضلية للمدن • ونجد أن مشكلات مثل : المتطلبات العاجلة للدفاع الوطنى ، وتنظيم الادارات الحكومية الجديدة ، والوصول الى مستوى من المعيشة مقبول لسكان الدولة الجديدة • وتقديم المزيد من فرص التعليم ، وأولا وقبل كل شىء توفير فرص العمل • كل تلك المشكلات من الضخامة ومن التعقيد بحيث لا ينتظر أو يتوقع أن يوجه كثير من الاهتمام الى مسألة تحديد المكان الذى يجب فيه تطبيق حلول المشكلات • ومن الواضح أنه أيسر كثيرا أن تطبق أى حلول ممكنة فى أقرب المناطق ، وأعنى المنطقة الحضرية بالطبع •

أما الدلالة السياسية الرئيسية الثالثة للتحضر فتترتب حتما على طوفان السكان الوافدين على المناطق الحضرية ، والمشكلات المتكررة والحتمية التى تنشأ فى هذا الصدد • وتلك هى المشكلة السياسية الخاصة بكيفية مواجهة المشكلات الحضرية القصيرة الأجل • وقد سبق أن لاحظنا أن تلك المشكلات كثيرة العدد متعددة الأبعاد • ومن الأمثلة

الجـديرة بالملاحظة توفير خدمات الاسـكان وما يشـبه ذلك السكان الجدد ، وللسكان القدامى ، الذين يتزايدون باستمرار • والمشكلة عامة ، ويكاد المرء يعجز عن تبين أبعادها بالكامل ، كما لا يمكن التقليـل من شأن عواقبها بالنسبة لتطور سكان الحضر • من هذا مثلا أن المضاعفات السياسية المحتملة لما قد يحدث من قصور فى توفير المساكن وغيرها من متع الحياة أقل ما توصف بها أنها مروعة ، اذا لم تكن مثبطة ، خاصـة وأن الموارد الوطنية محدودة للغاية •

تحليل مقارن للتحضر

لا شك أن الدراسة بواسطة المقارنة المنهجية للتحضر تتطلب — فى صورتها المثلى — توافر بيـانات احصائية دقيقة وكاملة ، ليس فقط عن نمو المدن وخصائصها ،وانما كذلك عن السمات الهـامة الأخرى للبلاد النامية • وبرغم أننا عرضنا فى الفصل الأول بعض البيانات عن المدن ، وقد يتسنى فى المستقبل الحصول على بيانات عن الارتبـاطات المختلفة للظاهرة الحضرية • فاننـا قلما نسـتطيع وضع تعميمات شاملة فى ظل الظروف الراهنة • ومن البدائل التى يمكن أن تغنى مؤقتـا عن هـذه التعميمات اسـتخدام طريقـة التنميط ، الذى يمثل طريقا وسـطا بين العلاقات « العاملة الشاملة » ووصف الحالات الخاصة كل على حدة •

تنميط المناطق الحضرية

لا شك أن ايجاد تصنيف يمثل أمرا جوهريا برغم الصعوبات النائية عن ندرة البيـانات ، والتنـوع الـكبير فى درجات التحضر وأنواعه ، والاختلافات البارزة فى مراحل النمو الوطنى •

مصادر الاختلافات :

ان من بين العوامل التى يجب وضعها فى الاعتبار عند محاولة وضع تنميط للتحضر فى البلاد النامية الظروف التى بدأ فى ظلها التحضر فى بلد

معين يشق طريقه ، ويصـل الى مرحلة النمو الرئيسية ، مسـتمرا حتى الوقت الراهن • من هذا مثلا أن نمط المدينة التى نشـأت خلال تاريخ طويل للتحضر الوطنى ــ كما هو الحال عند اليوروبا فى نيجيريا ــ يختلف عن التحضر الذى تم فى ظل الحكم الاسـتعمارى • ويمكن أن نلاحظ تلك الاختلافات بسهولة فى حجم المدينة ، ونمط نموها ، وكثافة السكان ، وخصائص الاسكان والمرافق ، وما الى ذلك • ولا تعـرف معظم الدول النامية الا تاريخا قريبا للتحضر الوطنى • اذ يبدو أن الجـانب الأكبر من التحضر القائم فعلا قد بدأ فى ظل المصالح الاستعمارية وبفضل تشجيعها وهناك بالطبع استثناءات من تلك القاعدة العامة ، كما هو الشـأن مثلا بالنسبة للقاهرة وبعض مدن الصين الشعبية الكبرى •

بل ان هناك اختلافات فى التحضر الذى تم فى ظل الاستعمار • فقد امتدت السياسة الاستعمارية الأسـبانية المستغلة ــ كما يوضح كنجزلى دافيز ــ لتتحكم فى أنواع التجارة التى يمكن لمراكز الحدود الأمريكية الجنوبية أن تمارسـها بعضـها مع بعض • ويورد دافيز ــ كمثال على ذلك ــ حالة مدينـة بيونس أيرس التى كانت ممنـوعة من مثـل هذه التجارة ، فيقول :

« لم تتجـاوز مدينة بيونس أيرس بعـد مائتى عام من تأسيسها ٢٥ ألف نسـمة ، على حين بلغ تعداد مدينـة نيويورك ــ التى مر على تأسيسها على يد الهولنديين نفس العمر تقريبا حوالى مائة وخمسين ألف نسمة • وتدل السرعة التى تفوقت بها بيونس أيرس ــ بمجرد أن طرحت الأغلال التى كانت تقيدها ــ على ليما Lima على الآثار المحيطة للقيـود القديمة التى كانت مفروضة على المدينة الأرجنتينية » •

وقد اتصـف عمل شركة الهند الشرقيـة بنوع من هذه المعـاملة التفضيلية فى الاتصالات من وقت لآخر •

كما يرجع بعض التباين فى أنماط المناطق الحضرية فى البلاد النامية الى ظروف مباشرة خاصة بطرق التجارة البحرية ، مما أدى الى وقوع بعض المدن فى مواضع ملائمة كل الملاءمة للنمو والتوسع مثل هونج كونج وسنغافورة .

ومن العوامل الأخرى التى أثرت فى نمط المدينة هو ما اذا كان النمو الوطنى عد أعقب تجربة مع الاستعمار أو ترتب على نمو محلى . بمعنى آخر أنه من الأمور ذات الدلالة الفائقة ـ بالنسبة لأنماط التحضر ـ ما اذا كان نمو المدينة قد حدث فى مرحلة معينة من مراحل التتابع المحلى ثم الاستعمارى ثم الوطنى ، اذ أن هذا لن يؤثر فقط فى الشكل المادى للمدينة ، وانما فى نمط النمو نفسه كذلك . وكذلك يكون لأهمية موارد الدولة ـ من حيث امكانيات استغلالها لصالح المستعمر أو للتنمية الوطنية ـ تأثيرها حتما فى درجة التحضر وطبيعته . ومن أمثلة ذلك البلاد الصغيرة فى غرب أفريقية التى كانت لها مناطق تابعة محدودة يمكن أن تعتمد عليها للحصول على موارد لاستكمال نموها أو التأثير فيه على نحو أو آخر .

حالة المدينة الأولى :

تعتبر المدينة الأولى من فئات التصنيفات الشائعة للتحضر فى البلاد النامية . وتعتبر المدينة مدينة أولى فى الحالة التى لا يكون فيها فى الدولة سوى مدينة واحدة متفوقة فى حجمها كل التفوق على سائر المراكز الحضرية الأخرى فى تلك الدولة . ولم يقتصر وجود المدن الأولى على المناطق غير الغربية . ومن أمثلة المدن الأولى التى ظهرت فى فترات مختلفة من تاريخ البلاد المذكورة : استوكهولم بالنسبة للسويد ، وأوسلو بالنسبة للنرويج . وباريس ذات مرة بالنسبة لفرنسا ، وبروكسل بالنسبة لبلجيكا ، والبندقية وروما فى فترات مختلفة من تاريخ ايطاليا ، وأثينا

بالنسبة لليونان • ويشير بيرت ف • هوزليتز Bert Hoselitz الى أن معظم الوظائف الرئيسية لتلك الدول قد تركزت فى تلك المدن فى مرحلة مبكرة جدا من تاريخها • ويلاحظ أن بعض الحجج التى تدل على الطبيعة الطفيلية لهذه المدن هى :

١ ــ أنها تلتهم أموال الاستثمارات •

٢ ــ أنها تمتص القوة العاملة •

٣ ــ وتسيطر على النمط الثقافى للدولة •

٤ ــ ذات تأثير ضار بنمو المدن الأخرى •

٥ ــ تتميز بمعدل استهلاك عال بالمقارنة بمعدل الانتاج الذى تقدمه •

ويبحث هوزليتز كلا من هذه الدعاوى ، ويلاحظ ــ بحق ــ أنه من المحتمل جدا أن الدولة فى مرحلة مبكرة من نموها لم تكن تستطيع أن تقدم أو تعول سوى مدينة عظمى واحدة فقط • كما يوضح هوزليتز أنه من الأمور البالغة الصعوبة التنبؤ بمتى وتحت أى ظروف يمكن أن تتضاءل أهمية المدينة الأولى فى بلد معين • ومن الواضح طبعا أن وجود حالة المدينة الأولى لابد وأن يختلف تبعا لحجم الدولة فلا يمكن أن تتوقع مثلا بالنسبة لدولة كبيرة كالهند ألا يكون فيها سوى مدينة أولى واحدة ، كما هو الحال بالنسبة لبعض بلاد غرب أفريقية • هذا على الرغم من أننا يجب ألا نتجاهل النموذج الكلاسيكى لنيجيريا حيث عرف ذلك البلد لفترة طويلة من تاريخه عددا من المدن ذات أحجام لا يستهان بها • ويوضح بريان ج • ل • بيرى Brian Berry أنه من المحتمل أن توجد المدن الأولى فى :

١ ــ البلاد التى ظلت حتى عصــور حديثــة تابعة سياســيا أو اقتصاديا لدول أخرى •

أو

٢ ــ البلاد الصغيرة التى كانت تضم ذات يوم مناطق شاسعة •

أو

٣ ــ البلاد التى يتميز اقتصادها بأنه من الحجم الذى لا يتطلب مدنا متوسطة الحجم • هذا وسنعرض فى مكان آخر من هذه الدراسة لدلالات وجود مدن أولى فى البلاد النامية ، كما استعرضنا مدى وجودها فى المادة التى أوردناها فى الفصل الأول •

بعض التنميطات الكلاسيكية :

هنــاك محاولات أخرى كثيرةلوضع تصــنيف أو تنميط للمناطق الحضرية فى البلاد النــامية • وقد قسم هنرى بيرن H. Pirenne المدن الى مجموعتين رئيسيتين هما :

١ ــ المراكز السياســية الثقافية ، مثــل دلهى ، وكيتو Ouito وبايبنج Peiping •

٢ ــ المراكز الاقتصادية مثل بومباى ، وجوايافيل : وشنغهاى • وهذا تصنيف على جانب كبير من البساطة ، ولكن لا يمكن الافادة منه فى تصنيف التنوع الكبير فى المراكز الحضرية الموجودة فى البلاد النامية فى الوقت الحاضر •

وقد حاول هوزليتز وضــع تصــنيف واســع على أساس المدن « المنتجة » والمدن « الطفيليــة » • وهو يعتبر أن المدينــة منتجة « اذا ما كان تأثيرها يعود بالفائدة على النمو الاقتصادى ، أى اذا كان تكوينها

ووجودها المستمر ونموها من العوامل المسئولة عن النمو الاقتصادى للاقليم أو البلد الموجودة فيه » • وتعتبر المدينة طفيلية اذا ما « كان لها تأثير معاكس لهذا » • ويوضح هوزليتز أن الفترات التى تكون المدن فيها طفيلية أو منتجة يمكن أن تختلف اختلافا بعيدا ، كما يمكن أن تتحول نفس المدينة من نمط الى آخر • كما يلاحظ أيضا أن بعض المدن يمكن أن تكون منتجة بالنظر الى بيئاتها المباشرة • ولكنها تكون طفيلية بالنسبة للمناطق الأكبر التى تسيطر عليها ، ويتصف تصنيف المنتجة والطفيلية هذا بما سبق أن قلناه عن تصنيف بيرن البسيط من أنه محدود ، وليس بالدرجة المطلوبة من التفصيل بحيث يستوعب جميع أنواع المدن الموجودة فى البلاد النامية •

هذا وقد أدخل كل من روبرت ردفيلد وميلتون سنجر تعديلات جوهرية على تصنيفى بيرن وهوزليتز ، اذ صنفا المدن على أساس دورها الثقافى الى محافظة ومجددة على النحو التالى : المحافظة هى التى « تنقل بشكل منظم ومتعقل reflective ثقافة قديمة » فى مقابل المجددة (أو المخالفة للأصل) وهى التى « تتكون من أساليب فكرية أصيلة يمكن أن تكون ذات سلطة أعلى من الثقافات والمدنيات القديمة أو متصارعة معها » • ويصف ردفيلد وسنجر الفئة الأولى ـ وهى المدن المحافظة ـ بأنها مدن ذات طبيعة أخلاقية moral ، فى حين يصف الفئة الثانية ـ وهى المدن المجددة ـ بأنها مدن ذات طبيعة تقنية technical • ويمكن أن تضطلع نفس المدينة ـ كما لاحظ ردفيلد وسنجر ـ بكلا الدورين الثقافيين • ولذلك يصبح هذا التصنيف طريفا ، ولكنه ليس مفيدا كل الفائدة بسبب عجزه عن التمييز بين ضروب التباين العديدة الموجودة بين المراكز الحضرية •

وقد وضع فيليب هاوزر Hauser تصنيفا آخر للمدن الى « قبل

صناعية » و « صناعية » ، و « ميتروبوليتانية » وهو يعرف تلك الفئات على النحو التالى :

« لا شك أن المدينة Town قبل الصناعية كانت ذات أهمية ثقافية عظمى • فهى مقر الحكومة ، والمركز الدينى للبلاد ، وموئل النشاط الابداعى العلمى والروحى •

ولكنها من الناحية الاقتصادية ذات صلة ضعيفة غاية الضعف بالاقليم الذى يزودها بالقوت ، وتمارس نوعا من التجارة البسيطة الداخلية ، دون أن تتميز بتقسيم واضح للعمل على المستوى الاقليمى •

أما المدينة الصناعية — على خلاف هذا — فتتميز بوجود تقسيم للعمل على مستوى الاقليم ، وينتظم وجودها نفسه حول الانتاج الذى تصنعه • وكما لاحظنا من قبل فان الأساس التقنى لهذا التنظيم عبارة عن قوة جاذبة اجتماعيا نحو المركز بآلتها المدارة بالبخار وبنظام التروس والسيور ناقلة الحركة • أما المدينة City الميتروبولتانية فتتميز ببعض خصائص المدينة الصناعية ، ولكن بشكل مكثف ، وان كانت ترتكز من ناحية أخرى على تقنية مختلفة • اذ استبدلت بالآلة المدارة بالبخار آلة الاحتراق والكهرباء التى تمثل فى كل مجالات تطبيقها — الانتاج ، وسبل الاتصال ، والنقل — قوة اجتماعية طاردة من المركز ، اذ تتيح للسكان مرة أخرى الانتشار نحو الريف » •

ومن سوء الحظ أن هذا التصنيف يتصف ببعض أوجه القصور ، شأن التصنيفات الأخرى التى سبقت الاشارة اليها من قبل •

ومن الأمور البالغة الفائدة لو أنه كان من الممكن وضع تنميط للتحضر فى البلاد النامية يمكن الافادة منه بشكل كامل • ولا شك أن

هذه مهمة ليست بالهينة • وهى وان كانت غير بعيدة الاحتمال ، الا أن النتائج تبدو مرهقة وقاصرة • ويبدو أن تنوع المراكز الحضرية فى البلاد النامية قد وصل الى الدرجة التى تجعل من الضرورى علينا الربط بين الأنساق التصنيفية المختلفة بحيث يمكن للتصنيف الذى تتوصل اليه أن يستوعب الظواهر الموجودة بكل تنوعها • ولم نستهدف فى دراستنا هذه أن نعرض بصورة شاملة جميع التنميطات أو الأنساق التصنيفية للمناطق الحضرية •• وان كان قد اتضح لنا من النماذج التى ناقشناها أنه من اللازم العمل من أجل وضع تنميط مفيد حقيقة • وربما كان من المهم النظر الى التحضر فى البلاد النامية من منظورات عدة مختلفة ، والتصنيف ــ حيث يكون ذلك لازما لأغراض معينة ــ على أساس حجم المنطقة الحضرية • أى ما اذا كانت الدولة من البلاد ذات المدينة الأولى عن طريق ازدياد التصنيع الواضح فى التحضر ، وغير ذلك من الخصائص الأخرى التى أشرنا اليها فى مقدمة هذه المناقشة • ومع أن هذه النتيجة يمكن أن تعتبر انسحابا من مواجهة المشكلة • فاننا نأمل أن يوضع فى المستقبل القريب تصنيف شامل يمكن أن يستوعب التحضر فى البلاد النامية بكل تنويعاته • وربما كانت محاولة وضع تنميط طريقة عقيمة لتناول التحضر فى البلاد النامية بكل صوره المعقدة • وربما كانت الاجابة عن ذلك دراسة العلاقات التحليلية بين التغيرات بأكبر قدر ممكن من البساطة وبأدنى حد ممكن من التعقيد •

التصنيع والتحضر

تناولت كثير من البحوث والمطبوعات موضوع العلاقة بين التصنيع والتحضر فى البلاد النامية •

وقد عرضنا فى أماكن متفرقة فى ثنايا هذه الدراسة لجوانب عديدة مختلفة للتصنيع من حيث علاقته بالتحضر فى البلاد النامية • ولذلك قد

يكون من الأنسب هنا الاقتصار على معالجة المسألة العامة الخاصة بعلاقة التصنيع بالتحضر باختصار •

هناك كثير من الملاحظات العارضة التى أشارت الى وجود ارتباط مباشر بين النمو الحضرى والنمو الصناعى ، فكان مختلف الكتاب يعتبرون كلا منهما « سببا » للآخر • ولكن على الرغم من وجود تزامن فى أغلب الأحوال بين التصنيع والتحضر ، فان العلاقات العلية بينهما ليست واضحة على الاطلاق ، ومما يؤدى الى غموض الموضوع بعض الشىء اننا نصادف بعض السمات الشائعة للتصنيع — مثل تقسيم العمل الشامل — فى بعض البلاد التى تعتبر غير صناعية نسبيا • من هذا مثلا أن من الصعب كل الصعوبة أن نجد تقسيما للعمل أكثر تفصيلا وشدة وشمولا من ذلك الموجود فى نظام الطبقات المغلقة الذى ظل قائما على مدى آلاف السنين مع عدم وجود أى درجة تذكر من التحضر والتصنيع •

وعلى الرغم من صعوبة وتعذر ايجاد علاقات وثيقة أو علية بين التصنيع والتحضر فانه من الواضح أن للتصنيع تأثيرا قويا فى كثير من جوانب التحضر ، فمن الرجح أن التصنيع لا يؤثر فقط — بدرجة بالغة — على معدل نمو بعض المناطق الحضرية ، وانما يؤثر كذلك فى نمط النمو الحضرى نفسه • وكذلك فى المستوى النسبى للنمو الاقتصادى الداخل فى التحضر •

من الواضح أن المراحل الأولى من التصنيع فى الدول النامية تتميز بالتركيز على تصنيع السلع الاستهلاكية الذى يتضمن فى أغلبه عمليات صناعية خفيفة • أما المراحل اللاحقة التى تتضمن الصناعة الثقيلة ، فمن الأرجح أن ترتبط ارتباطا مباشرا — من حيث اختيار موقعها — بوجود

المواد الخام ومصادر الطاقة • لذلك نجد مخططى التنمية الاقتصادية فى البلاد النامية يهتمون أعظم الاهتمام بعملية التصنيع نفسها بسبب هذه المواقع التى يمكن أن تتوطن فيها هذه المستويات المختلفة للنمو الصناعى بشكل كفء ، وبسبب نتائج ظهور الصناعة • وحجم عملية التصنيع • وقد جرت عادة هؤلاء المخططين على دراسة سير عملية التصنيع فى البلاد العربية بمزيد من العناية ، ومع ذلك لم يبين بشكل واضح أبدا أن من الممكن عمل تنبؤات يمكن الركون اليها بصدد ما سيحدث فى البلاد النامية على أساس تجربة الدول الغربية حيث بدأ لتصنيع فى ظل ظروف مختلفة كل الاختلاف • اننا لا يمكن أن نقلل بحال من الأحوال من أهمية التصنيع بالنسبة للتخطيط الاقتصادى فى بلد ما ، ونجد الموظفين المسئولين عن مثل هذا التخطيط واعين تمام الوعى بتدفق السكان الى المناطق الحضرية بمعدلات تفوق ــ بوجه عام ــ عدد الوظائف المتاحة • والمواقف الذى يتبنى فى ظل هذه الظروف عادة هو الاسراع فى التصنيع بأكبر قدر ممكن لتوفير فرص العمالة •

ومن الواضح أن التنمية الصناعية على هذا النحو تنطوى على كثير من المشكلات • ومن بين المشكلات أن الصناعة ــ خاصة اذا كانت شاملة وثقيلة ــ تعتمد جزئيا على « بناء تحتى » مرتبط بها ، أعنى نشاطات صناعية خفيفة وخدمات متخصصة معاونة • وعلى الرغم من أن القوة العاملة فى البلاد النامية سريعة التقبل للتدريب على العمليات الصناعية ، فان العملية تتطلب مدة من الزمن لا يستهان بها ولا يمكن أن ترتقى الى مستويات رفيعة فى خلال فترة زمنية وجيزة • ثم هناك علاوة على هذا مشكلة تدريب الأفراد ذوى المستويات الوسطى للاضطلاع بالجوانب الادارية والتنفيذية للمشروعات الصناعية • ولكن البناء التحتى

بصفة خاصة هو الذى يؤثر بشكل بارز فى كل من تحديد موقع الصناعة ومدى التصنيع فى البلاد النامية •

ويمكننا أن نقول بوجه عام ان عددا ضئيلا فقط من المدن هو الذى يستطيع الاضطلاع بقسط كبير من التصنيع فى المراحل الأولى من التنمية الاقتصــادية • والأرجح أن يكون هذا العــدد الضئيل هو تلك المدن الكبرى حيث يقوى احتمال وجود صناعات مختلفة قادرة على الاضطلاع بالنفقات العامة الغالية لمحطات القوى ، ومحطات تكرير المياه ، ومحطات معالجة مخلفات المجارى وغيرها من المرافق ، علاوة على ما يرتبط بذلك من مهارات وتسهيلات يجب توفيرها لامداد الصناعات نفسها باحتياجاتها• ومن الواضح أن مثل هذه المرافق ، والخدمات ، والاستعدادات لا تتيسر فى البيئات القروية ، اذ من المؤكد أن التصنيع الذى يقام فى مثــل هذه الأماكن المنعزلة يكون باهظ التكاليف بسبب ضرورة تدبير نفقات كل من انشاء الصناعة نفسها وتوفير البناء التحتى اللازم لهــا • يضاف الى هذا نفقات الحصول على السلع الجــاهزة اللازمة لمستهلكى المنــاطق الحضرية الكبيرة ، حيث يمثل هؤلاء المستهلكون فى البلاد النامية أكبر سوق للســلع الكاملة الصنع • والنتيجة المألوفة لمثــل هذا الوضع أنه لا يستطيع تدبير متطلبات التصنيع الأولى فى البلاد النامية ســوى عدد ضئيل نسبيا من المدن ، أوحتى مدينــة واحدة فقط فى حالة البلاد ذات المدينة الأولى •

ومما يزيد العلاقة بين التصــنيع والتحضر تعقيدا أنه لا يشــترط وجود توقيت مناســب ، أو على الأقل ومعقول لمعــدل التحضر ومعدل التصنيع ، حتى لو افترضنا أنهما يتقــدمان بدرجات متكافئة • وغالبــا

ما نجد اليوم أن التحضر المعاصر يسبق التصنيع دائما ، اللهم الا بعض الحالات الواضحة ، مثل تأسيس « مدن جديدة » لانشاء مصانع الصلب وأمثالها من المصانع . ومن مشكلات التنمية الرئيسية فى هذه البلاد هو ما اذا ممكنا للتصنيع — ومتى يكون ممكنا له — أن يلحق بالتحضر فيما يتعلق بتوفير فرص العمل . لذلك يعتبر تضييق هذه الهوة أحد الأهداف الرئيسية لمخططى التنمية الاقتصادية ، وقد أصبح من الأهمية بحيث يكاد يسيطر على عملية تخصيص الموارد المتاحة فى المراحل الأولى من عملية التنمية .

ولهذا الموضوع من النتائج ما لا يتسع المقام للتفصيل فى عرضه هنا وقد أشار ويلبرت مور الى الأهمية الكبرى للتخطيط الدقيق للتصنيع فى المستقبل . اذ كتب يقول :

« ان العلاقة بين التصنيع والتحضر ليست كاملة على أى حال . اذ نمت المدن الكبرى فى كثير من البلاد كمراكز « حضارية » وادارية ، و « كقرى متضخمة » من الفلاحين ، وكمقر لأصحاب الأراضى الغائبين عن أملاكهم . وأخيرا كمراكز للتجارة . ومن المحتمل أن يتركز الجانب الأكبر من النمو الاقتصادى المقبل فى هذه المناطق الحضرية . وذلك لمجرد أنها قائمة بالفعل علاوة على أنها توفر القوة العاملة المطلوبة وتقدم مختلف المرافق العامة . ومن المتوقع أن يطرد التحضر ، بما فى ذلك نمو مراكز سكانية جديدة » .

وتبدو نتائج العلاقة بين التصنيع والتحضر واضحة الأهمية بالنسبة لموضوع وضع تنميط أو تصنيف للمناطق الحضرية .

مورفولوجية المناطق الحضرية

ان معرفة مورفولوجية المناطق الحضرية فى البلاد النامية تيسر فهم الخصائص العامة للمدن ودلالاتها بالنسبة لتلك البلاد • وقد وجهنا قدرا كبيرا من اهتمامنا فى الفصل الرابع من هذا الكتاب لموضوع تنمية المناطق الحضرية ، ومختلف أنماط النمو ، والعمليات الأيكولوجية الفعالة ، وأنماط استخدام الأرض ، والقيم ، وملكية الأرض ، وكذلك المسائل العامة المرتبطة بمرافق وخدمات التموين • على أن أفضل ما يخدم هدفنا الحالى تقديم عرض للتحضر فى احدى الدول النامية ، مدركين أن هناك اختلافات كبيرة لها دلالتها عن هذا النموذج فى أماكن أخرى ، ولكن مفترضين أن هذا النموذج يطرح علينا الدرجات المختلفة فى مورفولوجية المنطقة الحضرية •

وعلى هذا تتحول دراستنا هذه الى مناقشة لمورفولوجية مدينة دلهى ـ نيودلهى بالهند • باعتبارها تتضمن معظم سمات التحضر فى البلاد النامية ، وخاصة فى المدن الكبرى وتلك التى تعرضت لمؤثرات النمو الوطنية والاستعمارية • ثم ما تلا ذلك من نمو خلال فترة التحرر الوطنى • ومن بين الأشياء التى سنلاحظها فى دراسة هذا النموذج أنه من الطبيعى فى حالة عدم وجود تراث قومى فى التحضر أن تقلد الأشكال والأساليب الغربية • وربما كان من عوامل التأثير فى هذه الظاهرة مشاركة الأجانب ، وفكرة أن الأشكال الحضرية الغربية الموجودة الآن ستكون قريبة من صورة التحضر فى هذه البلاد فى المستقبل • وهكذا يظل التساؤل قائما : عما اذا كان من الممكن والمرضى « استزراع » أنماط من التحضر الغربى فى هذه البلاد والقدرة على استخدامها بشكل مرض فى اشباع الاحتياجات المختلفة •

وتقدم لنا دراسة النموذج التالى صورة لاحدى المناطق الحضرية الرئيسية التى تتعرض لتغير سريع •

جدول رقم (١)

حركة الركاب داخل المناطق الحضرية
مصنفة على حسب وسيلة الانتقال ، دلهى ، ١٩٥٧(*)

وسيلة الانتقال	عدد رحلات الركاب	
	العدد	النسبة المئوية
الدراجات	٤٠٠,٠٠٠	٣٦
أتوبيسات النقل العام فى دلهى	٢٤٠,٠٠٠	٢١
التونجا (عربات ذات عجلتين تجرها الخيول)	١٣٦,٠٠٠	١٢,٦
السيارات الخاصة	١١٠,٥٠٠	١٠,١
التاكسيات	٦٠,٠٠٠	٤,٤
عربات الريكشا البخارية (بموتورات)	٤٥,٠٠٠	٤,٠
عربات الريكشا ذات أربعة مقاعد بموتور	٤٢,٤٠٠	٣,٨
عربات ريكشا ذات عجلات	٤٢,٤٠٠	٣,٨
أوتوبيسات خاصة	١٥,٠٠٠	١,٣
الترام	١٤,٠٠٠	١,٢
دراجات بخارية	١٢,٥٠٠	١
السكك الحديدية	٦,٠٠٠	٠,٤
المجموع الكلى	١,١٢٣,٨٠٠	١٠٠

(*) المصدر :

مسح بداية ونهاية النقل فى منطقة دلهى الحضرية لعام ١٩٥٧ ، وكذلك بيانات هيئة النقل فى دلهى عن عام ١٩٥٧ . وقد أخذت مع بعض تصويبات من هيئة تنمية دلهى . « مشروع خطة شاملة لدلهى » (١٩٦٠) ، المجلد الأول صفحة ١٣٨ ، الجدول رقم ١٠ .

دراسة حالة لمدينة دلهى ــ نيودلهى بالهند

التناقضات الداخلية فى المدن الهندية :

ان وضع تعميمات بخصوص بعض المناطق الحضرية الهندية البالغة الضخامة لا يقل صعوبة عن وضع هذه التعميمات بالنسبة للتحضر الهندى فى مجموعه • بل ان تنوع الظواهر يبدو فى بعض الأحيان وكأنه يتحدى كل جهد • وتزداد هذه المشكلة صعوبة بالنسبة لكبريات المدن الهندية بصفة خاصة ، نظرا لأن مواقعها ، ومواضعها ، ودرجات التأثير الأجنبى فيها تختلف من حالة لأخرى اختلافا بينا • من هذا مثلا أن الاختلافات فى سمات الموقع بين كلكتا ، ومدراس ، ودلهى ، وبومباى تثير الشك فيما اذا كان من الممكن عقد أى مقارنات بينها على الاطلاق • ولو أنه مما يبعث على الدهشة أن نلاحظ مدى كثرة أوجه الشبه فى الظواهر الحضرية التى يمكن أن نستخلصها برغم هذه السمات المتنوعة •

ومن أبرز سمات المدن الهندية الكبرى ، جمعها بين كثافة سكانية عالية جدا فى مناطق صغيرة نسبيا وكثافة سكانية منخفضة نسبيا فى مناطق أخرى كبيرة • وتزداد هذه الظاهرة وضوحا فى منطقة دلهى بوجود نيودلهى ، وهى حالة خاصة سوف نختصها بالحديث فيما بعد • وتتميز نفس هذه المناطق الحضرية الهندية الكبرى ــ علاوة على تناقض الكثافة المرتفعة فى المنطقة الصغيرة • والكثافة المنخفضة فى منطقة كبيرة ــ تتميز بوجود مناطق سكن مؤقت سريعة النمو • وتقع هذه المناطق عادة أما داخل المدينة القديمة واما بالقرب منها ، أو على هامش المنطقة الحضرية • وهى أحياء « الباسطى » • أو « مدن العشش الصفيح » • التى سنفصل القول عنها فيما بعد •

كذلك تمثل نمط الطرق والمرور المتناقض جزءا من « الصورة العامة » للمدينة الهندية الكبيرة • فاذا أجلنا الحديث عن التفاصيل فانه

يكفينا الآن أن نشير الى التناقض الحاد بين الصورة المعقدة لشبكة الطرق فى المدينة القديمة ، وصورتها التى تأخذ شكل خطوط المشواة المائلة فى المناطق الجديدة •

كما يهمنا فى هذا الصدد نمط خطوط السكك الحديدية • وقد دخلت السكك الحديدية الى المناطق الحضرية الكبرى فى تاريخ حديث نسبيا ، شأنها فى ذلك شأن المدن الأوربية • يترتب على هذا أنها نادرا ما تجتاز منطقة المدينة القديمة ، وان كانت تندفع الى أبعد مدى ممكن فى الداخل لانشاء المحطات ، وحظائر السلع ••• الخ • ثم تضيق حلقاتها حول المناطق التى كانت مبنية آنذاك ، ثم أحاط بها النمو من النواحى المختلفة فيما بعد •

ويعتبر الخليط المتنوع من وسائل النقل والمواصلات فى المدن الهندية الكبرى عاملا آخر من عوامل تعقيد شبكة الطرق (انظر الجدول رقم ١) ، فأولئك الذين يسيرون من مكان الى آخر يقومون بالغالبية العظمى من الرحلات ، ولهم أعمق الأثر فى توزيع استخدام الأرض • أما بالنسبة لأولئك الذين ينتقلون بوسائل انتقال أخرى وينقلون السلع من مكان الى آخر بوسائل خلاف حملها على ظهورهم ، فان الوسائل أمامهم كثيرة ومتباينة ، وتتغير مع الوقت (انظر الجدول رقم ٢) فتتراوح الحيوانات والعربات ذات العجلات ابتداء من الجمل البطىء والحمار حتى سيارات النقل المفرطة السرعة ، وقطارات الضواحى السريعة • كما هو الحال فى بومباى مثلا • ونجد بين هذين القطبين البعيدين : عربات التونجا (عربات ذات عجلتين تجرها الخيول) ، والعربات ذات المقعد الواحد التى يجرها آدمى ، وعربات الريكشا البخارية ، والدراجات ، والعربات التى تجرها الثيران ، وسيارات التاكسى ، والسيارات الخاصة ، وسيارات النقل بأنواعها المختلفة ،

وعربات اليد ، والاتوبيسات والترام ، مكتفين هنا بذكر وسائل النقل الرئيسية • وهذا الخليط المنوع من وسائل النقل — الذى يشغل يمين الطريق بأسلوب مضطرب — يعتبر سببا ونتيجة فى نفس الوقت للفوضى الكبيرة فى استخدام الأرض التى تميز المناطق الحضرية الهندية ، وخاصة فى أحياء المدينة القديمة •

ومن شأن كل هذه العوامل المتنوعة أن تخلق نوعا من المرور المكتظ الذى يمكن أن يسبب رعبا قاتلا لخبراء المرور الأجانب الذين يزورون المدينة غير أنه ليس من الصعب تحديد أسباب هذه الفوضى فى وسائل النقل والمواصلات • فبالنسبة للمدينة القديمة حيث المسافات غير كبيرة وتحركات مجموعات الأفراد ليست ضخمة نجد فى الحقيقة نوعا لا ينكر من الكفاءة فى النقل الرخيص ، البطىء ، الضئيل السعة والقادر على مسايرة شبكة الطرق المعقدة المتشابكة • أما الشوارع الرئيسية القليلة فيتحتم عليها استيعاب نقل المسافات الطويلة وتحركات المجموعات الكبيرة الساعية وراء السرعة ، وان كان سعيها غير ذى جدوى على العموم ما دامت هذه الشوارع نادرا ما تكون معدة الاعداد الفعال لحركة مرور كهذه • أما فى المناطق الجديدة — حيث أنواع الشوارع وتصميمها أكثر اقترابا من شوارع البلاد الأوربية — فهناك زيادة مقابلة فى سرعة الحركة ، وان كان يقلل منها على أى حال الضرورة التى تحتم مرور عربات فى هذه الشوارع ذات سرعات متفاوتة •

وتثير هذه الملابسات مجموعة منوعة من الأسئلة أمام مخططى المدن :

— كيف يمكن الفصل بين وسائل النقل المختلفة ، هل من الممكن — أو المطلوب — التوصية بتوحيد موقف نهاية خطوط الأتوبيس ، الى أى مدى يمكن العمل على ايجاد نمط مرشد من استخدام الأرض

بأســاليب متفاوتة وكذلك المنــاطق الوظيفية .. الى آخــر ذلك من التساؤلات .

ومن شأن هذه الأسئلة أن تثير آليا موضوع استخدام الأرض . والاتجاهات الممكنان فى هذا الصدد هما :

١ ــ دراسة الأنواع المختلفة من اســتخدام الأرض فى توزيعها على المنطقة بأكملها .

٢ ــ تحليل الأقسام المختلفة للمنطقة الحضرية (مثل : المدينــة القديمة ، المعسكرات ... الخ . ولا شك أن كلا الاتجاهين ضرورى ، والوضع الأمثل طبعا أن نأخذ بهما فى نفس الوقت .

استخدام الأرض

ان التنوع الكبير فى استخدام الأرض فى المناطق الحضرية الهندية يختلف اختلافا بينا عن الفصل الشائع فى أســاليب استخدام الأرض فى المدن الانجــلو امريكية . ويبدو ان هذا الوضــع محصلة تاريخ طويل من النمو المتماسك والضرورة المستمرة للسير بين أماكن الاقامة وأماكن العمل أو الترفيه .

للأغراض التجارية :

ان استخدام الأرض للأغراض التجارية فى المناطق الحضرية الهندية لا يتشابه الا قليلا مع نظيره فى المدن الأنجلو أمريكية . فعلى حين نجد حى الأعمال الرئيسى فى المدينة الأنجلو أمريكية يتمركز فى نقطة بؤرية محــدودة أكبر التحديد مســتخدما الأرض بأقصى تركيز ممكن ، نجد نظيره فى المدينة الهندية القديمة عبارة عن تركيز للاستخدامات التجارية

فى منطقة بؤرية أكثر اتساعا • وليس هناك دليل كبير على وجود تطابق فى موقع كلتا المنطقتين بالنسبة للمدينة • وقد يكون من بين أسباب ذلك فى بعض الحالات عدم وجود منطقة صغيرة واحدة يمكن أن تؤدى اليها جميع الطرق ووسائل النقل العامة ، ومن ثم لا يوجد ما يؤدى الى تأكيد الموقع • ويمكننا أن نقول على وجه الاجمال : ان الموقع التجارى يتميز بالصغر ، اذ توجد متاجر كثيرة لا يتجاوز اتساع الواحدة منها بضع أقدام قليلة • ومن شأن صغر حجم الوحدات أن نسمح باقتسام النفقات القليلة لايجار الموقع والمتجر بحيث يمكن أن تبقى وتستمر المتاجر ذات العمليات المحدودة التى تبدو فى الظروف العادية عاجزة عن البقاء والاستمرار • وليس من الغريب أن تجد تصنيع وبيع نفس السلعة يتم فى مؤسسة واحدة •

والأرجح بصفة عامة أن نجد فى المدن الكبرى أن مختلف أنواع السلع والخدمات تنفرد بمناطق خاصة تكون معا ما يعرف باسم الشوق Chauk ، وتتميز كثير من تلك الأجزاء الخاصة من منطقة الشوق بأنها صغيرة للغاية ، وان كنا نجد أن بعضها يمكن أن يتحول فى بعض الأحيان الى مراكز فرعية ذات حجم لا يستهان به ، مثل مخازن الحبوب التجارية أو أسواق الملابس • كذلك نجد المتاجر والخدمات المترابطة تتجاور الواحدة بعد الأخرى ، بحيث لا تصبح عملية الشراء أكثر من التوقف عدة مرات ، نظرا لأن كل تاجر لا يتعامل عادة الا فى طائفة محدودة جدا من السلع •

والأرصدة المخزونة من السلع منخفضة عادة ، ولكن حيث تحتم طبيعة السلع المتعامل فيها وجود رصيد مخزون ، فانه يخزن فى تلك

الحالة فى مخازن (تعرف باسم Godowns) مجـاورة • ويتطلب حجم العمليـات وضآلة رأس المال المستخدم عمليات نقل صغيرة متعددة من المخازن الى تجار الجملة • وتؤدى هذه الطريقـة ــ الى جانب الطبيعة الانتشارية للشوق ــ الى خلق بعض المشكلات التخطيطية ، مثل تركيز مواقف سيارات النقل للشحن والتفريغ فى أماكن محددة •

أما فى المدينة الكبيرة فيستبدل الشـوق القديم ــ أو يطغى عليه غالبا ــ بحى الأعمال المركزى ذى الطراز الأنجلو أمريكى • وقد يجاور هذا الحى الجديد أحيانا قلب المدينة القديمة ، كما هى الحال فى بومباى أو تفصل بين كلا (المركزين) مسـافة غير قصيرة ، كما فى دلهى مثلا • وتسعى مثل هذه المراكز الجديدة الى أن تكون صـورة طبق الأصـل لنماذجها الأجنبية ، وان كان نطاقهـا محدودا ، وتركيبها أقل تركزا ، وتختلط بأنواع أخرى من اسـتخدام الأرض • وكثيرا ما نجد ــ وان لم يكن دائما ــ علاقة وثيقة بين هذا الحى التجـارى المركزى ومحطة السكك الحديدية والمنطقة السكنية ذات الطراز الأنجلو أمريكى •

وهناك طريقة أخرى من طرق التسـويق المركزى التى تتطلب منا هنا اشارة عابرة ، وأعنى بها السوق الذى يتكون من عشرات المتـاجر الصـغيرة التى يجمعها سـقف واحد ، وينقسـم الى حد ما الى مناطق متخصصة تبعا لنوع السلعة التى يتعامل فيها • وسوق « السير ستيوارت هوج » فى كلكتا مثال على ذلك • وتذكرنا هذه الصورة ، الى حد ما ، بالسوق ، كما نعرفه فى منطقة الشرق الأوسط ، ولكنا نجد المتاجر هنا مجمعة وليست مصفوفة على هيئة خط •

أما أسواق تجارة الجملة فى المواد الغذائية فتقع عامة خارج منطقة

الشوق ، ولكن فى موقع يسهل الوصول اليه من جميع الطرق الرئيسية الآتية من الريف المحيط . ذلك أن معظم المنتجات المتعامل فيها تنمو فى مناطق تابعة مباشرة للمنطقة الحضرية . وتنقل اليها وهى غضة «طازجة» . وغالبا ما يوجد سوق سلع الانتاج قريبـا من خطوط السكك الحديدية الجانبية . وحيثما تنمو المدينة بحيث تتجاوز سوق المدينة القديمة ، أو تتسع خارج حدود المنطقة المبنية بمسافات بعيدة ، تنشأ أسـواق بعيدة على مسافات منتظمة قريبة . وقد تنشأ تلك الأسـواق الجديدة بطريقة رسمية مرخصة ، أو غير مرخصة فى أغلب الأحيان . وتضطر معظم الأسر ــ بسبب نقص امكانيات التبريد وانخفاض الدخل ــ الى شراء احتياجاتها يوما بيوم . الأمر الذى يضفى أهمية كبرى على الأسـواق الواقعة على بعد خطوات من البيوت .

وتتوزع فى مختلف أنحاء المدينة القديمة ــ وفى أماكن محددة بعض الشىء من المناطق الجديدة ــ أسـواق فرعية صغيرة نسبيا ، فضلا عن بعض مناطق التجزئة المستقلة التى تخدم مناطق محدودة جدا . ويكمل هذه الخدمات أعداد لا تحصى من الباعة الجـائلين وتجار « الأرصفة » الذين لا يتحملون أى نفقات استئجار محل تجارة خاص .

وباستثناء السكن ،فان الاسـتخدامات التجارية موجودة فى كل مكان فى جميع الأوقات فى المدينة . ولا نجد ــ الا فى المناطق التى بناها البريطانيون ــ نوعا من الفصل بين استخدام الأرض للأغراض التجارية واسـتخدامها للأغراض السـكنية ، وهو الأمر الذى يكاد يبلغ درجة التقديس فى المدن الأمريكية .

جدول رقم (٢)

عدد السيارات المرخصة ووسائل النقل التى يجرها الآدميون والعـربات التى تجرها الحيوانات فى منطقـة دلهى الحضرية عام ١٩٤٧ وعامى ١٩٥٧ ـ ١٩٥٨(*)

نوع وسيلة النقل	١٩٤٧	١٩٥٧
السيارات	٦,٤١٤	١٠,٢٨١
الدراجات البخارية	١,٨٤٢	٥,٧١٥
الأتوبيسات	٣٣٠	١,٠٢٣
عربات الريكشا البخارية	لا توجد بيانات	١,٠٠٥
التاكسيات وتاكسيات السياح	٢٦٢	١,٣٩١
سيارات النقل :		
سيارات النقل العامة	لا توجد بيانات	لا توجد بيانات
سيارات النقل الخاصة	٦٧١	٢,١٩١
سيارات المدارس والسيارات الحكومية	٢٨٤	٥٤٣
المجموع الكلى	٩,٨٠٣	٢٢,١٤٩
	١٩٤٨ـ٤٧	١٩٥٨ـ٥٧
التونجا (عربات ذات عجلتين تجرها الخيول)	٣,٣١١	٣,٠٣٤
الراهرا (عربات ذات عجلتين تجرها الخيول لنقل البضائع)	١,١٠٩	١,٠٧٥
عربات كارو	٣,٥٢٦	٣,٤٩١
عربات يد	٦٦٣	٢,٨٥٦
عربات ريكشا ذات عجلات	٢٥٠	٧٠٠
دراجات	لا توجد بيانات	١٤٦,٩٦٦
المجموع الكلى	٨,٨٥٩	١٥٨,١٢٢

(*) المصادر : بالنسـبة للسـيارات . ادارة الاشراف على النقل بالسيارات ، دلهى . بالنسبة لوسائل النقل الآدمية والحيـوانية وموظفى البلدية . وقد قامت هيئة تنمية دلهى باختيار الحيوانات ، وتصحيح بعض المجموعات الكلية . « مشروع خطة شـاملة لدلهي » (١٩٦٠) ، المجـلد الأول ، صفحة ١٢٥ ، الجدولين ٤ و ٥ .

للأغراض الصناعية :

يمكن أن يوجد النشاط الصناعى ـ وهو موجود فعلا فى كل مكان تقريبا فى المدينة الهندية ـ ولا توجد تقاليد تذكر فى مجال التنفيذ الفعال للضوابط المفروضة على تحديد أماكن وجود الصناعة • ويرجع توطن الصناعة فى شتى أجزاء المدينة الهندية الى تحول كثير من الحرف المحدودة النطاق تدريجيا الى الانتاج الصناعى ، وكذلك الى زيادة الطلب على السلع التى يحسن انتاجها على نطاق ضخم •

حقيقة أن هناك بعض المصانع التى خضعت لنوع من التخطيط فى الهند ، وأن هناك بعض الحالات التى وضعت فيها مصانع كبرى بالذات فى أماكن مناسبة وسليمة من جميع الوجوه على أن هذا يمثل الاستثناء ، لا القاعدة العامة فى المدينة الضخمة ، وهى محور اهتمامنا الأول هنا • ولو أن السياسة المرسومة للمستقبل تتصور ادخال تحسين تدريجى فى هذا الاتجاه •

ويتركز القدر الأعظم من الصناعة فى المدن الهندية فى منطقة المدينة القديمة ، وفى ملحقاتها أو تفرعاتها الخارجية ذات الكثافة السكانية العالية • ومعظم تلك المصانع من ذات النطاق المحدود ، سواء من حيث عدد الأيدى العاملة فيها أو حجم رأس المال • ويتم الانتاج فى أغلب الأحوال فى مبان محولة لم تبن خصيصا لهذا الغرض أو فى غير ذلك من الأماكن التى لا تناسب هذا الاستخدام • وهى فى كلتا الحالتين لا تتيح فرصة التوسع ، بل كثيرا ما يضطر حجم الانتاج القائم فعلا المسئولين الى التوسع التدريجى خلسة على أرض الشوارع القريبة أو فى داخل مبان مجاورة • وفى الحالات التى بدأت فيها احدى الصناعات بداية محدودة ثم نمت بسرعة فائقة نجد أن توسعها فى المناطق المجاورة غالبا ما يؤدى الى اهمال تلك المناطق التى تعرضت للغزو • ويخلق بذلك بيئات

كريهة وأسلوبا قاصرا فى تنظيم المصنع بصورته الجديدة • ولعل الميزة الكبرى لهذا التوزيع العشوائى للمصانع هى ـ نظريا على الأقل ـ تقليل وقت ونفقات رحلة الذهاب الى العمل • وهو عامل له أهميته بالنسبة لعامل ذى دخل منخفض يعمل عددا كبيرا من الساعات • على أنه ما زال من غير المؤكد ما اذا كان العمال يأتون فعلا من المنطقة المجاورة ، حيث لم تجد أية دراسات عن هذا الموضوع •

وهناك أوجه قصور عدة تترتب على ضعف الامكانيات الفنية للمصنع ، والتوزيع العشوائى الى حد ما للصناعات • وحجمها المحدود بصفة عامة • من هذا مثلا أنه يبدو من المحتم تنفيذ بعض الأساليب الأنجلو أمريكية فى الربط بين الصناعات المختلفة فى المدن الهندية ، بما ينطوى عليه ذلك من نفقات اضافية ومشكلات • ويرجع ذلك الى أن مختلف مراحل الانتاج قد نفذت على مراحل منفصلة لم تجمع بينها خطة واحدة ، أو بسبب الاعتماد على عدد محدود من المصانع الهامشية للاضطلاع بالخدمات المساعدة ، بحيث ان تقصير أى منها فى أداء واجبه يؤدى الى حدوث مضاعفات للخط الانتاجى كله • على أن هذا لا يعنى أن كل الصناعة الهندية مصابة بهذه المثالب ، فبعضها على درجة عالية من الكفاية •

وعلى مخططى المدن أن يقترحوا الخطوات العملية والتدريجية ـ لأن التغيير سيكون حتما شديد البطء ـ من أجل زيادة كفاية استخدام الأرض للأغراض الصناعية ، واتساق هذا الاستخدام مع الوظائف الحضرية الأخرى • ولكى يتيسر هذا لابد من اجراء مزيد من البحوث من أجل فهم أنماط استخدام الأرض للأغراض الصناعية القائمة فعلا والمحتملة •

للأغراض السكنية :

سوف نعرض فيما بعد بمزيد من التفصيل للأنماط السكنية المختلفة ، وذلك عند حديثنا عن أقسام المدينة • ولذلك نقتصر هنا على بعض الملاحظات التى تمثل خلفية عامة للموضوع •

ربما كان أهم ملامح النمو السكنى التباين الكبير فى الكثافة السكانية بين مختلف أحياء المدينة • من هذا مثلا نجد أن الكثافة الكلية فى دلهى تتراوح بين متوسط قدره ٣٢٩ نسمة فى الكيلومتر المربع فى نيودلهى ، ومتوسط قدره ٥٣٣٣٥ نسمة فى كم٢ فى دلهى القديمة • وهى أرقام مضللة بعض الشىء بالنسبة لظروف المعيشة للكثافة الفعلية • فبما أن الكثافات الكلية تتضمن المناطق المخصصة لحظائر عربات السكك الحديدية ، والشوارع •• الخ ، فان الكثافة الفعلية ــ أو الصافية ــ كثيرا ما تكون أعلى من ذلك بكثير • وهكذا يشير Popegomage [(١)] بالنسبة لدلهى مثلا الى أن الكثافة الكلية لدائرة « بوابة كشمير » هى ١٨,٥ نسمة فى كم٢ ، فى حين تبلغ الكثافة الفعلية ٧٥ نسمة فى كم٢ • وتبلغ الكثافة الكلية فى دائرة جاما مسجد Jama-Masjid ٩٨,٥ نسمة فى كم٢ فى حين أن الكثافة الصافية ٢٨٢ نسمة فى كم٢ • وتبلغ الكثافة الكلية فى دائرة Roshanara-Extension ٢١,٢٥ نسمة فى كم٢ والكثافة الصافية ٨٩,٥ نسمة فى كم٢ • وفى دائرة Ramnagar تبلغ الكثافة الكلية ٥٥,٢٥ نسمة فى كم٢ فى حين أن الكثافة الصافية ١٠٥ نسمات وهكذا بالنسبة لباقى أحياء المدينة • والعامل الهام هنا بالطبع أن تلك الاختلافات الشاسعة فى الكثافة توجد فى مناطق تتكون مبانيها من طابق واحد أو طابقين أساسا • أما حيث تعلو المبانى ــ كما هى

---

(١) Bopegomage, Bombay, University of Bombay, 1957.

الحال بالنسبة لمبانى الشاول Chawl [1] فى بومباى ـ فان الكثافات ترتفع عن ذلك ارتفاعا كبيرا •

وتلفت التقديرات الحديثة الى وضعها ر• الفسين R. Ellefsen ـ من منظمة البحوث الحضرية الدولية التابعة لجامعة كاليفورنيا ـ تلفت النظر الى تناقضات صارخة بين كثافات الأحياء الداخلية وكثافات الأحياء الهامشية فى ثلاث عشرة مدينة كبرى •

ففى المدن التى يشير اليها باسم « المدن التى نمت فى العهد البريطانى » (وهى بنجالور ، وبومباى ، وكلكتا ، ومدراس) تتراوح الاختلافات بالنسبة لعدد الأشخاص فى الميل المربع الداخلى والخارجى بين ٣ : ١ و ٥ : ١ • أما فى « المدن التى نمت فى فترة ما قبل الاحتلال البريطانى » فان نسب كثافة المناطق الداخلية الى الهامشية تبلغ تقريبا فى « أحمد أباد » ٨ : ١ ، وفى « الله أباد » ٦ : ١ وفى « باراس » ٨ : ١ وفى « باروا » ٩ : ١ وفى « دلهى » ١٣ : ١ وفى « حيدر أباد » ٤ : ١ وفى « كولهابور » ٥ : ١ وفى Lucknow ٤ : ١ وفى « بونا » ٨ : ١ •

ويمثل هذا التفاوت فى الكثافة من وجهة نظر مخططى المدن تفاوتا شاسعا فى أسباب الترفيه بحيث يلزم بذل كل جهد ممكن لخلق نوع من التناسب بين كثافات الأحياء المختلفة • ومن الاحتمالات المطروحة لتقليل كثافة الحى الداخلى زيادة كثافة المناطق ذات الكثافة الشديدة الانخفاض

---

(١) الشاول عبارة عن مبنى يتكون من ثلاثة او اربعة طوابق • وتقوم فكرته عامة على أن يتكون كل دور من صفين متقابلين من الشقق الصغيرة ذات الحجرة الواحدة التى تفتح على صالة رئيسية • ومن الشائع أن تشترك أكثر من أسرة واحدة فى سكنى الشقة سواء تم ذلك بطريقة رسمية او خلسة •

مثل « نيودلهى » و « الحى الأفرنجى » • من هذا مثلا أن أحجام قطع الأرض وأنماط استخدام الأرض فى نيودلهى تسمح باجراء زيادة سهلة نسبيا فى الكثافة تتراوح بين ١٩ ــ ٢٢,٥ نسمة فى كم[٢] ، مع المحافظة على مستوى عال تماما من أسباب الترفيه • وقد يلزم اللجوء الى مثل هذا الاجراء لتخفيف الازدحام والضغط على المبانى المتداعية ، ما دامت فكرة اعادة الانشاء الأنجلو أمريكية غير عملية ازاء ضرورة الحفاظ على كل بناء يمكن استخدامه بالجهد ، لسكنى الأعداد المتزايدة باستمرار من السكان ، حتى دون تقليل العجز الموجود فعلا فى الاسكان •

ولم تشف المدن الهندية الكبرى تماما بعد من آثار طوفان السكان الذى أعقب التقسيم والذى زاد من حدته طوفان الهجرة الداخلية المستمرة من المناطق الريفية •

وقد تجمعت أعداد كبرى من هؤلاء اللاجئين والقادمين الجدد ــ كما سنشير فيما بعد ــ على أرض فضاء ليست مملوكة لهم ، أو يسكنون بيوتا يسعى أصحابها الى حشرها بما يفوق طاقتها من السكان • مما يؤدى بالتالى الى زيادة كثافة المدينة القديمة والمناطق المكتظة التى تتمتع بميزة القرب من أى فرص عمل ممكنة ، ويمثل هذا المقر الجديد من وجهة نظر اللاجىء أو القادم الجديدة نقطة ــ مهما يكن سوؤها ــ يمكن الانطلاق منها نحو تكوين مستقبل جديد • ويتفاوت حظهم فى اصطياد الوظائف بين دلهى وكلكتا •

وأخيرا : علينا أن نأخذ هذه الملاحظات عن أوجه استخدام الأرض فى المدن الهندية على أنها تصور الحالة العامة • أما عن بعض المدن بالذات فينبغى الاشارة الى الاختلاف الناجم عن تباين الظروف الطبوغرافية (الموقع) ، والموضع بالنسبة للمدن الأخرى ، وبالنسبة

للدولة (الموضع) والحقبة التاريخية التى حدث فيها النمو الرئيسى فى المدينة وغير ذلك من العوامل التى تتدخل فى تحديد ملامح الصورة • ولم نحاول هنا اطلاقا تفصيل الكلام عن كل هذه الاختلافات ، حتى بين المدن الكبرى التى كانت محل اهتمامنا الأول •

أقسام المناطق الحضرية الهندية الكبرى

يتحقق المدخل المفيد الثانى الى فهم المناطق الحضرية الهندية عن طريق تكليل مختلف أجزاء المركب الحضرى وهى : المدينة القديمة (أعنى الوطنية) ، والحى الأفرنجى Civil Lines ، ومناطق الاسكان الحكومى والمعسكرات والباسطى، ، والجيوب القروية ، ومما يعرف باسم « الملحقات الغربية » ، ومناطق النمو الحديث •

المدينة الوطنية :

ان كون بعض المدن الهندية الشديدة الضخامة قد قطعت شوطا بعيدا عن نموها تحت تأثير غربى يجعل من دراستنا للقسم الوطنى القديم أمرا معقدا بعض الشيء • على أن الملاحظ أن المناطق الحضرية الهندية التى نشأت فى عهد الاستعمار البريطانى ، اما أنها اتخذت نواة لها بعض المدن القديمة ، واما أنها خلقت فيما بعد مناطق لها نفس الخصائص • ونلاحظ حينما كانت المدينة القديمة بمثابة نواة النمو الحضرى ـ كما فى دلهى ـ ان المنطقة يمكن أن تعتبر مركز النمو الحقيقى ، على الرغم من أن الأحداث اللاحقة قد تحولها الى وضع هامشى بعض الشيء ، أو تفقدها كثيرا من أهميتها ، كما حدث فى بومباى مثلا •

على أن السمات المميزة للأحياء الوطنية فى عينة المدن الكبرى التى نتحدث عنها تختلف فيما بينها بعض الشيء • وان كان الملاحظ بشكل عام أن قطر الحى الوطنى يبلغ حوالى ١,٩ كم ، أو أقل قليلا ، مع أنه قد

يأوى ـــ كما فى دلهى مثلا ـــ الغالبية العظمى من سكان المدينة ، وقد كان الوضع ـــ أصلا ـــ وان كان ما زال قائما حتى الآن فى بعض الأحوال كما فى دلهى ـــ أن يحاط الحى الوطنى بسور تتخلله بعض البوابات • وبرغم الكثافة السكانية العالية للحى الوطنى فان أرضه المحدودة تجمع بين العديد من أوجه استخدام الأرض • وهكذا تكشف سجلات ادارة تقدير ضرائب العقارات فى دلهى ـــ مثلا ـــ عن أن ٤٢٪ من بيوت الحى الوطنى القابع وراء الأسوار فى دلهى تستخدم لأغراض أخرى علاوة على السكن ، اذ توجد متاجر فى ٣٥٪ وفى ٦٪ مخازن بضائع تابعة لمصانع •

وتعكس شوارعه جانبا من الاعتبارات الدفاعية الأصلية ، مع بعض الشوارع المستعرضة القليلة التى تصل ما بين بوابة رئيسية وأخرى • وقد يوجد فى بعض الأحيان شارع مباشر يصل ما بين بوابة فرعية وطريق رئيسى • أما بقية شوارع الحى القديم فهى فى الغالب غير منتظمة الاتجاه، والطول ، والاتساع ، ومدى الصلاحية لمرور أكثر من خطوات البشر وأقدام الحيوانات • وهناك بعد هذا خليط من الشـــوارع المتعرجة ، والأزقة ، والممرات والطرق الفرعية غير المطروقة التى تقود الى بيوت السكنى والاســتخدامات التجارية والصناعات الصغيرة التى تتوسـع تدريجيا خلسة ، أو يبدو أنها تتوسع على طوار « رصيف » الطريق •

وتفتح البوابات أو الأبواب على المساكن الخاصة والأفنية ، أو على القطرات « ومفردها قطرة »[١] • ونلاحظ شـــدة كثافة السكنى واختلاط أوجه استخدام الأرض اختلاطا كبيرا • وان كان يخفف من

---

(١) القطرة عبارة عن مجموعة من المساكن التى يتكون كل منها من حجرة واحدة وتصطف داخل فنـــاء او اى سياج من نوع آخر يعزلها عن الطريق العام . وتفتح القطرة على الطريق ببوابة أو فتحة واحدة .

وطأة هذا الوضع أن السكان يتمتعون بشيء من الخصوصية لكونهم يطلون على فناء داخلى وليس على الطريق العام مباشرة • وهناك قدر كبير من الفصل والتقسيم ــ بعضه ارادى وبعضه الآخر ليس كذلك ــ الى تجمعات مكانية صغيرة ، أو الى « موحلات » تبعا للطبقة المغلقة ، أو المجموعة اللغوية ، أو الأصل الجغرافى ، أو الدين (مثل مجاورة المسلمين للمساجد الرئيسية) أو مستوى الدخل ، ولا يوجد فيما عدا مناطق المساجد والمعابد أى مكان مفتوح عام فعلا ، فالواقع أن الشوارع تضيق بما يدب عليها من مرور وحياة • فهنا قلب المدينة ولبها بالنسبة للغالبية العظمى من السكان • ويكون من الصعب على الأجنبى ــ وسط هذا العالم غير المألوف له ــ أن يصل الى غايته أو يتفاهم •

على أن أحياء المدينة الوطنية لم تستطع استيعاب جميع السكان الذين جذبتهم اليها ، وهكذا انتقل الفائض الى المناطق المجاورة • والملاحظ بصفة عامة أن نمط الشوارع خارج أسوار الحى الوطنى أفضل بعض الشيء عما فى داخله • وان كانت تتكون مع الوقت كثافات عالية تنافس تلك الموجود فى الحى الوطنى على الجانب الآخر من السور[١]•

---

(١) يعتبر حى « قدم شريف » فى دلهى نموذجا للمناطق المختلفة التى تحتاج الى تخطيط جديد تماما . « فشبكة الطريق والشوارع مضطربة وقاصرة . ولا يستطيع أى من الطرق الرئيسية أن يواجه طوفان المرور الذى يتدفق عليه .. وتبلغ مساحة حى « قدم شريف » ٧٢٠ كم ويسكنه ٥٣٠٠٠ نسمة . وتبلغ الكثافة الكلية والصافية ٧٣,٥ نسمة و ١٣٩,٥ نسمة فى الكيلو متر على التوالى ... ويمكن القول بصفة عامة أن حوالى ثلاثة أرباع المبانى فى حالة سيئة . وفيما عدا البيوت المبنية حديثا فى « اريا ناجار » ورام ناجار » فجميع المبانى الأخرى آيلة للسقوط . وهناك نقص خطير بصفة عامة فى المرافق الحضرية الأساسية . فليست هناك حنفيات ماء بصفة عامة فى المرافق الحضرية الأساسية . فليست هناك =

وقد أخفقت جميع محاولات التحكم فى استخدام الأرض تحت وطأة الضغط السكانى المتزايد • وهكذا كثيرا ما نجد الوحدات السكنية تتحول الى متاجر أو مصانع صغيرة ، فى حين تتحول وحدات أخرى الى وحدات أصغر لتستطيع ايواء أعداد أكبر من الناس • وكما هو متوقع بدأت ملحقات الحى الوطنى هذه خارج بوابات السور ، ثم شملت فيما بعد تخوم الحى كله • فامتدت على طول الطرق الرئيسية المؤدية الى الحى التى بدت دائما مكتظة بالمشروعات التجارية وغيرها التى تتوسع تدريجيا وبشكل غير مشروع على طوار « رصيف » الطريق ويبدو أن منطقة التوسع هذه تحتفظ بنفس الطابع فى أثناء توسعها الى الخارج حتى مسافة مسيرة على الأقدام من المنطقة المركزية • ومن الأمور الشائعة تماما افتقار هذه المناطق بشكل يرثى له الى خدمات المتاجر اللازمة ، وأماكن العمل ، والأراضى الفضاء ، بل ومرافق المياه والمجارى• وغير بعيد عن هذا ـ أو خلف حاجز طبيعى أو من صنع الانسان ـ نجد الأحياء الأكثر بحبوحة وانتعاشا والتى سنتكلم عنها فيما يلى :

الحى الافرنجى :

يتميز الحى الأفرنجى ـ على طرفى نقيض من الحى الوطنى وملحقاته ـ الانفتاح النسبى ، والخضرة ، والنظام ، والهدوء • ويبدو الحى الأفرنجى من طبيعة تخالف كل المخالفة الأحياء الوطنية التى ترتبط

= حنفيات ماء خاصة فى ٦٧,١ ٪ من المساكن ، ولا توجد مراحيض فى ٦٠,٥ ٪ منها ، ولا توصيلات كهربية فى ٧٣,٢ ٪ . أما حنفيات المياه والمراحيض فقليلة . ويلجأ الناس الى الأماكن المفتوحة لقضاء حاجتهم .

(انظر : هيئة تنمية دلهى ، مشروع خطة شاملة لدلهى ، المجلد الثانى ، الملاحق والرسوم ص ١٢٢) .

بها بسبب بقايا الادارة الحكومية الأجنبية التى كانت موجودة فيها ومساكن رجال الحكم السابق الذين كانوا يقطنون هنا فيما مضى •

ونلاحظ أن نمط شوارع الحى الافرنجى ، وتنظيم الأرض ، وتميز أوجه استخدام الأرض عبارة عن نماذج رحبة مستوردة • فالأشجار الخضراء المنسقة بعناية — والتى تروى عند الضرورة — تتحدى بازدراء تلك الشجيرات النادرة فى الحى الوطنى • وحتى لو وقعت بعض أجزاء الحى الافرنجى فريسة للاهمال ، فانها ما زالت تعطى حتى الآن انطباعا بالراحة والجاذبية • أو هذا هو على الأقل الانطباع الخارجى من الشارع• وربما تصل الخدمات المساعدة هنا الى أفضل مستوى لها بالقياس الى أى حى آخر •

وتتضمن مرافق الخدمات فى الحى الافرنجى فى الغالب سوقا هنديا لامداد السكان بالمواد الغذائية ، واذا لم تكن مثل هذه الأسواق تقام فى أماكن ثابتة ، فانها تقام بشكل مؤقت فى بعض الأماكن الفضاء •

هذا وقد تفاوت مصير الأحياء الافرنجية المختلفة فى المدن الهندية منذ عام ١٩٤٧ • فقد استطاع بعضها المحافظة على نفسه وما زال جذابا حتى الآن ، فى حين نجد فى حالات أكثر أن نفقات الصيانة والضغوط الداعية الى ايواء أعداد أكبر من السكان قد ارتباطا معا على نحو أدى الى تدهور الحالة • وهناك حالات أخرى تحولت فيها بعض أجزاء الأحياء الافرنجية القديمة لخدمة أغراض غير سكنية ، كمراكز للشرطة ، والمستشفيات ••• الخ •

ويمثل الحى الافرنجى — من وجهة نظر مخططى المدن — بسبب قربه — فى أكثر الأحيان — من الحى الوطنى فرصة لايواء بعض الأعداد

التى يكتظ بها الحى الوطنى دون ما حاجة الى توفير مرافق وخدمات جديدة • ولا نعرف حتى الآن حجم أجزاء الأحياء الافرنجية التى انتقلت من ملكية الدولة ، الا أننا يمكن أن تتوقع مثل هذه الاجراءات المؤدية الى رفع كثافتها بمقدار خضوعها لسيطرة الدولة •

المعسكرات :

لا جدال فى أن المعسكرات والمنشآت العسكرية تمثل أكثر شىء يلتهم الأرض فى المدن الهندية • فأراضيها التى تبلغ مساحتها آلاف الكيلومترات المربعة تظل خالية تقريبا لاجراء المناورات عليها ، واقامة المعسكرات الطارئة ، وغير ذلك من أوجه الاستخدام العسكرى التى يخصص جزء منها لسكنى هيئة المعسكر المقيمة بصفة مستمرة • ويتسم تقسيم ذلك الجزء من المدينة على العموم بالطابع الهندسى المنتظم ، مع وجود منطقة سوق صغيرة تكون بمثابة مركز تتجمع حوله المناطق السكنية المشار اليها • وتتحدد أفضلية موقع السكان داخل تلك المناطق تبعا للرتبة العسكرية • ويقوم تصميم المركب كله على كونه وحدة مستقلة بذاتها لا تحتاج الى الاتصال الخارجى فى الأغلب •

وربما كان لموقع هذه المعسكرات وشكلها آثار عميقة فى أنماط النمو لحضرى • فحيثما تكون طولية بالنسبة لطرق المواصلات الرئيسية المؤدية الى وسط المدينة ، نجدها لا تكاد تؤثر بشكل يذكر فى اتجاه النمو ، ويقتصر دورها على مجرد حبس قدر من الأرض عن التوسع الحضرى • أما حينما تقع المعسكرات بشكل عرضى بالنسبة لاتجاه التوسع ، فانها قد تجبره على الانحراف أو التوقف • وعلى قدر وقوع المعسكرات فى مكان قريب نسبيا ، وفى اتجاهات مناسبة للنمو الحضرى ، فان الاستفادة بها عن طريق تحويلها الى استخدامات أخرى — ذات طابع أكثر حضرية — تصبح ذات أهمية حيوية لمخططى المدن •

المناطق الخاصة :

من المناطق الأخرى ـ التى تستخدم للاسكان أساسا ـ الموجودة عادة فى داخل المدن الهندية أو قريبا منها نذكر : مساكن موظفى السكك الحديدية ، ومدن رجال الشرطة ، ومناطق الاسكان الحكومى بأنواعها المختلفة • وتدل أسـماؤها جميعا على الجماعات المهنية الخاصـة التى تستفيد بها •• وتمتد مساكن موظفى السكك الحديدية عموما على طول طوار « رصيف » الشارع لتقدم خدمات خاصة ـ جانبيـة فى الغالب ـ لموظفى السكك الحديدية • ونجـدها فى بعض الأحيان غير متكاملة مع البيئة المحيطة بها ، علاوة على ما قد تعانيه من نقص خطير فى الخدمات والمرافق االضرورية • ومن المشكلات الواضحة المرتبطة بذلك والتى تهم علماء الاجتماع دلالات الفصل بين المجتمعات المحلية على أساس المهن •

كما تثور أسئلة مشابهة فيما يتعلق بالاسكان الحكومى • ونلاحظ أن نمو حركة بناء المساكن فى القطاع الخاص محدود للغاية فى المنـاطق الحضرية الهندية • ويقال ان السـبب فى ذلك يرجع الى ضآلة نسـبة السكان القادرين على المساهمة فى هذه السوق • لهذا وقع عبء معادلة النقص المتزايد فى المساكن على كاهل الحكومة وجهازها الوظيفى ، الى حد بعيد • وعلى هـذا حدثت تقصيرات خطيرة تمثلت فى الاسـتجابة البطيئة وغير الحكيمة للاحتياجات ، والتساهل فى المسـتويات المطلوبة (لزيادة الانتفـاع الى أقصى حد ممكن بالروبيات المتـاحة) ، والنظرة البيروقراطية المتوقعة للتخطيط وتخصيص الوحدات التى يتقرر بنـاؤها للمناطق المختلفة • ويبدو أن الاتجاه السائد بالنسبة للمشـكلة الأخيرة هو بناء المساكن ـ وتحديد مواقعها ـ لموظفى الحـكومة تبعا للوزراء ، ونوع العمل ، والدرجة المالية ، والرتبـة • وهى عملية فصـل وتمييز واضحة تطرح بعض التساؤلات الأساسية على مجتمع اشتراكى ، وعلى امكانيات الحراك فيه •• الخ • والواقع أن مجـرد معرفة عنوان موظف

حكومى داخل احدى مناطق الاسكان الحكومى يدلنا على مركزه وعلى مستوى دخله .

علاوة على هذا فان مناطق الاسـكان الحكومى كثيرا ما تقام على مسافة غير بعيدة من مكان العمل ، أو على أراض منعزلة جغرافيـا ليس لها منافس . ونادرا ما تزود مثل هذه المناطق السكنية ـ هذا اذا زودت أصلا ـ بالأسواق ومراكز الشراء المناسـبة المنظمة على أسـاس سليم (على الرغم من ورودها فى أغلب خطط مثل هذه المناطق) ، أو بالمراكز الاجتماعية . أما الأحياء المساعدة فهى اما مسـتبعدة كلية ، واما قاصرة قصورا شديدا . أما محاولات خلق تكامل واندماج بين أحياء الاسكان الحكومى والمناطق المجاورة لها فهى اما عقيمة واما قاصرة للغاية .

الباسطى :

تعتبر أحياء الباسطى الشاهد الأول على أوجه النقص الهـائل فى المسـاكن فى مدن الهنـد[1] . وسرعان ما تتحـول تلك الـ Kachcha

---

(١) الباسطى Bustees or Bustis عبارة عن مسـاكن أو اكواخ صغيرة ، ومؤقتة ومتداعية عادة تم بناؤها بوضع اليد بدون ترخيص . على اراض مملوكة للدولة أو لأشخاص . فاذا كانت مبنية من المخلفات القديمة أو غيرها من المواد التافهـة فتسمى مبـانى Kachcha وتفتقر الى كل المرافق ، حتى النوافذ فى معظم الأحيان أما مبانى Pukka اعنى المبنيـة على أسـاس سليم وبمواد جيـدة ـ فنادرة فيها . والملاحظ بوجه عام أن المرافق الصحية بدائية . هذا اذا كانت موجودة على الاطلاق . ومن المتعذر على سكانها الحصول على مياه مأمونة فى نظافتها . وقد لا تتوافر أى ميـاه اطـلاقا . ويطلق على أحيـاء الباسـطى أحيـانا Jhuggles or Ahata (كما هو الشـأن فى كاونبور مثلا) وقد بلغ عدد أحيـاء الباسطى فى دلهى عام ١٩٥٩ (٨٥ حيا) يتراوح عدد الأسر المقيمة فى كل منهـا بين ١٠ أسر وستة آلاف أسرة . معنى هذا أن $\frac{1}{8}$ مجموعة السكان فى دلهى ـ حوالى ٢٠٠,٠٠٠ نسمة يعيشون فيها .

(المصدر : هيئة تنمية دلهى ، مشروع خطة شـاملة لدلهى ، المجلد الأول ص ١١٥) .

(تمييزا لها عن Pukka) أو المبانى المؤقتة ــ ما بين عشية وضحاها ــ الى مأوى لمئات الآلاف من واضعى اليد . وهى توجد على الحدود الخارجية للمناطق الحضرية المبنية ، وخاصة على طول الطرق الرئيسية المؤدية الى المدينة . وهى تنمو بجوار مشروعات البناء ، وفى المناطق المتخلفة ، أو مناطق الفضاء البعيدة فى مختلف أنحاء المدينة . كما تشغل المناطق المهجورة ، والحدائق العامة ، وساحات السكك الحديدية.. الخ . فهى بالاختصار تشوه جميع المناطق السكنية بدءا من الأحياء المتخلفة حتى أحياء « الفيلات » الفاخرة . وهى قد توجد فى ثنائيات أو ثلاثيات أو مجموعات تقدر بالآلاف . ولما كانت مكونة من حجرة واحدة فى الأغلب الأعم من الحالات ، فانها تخلق كثافات عالية للغاية فى مناطق تفتقر الى المرافق وأسباب الراحة . وتكاد تقتصر سكناها على الوافدين الجدد الى المدينة . ويقوم موظفو البلدية بحملات تفتيشية فاشلة ، بهدف القضاء عليها ، أو اخضاعها لنوع من الاشراف ، اذ سرعان ما تعود الى الحياة بشكل خرافى فى سرعته . فلا سبيل لاستئصالها بسبب مشكلة نقص المساكن ، وستظل تعوق كل الجهود المبذولة من أجل التنمية الرشيدة .

الجيوب القروية :

كلما تضخمت المدينة وازدادت سرعة نموها ، زاد احتمال اقترابها من القرى المجاورة ، فاما أن تحتضنها ، واما أن تمحوها وتطمس معالمها . فاذا طوق النمو الحضرى هذه القرى ، فقد تظل باقية كجيوب لفترة طويلة بعد أن يتجاوزها النمو الحضرى . وكثيرا ما أثبتت التجربة الواقعية أنه من الأمور البالغة الصعوبة ازالة هذه الجيوب القروية ، ما دامت توفر فرصا للاسكان الرخيص ، وقد تتحول الى أسواق للسكان الحضريين المحيطين بها ، وتكون موئلا لصانعى الأثاث وغيرها من عمليات الخدمات . ومن شأن تجريد سكان القرية من حقولهم التى كانوا

يمارسون فيها الزراعة أن يدفعهم دفعا الى هجرتها ، أو محاولة الانخراط فى صفوف جيوش عمال اليومية أو الخدم ، وتمثل القرى فى بعض الأحيان تهديدا للصحة العامة فى المدينة بسبب افتقارها الواضح الى الخدمات والمرافق الحضرية كالمياه الجارية ، والمجارى .. الخ . مما يشكل خطرا من الناحية الصحية على المدينة . أما من ناحية المرور فاننا نجد شوارعها غير المنتظمة تكتظ بوسائل النقل ، وقلما تتواءم مع نظام الشوارع الموجود فى الأحياء الحضرية المحيطة بها . وتعتبر Muburakpur Kotla فى دلهى مثالا لهذه الجيوب القروية ، وان يكن بدرجة أعلى بعض الشىء من نماذج أخرى مثلها .

وهناك أنواع أخرى من الجيوب التى تتناثر على المنظر الطبيعى الحضرى « اللاند سكيب » . فهناك بعض مناطق « الحصون » وهى عبارة عن بقايا بعض الوسائل الدفاعية فى العصور الغابرة ، استطاعت أن تبقى وتحافظ على نفسها ، على الرغم من أن بعضها قد استخدم لاقامة المبانى ذات الأجزاء الجاهزة الصنع عليه . وهى توجد فى الغالب فى أكثر مناطق الجزء القديم من المدينة ازدحاما . وكثيرا ما تكون المكان المفتوح الوحيد فى المنطقة اذا نجح الموظفون بعيدو النظر فى مقاومة الضغوط الواقعة عليهم لملئها بمبانى البلدية . كما أن المناطق الدينية ـ كالمعابد ، والأضرحة ، والمساجد ـ قد تكون فى بعض الأحيان من الضخامة بحيث تمثل جيوبا داخل المدينة ، ومعالم للتمييز والتباين داخل ذلك الخضم الهائل غير المنتظم من الاكتظاظ السكانى . وتمثل تلك الجيوب بالنسبة لمخططى المدن الأمل فى أن تصبح نواة لتأسيس حياة اجتماعية نشيطة .

نمو الضواحى :

يمثل الاسكان الخاص ـ كما أشرنا من قبل ـ نسبة ضئيلة فقط من الاسكان الحضرى الهندى ، اذ يكاد يقتصر تقريبا على قطاعات السكان ذوى الدخول المرتفعة • وحتى حيث تنتشر المبانى التى يبنيها الناس خصيصا لأنفسهم ، فانها لا تتضمن عامة سوى وحدات سكنية قليلة • ومع ذلك فقد بدأت هذه الأنواع المختلفة فى ميدان الاسكان الخاص تخلق تدريجيا تقليدا هامشيا لنماذج الضواحى الأجنبية ، تتميز : بالرحابة ، وسكنى الأسرة الواحدة فى بيت مستقل « فيلا » ، وارتفاع المبنى طابقين فوق الأرض ، والشوارع العريضة التى تتخذ شكل المشواة المنتظم • والكثافة السكانية هنا منخفضة بشكل واضح ، على الرغم من شيوع أسلوب تكييف المبانى لكى تستدعب مؤقتا أسرة أخرى مستأجرة • وهى وسيلة تساعد عللى تحمل نفقات البناء الضخمة • ويفعل صاحب المبنى هذا على أمل أن يخرج الساكن فيما بعد ويستقل بالبيت • وكثيرا ما تكون الأحياء المساعدة من مستوى أدنى على نحو قد يعكس بدء تدهور من هذه الفئات ازاء فرص العمل البديلة التى يتوقع أن تصحب النمو الصناعى •

ويبدو من سوء الحظ أن اختيار مواقع هذه المناطق الجديدة ، وتخطيطها ، والعناية بها لا تخضع لكثير من النظام • فهى فى أغلب الأحوال مجتمعات غير متوازنة تقل أو تنعدم فيها فرص الشراء ونحوها من مرافق الخدمات • ومن العجيب حقا أنها كثيرا ما تقع بعيدا عن وصول مرافق المياه والمجارى التى تتوق اليها ، والتى يمكن أن تساعد على نموها واتساعها • ومن الأمور الشائعة أيضا أنها لا تخضع لحماية خطة تقسيم المدينة Zoning أو غيرها من الضوابط • ومن الواضح أن تنميتها تمثل مشكلات أمام القائمين على التخطيط •

النمو والنمط

هنـاك ملاحظتان هامتان تسـتوجبان الالتفات قبل أن ننهى هذه المناقشة • تنطوى أولاهما على الفـرق بين أنماط النمـو « المحلية » و « المستوردة » • فنمط النمو المستورد يحمل الطابع الأنجلو أمريكى فى تصوره لنوع الشوارع ، والفصل بين المناطق ذات الوظائف المختلفة ، وغير ذلك من سمات النمو الحضرى المألوفة للغربيين • وهكذا نجد مثلا مدن كلكتا ، وبومباى ، ومدراس ، تحمل فى نموها هذا الطابع ، اللهم الا الأجزاء الشديدة القدم منها ، والتى تمثل النواة • فحيثما نجد التأثير الأوربى لم يبلغ درجة عالية من الوضوح ، ولم يكن من القـدم بحيث يؤثر فى تشكيل المدينة ، نجد نمط النمو المحلى أكثر انتشارا بما يتميز به من عدم التحكم فى النمو ، واختـلاط أغراض اسـتخدام الأرض ، وصغر مساحة بؤر النشاط وتعددها •

وهناك سـمة أخرى تستوجب الانتباه عند محـاولة فهم مراحل النمو • وهى أن معدل النمو الذى تميز به التحضر الهندى حديثا ، لم يتح سوى فرص ضئيلة كل الضآلة ـ هذا اذا كانت الفرص قد استغلت أصلا ـ لتنظيم عملية النمو والتوسع فى اطار خطة عامة شاملة •

فكثيرا ما تتجاوز المدن الهنـدية ـ فى أثنـاء هذا النمـو الأخير السريع ـ بعض مراحـل النمو التى عرفتهـا المدن الأنجلو أمريكية فى أثناء نموها • من هذا مثلا أن التغير فى وسائل النقل فى المدن الهندية قد يتم مباشرة من استخدام الحيوانات والسير على الأقدام الى السيارات ، والأوتوبيسات وسيارات النقل ، دون المرور بالمراحل الوسـطى ، وهى النقل المحلى الكبير باستخدام السكك الحديدية •

ومن الأمثلة الأخرى على تخطى بعض المراحـل المميزة لنمو المدن

الأنجلو أمريكية ما يتعلق بأشـكال الطاقة المتاحة . فالمألوف بصفة عامة أن تعتمد المدينة فى البلاد السريعة النمو فى توسعها السريع ، وفى تصنيعها ، على الطاقة الكهربية . ونظرا لأن الطاقة الكهربية سهلة نسبيا فى توزيعها ، فان استخدامها يؤثير تأثيرا مختلفـا كل الاختلاف فى توزيع المنشـآت الصناعية والسكان عنه فى حالة الاعتماد على الطاقة المائية والبخارية التى يتم استخراجها فى موقع الانتاج فى المدن الأمريكية والأوربية . ويمكن وصف تلك الأشكال الأخيرة من الطاقة بأنها ذات تأثير تكثيفى ، خاصة وأنه لم تكن هناك عند استخدامها لأول مرة وسائل نقل فعالة على نطاق واسع تسمح بتوزيع كل من الخدمات الصناعية والسكان .

وينبغى أن نلاحظ فى النهـاية أن أضخم المنـاطق الحضرية تتميز ببعض ملامح « المجمع الحضرى » المعروفة فى المدن الأوربية الأمريكية . فكلكتا الكبرى ــ على سبيل المثـال ــ عبارة عن مجمع حضرى ممتد على طول نهر Hooghly ، كما أن جميع الشواهد المتاحة تدلنـا على أن بومباى ستصبح فى غضون بضع عشرات قليلة من السـنين نواة مجمع حضرى يلتف حول ميناء بومباى وشمالا على طول السـاحل . على أن احتمال وكثرة قيام مجمعات حضرية من هذا النوع سـوف يتوقف على عوامل لا يمكن تقديرها بالكامل . منها مثلا سياسات التوطين الصناعى التى ستلجأ اليها هيئة التخطيط التابعة لحكومة الهند . فاذا عمدت مثلا السياسة الحكومية القومية فى المستقبل الى توجيه النمو الصناعى الجديد الى أماكن خارج المراكز الحضرية البالغة الضخامة ، فمن الواضح أن ذلك سيؤدى الى ابطـاء سرعة نمو كل من بومبـاى ، وكلكتا ، ومدراس ، ودلهى . غير أنه اذا تكررت خبرات البلاد الأخرى فى الهند ، فمن المؤكد أن القو الدافعة التى عرفناها عن تلك المدن سـوف تؤدى بها الى مزيد من النمو ومن الضخامة .

الخلاصة

كان الهدف الأساسى لمناقشتنا السابقة هو الوقوف على شكل وبناء المناطق الحضرية الهندية بمقدار تأثيرها فى التخطيط الشامل للنمو الحضرى ، فبدأنا أولا بدراسة التناقضات الداخلية فى المدن الهندية • ثم انتقلنا بعد ذلك الى نقطة على جانب عظيم من الأهمية حيث درسنا الأنواع المختلفة لاستخدام الأرض • وأهم أقسام المناطق الحضرية الهندية الطرازية • وذلك بهدف معرفة أصلها ، وخصائصها ، ووظيفتها كعوامل يجب أن نأخذها فى الاعتبار فى عملية التخطيط الحضرى الشامل • ثم وقفنا بعد ذلك على القوى الداخلية والخارجية ، والأساليب والسياسات التى تؤثر فى التخطيط • ومعنى هذا بالاختصار أننا وضعنا معطيات وامكانيات المدن الهندية الكبرى ذات الأهمية الحاسمة فى سياق التخطيط الحضرى •

أما الهدف الثانى لهذه الدراسة فكان محاولة معرفة صلاحية استخدام منطقة دلهى الحضرية لاعداد خطة شاملة كنموذج أصلى لسائر المناطق الحضرية الهندية الأخرى • والحق أننا لمسنا هذه النقطة بشكل عرضى بعض الشىء • ولعله من المناسب أن نلخص الآن ما أوردناه بصددها •

هناك سؤالان يطرحان نفسيهما ، وهما : ما اذا كانت منطقة دلهى ممثلة لمناطق الحضرية الهندية البالغة الضخامة ؟ ثم ما اذا كانت ممثلة للتحضر الهندى بصفة عامة ؟ وربما كانت الاجابة عن السؤال الأخير أسهل من الاجابة عن السؤال الأول • وعلى الرغم من تعذر عرض الحقائق هنا ، فانه يمكننا — من واقع المادة المعروفة لنا عن المدن الكبرى الأخرى ومن المدن الأصغر من دلهى ، وكلكتا وبومباى ، ومدراس —

أن ندرك أن المدن الصغرى تتميز باختلافات هامة فى نوع ودرجة التحضر عن دلهى • ونكتفى هنا بذكر عامل واحد من عوامل هذا الاختلاف ، ألا وهو : ان المدن الكبرى — مثل دلهى : وكلكتا ، وبومباى ، ومدراس — قد تعرضت أكثر من سائر المدن الهندية الأخرى لقدر كبير من التأثير والاستيطان الأجنبى • ويترتب على هذا التفاوت فى الخضوع للتأثيرالأجنبى —كواحد من بين عوامل أخرى — أن استخدام دلهى كنموذج أصلى يعمل على غراره تخطيط لمعظم المدن الهندية ينطوى على أوجه قصور خطيرة ، ومع ذلك فهناك امكانية كبرى للانتفاع بأساليب البحث وعمليات التخطيط المعروفة فى دلهى فى مدن هندية أخرى •

أما مسألة ما اذا كانت دلهى أصلح للاستخدام كنموذج للتخطيط الشامل فى كبريات المدن الهندية ، فقد أوضحناها من خلال تحديد مدى تمثيلها لسائر المدن على أساس أوجه الشبه والاختلاف بين تلك المدن • ونلاحظ أن كبريات المناطق الحضرية — دلهى ، وكلكتا ، وبومباى ، ومدراس — تختلف فى النواحى التالية :

١ — أن مواضعها متباينة أشد التباين ، مما يخلق بعض المشكلات أمام التخطيط لا يمكن مقارنتها مقارنة كاملة ، وفضلا عن هذا فانه من الواضح أن موقع دلهى يختلف عن مواقع المدن الأخرى •

٢ — أما من حيث أقسام المنطقة فدلهى غير طرازية فى هذا الصدد ، ويرجع ذلك فى بعض منه الى الضخامة الهائلة فى حجم منطقة نيودلهى •

٣ — تتميز دلهى عن المدن الأخرى بازدواج مناطق الأعمال المركزية ذات الأهمية المتقاربة •

٤ — ان وجود السور الذى يطوق دلهى القديمة حتى الآن يعتبر بمثابة حاجز غير طبيعى لا وجود له فى المدن الأخرى •

٥ ـ تتمتع دلهى فى الوقت الراهن بعدد من المساكن الحكومية يفوق ما هو موجود فى أى مدينة أخرى •

٦ ـ ان الاتجاه نحو التصنيع فى دلهى يختلف عن غيرها من المدن ، كما تختلف أهمية العمل الحكومى أيضا •

٧ ـ لا تعانى دلهى من نفس مشكلة سكنى اللاجئين الملحة التى تعانى منها كلكتا •

ولكننا نلاحظ من ناحية أخرى التقارب بين دلهى وكبريات المدن الهندية الأخرى فى النواحى الآتية :

١ ـ النمو الفائق السرعة •

٢ ـ الاختلاط الكبير فى أنواع استخدام الأرض فى المناطق القديمة فى كل منها •

٣ ـ التفاوت الكبير فى الكثافة السكانية داخل كل منها •

٤ ـ النقص الكبير فى الاسكان وأسباب الرفاهية •

٥ ـ أوجه التشابه الكبيرة فى مشكلات النقل وأساليب الاتصال ، اللهم الا ما نلاحظه فى بومباى من شدة الاعتماد على السكك الحديدية فى السفر يوميا بين مكان العمل ومحل السكن •

٦ ـ المؤثرات الأجنبية الواضحة ـ التى ترجع الى فترات تاريخية مضت ـ على شكل المدينة وبنائها •

٧ ـ تعدد الوحدات الحكومية فى المنطقة المتروبوليتانية •

٨ ـ ضعف المساهمة العامة فى عملية التخطيط •

ومن المهم أن نلاحظ هنا أنه على الرغم من تعذر ايراد كل الدلائل هنا بتفاصيلها ، فقد اختبرنا كل التعميمات الخاصة بدلهى على الملامح الرئيسية لكل من بومباى ، وكلكتا ، ومدراس • وتقودنا هذه المقارنة ـ علاوة على النتيجة التى انتهينا اليها من أن أوجه الشبه بين تلك المدن الكبرى أكثر دلالة للتخطيط من أوجه الاختلاف ـ الى أن دلهى تكاد تكون ممثلة لجميع المناطق الحضرية الهندية الكبرى أكثر من أى مدينة أخرى • فأى مدينة أخرى ستتصف ولا شك بالقصور فى هذا الصدد •

يمكننا فى النهاية أن نقول ان دراسة هذه الحالة الفردية تتميز بأنها صورة مفصلة لمنطقة حضرية هندية سريعة النمو • ولو أنها تتصف فى نفس الوقت بنقطة ضعف لكونها تمثل وصفا لمنطقة حضرية مختلفة بعض الشىء عن سائر المناطق الحضرية فى الدول النامية الأخرى • ومع ذلك فانه يمكننا اعتبار الخصائص الرئيسية للنسب المختلفة ، والطرز ، وأنواع التحضر ممثلة تقريبا ، برغم اختلاف المسميات ، واختلاف نسب المناطق الحضرية المخصصة لكل نوع من أنواع الاستخدام من بلد لآخر •

الفصل الثالث

مشكلات النمو الحضرى فى الدول العربية(*)

اذا نظرنا الى عملية النمو الحضرى التى يمر بها الكثير من الدول النامية بوجه عام ، والدول العربية بوجه خاص لاتضح وجود كثير من المشكلات الاجتماعية والاقتصادية التى تجعل من الصعب توفير حياة انسانية مناسبة لسكان المدن . فعلى الرغم من الجهود الكبيرة التى تبذلها بعض الحكومات والمختصين بالشئون الحضرية فى هذه الدول للتغلب على بواعث هذه المشكلات وايجاد الحلول المناسبة لها ، فان الحقائق تشير الى عدم سهولة التغلب عليها ان لم يكن استمرارها وازدياد حدتها وذلك يرجع الى مجموعة من العوامل التى من أهمها الخصائص السكانية غير الملائمة لهذه المجتمعات الحضرية وطبيعة بنائها الاجتماعى والاقتصادى ومعدلات نموها .

فازدياد حجم المدن بدرجة كبيرة فى الدول العربية لم يكن فى الواقع نتيجة لتغيير مماثل فى معدلات التنمية الاقتصادية أو لتغيير جذرى فى هيكل العمالة الحضرية وانما راجع أساسا الى قوى الطرد الريفية التى دفعت بالمهاجرين من سكان المناطق الريفية التى التدفق على المدن سعيا وراء فرص عمل أو مستوى معيشى أفضل فى الوقت الذى لا تستطيع فيه هذه المدن استيعاب سوى جزء ضئيل جدا ربما يمكن الحصول عليه

(*) اعتمدنا فى هذا الفصل على الدراسة التالية : الدكتور شفيق شعبان ، « مشكلات النمو الحضرى فى الدول العربية » ، دراسة منشورة فى أعمال المؤتمر الرابع عشر للشئون الاجتماعية ، النمو الحضرى فى الوطن العربى ، مرجع سابق ، ص ص ٨٣ — ١١١ .

بدون الحاجة الى هجرة خارجية . أضف الى ذلك أن ارتفاع معدل الزيادة الطبيعية (تتيجة للانخفاض السريع فى معدل الوفيات بدون تغيير ملموس فى معدل المواليد) أدى الى اتساع الفجورة الديموجرافية التى تبتلع ما يمكن أن ينتج عن عملية التنمية الاقتصادية من زيادة فى الدخل أو الانتاج القومي ، وبالتالى قلة أو انعدام الاستثمارات التى يمكن توجيهها للقطاعات غير الزراعية لامتصاص الفائض المذهل من العمالة مما ترتب عليه انتشار البطالة بصورها المختلفة فى هذا الوضع أكثر سوءا فى المدن عنها فى القرى نظرا لما ينتج عنها من مشكلات وأوبئة اجتماعية تتضح من تحليل البيانات المتوفرة لبعض منها فيما يلى :

١ ـ مشكلة الفقر والتفاوت فى الدخول :

اذا دققنا النظر الى سكان العواصم العربية بوجه عام ومدينة القاهرة بوجه خاص على أنها أكبر المجتمعات الحضرية بالوطن العربى لاتضح أنه على الرغم مما طرأ من ارتفاع ملحوظ على مستوى معيشة العمال بها فان الطريق أمام الغالبية العظمى ما زال مسدودا وأنه لا تزال هناك نسبة كبيرة من الأفراد والعائلات تفتقر الى الحاجات الأساسية والضرورية لتوفير الحد الأدنى لمتطلبات الحياة . وهذا لا يعنى أن ظاهرة الفقر تقتصر على هذه المناطق الحضرية بوجه خاص فهى وان كانت تنتشر على نطاق واسع فى المجتمعات الريفية ، الا أنها أكثر وضوحا فى المدن للتباين الكبير فى مستوى المعيشة بين الطبقات وعدم المساواة النسبية فى توزيع الثروة والدخل . فالفقراء فى المدن يظهرون أكثر فقرا مما لو كانوا فى الريف. ويرجع ذلك أساسا الى طبيعة النشاط الحضرى ومايتطلبه من خصائص ومواصفات سكانية معينة . فسكان المدينة يعتمدون بطريقة مباشرة فى الحصول على دخولهم على ما يوفره لهم نظامها الاقتصادى من وظائف وفرص عمل . فبعكس سكان القرية فانهم لا يحصلون على

دخلهم النقدى عن طريق استغلال موارد الطبيعة ، وانما عن طريق قيامهم بعمليات الانتاج غير الأولية (التى تتمثل فى قطاعات الصناعات التحويلية أو النقل والمواصلات أو التجارة والخدمات • وفى هذه الحالة يقوم سكان المدن بتأدية أعمال وخدمات يكلفهم بها آخرون نظير مرتبات وأجور يتقاضونها لشراء احتياجاتهم الضرورية ، فى حين أن نسبة ضئيلة جدا منهم يعيشون على ممتلكاتهم الأرضية أو العقارية أو ما شابه ذلك •

ونستخلص من هذا أن مستوى معيشة سكان المدن يتوقف على مدى التوازن بين المعروض من قوة العمل والوظائف والأعمال التى يمكن لهؤلاء توفيرها بالقدر والمواصفات التى تتناسب مع هذا المعروض ، سواء كانوا قطاعا عاما ممثل فى الهيئات والمؤسسات الحكومية أو قطاعا خاصا ممثلا فى المتاجر والمؤسسات التى يمتلكها الأفراد ، ونظرا لأن اقتصاديات الانتاج الحضرى تختلف عن تلك فى الريف بحيث تستلزم توفر مواصفات معينة فى شاغلى هذه الوظائف أو القائمين على تأدية الأعمال والخدمات بالمدينة سواء من الناحية التعليمية أو التأهيلية وما يرتبط بذلك من تركيب عمرى ونوعى ، فان الانحراف عن تلك المواصفات يؤثر على الناحية الانتاجية التى تحدد مستوى المرتبات والأجور والدخل الفردى الذى بدوره يحدد حجم المدخرات التى يمكن توجيهها فى النواحى الاستثمارية بالقطاعات الاقتصادية المختلفة للتوسع الأفقى أو خلق فرص عمل جديدة •

فاذا تدارسنا مدى التوازن بين القوى البشرية الموجودة واقتصاديات المدن العربية لاتضحت بعض الحقائق التى تفسر أسباب انتشار الفقر والحرمان الاقتصادى بها وعدم قدرة الحكومات على ايجاد حلول سريعة لها • فجدول (١) يبين اتساع قاعدة الهرم السكانى لعواصم أربعة أقطار عربية وهى ما تعتبر أرقى المجتمعات الحضرية فى

الوطن العربى ، ويرجع السبب فى ذلك الى ارتفاع معدلات المواليد بدرجة عالية مما يجعل نسبة كبيرة من السكان تقع فى فئات العمل المنتجة مما يؤدى الى انخفاض مستوى الدخل الفردى للفئة المنتجة وتوجيه الوفر فى مرتباتها وأجورها نحو سد الاحتياجات الضرورية للعاطلين من أبنائها بدلا من استثماره فى مجالات التنمية المختلفة لخلق فرص عمل جديدة .

فمن البيانات الواردة بالجدول الآتى نجد أنه اذا فرضنا أن جميع السكان بفئات السن المنتجة (١٥ — ٦٤ سنة) تعمل بانتظام وبأجور مناسبة فان ارتفاع نسبة المعالين (شباب وعجزة) ستؤدى حتما الى انخفاض الدخل الفردى للفئة العاملة . فتبلغ نسبة الاعالة فى مدينة الكويت ١١٦ شخصا ، وفى كل من دمشق والقاهرة وبغداد ٨٥ ، ٨٣ ، ٨٤ شخصا على التوالى . فى حين تبلغ هذه النسبة ٦١ فى ألمانيا الغربية ، و٦٤ فى السويد وسويسرا ، و٦٠ فى بلغاريا ، و٦٤ فى اليابان ، ومن المتوقع أن تكون أقل من هذا اذا اقتصرت النسبة على المناطق الحضرية فقط ، وعلى الرغم من أن هذا المقياس يشير الى الارتفاع النسبى للاعالة بالمدن العربية فانه فى الواقع لم يعط بعد الصورة الحقيقية للوضع الاقتصادى الذى عليه الفئة العاملة فعلا نظرا لأنه يأخذ فى الاعتبار وجود نسبة كبيرة من العاطلين من الرجال والنساء بفئات السن المنتجة ، فاذا حسبنا نسبة غير العاملين الى العاملين فعلا نجد أن كل ١٠٠ شخص عامل فى مدينة دمشق يعول ٢١٩ شخصا آخر ، وكذلك الحال فى مدينة بغداد والقاهرة حيث تبلغ هذه النسبة ١٩٢ و٢٠٢ شخصا على التوالى . وبالمقارنة نجد أن هذه النسبة تبلغ ٩٤ فى المملكة المتحدة و١٣٤ فى اليابان و١١٦ فى يوغوسلافيا . والعامل الأساسى فى ارتفاع هذه النسبة فى المدن العربية وانخفاضها فى الدول الأخرى يرجع الى انخفاض نسبة النساء المشتركات فى القوى العاملة .

جدول (١) توزيع النسبة المئوية لسكان مدينة الكويت ودمشق والقاهرة وبغداد على حسب السن والنوع

	الكويت			دمشق			القاهرة			بغداد		
	ذكور	اناث	جملة	ذكور	اناث	جملة	ذكور	اناث	جملة	ذكور	اناث	جملة
صفر – ٤	٢٠,١	١٩,٧	١٩,٩	١٨,٥	١٨,٣	١٨,٤	١٥,٨	١٥,٦	١٥,٧	١٧,٣	١٨,٣	١٧,٨
٥ – ١٤	٣٠,٧	٣٠,٨	٣٠,٨	٢٤,٨	٢٥,٢	٢٥,٠	٢٦,٧	٢٧,٤	٢٧,١	٢٤,٣	٢٤,١	٢٤,٢
١٥ – ٦٤	٤٦,٤	٤٦,٦	٤٦,٥	٥٤,١	٥٣,٨	٥٣,٩	٥٥,٠	٥٤,٤	٥٤,٦	٥٥,١	٥٣,٣	٥٤,٢
٦٥+	٢,٨	٢,٩	٢,٨	٢,٦	٢,٧	٢,٧	٢,٥	٢,٦	٢,٦	٣,٣	٤,٣	٣,٨
المجموع	١٠٠,٠	١٠٠,٠	١٠٠,٠	١٠٠,٠	١٠٠,٠	١٠٠,٠	١٠٠,٠	١٠٠,٠	١٠٠,٠	١٠٠,٠	١٠٠,٠	١٠٠,٠

فمن بيانات النشاط الاقتصادى يتضح أن حوالى ٩٣٪ من النساء فى مدينة دمشق لا يزاولن أى عمل انتاجى • وكذلك الحال فى كل من بغداد والقاهرة حيث تبلغ هذه النسبة ٩٦٪ و٩٢٪ على التوالى • فى حين أن النسبة الباقية تعمل فى مهن ذات دخول منخفضة تتركز فى قطاع الخدمات كما سيتضح عند تناول هذا الموضوع بالتفصيل فيما بعد • أى أن نسبة النساء العاملات الى مجموع القوى العاملة هى نسبة ضئيلة جدا اذا قورنت بمثيلتها فى الدول المتحضرة • فعلى الرغم من احتساب سن العاملات من ٦ سنوات فأكثر فى كل من دمشق والقاهرة فان نسبتهم بلغت ١١,٥٪ ، وفى مدينة بغداد بلغت نسبة النساء العاملات من سن ١٠ سنوات فأكثر الى المجموع الكلى لقوة العمل ٥,٦٪ • ويتضح ضآلة هذه النسب اذا احتسبت من سن ١٤ سنة كما هو الحال فى التقسيم الدولى ، أو اذا علمنا أنها تبلغ ٣٩٪ فى اليابان و٣١٪ فى المملكة المتحدة ، ٢٧٪ فى الولايات المتحدة •

فاذا أخذنا فى الاعتبار أن الفئة العاملة — كما أوضحنا — تمثل نسبة صغيرة من السكان بالمناطق الحضرية علاوة على ضعف قدراتها الشرائية لاتضح لنا الأسباب الحقيقية لضيق حجم السوق التجارية فى الدول العربية وعدم توفر الاستثمارات الكافية لزيادة قاعدة الصناعات التحويلية لاستيعاب النسبة الكبيرة من العمالة المعطلة •

أضف الى ذلك أن الآثار السيئة الناجمة عن انتشار البطالة بالمدن العربية لا تقتصر على انخفاض القوى الشرائية للأسر والأفراد ، بل تمتد الى الاضرار بالمرافق العامة والخدمات التى تقدمها الحكومات المحلية من حصيلة الضرائب التى تتحملها النسبة الضئيلة من السكان العاملين ، ولهذا السبب فاننا نلاحظ أن المدن العربية تعانى خزينتها من عدم توفر الأموال اللازمة أو مصادر ضرائبية مناسبة لمواجهة متطلبات الزيادة

السكانية ورفع مستوى الخدمات الاجتماعية والصحية والتعليمية لدافعى الضرائب ما تضطر هذه الحكومات الى الاقتراض أو استخدام الموارد الضرائبية المحصلة من المناطق الريفية أو المدن الصغيرة فى تجميل وتنسيق وتوفير الخدمات الضرورية فى العواصم مما يحق أن يطلق عليه اسم « المدن الطفلية » وذلك راجع الى قلة مواردها عن مصروفاتها الضرورية • والتى ليس من السهل زيادتها نظرا لطبيعة الصورة التى عليها الحالة العملية لسكان غالبية المدن العربية والتى يمكن الاستدلال عليها من جدول (٢) •

فمن جدول (٢) نلاحظ انخفاض الحالة العملية لسكان بعض المدن العربية وبالتالى ضآلة الحصيلة الضرائبية • ففى الوقت الذى ينتفع فيه جميع السكان بالمرافق الحيوية من طرق ووسائل مواصلات وشبكات مياه وكهرباء وخدمات طبية وتعليمية وترويحية وغيرها ، فان عبء تمويل هذه المشروعات على عاتق فئة صغيرة من الناس مما يجعل أصحاب الحق غير راضين عما يقدم اليهم من خدمات يقابله توفر شعور بعدم المسئولية لدى من لا حق لهم يتمثل فى عدم المحافظة عليه أو صيانة ما قدمه لهم الغير بدون مقابل • ففى مدينة دمشق يتحمل حوالى ٣٢٪ من سكانها تكاليف انشاء وصيانة المرافق المختلفة للمدينة ، فى حين أن الغالبية الباقية تقوم باستخدامها والانتفاع بها على قدم المساواة • غير أن العبء الأكبر يقع على عاتق الذكور نظرا لانخفاض نسبة النساء اللاتى يزاولن أعمالا مربحة تقتضى تحصيل ضرائب منهن ، فمن البيانات المتوفرة يتضح أن ١٠,٨٪ من جملة السكان الذين يزاولون أعمالا انتاجية هم نساء والبقية من الرجال • وكذلك الحال فى كل من مدينتى بغداد والقاهرة التى تبلغ نسبة السكان الذين يقومون بأعمال مربحة ٣٥٪ ، و٣٤٪ ، على التوالى • فى حين بلغت نسبة النساء اللاتى يعملن

اقتصاديا من جملة قوة العمل فى مدينة بغداد ٥,٦٪ ، وفى مدينة القاهرة ١٢٪ .

فاذا أخذنا فى الاعتبار صغر حجم فئة دافعى الضرائب وعظم حجم فئة المستفيدين من المشروعات والخدمات التى تمولها هذه الضرائب لاتضحت أسباب التفاوت الكبير بين ما يجب أن تكون عليه ، وما هو قائم فعلا ، فالتدهور السريع لسبل المواصلات واستهلاك المرافق العامة وانخفاض مستوى الخدمات الصحية وارتفاع تكاليف النظافة العامة والمحافظة على الأمن وتدهور المناطق السكنية وبطء حركة البناء والتعمير وارتفاع الضرائب على الدخل والعقارات المنقولة والثابتة ما هى الا نتيجة حتمية مترتبة على انتشار البطالة بالمدن العربية .

٢ ـ عدم توفر فرص العمل :

على الرغم من أن أعدادا كبيرة من السكان الريفيين فى الدول العربية قد نزحوا الى المناطق الحضرية بحثا عن فرص عمل جديدة ، فان طبيعة بنيانها ومواردها الاقتصادية لم تصل بعد المرحلة الديناميكية التى تمكنها من استيعاب جزء كبير منهم .

فالتحول الحضرى بمفهومه السليم يتطلب انخفاضا فى الأهمية النسبية لقوى العمل فى قطاعات الزراعة والصيد والغابات والمناجم والمحاجر والصناعات الأولية وذلك اما نتيجة لارتفاع الكفاءة الانتاجية للعنصر البشرى أو ادخال تحسينات على المستوى التكنولوجى المستخدم فى هذه القطاعات الانتاجية فى الوقت الذى تقابل ذلك زيادة نسبة بطيئة فى حجم المشتغلين بالصناعات التحويلية مصحوبة بزيادة سريعة فى نمو قطاعات التجارة والنقل والمواصلات والخدمات المهنية والتشييد والبناء لما لها من قدرة عالية على امتصاص أعداد كبيرة من السكان .

الحالة العمالية	دمشق ١			بغداد ٢			القاهرة ٣		
	ذكور	اناث	جملة	ذكور	اناث	جملة	ذكور	اناث	جملة
صاحب عمل ويديره	٥,٥	٠,١	٠,٩	٣,٦	٠,١	١,٩	٢,٤	٠,١	١,٣
يعمل لحسابه	٩,٢	٠,٥	٤,٩	١١,٨	٠,٥	٦,٢	٩,٣	٠,٥	٥,٠
يعمل بأجر نقدى	٤٠,١	٦,٠	٢٣,٥	٤٨,٦	٣,٤	٢٦,٥	٤٥,٤	٧,٤	٢٦,٨
يعمل بدون أجر	١,٤	٠,٦	١,٠	٠,٣	—	٠,١	١,١	٠,١	٤,٦
متعطل	٣,٢	١,٠	٢,٢	٢,٩	٠,٢	١,٦	٢,٤	٠,٨	١,٦
غير قادر على العمل	٣,٢	٤,٣	٣,٧	٤,٨	٧٨,٧	٤١,١	١,٩	٢,٣	٢,١
لا يعمل ولا يبحث عن عمل	٣٧,٤	٨٧,٥	٦١,٨	٢٨,٠	٧١,١	٢٢,٦	٣٧,٥	٨٨,٨	٦٢,٦
المجموع	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠

فالنمو التراكمى السريع لقطاعات المواصلات والنقل والتجارة والمهن الحرة يعكس الصورة المعقدة لزيادة المستوى الحضارى للمجتمع وارتفاع مستوى المعيشة الذى يؤدى بدوره الى سرعة التوسع فى مجال هذه الأنشطة الاقتصادية • كما أن التوسع فى الأبحاث التى تعتبر من أهم متطلبات الهيكل الانتاجى فى الصناعة والتجارة وما يستلزمه من تخصصات يفتح الباب لاستيعاب نسبة كبيرة من ذوى المؤهلات والمهارات المختلفة ، وهذا بالتالى يؤدى الى زيادة نسبة القوى العاملة فى قطاعات الادارة والأعمال الكتابية التى يستلزم نموها لنجاح الأنشطة التجارية والصناعية والمهن الحرة والمعاهد التعليمية وبالأخص الجامعات • كما أن النمو الحضرى يتطلب زيادة سريعة فى قطاع الخدمات الشخصية التى تقدم خارج المنزل مع الاقلال من الخدمات اليدوية ودور المرأة داخل المنزل • وباختصار فان عملية النمو الحضرى بمفهومها السليم يتطلب لزاما زيادة كبيرة فى فرص العمل وخاصة للكفاءات العالية و العمالة الماهرة •

فاذا طبقنا هذا الوضع على المناطق الحضرية فى الوطن العربى بوجه عام وعواصم بعض أقطاره بوجه خاص ، لاتضحت حدة الركود الذى يخيم على نشاطها الاقتصادى والنمو غير المتوازن لقطاعاته المختلفة •

فجدول (٣) يبين أن نسبة كبيرة من السكان بالمدن الثلاث ليس لهم نشاط اقتصادى وخاصة الاناث اللاتى ما زلن يمارسن أعمالهن التقليديةداخل المنزل • وان جرت العادة لدى الاجتماعيين على تفسير هذه الظاهرة بالتخلف الحضارى وجمود العادات والتقاليد التى لا تسمح بخروج المرأة الى ساحة العمل ، فان الأرقام تؤكد أن المدن العربية تعانى من مشكلة عدم توفر فرص العمل بالقدر الكافى لاستيعاب حتى الذكور من سكانها ، هذا بالاضافة الى انخفاض المستوى التعليمى للاناث بوجه

خاص مما يحد من امكانية تشغيلهن فى مجالات الأنشطة المختلفة • أما اذا نظرنا الى التوزيع النسبى لجملة السكان العاملين فى الأنشطة المختلفة • نلاحظ صغر حجم كل من قطاعات الصناعات التحويلية والتجارة التى تعتبر الدعامة الأساسية التى يعتمد عليها النمو الاقتصادى لخلق فرص عمل جديدة • فبمقارنة الحجم النسبى لهذين القطاعين بمثيلهما فى المناطق الحضرية لبعض البلدان المتقدمة اقتصاديا ، لتبينا القصور فى النشاط الاقتصادى للمدن العربية • فبينما تتراوح نسبة العاملين بالتجارة ما بين ٨٪ فى مدينة بغداد ، و١٨٪ فى مدينة دمشق فانها تبلغ ٢٧٪ فى حضر الولايات المتحدة • وكذلك الحال بالنسبة للصناعات التحويلية التى تكون حوالى ٢٨٪ من جملة العاملين فى الأنشطة الاقتصادية فى الولايات المتحدة • وما قيل عن صغر حجم قطاعات التجارة والصناعات التحويلية ينطبق تماما على قطاع التشييد والبناء وخاصة اذا علمنا أن استخدام الآلات والأساليب التكنولوجية الحديثة ما زال محدودا فى هذا القطاع • ومن ناحية أخرى فان النشاط الاقتصادى للحضر العربى يتميز بنمو غير متوازن لقطاع الخدمات الذى يشتمل على أعلى نسبة من العاملات من النساء ويرجع السبب فى تركيز الغالبية العظمى من النساء داخل هذا القطاع الى أن أنشطته ما زالت ليست مهنية بحيث لا تحتاج الى مستوى تعليمى أو تأهيلى مرتفع بالاضافة الى أن عددا كبيرا منها يتلاءم والوظائف التقليدية للمرأة ، ونتيجة لذلك فان طبيعة النشاط الاقتصادى بحضر الوطن العربى تنعكس على التوزيع المهنى للسكان بحيث تتركز نسبة كبيرة منهم فى القطاعات ذات المرتبات والأجور المنخفضة مما يترتب عليه انخفاض فى مستوى معيشتهم •

جدول (٣) التوزيع النسبى للسكان العاملين فى مدن بغداد ودمشق والقاهرة على حسب النشاط الاقتصادى والنوع

النشاط الاقتصادى	بغداد			دمشق			القاهرة		
	ذكور	اناث	جملة	ذكور	اناث	جملة	ذكور	اناث	جملة
الزراعة والغابات والصيد والمناجم والمحاجر	٣,٥	١,١	٣,٤	٥,٢	٢,٣	٤,٩	١,٩	٠,٣	١,٧
الصناعات التحويلية	٢٢,٨	١٨,٥	٢٢,٦	٢٧,٩	٧,٨	٢٥,٥	٢٤,٠	٤,٤	٢١,٦
التشييد والبناء	٨,٦	٠,٣	٨,١	٩,١	١,١	٨,٢	٥,٤	٠,٢	٤,٨
الكهرباء والنقل	١٢,٥	١,٠	١١,٨	٨,٩	١,٢	٨,٠	٩,٧	١,٣	٨,٧
التجارة	٨,٤	٣,٨	٨,١	١٩,٩	٢,٧	١٧,٨	١٧,٣	٨,٤	١٦,٣
الخدمات	٣١,١	٦٣,٦	٣٣,٠٨	٢٧,٤	٨٠,١	٣٣,٥	٣٨,٤	٧٩,٣	٤٣,٣
الأنشطة غير الواضحة	١٣,١	١١,٧	١٣,٠	١,٧	٤,٨	٢,١	٣,٣	٦,١	٣,٦
المجموع	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠
النسبة المئوية لمن ليس لهم نشاط	٢٤,٧	٤٩,٦	٥٧,٨	٤٤,٣	٩٢,٥	٦٨,١	٤٠,٨	١٩,٥	٦٥,٦

جدول (٤) التوزيع النسبى لسكان مدينة القاهرة ودمشق وبغداد (١٥ سنة فأكثر) على حسب المهنة والنوع

	القاهرة			دمشق			بغداد		
	ذكور	اناث	جملة	ذكور	اناث	جملة	ذكور	اناث	جملة
أصحاب المهن الفنية والعلمية ومن اليهم	٥,٢	٢,١	٣,٧	٣,٥	٢,٠	٢,٨	٣,٨	١,٧	٢,٨
المديرون المشتغلون بالأعمال الادارية والتنفيذية	٣,٢	٠,٢	١,٨	١,٨	٠,١	١,٠	١٤,٧	٠,٧	٨,١
المشتغلون بالأعمال الكتابية	٨,٧	٠,٨	٤,٩	٧,٤	٠,٨	٤,٢	٣,٢	٠,٣	١,٩
المشتغلون بأعمال البيع	١٢,٢	٠,٧	٦,٦	١٣,٨	—	٧,٢	٨,٣	٠,٢	٤,٤
المشتغلون بأعمال الزراعة والصيد فى البر والبحر والغابات	٢,٠	—	١,١	٤,٤	٠,٢	٢,٤	٣,١	٠,١	١,٧
المشتغلون بأعمال النقل والمواصلات	٥,٥	—	٢,٨	٤,٩	—	٢,٦	٥,٨	—	٣,١
أصحاب الحرف والصناع والعمال والمشتغلون فى عملية الانتاج والنقل والعتالون	٣٠,٠	٠,٨	١٥,٨	٣٢,٠	٢,٦	١٧,٧	٢١,٣	١,٠	١١,٨
المشتغلون بالخدمات الرياضية والترفيهية	١٣,٦	٣,٧	٨,٨	٧,٦	٢,٠	٤,٩	٩,٨	١,٢	٥,٧
عمال غير مصنفين على حسب المهنة	٣٠,٠	١,١	٢,٢	١,٢	٠,٥	٠,٩	٥,٧	—	٣,٠
لا مهنة لهم	١٦,٦	٩٠,٦	٥٢,٣	١٨,٧	٩٠,٩	٥٣,٥	٢٤,٤	٩٤,٨	٥٧,٥
غير	—	—	—	٤,٧	٠,٧	٢,٨	—	—	—
المجموع	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠

فمن جدول (٤) يتضح أن الغالبية العظمى من سكان الحضر العربى يعملون فى المهن الدنيا ، فى حين أن تلك التى يتوقف على نموها خلق فرص عمل جديدة وارتفاع فى مستوى الدخل تشكل نسبة ضئيلة من السكان مما يترتب عليه وجود نسبة كبيرة من السكان العاطلين علاوة على انخفاض القوى الشرائية للسكان بوجه عام . أضف الى ذلك أن انخفاض نسبة العاملين بالمهن الفنية والعلمية والادارية والمشتغلين بالأعمال الكتابية يعطى صورة غير حسنة للكفاءة الانتاجية والادارية التى تدار بها المؤسسات والهيئات الاقتصادية وخاصة اذا قورنت بمثيلتها فى الدول المتقدمة . فحين تبلغ نسبة المهنيين والفنيين فى مدينة القاهرة ٣,٧٪ ، نجدها ١١,٢٪ فى الولايات المتحدة . وبالمثل فان نسبة الاداريين ١,٨٪ يقابلها ٨,٤٪ ونسبة المشتغلين بالأعمال الكتابية ٩,٤٪ يقابلها ١٤,٤٪ . ومن الواضح كما سبق أن ذكرنا أن قدرة المجتمع الحضرى على التغلب على مشكلة البطالة وانخفاض الدخل تتوقف على معدل نمو هذه القطاعات الثلاثة بالاضافة الى قطاع النقل والمواصلات . وبهذا الصدد فان هذا القطاع الأخير يمثل مشكلة كبيرة فى المدن العربية سنتناولها بالتفصيل فيما بعد ، وان كان يكفى أن ندلل فى هذا المجال بأن نسبة العاملين فيه يشكلون نسبة ضئيلة من جملة السكان . فى حين تبلغ هذه النسبة ٢,٨٪ فى مدينة القاهرة فانها تصل الى ٧,٥٪ فى حضر الولايات المتحدة .

وان كان التركيب المهنى لسكان الحضر بالمدن العربية يعوق سرعة عملية التنمية الاجتماعية والاقتصادية ، فان التركيب التعليمى يشكل مشكلة أساسية من الناحية الفنية والادارية وخاصة فى القطاعات الانتاجية الرئيسية . فانتشار الأمية بدرجة كبيرة فى مجالات الأنشطة الاقتصادية المختلفة من الطبيعى أن يؤثر فى مقدرتها على الاستفادة من النواحى التطبيقية للمبتكرات ووسائل الانتاج الحديثة التى تؤدى الى ارتفاع

معدلات الانتاج وزيادة الأرباح وبالتالى زيادة قدرتها على خلق فرص عمل جديدة أو تحسين مستوى الماهيات والأجور للعاملين بها . فاذا نظرنا الى جدول (٥) الذى يوضح التوزيع النسبى لسكان مدينة القاهرة على حسب النشاط الاقتصادى والحالة التعليمية ، فاننا نلاحظ انخفاض المستوى التعليمى بدون استثناء للعاملين فى جميع القطاعات بدرجة لا تنم عن كفاءتها سواء من الناحية الفنية أو الادارية ، فاذا حسبنا نسبة المتعلمين الى غير المتعلمين فى القطاعات الحيوية كالصناعات التحويلية والتشييد والبناء والتجارة والنقل والمواصلات لاتضح لنا أسباب انخفاض مستوى الخدمات والمنتجات التى تقدمها والمشكلة التى تواجه تطويرها ، فانتشار الأمية بهذه الصورة المفزعة بين العاملين فى مجالات الأنشطة المختلفة لا تشكل مشكلة من الناحية الانتاجية والتكنولوجية فحسب ، بل تمتد الى سوء استخدام رءوس الأموال المستغلة وانخفاض عائدها وسرعة تلف الثابت منها كما هو الحال بالنسبة للآلات والسيارات والمواد الخام وسبل المواصلات العامة والمصانع والمبانى العامة والخاصة وهى أمور يمكن التدليل عليها من أول وهلة .

كما أن وجود هذا المستوى الثقافى المنخفض بين القوى العاملة بوجه عام ، والمشتغلين فى قطاعات الأنشطة الاقتصادية بوجه خاص يعتبر من الأسباب الرئيسية لعدم استخدام الطرق والأساليب الحديثة فى عمليات الانتاج وسوء استغلال رءوس الأموال والمدخرات الخاصة . فعلى الرغم ن ازدياد أهمية الدور الذى يلعبه القطاع العام فى التنمية الاقتصادية فى الكثير من الدول العربية ، فان هناك كثيرا من الأنشطة مثل التشييد والبناء والتجارة والخدمات يمكن لرءوس الأموال الخاصة أن تساهم بقسط فعال فيها . ولكن نظرا لأن الجزء الأكبر من هذه الأموال يسيطر عليه نسبة كبيرة من غير المتعلمين الذين يفتقرون الى المقدرة الفنية والادارية بالاضافة الى عدم الشعور بالمسئولية الجماعية

جدول (٥) التوزيع النسبى للمصريين على حسب النشاط الاقتصادى
والحالة التعليمية للسكان (١٠ سنوات فاكثر) بمدينة القاهرة (عام ١٩٦٠)

النشاط الاقتصادى	امى	يقرأ + يقرأ ويكتب	مؤهل اقل من المتوسط	مؤهل متوسط	مؤهل فوق المتوسط	الدرجة الجامعية الأولى + دبلوم ممتاز + ماجستير + دكتوراه	الجملة
١ ـ الزراعة والغابات والصيد	٦٧,١	٢٣,٦	١,٩	٤,٠	١,١	٣,٣	١٠٠,٠
٢ ـ المناجم والمحاجر	٥٨,٢	٢٣,٦	١,٧	٧,٧	٠,٣	٨,٥	١٠٠,٠
٣ ـ الصناعات التحويلية	٤٣,٥	٤٥,٩	٣,٩	٥,٤	٠,١	١,٢	١٠٠,٠
٤ ـ التشييد والبناء	٦٠,٢	٣٢,٦	١,٨	٢,٩	٠,١	٢,٤	١٠٠,٠
٥ ـ الكهرباء والغاز والمياه وجمع القمامة	٤٤,٧	٣٦,٩	٤,٣	١٠,٩	٠,٢	٣,٠	١٠٠,٠
٦ ـ التجارة	٤٤,٦	٣٧,٦	٤,٨	٩,٤	٠,٢	٣,٤	١٠٠,٠
٧ ـ النقل والمواصلات والتخزين	٢٧,٨	٤٣,٩	١٠,٥	١٤,٢	٠,٦	٣,٠	١٠٠,٠
٨ ـ الخدمات	٣٦,٦	٣٠,٧	٥,٤	١٥,٢	١,٣	١٠,٨	١٠٠,٠
٩ ـ أنشطة غير واضحة	٢٧,٠	٣١,٥	٦,٣	٢٦,٨	١,١	٧,٣	١٠٠,٠
١٠ ـ ليس لهم نشاط	٢,٩	٣١,٤	٣,٨	١١,٣	٠,١	٠,٥	١٠٠,٠

والافتقـار الى عنصر المخـاطرة فانها تظل فى صـورة مجمدة أو توجه للاسـتثمار فى مشروعات غير انتاجية وبالتالى لا تقدم حلولا للعمـالة الفائضة . ويتضـح ذلك من جدول (٦) الذى يبين أن حوالى ٨٠٪ من أصحاب الأعمـال الذين يقومون بادارتهـا أو ٩٥٪ ممن يقومون بمزاولتها ذوى مستوى تعليمى منخفض لا يتعدى القـراءة والكتابة . وكذلك الحال بالنسبة للذين يعملون بأجر نقدى وهم الذين يمثلون الفئة التى تعمل فى الحكومة والقطاع العام . كما أن هذا الجدول يوضح مدى حدة البطـالة وعلى الأخص بين غير المؤهلين وذلك راجـع الى طبيعـة الأنشـطة الاقتصادية الحضرية التى لا تسمح باستيعاب نسبة كبيرة من المنتمين الى هذه الفئة .

٣ ـ مشكلة التعليم :

تعـانى المناطق الحضرية بوجه عام وعواصم الأقطار العربية بوجه خاص من انخفاض المستوى الثقافى والتعليمى للغالبية العظمى من سكانها وذلك يرجع الى طبيعة الخصائص الاجتماعية والاقتصـادية للمهاجرين اليهـا . فعلى الرغم من التسـهيلات الكبيرة التى توفـرها الحكومات والجهود المبذولة لنشر الوعى الثقافى والتعليمى ورفع المستوى الحضارى للسكان ، فان ذلك لا يعكس الصورة المشرفة التى يجب أن تكون عليها المناطق الحضرية العربية وبالتالى تؤثر تأثيرا سيئا على الحياة الاجتماعية والمرافق الاقتصادية وطبيعة العلاقات الانسانية بالمدن . فانخفاض المستوى التعليمى لسكان المدن فى الوطن العربى لا يرجع أساسا الى قصور الأجهزة القائمة بهذه الوظيفة أو عدم توفير الأماكن اللازمة لاستيعاب الراغبين فى التحصيل العلمى ، وانما الى افتقار المناطق الريفية التى ينزح منها عدد كبير من السكان الى مؤسسات المراحل التعليمية الأولى وعدم اهتمام الآباء بمواظبة أبنائهم على التحصيل الذى يرجع غالبا الى انخفاض مستواهم الاقتصـادى ونظرتهم الاجتماعية والقيمة المتعلقـة التى يولونهـا الى

التعليم • وان كانت المناطق الحضرية بوجه عام والعواصم بوجه خاص يتركز فيها عدد كبير من المؤسسات والهيئات العلمية وبالأخص الجامعات ، الا أن الصورة التى عليها المستوى العلمى للسكان لا توحى بتوفر الملامح التحضرية ويمكن الاستدلال على ذلك من جدول (٧) الذى يبين التوزيع النسبى لسكان كل من مدن دمشق وبغداد والقاهرة على حسب الحالة التعليمية والنوع (١٠ سنوات فأكثر) •

فيتضح من هذا الجدول أن نسبة غير المتعلمين من السكان مرتفعة جدا بوجه عام فى المدن الثلاث حيث تبلغ ٧٥,٨٪ فى دمشق ، و٩٣,٧٪ فى بغداد ، و٨٠,٧٪ فى القاهرة • غير أن هذا المتوسط يختلف اختلافا بينا بين الذكور والاناث ، حيث تبلغ نسبة غير المتعلمين من الذكور فى مدينة دمشق ٦٩,٢٪ يقابلها ٨٢,٨٪ للاناث • وتبلغ هذه النسبة فى مدينة بغداد ٩١,١٪ للذكور مقابل ٩٦,٦٪ للاناث ، وفى مدينة القاهرة ٧٤,٤٪ للذكور مقابل ٨٨,٢٪ للاناث • فاذا حسبنا الوسيط لعدد سنوات التعليم للسكان فى هذه المدن الثلاث سواء للذكور أو الاناث نجد أنها لا تتعدى كسرا من السنين فى حين تتراوح ١١,١ سنة فى حضر الولايات المتحدة •

غير أن انخفاض المستوى التعليمى والثقافى لسكان الحضر العربى لا يشكل فى حد ذاته المشكلة الأساسية التى تعانى منها هذه المناطق ، وانما ما يترتب عليه من مشكلات فى نواح أخرى تتعلق بمستوى الصحة والنظافة والمواصلات والاسكان • فليس خافيا علينا جميعا أن هناك ارتباطا عكسيا بين المستوى التعليمى للأسرة والوفيات بوجه عام والأطفال بوجه خاص • فعلى الرغم مما توليه الدول العربية من عناية بالمشروعات الصحية وما طرأ من انخفاض على معدل الوفيات العام فان انخفاض المستوى الثقافى والتعليمى للأمهات لم يعكس أى تغيير يذكر على معدل

جدول (٦) التوزيع النسبى للمصريين على حسب الحالة العملية والتعليمية (١٠ سنوات فأكثر) بمحافظة القاهرة سنة ١٩٦٠

	أمى	يقرأ + يقرأ ويكتب	مؤهل أقل من المتوسط	مؤهل متوسط	مؤهل فوق المتوسط	الدرجة الجامعية الأولى + دبلوم ممتاز + دكتوراه + ماجستير	الجملة
١ ـ صاحب عمل ويديره	٢٧,٦	٥٢,٧	٥,٩	٧,٦	٠,١	٦,١	١٠٠,٠
٢ ـ يعمل لحسابه ولايستخدم أحدا	٥٨,٥	٣٥,٣	٢,٢	٢,١	١,١	١,٨	١٠٠,٠
٣ ـ يعمل بأجر نقدى	٣٧,٤	٣٥,٧	٥,٧	١٣,٢	٠,٦	٧,١	١٠٠,٠
٤ ـ يعمل لدى ذويه بدون أجر نقدى	٥٠,٣	٤١,٩	٣,٦	٣,٨	—	٠,٤	١٠٠,٠
٥ ـ يعمل لدى الغير بدون أجر نقدى	٥٢,٣	٤١,٧	٣,٣	١,٢	—	١,٥	١٠٠,٠
٦ ـ لا يعمل ويبحث عن عمل (متعطل)	٤٠,٢	٣١,٢	٤,٤	١٧,٨	٠,٩	٥,٥	١٠٠,٠
٧ ـ غير قادر على العمل ، لايعمل ولايبحث عن عمل	٥٢,٩	٣١,٣	٣,٨	١١,٤	٠,١	٠,٥	١٠٠,٠



وفيات الأطفال الرضع حيث يرتبط هذا المعدل ارتباطا وثيقا بمستوى الصحة وتعليم النظافة التى تتبعها الأسرة • فلئن كانت الاحصائيات الحيوية فى الدول العربية تعانى من القصور فى تسجيل بيانات وفيات الأطفال عند هذا السن فان ما هو متوفر منها يشير الى أن معدل وفيات الرضع فى مدينة القاهرة لم يطرأ عليه تغيير جوهرى كما تدل على ذلك الأرقام الخاصة بمدينة القاهرة ، فقد بلغ هذا المعدل ١٥٦ لكل ١٠٠٠ من المواليد الأحياء فى عام ١٩٥٩ مقابل ١٦١ فى عام ١٩٦٨ (احصائيات المواليد والوفيات سنة ١٩٦٨ — مرجع رقم ١ — ٢١٢ الجهاز المركزى للتعداد والاحصاء) •

فاذا كان هذا المعدل لا يتعدى ١٧ لكل ألف مولود فى السويد فى عام ١٩٦٠ ، و٢١ و٢٣ فى كل من أستراليا والمملكة المتحدة على التوالى (المشاكل السكانية ص ٣٥٧) فان ذلك يشير الى ضياع جزء كبير من استثمارات الدولة أو الحكومات المحلية فى الدول العربية لخلق بيئة حضرية مناسبة نتيجة لجهل الأمهات بالنواحى الصحية وقواعد النظافة سواء فى تربية أطفالهن أو فى مجال اقامتهن •

وكما يؤدى انخفاض المستوى التعليمى والثقافى لسكان الحضر العربى الى عدم الارتقاء بالحالة الصحية فى محيط الأسرة والمحافظة على قواعد النظافة العامة ، فانه ينعكس أيضا فى سوء استغلال المرافق العامة والتى من أهمها سبل المواصلات • وان كانت معظم المدن فى الدول النامية بوجه عام والدول العربية بوجه خاص ، والتى تتميز بمعدل نمو سكانى سريع تعانى من مشكلة المواصلات ، فاننا لا نعتقد أن السبب الحقيقى يرجع أساسا الى ارتفاع الكثافة السكانية أو انخفاض مستوى العربات والسيارات التى يقدمها هذا المرفق الهام وانما الكفاءة العلمية والتدريبية للمشرفين على ادارته وصيانته والوعى الثقافى للمنتفعين من خدماته والأسلوب الذى يتعاملون به معه •

جدول (٧) التوزيع النسبى لسكان مدينة دمشق وبغداد والقاهرة على حسب الحالة التعليمية والنوع

	دمشق ١٩٦٠			بغداد ١٩٥٧			القاهرة ١٩٦٠		
	ذكور	اناث	جملة	ذكور	اناث	جملة	ذكور	اناث	جملة
امى	٢٢,٢	٥٤,١	٣٧,٧	٥٩,٤	٨٢,٠	٧٠,٣	٣٢,٧	٦٢,٨	٤٧,١
يقرأ ويكتب	٤٧,٠	٢٨,٧	٢٨,١	٣١,٧	١٤,٦	٢٣,٤	٤١,٧	٢٥,٤	٣٣,٦
مؤهل أقل من المتوسط	١٧,٨	١١,٥	١٤,٨	٣,٣	١,٦	٢,٥	٥,٠	٣,٧	٤,٤
مؤهل متوسط وأقل من الدرجة الجامعية الأولى	١٠,٤	٥,٣	٧,٩	٣,٨	١,٤	٢,٦	١٥,٨	٧,٦	١٢,٠
مؤهل جامعى	٢,٦	٠,٤	١,٥	٠,٤	١,٢	١,٢	٤,٨	٠,٥	٢,٩
المجموع	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠

فعلى الرغم من الكثافة السـكانية المرتفعـة بمدن الدول النامية الكبرى والاعتماد على سبل المواصلات العامة ، فاننا لا نلاحظ الصورة التى يتعامل بها جمهور الركاب مع هذا المرفق ببعض المنـاطق الحضرية العربية ، وعلى الأخص مدينة القاهرة . فاذا ربطنـا بين التركيب المهنى للسكان حيث يمثل جزءا منهم المخططون والمشرفون على ادارة وصيانة قطاع المواصلات بالمدينـة من ناحية والركاب الذين ينتقلون الى ومن مجال عملهم والحالة التعليمية لكل منهما لاتضحت الأسباب الرئيسـية التى تؤدى الى سرعة تدهور واستهلاك وسـائل النقل بالمدن والى عدم توفر النظام والحرص على المحافظة على هذه الممتلكات العامة . وجدول (٨) يوضح التوزيع النسبي للذكور العرب المصريين على حسب المهنة والحالة التعليمية (١٥ سنة فأكثر) فى محافظة القاهرة .

من هذا الجـدول يتضـح أن من جملة المشـتغلين بقطاع النقل والمواصلات حوالى ٨٧٪ لا يتعدى مستواهم التعليمى القراءة والكتابة وهؤلاء بالطبع يشكلون الغالبية العظمى من العنصر البشرى الذى يقوم بقيادة العربات والسيارات وصيانتها . أى أن معلوماتهم فى هذا المجـال مكتسبة عن طريق الخبرة والتدريب لفترة لا تتناسب فى أغلب الأحيان مع طبيعـة التطور التكنولوجى السريع الذى يميز سـبل المواصلات الحديثة . واذا كان الوضع كذلك بالنسبة للمشتغلين بهذا القطاع ، فانه ليس أحسن حالا بالنسبة للذين يستخدمون باتنظام سبل النقل العامة . فاذا أخذنا فى اعتبارنا الفئة غير المنتجة من الرجال والنساء والذين يمثلون حوالى ٥٢,٣٪ منجملة السكان (١٥ سنة فأكثر) منهم ٨٤٪ لم يحصلوا على أى مؤهل علمى لاتضح لنا أسـباب عدم توفر النظام والوعى لدى جمهور ركاب مرافق النقل العـامة ، مما جعلها من أهم المشكلات التى يعانى منها الطبقة المتعلمة التى لا تسمح ظروفها الاقتصادية اسـتخدام سيارات خاصة أو أجرة .

جدول (٨) توزيع المصريين على حسب المهنة والحالة التعليمية للذكور (١٥ سنة فأكثر) فى مدينة القاهرة سنة ١٩٦٠

	امى	يقرأ + يقرأ ويكتب	مؤهل أقل من المتوسط	مؤهل متوسط	مؤهل فوق المتوسط	الدرجة الجامعية الأولى + دبلوم ممتاز + ماجستير + دكتوراه	الجملة
١ ــ أصحاب المهن الفنية والعلمية ومن اليهم	ــ	٠,٢	٣,٢	٢٧,٩	٥,٠	٦٣,٧	١٠٠,٠
٢ ــ المديرون المشتغلون بالأعمال الادارية والتنفيذية ومن اليهم	٣,٩	١٥,٤	٣,٣	٢٩,٩	١,٣	٤٦,٢	١٠٠,٠
٣ ــ المشتغلون بالأعمال الكتابية	ــ	٢٤,١	٢٢,٨	٥٠,١	٠,٩	٢,١	١٠٠,٠
٤ ــ المشتغلون بأعمال البيع	٥٠,٤	٤١,٥	٣,٨	٣,٨	ــ	٠,٥	١٠٠,٠
٥ ــ المشتغلون بأعمال الزراعة والصيد فى البر والبحر وأعمال القمامة	٧٠,٠	٢٦,٢	١,٣	١,٩	ــ	٠,٦	١٠٠,٠

٦ ـ المشتغلون بالمناجم والمحاجر	٧٠,٥	٢٧,٤	٠,٤	١,٦	–	٠,١	١٠٠,٠
٧ ـ المشتغلون بأعمال النقل والمواصلات	٢٦,١	٦٠,٥	٧,٤	٥,٣	٠,٤	٠,٣	١٠٠,٠
٨ ـ أصحاب الحرف والصناع والعمال المشتغلون فى عملية الانتاج والعتالون	٤٦,٨	٤٧,٢	٣,٤	٢,٦	–	–	١٠٠,٠
٩ ـ المشتغلون بالخدمات الرياضية والتربية ومن اليهم	٥١,٠	٤٥,٩	١,٧	١,٣	–	٠,١	١٠٠,٠
١٠ ـ مشتغلون غير مصنفين على حسب المهنة	٢٨,١	٣٩,٩	٥,٠	٢٠,٨	٠,٦	٥,٦	١٠٠,٠
١١ ـ لا مهنة لهم	٢٠,٠	٢١,٣	٤,٤	٥١,٤	٠,٢	٢,٧	١٠٠,٠

كما أن سوء المستوى التعليمى لسكان الحضر لا يقتصر على انخفاض مستوى الصحة والنظافة وخدمات النقل العام ، بل يمتد الى سرعة تدهور المساكن وسوء استغلالها • وان كان قصور البيانات الاحصائية فى هذا المجال لا يسمح باظهار الصورة الحقيقية التى أصبحت عليها المناطق السكنية الحديثة التى قامت الدولة بانشائها ، الا أنه يكفى بالملاحظة العابرة التدليل على مدى ما أصابها من أضرار نتيجة عدم قيام القاطنين بها بصيانتها والمحافظة عليها وحسن استخدام توصيلات مياهها ومجاريها وهذا يرجع الى انتشار الأمية بينهم وعدم التعود على سكنى المناطق الحضرية •

ونظرا لأنه لم يطرأ تغيير جوهرى على الحالة الاقتصادية والتعليمية والعملية للأفواج الكبيرة من المهاجرين من سكان المناطق الريفية ، فاننا بالطبع نتوقع أن يكون أسلوب حياتهم وطرق معيشتهم وعلاقاتهم الاجتماعية فى البيئة الحضرية الجديدة ما هو الا امتداد لما نشأوا عليه تحت الظروف القروية •

أضف الى ذلك أن انخفاض المستوى التعليمى لسكان الحضر فى الوطن العربى يؤثر على المعاملات التجارية والطريقة التى تتم بها الصفقات وبدائية أسلوب تداول النقد وحركة البنوك • فاذا كانت نسبة غير المتعلمين بين المشتغلين بأعمال البيع تبلغ حوالى ٩٢٪ فى مدينة القاهرة ومن المتوقع أن تكون كذلك فى بقية المناطق الحضرية الكبيرة بالأقطار العربية الأخرى ، واذا كانت نسبة هذه الفئة التى لم تحصل على أى تعليم (١٠ فأكثر) تزيد على ٨٢٪ من جملة العاملين بقطاع التجارة ، فانه ليس هناك مبرر للتساؤل عن ضيق دائرة المعاملات التجارية الخارجية وضعف الحركة التصديرية لعديد من المنتجات التى تحتاج الى خبرة علمية ودراية بمتطلبات الأسواق العالمية •

٤ ـ مشكلة نقل البضائع والركاب :

تعتبر عملية نقل البضائع والركاب من أهم المشكلات التى تصاحب التحول الحضرى السريع فى الوطن العربى نظرا للارتفـاع المفاجىء فى عدد سكان المدن نتيجة لانخفـاض معدل الوفيـات من جهة والهجـرة الريفية بشكل مذهب من جهة أخرى ، أضـف الى ذلك أن معظم مدن الوطن العربى نشـأت وازدهرت خلال عصور الحضارات القديمة حيث لم تأخذ بمبدأ التخطيط العلمى بحيث تسمح باسـتقبال الأعداد الكبيرة من الناس الذين يهاجرون اليها الآن ، كما أن شوارعها أو طرقاتها لم تكن مهيأة لتحمل ضغط سبل المواصلات الحديثة من أوتوبيسات وجرارات وتروللى باس ، والأعداد الهـائلة من السـيارات الخاصة اللازمة لنقل السكان من والى محال عملهم • فلم تكن المدن العـربية الى عهد قريب تتميز بالتخصص الايكولوجى فى اسـتخدامات الأرض والمسـافة التى تفصل بين الاقامة والعمل بالبعد الذى يستلزم توفر وسـائل الانتقـال السريعة • زد على ذلك أن تجمـع مئات الآلاف من السـكان فى منطقة استيطان واحدة ويشتغلون فى أنشطة اقتصادية غير أولية تتطلب وجود جهـاز تخطيطى على درجة كبيرة من الكفاءة ليوفر لهؤلاء احتيـاجاتهم الغذائية الضرورية والمواد الخام المستخدمة فى عمليات الانتاج • فالزيادة السريعة فى السكان وتجمعهم فى المناطق الحضرية أدى الى اتساع الرقعة السكانية وارتفاع الكثافة الفيزيقية وصعوبة الاحتكاك المكانى وازدياد التخصص الأيكولوجى مما نشأ عنه الكثير من المشكلات التى تواجهها المدن العربية من قبل • ويمكن التدليل على مدى حدة مشكلة الازدحام سواء للسكان أو سبل المواصلات وصعوبة الانتقال فى المناطق الحضرية من دراستنا وتحليلنا للبيانات المتوفرة لمدينة القـاهرة والتى لم تكن الى عهد قريب تختلف عن بقية المدن العربية التى من المنتظر أن تواجه نفس مشـكلاتها فى أثنـاء فترة نموها الحضرى اللهم اذا اتخـذ المخططون

والمسئولون فيها الاحتياطات اللازمة لتجنب حدوثهـا • ففى عام ١٩٢٧ بلغ عدد سكان مدينة القاهرة ١,٠٧٠١,٨٥٧ نسمة ارتفع الى ١,٣٠٩,٧١٨ نسمة فى عام ١٩٣٧ ــ أى بمعـدل زيادة سـنوية ثابتة قدرها ٢,٢٪ • فاذا كان متوسـط معدل النمو السـكانى العام خلال هذه الفترة هو ١,٢٪ فان صافى الهجرة الداخلية نتج عنه زيادة سنوية مقدارها ١٪ • غير أن معدل النمو السكانى لمدينة القـاهرة ارتفع من ٢,٢٪ فى ١٩٣٧ الى ٥,٨٪ فى عام ١٩٤٧ ، وبلغ عدد سكانها فى ذلك الوقت ٢,٠٧٥,٩١٤ نسـمة أى تأثير صافى الهجـرة الداخلية ارتفـع من ١٪ فى الفترة من ١٩٢٧ ــ ١٩٣٧ الى ٣,٩٪ فى الفترة من ١٣٩٧ ــ ١٩٤٧ • ويرجع ذلك أساسا الى ظروف الحرب العـالمية الثانية ، وفرص العمـل التى أتاحتها للحرفيين والصناع والعمال فى المصانع والمنشآت العسكرية • واستمر هذا النمو بعد الحرب العـالمية الثـانية حتى بلغ عدد سكان القـاهرة ٣,٣٤٨,٧٧٩ نسـمة فى عام ١٩٦٠ ، أى بزيادة قـدرها ٦١,٣٪ عن عام ١٩٤٧ ، ومعدل نمو سنوى مقداره ٤,٧٪ • فاذا علمنا أن متوسط معدل الزيادة الطبيعيـة لسكان المدينـة خلال هـذه الفترة كانت حوالى ٣٪ فيكون الفرق ومقداره ١,٧٪ راجعـا الى صافى الهجرة الداخلية • وفى عام ١٩٦٨ بلغ عدد السكان التقديرى للقاهرة ٤,٤٠٧,٤٠٠ نسمة بزيادة قدرها ٣١,٦٪ ، ومعدل نمو سنوى حوالى ٤٪ •

وحيث ان معدل الزيادة الطبيعية لسكان المدينـة بلغ حوالى ٢٪ خلال هذه الفترة ، فيكون الناتج من تأثير عامل الهجرة الداخلية حوالى ٢٪ سنويا •

يتضح من ذلك أن عدد سكان القاهرة زاد بنسبة ٦١٪ فى الفترة بين ١٩٤٧ ــ ١٩٦٠ ، و١١٢٪ حتى عام ١٩٦٨ ــ أى أكثر من الضعف مما نتج عنه تغيير كبير فى حجم احتيـاجات المجتمع اليومية والضرورية

من سلع وخدمات وكذلك فى مساحة حدوده الادارية وكثافته السكانية وأطوال طرق مواصلاته ونوعية وسائلها وحجم جمهور مستخدميها وما يرتبط بهم من أنشطة وخدمات ومعاملات تجارية أو احتكاك فيما بينهم ، كل هذه العوامل مجتمعة أدت الى ظهور الكثير من المشكلات المتعلقة بزيادة حجم متطلبات السكان وسرعة تحركاتهم فى الوقت الذى لم تكن فيه مدينة القاهرة مهيأة لمواجهة هذا الضغط الفجائى السريع .

ففى عام ١٩٣٧ بلغت مساحة القاهرة حوالى ١٦٥ كيلو مترا مربعا ، وزادت الى ١٧٩ فى عام ١٩٤٧ ، ثم الى ٢١٤ فى عام ١٩٦٠ ، أى أنه فى الفترة بين ١٩٣٧ — ١٩٦٠ ، زادت مساحة القاهرة بمقدار ٢٩,٧٪ غير أن هذه الزيادة لم تتناسب مع ما طرأ على حجم السكان من تغيير مما ترتب عليه ارتفاع كبير فى الكثافة السكانية من ٧٩٥٧ شخص فى الكيلو متر المربع عام ١٩٣٧ ، الى ١١٧٠٤ فى عام ١٩٤٧ الى ١٥٦٣٤ فى عام ١٩٦٠ . أى كثافة السكان بالكيلو متر المربع من المساحة الكلية للمدينة زادت بنسبة ٩٦,٥٪ ، (الاحصاء السنوى العام ص ٢٤ ، تعداد السكان مجلد ٢ ص ٣٩) . وبمقارنة هذه الكثافة بمثيلتها فى العواصم الغربية الأخرى يتضح أنها تفوق فى هذا المجال أكبرهم حجما . فالبيانات المتوفرة لكل من مدينة نيويورك وشيكاغو تبين أن الكثافة السكانية بالأولى تبلغ ٢٥,٠٠٠ نسمة بالميل المربع (٩٧٧٥ نسمة بالكيلو متر المربع) وبالثانية ١٧,٠٠٠ نسمة . وبناء على ذلك تكون الأرقام المماثلة بالميل المربع فى مدينة القاهرة هى ٤٠,٠٢٤ نسمة ، وربما تكون هذه أعلى كثافة فى العالم باستثناء بعض مدن الهند والصين ونقل السكان فى مثل هذه المناطق المزدحمة يعتبر من المشكلات الرئيسية سواء من ناحية الانتظار أو التزاحم على وسائل المواصلات أو الوقت الذى يقتضيه الراكب فى رحلة الذهاب والاياب . هذا بالاضافة الى عدد ساعات التشغيل المفقودة ، اما نتيجة الانتظار على محطات الركاب أو لسوء

استخدام وعطل الوحدات العاملة على الخطوط نتيجة الحمولات الزائدة عن المقرر والطرق التى تسير عليها أو عدم وجود الوقت الكافى لصيانتها واصلاح ما يطرأ عليها من خلل •

فاذا نظرنا الى حجم جمهور الركاب الذى ينتقل بين أجزاء القاهرة الكبرى وعدد ونوعية وسائل المواصلات المستخدمة داخل المدينة لأمكننا رسم صورة واضحة عن مدى ضخامة المشكلة •

ففى عام ١٩٦٥/١٩٦٦ ، بلغ عدد ركاب وسائل النقل العامة ٩٠٠٦,٥ مليون شخص ، منهم ٧٦٨,٢ مليون راكب استخدموا فى المتوسط ٩٥٦ وحدة أتوبيس ، و٩٥,٩ مليون راكب استخدموا ١١١ وحدة تروللى باس و١٤٢,٤ مليون راكب استخدموا ٣٤٣ وحدة ترام •

وفى عام ١٩٦٨ / ١٩٦٩ ، ارتفع عدد الركاب الى ١٠٥٧,٥ مليون شخص منهم ٧٧٩ مليون استخدموا ٩٨٢ سيارة أتوبيس ، و١١٢,٧ مليون استخدموا ١٢٥ وحدة تروللى باس ، و١٦٥,٨ استخدموا ٣٠٣ وحدة ترام •

فاذا اعتبرنا متوسط عدد الساعات المقررة لكل وحدة فى اليوم هى ١٦ ساعة خلال ٣٥٦ يوما ، نجد أن متوسط عدد ركاب كل أتوبيس فى الساعة هو ١٣٨ راكبا فى عام ١٩٦٥/١٩٦٦ مقابل ١٣٦ راكبا فى عام ١٩٦٨/١٩٦٩ • فاذا علمنا أن متوسط حمولة وحدة الأتوبيس المستخدمة فى هذه الفترة لا تتجاوز فى العادة من ٦٠ ــ ٧٠ راكبا بين جالس وواقف لاتضح لنا مدى درجة ازدحامهم وتكدسهم داخل هذه الوسيلة من وسائل المواصلات •

واذا كانت حالة الازدحام كذلك بالنسبة لسيارات الأتوبيس فانها أكثر من ذلك بين ركاب التروللى باس والترام • فقد بلغ عدد الركاب فى الساعة

لكل وحدة من وحدات الترولل باس ١٤٨ شخصا فى ١٩٦٥ / ١٩٦٦ مقابل ١٥٤ فى عام ١٩٦٨/١٩٦٩ ، و٧١ شخصـــا لكل وحدة ترام فى ١٩٦٥/ ١٩٦٦ مقابل ٩٤ شخصا فى عام ١٩٦٨/١٩٦٩ • وتنيجة للزحام الشديد على وسائل المواصلات والطريقة التى يستخدمها بها الجمهور كما سبق أن أوضحنا ، فان نســبة كبيرة منهــا معطل تحت الاصلاح أو غير قابل لذلك مما يجعل هذا المرفق العام عاجزا عن تشغيل وحداته بكفاءة ، وبالتالى ينعكس أثر ذلك على حصيلة ايراداته ، ففى عام ١٩٦٨ / ١٩٦٩ كان لدى المرافق ٢٢٦٠ سيارة يعمل منها فعلا على الخطوط ٩٨٢ سيارة فقط ، أى بنسبة قدرها ٤٣,٥٪ وكان ما يمتلكه المرفق من قاطرات الترام ٢٤٦ وحدة فى عام ١٩٦٨/١٩٦٩ الا أن الموجود بالخدمة منها ٢١٩ قاطرة فقط ، أى بنسبة ٤٧ ٪ والباقى خارج التشغيل •

يتضح من هذه الأرقام أن مشكلة المواصلات التى تعانى منها مدينة القاهرة لا ترجع أساسا الى عدم توفر وسائل النقل فى حدذاتها ، وانما الى سوء استخداماتها وعدم العناية بها أو اللامبالاة فى المحافظة عليها ، وهذا ما يشكل محور المشكلة الريئيسية التى سبق مناقشتها وهى انخفاض الوعى العلمى والثقافى لجمهور ركاب المواصلات العامة •

هذه بعض من المشكلات الرئيسية التى تعانى منها المناطق الحضرية بالوطن العربى ، وان كان قد اختصر الحــديث عليها فذلك راجع أساسا الى توفر البيــانات الاحصائية التى تسمح بدراستها • فهناك مشكلات أخرى تتعلق بالاسكان ، الجريمة والاحداث ، وسائل الترفيه والتسلية ، المتنزهات والحدائق العــامة وغيرها مما يستلزم الحصول على مزيد من البيانات لدراستها والتعرف على أسبابها وهى ليست متاحة بالقدر الكافى فى الوقت الحاضر •

الفصل الرابع

خصائص المجتمع الحضرى

المجتمع الحضرى Urban Society فى ضوء الدراسات السابقة هو المجتمع الذى يرفض الخضوع لقسوة الطبيعة أو للسلبية ، وانما هو المجتمع الايجابى الذى يتحدى الطبيعة وينشىء لنفسه كل ما ييسر له الحياة الاجتماعية الراقية ، ويحاول ما وسعته الحيلة أن يبتكر من الأدوات والوسائل ما يجعل حياته أكثر رفاهية ... ...بعكس الحال فى المجتمع الريفى Rural Society حيث نجد أن هذا المجتمع يخضع خضوعا كاملا للطبيعة بعناصرها المختلفة من أرض وماء وهواء . فالأرض باعتبارها مصدر الارتزاق بالنسبة للقروى لها ــ من وجهة نظره ــ قداسة . ويرى (مارشال جون) أن هذا الارتباط بالأرض جعله ــ حتى فى منزله ــ يميل الى افتراض الأرض لشدة تعلقه بها ، بالاضافة الى استخدامه للمواد التى تتوافر فى الطبيعة فى بناء منزله [1] ...غير أن الأمر ليس على هذه الصورة ، ذلك أن القروى يحاول اســتغلال ما فى بيئته فى بناء منزله ، وعندما تزداد امكاناته المادة ، فانه يبحث عن الأحجار أو عن الطوب الأحمر والأسمنت المسلح لبناء منزله ، بمعنى أن نومه على الأرض ليس طبيعة خاصة ، وانما هو نقص امكانات فحسب ، وعلى هذا يمكن تحديد خصائص المجتمع الحضرى على النحو التالى :

---

(١) Jones, M. : Basic sociological principles. Boston, Ginn and Company. 1949.

١ ـ وضوح سيطرة الانسان على البيئة :

من المعروف أن الزراعة هى المهنة الرئيسية فى المجتمع الريفى ، وفى حالة تحول هذا المجتمع من مرحلة التريف الى التحضر ، فان عدد العاملين بالزراعة يقل شيئاً فشيئاً الى أن ينتهى نهائياً ، حيث يتخذ الأفراد لأنفسهم مهناً مختلفة ، ومن ثم فانهم فى حاجة الى من يوفر لهم حاجات الطعام والشراب والكساء وغير ذلك ، تلك الحاجة التى تلزمهم بالتواصل مع جيرانهم فى المجتمعات المحلية المجاورة لكى يحصلوا على احتياجاتهم . وهذا التواصل مع بحثهم المستمر عن التفوق فى أعمالهم يجعلهم يعملون على تناول بيئتهم الطبيعية بالتبديل والتعديل ، ففى مجال التواصل يستخدمون الوسائل الحضارية مثل عربات الركوب والقطارات بل الطائرات بدلا من استخدام الدواب كما هو الحال فى المجتمع الريفى . غير أن التواصل الاجتماعى الفردى ينخفض الى حد بعيد ، على اعتبار أن القروى تذوب شخصيته فى شخصية أسرته ومن ثم فهو مضطر الى مشاركتها وجدانيا ، على حين أن الحضرى يمتاز بالشخصية المستقلة التى تجعل علاقاته الفردية تنخفض كثيرا ، حيث تتأثر مشاركاته الوجدانية بمصالحه الاقتصادية . وفى المجالات الأخرى يلجأ الى بناء المساكن المرتفعة والراقية ، والى بناء المؤسسات الاجتماعية التى توفر له الخدمات المختلفة مثل المدارس والمعاهد والجامعات والمستشفيات والوحدات الاجتماعية .

ويتضح من هذا أن الحضرى يسيطر على الطبيعة ويستمتع بها ، على حين أن القروى يخضع للطبيعة ، بل يخاف منها .

٢ ـ انتاج السلع الحضارية :

الانتاج فى المجتمع الحضارى يقوم على المنتجات الصناعية ، بالاضافة الى المنتجات الأدبية والفنية والأعمال الادارية والتنظيمية ، الأمر الذى يؤثر تأثيرا واضحا على فلسفة ساكن المدينة وعلى أفكاره

وآرائه وقيمه الاجتماعية[١] على حين أن الشخص القروى يتأثر كثيرا بخضوع الاقتصاد الريفى لحركة الثروة الزراعية والحيوانية . ولذلك فان الريف ينتج فقط المنتجات الزراعية التى تتفق مع طبيعة التربة والجو وكمية المياه المتاحة وما الى ذلك ، بالاضافة الى المنتجات الحيوانية ومنتجات الألبان .

٣ ـ استيعابه للهجرات الخارجية :

تساعد غلبة الطابع الصناعى على المجتمع الحضرى ، تساعد على امتصاص موجات الهجرات الريفية المستمرة ، هؤلاء الباحثين عن حياة اجتماعية أكثر يسرا وأكثر رخاء . وقد تكون هناك تنظيمات لاستثمار تلك الهجرات استثمارا اقتصاديا ، وقد لا توجد هذه التنظيمات . ومن ثم فان هؤلاء المهاجرين يتعرضون لكثير من المشكلات الاجتماعية والاقتصادية التى تدفعهم الى الحياة فى الأحياء الفقيرة فى المدن التى تزداد بهم اكتظاظا . وهنا يتجهون الى التشرد والاجرام وغير ذلك من الأمور التى تؤدى الى الانحلال الأخلاقى . وكل هذا ينعكس على المجتمع بأوخم العواقب ، غير أن المدينة تمثل القطب الجاذب للأفراد الذين يتطلعون الى الحياة الحضرية نتيجة لاشعاعات النظم الاقتصادية والاجتماعية فى البيئات الريفية المجاورة . تلك الاشعاعات الناتجة عن الثورة الحضرية المتمثلة فى المدينة التى تعتبر أهم الأحداث العظمى فى التاريخ البشرى ، والتى لا يمكن مقارنتها بالتقدم العقلى الذى توصل اليه الانسان فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، وكذلك بالثورة العلمية التى نبتت بذورها منذ أكثر من مائتى عام فى هذا العالم[٢] ولما كان

---

(١) Ibid., p. 131.

(٢) Gutkind, E.A. : The twilight of Cities. The Free press of Glencoe. N.Y. 1962, p. 111.

اتجاه الهجرة الداخلية من الريف الى الحضر أكثر وضوحا من الهجرة من الحضر الى الريف •• فان أسباب هذه الهجرات ترجع الى :

(ا) ارتفاع معدلات الأجور فى المدن عن القرى ، ومن ثم فان الريفى يعمد الى البحث عن عمل صناعى لكى يتمكن من الحصول على ما يكفى مطالب الحياة ، ويظل يمارسه بصفة مؤقتة عن طريق الاشتغال به نهارا ، والعودة الى قريته ليلا اذا كانت قريته قريبة من المدينة ، أو أن يمارسه حينا ويعود الى قريته حينا آخر ، أو أن يهجر القرية نهائيا الى المدينة •

(ب) ضعف فرص العمل فى القرى نتيجة للزيادة السكانية مع ضيق رقعة الأراضى الزراعية من جانب ، بالاضافة الى استخدام الآلات الحديثة فى الزراعة وما يصحبه من تخلف واضح فى الاستهلاك ، مما يجعل العامل الريفى يعيش فى ظل أنواع جديدة من الظلم الاجتماعى ، لا سيما من أصحاب الأرض ، على حين أن العامل فى المدينة يتمتع بضمانات متعددة ، فضلا عن ارتفاع مستوى الأجور فى المدن •

(جـ) ظهور بوادر المبادأة والطموح لدى أبناء القرى الذين لا يملكون أرضا زراعية ولا يجدون عملا دائما ، مما يدفعهم الى الاتجاه الى المدن بحثا عن فرص أفضل فى الحياة •

٤ ـ اتساع نطاق الحياة الاجتماعية :

فى مجتمع القرية نجد أن الملكيات غير واضحة ، بمعنى أن ملكية الأراضى الزراعية تظل باسم مؤسس الأسرة ، ويتقاسم ورثته الأرض دون تعديل هذه المواريث ، ومن ثم نجد الأسرة متماسكة ، لكى يضمن الفرد الحصول على ميراثه فانه مضطر للارتباط بتلك الأسرة التى يجد

ـ أيضا ـ أنهـا توفر له معظم حاجاته الاجتماعية ، كما توفر له الحماية الكاملة . ولذلك فالفرد فى القرية ملتف حول أسرته ، ومنعزل عن غيرها من الأسر أو القرى الأخـرى .. على حين أن الفرد فى المدينـة له دخله الذى يحصل عليه من عمـله ، ومن ثم فهو مسـتقل اقتصاديا ، هـذا الاستقلال يتيح له فرصة الاستمتاع بالحياة وممارسة علاقات اجتماعية مع سائر الأفراد سواء من أسرته أو من غيرها .

٥ ـ زيادة الاتصالات الخارجية :

من الفقرة السـابقة اتضح لنـا أن لظاهرة الملكية تأثير كبير على العلاقات الأسرية فى الريف . ومن ثم فان اتصالات الفرد القروى تدور فى الغالب داخل أسرته ، التى يمارس نشاطه الاقتصادى من خلالها ، بل يختار شريكة حياته من بين بناتها .. على حين أن الفرد فى المدينة يمارس علاقاته الاجتماعية طبقا لمقتضـيات المجتمع الحضرى وما تعكسـه آثار التصنيع على العلاقات الاجتماعية ، حيث يعيش هذا الفـرد أطول مدة ممكنة كل يوم بعيدا عن عائلته الصغيرة وعن كل أفراد أسرته ، وقد تكون أسرته فى مدينة أو قرية غير المدينة التى يعمل فيهـا . ومن ثم فانه يتخذ من زملائه أو أصدقائه بيئة اجتمـاعية جديدة له ، الى أن يتزوج ـ فى الغالب ـ من البيئة الجديدة ويشكل لنفسه أسرة جديدة .. هذا الفرد وهو يمارس علاقاته هذه ، وهو يتزوج ... لا يخضع لنمط العـلاقات الأسرية [illegible] التى نشـأ فيها ، وانما يخضـع للقواعد السـلوكية والاجتماعية السائدة فى بيئته الجديدة ، وهنا نجد أن العلاقات الاجتماعية للريفى تكون داخل أسرته فى الغالب ، وتكون بالنسبة للحضرى خارج أسرته فى الغالب ، مما يدل على اتساع الاتصالات الخـارجية للقيم فى المدينة[1] .

(١) Theodorson, G. : Acceptence of Industrialisation and its Attendant Consequences for the social patterns of Non Western societies.

وترتيبا على ذلك فان الفرد فى المدينة يعتمد على ذاته فى الارتقـاء اجتماعيا ومن أجل ذلك يعمـل على الابتكار والتجـديد لكى يرفع من مكانته الاجتماعية الى مكانة أفضل ، بعكس الحال فى القرية حيث يستكين الفرد للقواعد الانتاجية والسلوكية السـائدة فى الأسرة منذ عشرات أو مئات السنين •

٦ ـ وضوح الفردية وضعف السيطرة الأسرية :

الفـرد فى المجتمع الحضرى يعتمـد على ذاته فى اشـباع حاجاته المختلفة ، فالفرد يعمـل فى المصـنع أو المصلحة أو المؤسسـة ••• وله الحرية فى انفاق أجره بالصورة التى تحقق له رغباته ، وبدون أى تدخل من أسرته أو من غيرها • وقد يمارس هذا الفرد ألوانا من السلوك تختلف عما هو سائد فى أسرته • وقد يمارس السلوكيات الحضارية السائدة فى المدينة ••• فى حين أن شخصـية الفـرد فى الريف تذوب فى شخصـية أسرته ، بمعنى أن علاقات وسـلوكيات الفـرد بالآخرين ، هى نموذج لعلاقات وسلوكيات أسرته بنفس أنماط هؤلاء الآخرين • ومن هنا فان الفردية ضعيفة جدا وسيطرة الأسرة لا حد لها على شخصـية الريفى ، وبالعكس من ذلك فان سيطرة الأسرة قد تكون معدومة والوجود الواضح مقصورا على الفرد فحسب •

٧ ـ ازدهار ظاهرة تقسيم العمل :

من أهم خصائص المجتمع الحضرى ، خاصية تقسيم العمل ، لاعتماد هذا المجتمع على الاقتصاد الحديث الذى يتطلب الدقة والمهارة فى كل منتجاته • الأمر الذى يتطلب متخصصين على أعلى مستويات المهارة ، وهذا لا يتأتى الا بالتخصص الدقيق الذى يتيح للفرد أن يعمل فى جزئية من جزئيات السلعة المنتجة حتى يعطى أجود المنتجات ••• على حين أن المجتمع الريفى تجد فيه الفرد يمارس أكثر من عمـل أو أكثر من مهنة ،

الأمر الذى ينعكس على اتساجه ، بحيث تجعله لا يتفق مع متطلبات الاقتصاد الحديث •

٨ ـ انخفاض معدلات الانجاب والوفيات :

كلما ارتقى الانسان حضاريا ، كان أكثر حرصا على أن تكون حياته الاجتماعية فى أفضل صورة يمكن أن يصل اليها ، وهذا يتطلب منه تقليل انجابه الى أدنى حد يتفق مع قدراته الاقتصادية ، حتى لا يهبط مستواه الاجتماعى أو مكانته الاجتماعية ، ومن ثم فان المجتمع الحضرى يمتاز بانخفاض نسبة المواليد فيه للأخذ بأسس تنظيم الأسرة ، كما يمتاز بالنظافة والترتيب والتنظيم • وبالتالى تنخفض نسبة وفيات الأطفال ويرتفع متوسط العمر ••• بعكس الحال فى الريف ، حيث ترتفع وفيات الأطفال ولا يؤخذ كثيرا بأسس تنظيم الأسرة ، ولا يعتنى بالعلاج الطبى ، وانما تنتشر هناك الخرافات فى وسائل العلاج •

٩ ـ ارتفاع نسبة الجريمة والتشرد :

لقد أظهرت الاحصائيات أن نسبة الاجرام والانحراف فى المدن أضعاف نسبته فى الريف ، كما أن هذه النسبة تزيد فى المدن الكبرى عنها فى المدن الصغرى وتعليل ذلك أن المجتمعات المحلية المنعزلة ، تنخفض فيها نسبة الاجرام والانحراف لتخلخل السكان فيها ولانخفاض الحركة السكانية منها واليها ، كما أنه تندر فيها التغيرات ويتوافر الانسجام بين أهلها من النواحى الاجتماعية والثقافية والاقتصادية ولا تتنافر أنظمتها ، ولا يبدو فيها فرق ظاهر بين الطبقات والتجمعات الاجتماعية ، ولا سيما خضوعها لقواعد متشابهة من السنن الاجتماعية التى يلتزم بها الجميع •

على حين أن مجتمعات المدن تزداد فيها الجريمة زيادة اتصالها بالخارج على نطاق واسع • كما تكثر فيها حركة التنقل منها واليها ، لا سيما هجرات الريفيين غير المخططة الى المدن ، حيث يصعب عليهم

الحصول على عمل أو سكن بشكل ميسور ، ولهذا فان المدن لا يتحقق فيها الاستقرار والانسجام والتناسق بين سكانها فى النواحى الاجتماعية والاقتصادية والثقافية • وذلك بالاضافة الى زيادة الفروق بين الطبقات والتجمعات الاجتماعية ، وتتباين فيها النظم والقواعد المتبعة فى السنن الاجتماعية • ويبدو فيها الصراع بين أحكام القوانين وبين قواعد الأخلاق التى تخضع لها الجماعات المختلفة فى المجتمع[١] •

ويتضح من تلك الدراسة أن جرائم الجنايات بصفة عامة أكثر ميلا الى الارتفاع فى المناطق الحضارية عنها فى المناطق غير الحضارية ، وبالعكس من ذلك فان جرائم الجنايات تميل الى الانخفاض فى المدن عنها فى الريف • ويزداد ارتفاع جرائم الجنح بصفة عامة فى المناطق الحضارية عنها فى المناطق غير الحضارية •

هذا وترجع أسباب انخفاض نسبة الجرائم والانحرافات فى المناطق غير الحضارية عنها فى المناطق الحضارية الى سيطرة الأسرة على أفرادها وقوة سلطانها عليهم • بمعنى أنه كلما ضعفت السيطرة الأسرية واستقلال كل من أفراد الأسرة بحياة فردية مستقلة عن معيشة الأسرة ازدادت احتمالات الانحراف والاجرام نتيجة لازدياد « المؤثرات ذات الاتجاه الخارجى » مثل المؤثرات الناتجة عن وسائل الاتصال الجمعى كالراديو والتلفزيون والصحافة والسينما ••• ورفاق السوء • بالاضافة الى

---

(١) كارول كريسيتانس : « التصنيع والتحضر وعلاقاتهما بجنوح الأحداث » تقرير للعقيد الدكتور محمد نيازى حتاتة مدير قسم حماية الآداب والأحداث سابقا ، مقدم لحلقة الدراسات الاجتماعية الثانية للدول العربية فى الفترة من ٢٣ ديسمبر الى ١٦ أكتوبر عام١٩٥٩ .

انخفاض المؤثرات « ذات الاتجاه الداخلى » الناتجة عن العوامل المنزلية والاشعاعات الأسرية[١] .

١٠ ـ ارتفاع مستوى الحياة الاجتماعية :

من المعروف أن المجتمع الريفى يعتمد على نشاط اقتصادى واحد وهو الزراعة بدخلها المنخفض نتيجة لطابع السكون والاستقرار الذى يمتاز به ذلك المجتمع ، على حين أن المجتمع الحضرى يعتمد على الصناعة والتجارة بدخولها المرتفعة نتيجة لطابع الحركة والفاعلية ، يضاف الى ذلك أن نشأة ظاهرة المركزية فى أى بلد واستمرارها قد يؤدى الى تركز المؤسسات الادارية والتنظيمية فى العاصمة وقليل من المدن الرئيسية الأخرى ، مما يؤدى الى انخفاض الخدمات فى الريف .

وقد ترتب على ذلك ارتفاع نسبة التعليم فى المدن عن القرى ، ومع انخفاض التعليم نجد فى الغالب انخفاضا فى مستوى الحياة الاجتماعية .

هذا ومن المعروف أن الأيدلوجية هى « مجموع الأفكار والمعتقدات واتجاهات التصور والتصديق التى تشخص جمعا معينا من الناس سواء أكان هذا الجمع أمة من الأمم ، أم طبقة من الطبقات الاجتماعية ، أم مذهبا من المذاهب يعبر عن الملل لأهل هذا الجمع أو لأهل مهنة من المهن أو حرفة من الحرف أو حزب من الأحزاب السياسية ... الى[٢] » ومن

---

(١) هينج فريس Heining Freis « دور الدولة والمجتمع والعائلة والمدرسة ومكتب الخدمة الاجتماعية فى منع انحراف الأحداث » صفحات ٢٦ ، ٢٧ حلقة الدراسات الاجتماعية الثانية للدول العربية .

(٢) الدكتور عبد العزيز عزت : الأيدلوجية العربية والمجتمع العربى « الطبعة الثانية » القاهرة ١٩٦٠ ، صفحة ٧ .

هذا التعريف يمكن القول القول بأن هناك بعض العوامل التى أدت الى ارتفاع وارتقاء الحياة الاجتماعية فى المدن عنها فى القرى مثل :

١ ــ عدم وضوح ظاهرة التخلف الحضارى Cultural lag نتيجة لضعف الأنماط السلوكية وعدم سيطرة السنن الاجتماعية المتخلفة •

٢ ــ اختفاء المعتقدات الخرافية وأساليب التفكير البدائى نتيجة لانتشار التعليم ، ومن ثم فان الانسان فى المدينة ــ فى الغالب ــ لم يعد يستسلم للوساوس ولم يعد يلجأ فى الغالب الى السحر كوسيلة من وسائل تحقيق الأهداف المختلفة •

٣ ــ ارتفاع مستوى الطموح وقوة المبادأة ، وعدم الركون الى الأمثلة الانهزامية مثل « ليس فى الامكان أبدع مما كان » •

٤ ــ تعقد الحياة الحضرية واضطرار الانسان فى المدينة الى السعى الدائب ، بل الابتكار والاختراع من أجل الحصول على الأموال اللازمة لتغطية مطالب الحياة •

٥ ــ الانتصار على العدو الثلاثى « الجهل والفقر والمرض » فى المدن نتيجة لانتشار التعليم ، ومن ثم انتشرت المفاهيم الحضارية مثل تنظيم الأسرة والادخار ••• الخ • بعكس الحال فى الريف حيث لا توجد خدمات اجتماعية وصحية كافية ، كما لا توجد أنشطة اقتصادية تستوعب القوى العاملة ، ومن ثم فان الثلاثى الشرير « الجهل والفقر والمرض » له جذور تمتد الى أعماق الأراضى الريفية •

٦ ــ انتشار التفكير الواقعى بين المواطنين ، حيث لا يأنف المواطن الحضرى من أى عمل يدر عليه دخلا ، بينما المواطنون فى الريف يعيشون

فى أوهام الماضى ، ومن ثم يأبون العمل بالأجر فى كثير من الأعمال ، على اعتبار أنه لا يليق بهم العمل بأجر لدى الآخرين •

ومن هنا يتضح أن تخلص المواطن الحضرى من القيم الاجتماعية البالية نتيجة لانتشار التعليم والاحتكاك المباشر بالصور الحضارية المختلفة ، أدى الى زيادة الدخول وارتفاع مستوى الحياة الاجتماعية الحضرية عن الريفية •

***

الفصل الخامس

البحث العلمى ونشأة المدينة

المدينة كظاهرة اجتماعية حضارية نالت اهتمام المفكرين والعلماء منذ بداية الفكر الانسانى (من حيث دراسة الحياة فى المدينة وما يتصل بها[1]) وقد اختلفت الآراء حول ظاهرة المدينة ، فمنهم من نظر اليها باعتبارها من أعظم منجزات الانسان ومنهم من اعتبرها غير ذلك تماما ، ومنهم من تأرجح رأيه بين وجهتى النظر هاتين .

وعلى سبيل المثال نجد (ليونارد ريسمان) يعتبر المدينة من أعظم منجزات الانسان ، كما أرجع تاريخ نشأتها الى خمسة آلاف سنة من عمر الحضارة البشرية ، وأن الانسان توصل الى نشأة المدينة عندما توافرت له القدرة على تهذيب بيئته الطبيعية والاجتماعية . واستشهد على صحة رأيه بآراء (جوردون تشيلد) التى تؤكد حدوث ثورة حضارية فى الألف الثالث قبل الميلاد ممثلة فى نشأة ثلاث مدن يتراوح عدد سكان كل منها بين اثنى عشر ألفا وأربعة وعشرين ألفا من السكان[2] ، فقد عرفت المدينة فى الحضارة المصرية القديمة وفى الحضارات الكلاسيكية التقليدية من البابلية حتى الرومانية بمدنها ذات الشهرة التاريخية . وان كانت المدن لم تلق حتى القرن التاسع عشر أى قدر من الاهتمام العلمى

---

(١) Geddes, P. : The Survy of cities, in Sociological Review. Manchester Vol. 1. 1961. p. 74.

(٢) Reissman, H. : The Urban Process. The free press of Glenoe, N.Y., 1964, p. 2.

المنظم ، إلا بعد نشأة المدن الأوربية والأمريكية ، ومن هنا أخذت دراسة المدن تتجه حول محورين هما :

١ ــ سيطرة الصناعة والتكنولوجيا باعتبارها المهنة الحضرية الأولى .

٢ ــ ازدياد عدد المدن مع ازدياد المشاكل الاجتماعية المرتبطة باتساعها[١] .

وهناك من يرى أن المدينة تمثل اطارات للانحلال والفساد والجريمة والفقر والشذوذ والابهام والاكتظاظ ، على أساس أنها تتكون من أجناس بشرية ونسق غير مألوف ، والخط الغالب لمثل تلك المدن هو أنهـا مركز للصناعة والأعمال المختلفة[٢] .

وهناك من يروى أن المدينة مهبط للصحة والتعليم والترفيه وما الى ذلك من مغريات الحياة التى يتفاخر الناس بالاستمتاع بها ، وان بدا ذلك بصورة نسبية تبعا لتباين كل منها من جهة وتبعا لمدى وعى الفرد ودرجة ادراكه للمدينة التى يعيش فيها بالمقـارنة مع المدن الأخـرى من جهة ثانية[٣] .

---

(١) Gulick, J. : Old vulues and New institution in alebanese Arab in human organization. Rand, Cornell University Vol. 24, Number 1m N.Y., 1956, pp. 49-50.

(٢) Whyte, W.H. : The exploding Metrspolis. Double day and Co., Inc., Garden City, N.Y., 1958. p. 1.

(٣) Thorondike E.L. : Your city. Har courtm and Co., N.Y, 934. p. 7.

الاتجاهات الثلاث حول المدينة :

يمكن تلخيص الدراسات التى تعرضت للمدينة كموضوع للدراسة الايكلوجية طبقا لاستجابة المفكرين لتلك الظاهرة الاجتماعية • ففى عصر التنوير كان ينظر ــ مثــلا الى المدينــة على أنها فضيلة من الفضائل • وبانفجار الثورة الصناعية فى أواخر القرن الثامن عشر ، برز مفهوم آخر مضاد للمدينة كرذيلة • وكان من الضرورى أن يقوم باتجــاه آخر يقف بين الاتجاهين السابقين[١] • وفيما يلى سوف نعرض بايجــاز لكل من هذه الاتجاهات الثلاثة :

١ ــ المدينة كفضيلة :

من رواد عصر التنوير الذين تغنوا بالمدينــة فى القرن الثامن عشر كفضــيلة نجد (فولتير) الذى مدح مدينتى لندن وباريس ، واعتبرهما خلفا لمدينة أثينا اليونانية القديمة • ويرى فولتير أن الصناعة والمتعة هما سمتا الحياة الحضرية ، وهمــا اللتان خلفتــا الحضارة ••• وآدم سميث الذى اعتبر المدينة صاحبة الفضل فى ارساء أسس التقدم فى مجال الصناعة والثقافة •• والمفكر الألمانى (فيخته) الذى كان من رأيه أن المدينة هى المجتمع الذى يخلق الفضيلة فى ثوب اجتماعى •

٢ ــ المدينة كرذيلة :

لقد ساهمت المســاوىء التى ارتبطت بمطلع الثــورة الصناعية فى قيام هذا الاتجاه حيث نجد أن من زعمــاء الفزيوقراط الفرنســيين « العــربة التى يتربع عليها الرجل الثرى الذى أشــار اليه ــ فولتير ــ لا يتمثل فيها أى بشر فى حقيقة الأمر ذلك أن عجلاتهــا التى تسير على

(١) Handlin, O. and Burchand. J. : The Historian and the city. The M.E.T. Press and Harvard University Press, N.Y. 1963. p. 6.

الأرض تؤدى الى تطاير الأحجار التى تصيب الضحايا البؤساء وتسيل دماؤهم ، يضاف الى ذلك أن الشعراء والكتاب الروماتيكيين من أعضاء المدرسة الواقعية فى انجلترا قد وصفوا البيئات الحضرية والمدن سنة ١٩٤٠ بأنها مواطن الفساد والتى تسودها تيارات الجريمة وينتشر فيها الفقر ، ونصحوا علماء أوربا بعدم الاهتمام بالمدينة على اعتبار أن الحياة فى المدينة أدت الى :

(ا) تفسخ القيم التقليدية بقيام حركة التصنيع الهائلة .

(ب) التحول السلبى فى حياة أبناء الريف الذين لم يحقق لهم الثراء والتقدم الحضارى الذى تحدث عنه كل من فولتير وسميث وفيخته .

٣ ـ المدينة بين الفضيلة والرذيلة :

لقد كانت فلسفة أصحاب هذا الاتجاه وعلى رأسهم (بودلير) ترفض منطق الفضيلة والرذيلة ، وما هو صادق وما هو غير صادق ، وكان الذى يعنيهم أن المدينة بكل ما فيها من قبح وجمال تعتبر الأرض الضرورية للوجود الحديث ، ذلك أنه ليس من الضرورى لدى أصحاب هذا الاتجاه الحكم على المدينة أخلاقيا ، وانما الأفضل هو دراسة المدينة بصورة دقيقة .

نخلص من هذا الى أن هذه الاتجاهات الثلاثة ، قامت على أسس معيارية تدور حول الحياة المثالية الطيبة والقبيحة ، بدلا من الاعتماد على الأسس التقريبية العلمية .

الاهتمام العلمى بالمدينة :

بعد أن تبين أن المدينة ظاهرة حضارية قديمة . وأن لتلك الظاهرة فعاليتها التأثيرية فى المجتمع من ناحية أخرى ، فان هناك بعض العوامل

الحديثة التى أدت الى تبلور دراسة المدينة الى دراسة وضعية علمية ... ومن هذه العوامل :

١ ـ تعدد المراكز الحضارية :

لقد تزايد عدد السكان منذ أوائل القرن التاسع عشر ، حيث بلغ عددهم سنة ١٩٦٤ نحو ثلاثة آلاف مليون نسمة . كما أدت الثورة الصناعية الى نشأة الكثير من المدن الصناعية التى من أهم سماتها التركز السكانى ، حيث زاد عدد سكان المراكز الحضارية حوالى عشر مرات خلال تلك الفترة ، وتم تقدير نسبة السكان الذين يعيشون فى مناطق حضارية يقطن كل منها خمسة آلاف نسمة فأكثر سنة ١٩٦٠ بحوالى ٢٠٪ بعد أن كان ٢٪ سنة ١٨٠٠[١] .

أما عن عدد السكان فى المدن فقد تزايد احصائيا من سنة ١٨٠٠ الى سنة ١٩٥٠ على النحو التالى :

جدول يبين عدد سكان المدن
من ١٨٠٠ ـ ١٩٥٠

السنة	مدن عدد سكانها عشرون الفا فأكثر	مدن عدد سكانها مائة الف فأكثر
١٨٠٠	٢,٤	١,٧
١٨٥٠	٤,٢	٢,٣
١٩٠٠	٩,٢	٥,٥
١٩٥٠	٢٠,٩	١٣,١

(١) Hausser, Ph. M. : Hand Book for social Research in Urban Areas. Ghent. Beguin UNESCO. No. 1. C, 956. p. 91.

غير أن النمو الحضرى لا يرجع فقط الى مجرد الزيادة السكانية ، وانما يرجع الى ما أدى اليه التغير الحضرى بصفة أساسية من ظواهر وأشكال مثل الثورة التكنولوجية وما ترتب على ذلك من تأصيل ظواهر اجتماعية حديثة مثل تقسيم العمل ، ترشيد استثمار مصادر القوى ، ووسائل الاتصال ، والنقل ، وما اليها[١] .

ولقد ترتب على الحياة فى المدن تغير أسلوب الحياة لسكان المدن بعيدا عن ذلك النمو الفردى الذى كان سائرا منذ قرون قليلة[٢] .

وحتى سنة ١٩٣٠ كان عدد سكان العالم الحضريين أقل من عدد الريفيين ، ثم تزايد عدد الحضريين بعد ذلك الى أن أصبحت نسبة الحضريين ٦٥٪ تقريبا من مجموع سكان العالم . ولذلك برزت ظاهرة التمدن الصناعى Social Modernization كظاهرة عالمية حيث لم تعد مقصورة على الدول المتقدمة أو النامية ، وانما شملت أيضا الدول الآخذة فى النمو ، تلك الدول التى يبلغ عدد سكانها نحو ثلثى سكان العالم .

توسع المدن :

المدينة ــ كما عرفناها من قبل ــ ظاهرة اجتماعية ، ومن ثم فهى تلقائية المنشأ وبعيدا عن هذا التعريف حاول بعض العلماء استخلاص نظرية تفسر التنسيق المساحي والتوزيع الجغرافى ، والعلاقات بين الانسان والبيئة ، والعمليات المورفولوجية الحضارية التى تحكم هذا التنسيق وهذا التوزيع . وكان الهدف من ذلك هو تلخيص نموذج عام

---

(١) Sucherland, R.I., Ward, J.W. and Maxwell. M.A. : Introductory sociology N.Y., Lippinoott Co., 1991. p. 22.

(٢) Brease, G. : Urbanization in Newly Developing Countries. Prentice Hall Inc. Englewood cliffs. N.Y., 1966, pp. 18-19.

أو نظرية عامة للمدينة واتساعها الحضارى . ومن أهم النظريات فى هذا المجال :

نظرية الدوائر الخمسة المتحدة المركز : Five Concentric Circles

ولقد اهتم بعض علماء الايكولوجى بدراسة هذا الموضوع ، ومن أهم هذه الدراسات تلك التى أجريت بالتطبيق على مدينة شيكاغو بالولايات المتحدة الأمريكية ، حيث انتهت بوضع نظرية من أشهر النظريات فى هذا المجال ، وهى نظرية نموذج الدوائر .. المتراكزة Concerntric أو ذات المركز الواحد . والمدينة طبقا لهذه النظرية ذات مركز أو محور رئيسى تتركز حوله الخدمات المتنوعة . بمعنى أن المركز أو المحور ــ كما يرى (أرنست برجس Burgess E.W.) صاحب هذه النظرية ــ هو منطقة الأعمال العامة التى تدور حولها ألوان النشاط الأخرى فى مناطق دائرية تحيط بها . وتعرف منطقة الأعمال العامة المركزية ، هذه بالدائرة الداخلية Innermost Ring أو الحلقة رقم (١) باعتبارها منطقة رجال الأعمال المركزية ، وبمقتضى هذا الوضع تهيمن هذه المنطقة على سائر ألوان النشاط الاقتصادى والسياسى والاجتماعى فى المناطق الأربع الأخرى التى تجاورها من كل جانب أو بالأحرى فى الدوائر الأربع الأخرى التى تتحد معها فى المركز ولكل منها سماتها الحضارية . على حين أن السمات الحضارية الدائرة الداخلية تتميز بوجود عمارات شاهقة ومحلات تجارية كبرى وفنادق راقية ودور الخيالة والمسرح ... والمركز الرئيسى لخطوط الموصلات الداخلية . وبمقتضى ذلك فان هذه المنطقة تعج دائما بحركة السكان ، اما لانجاز الأعمال أو للاستمتاع بوقت الفراغ داخل دور اللهو التى تتميز بها تلك المنطقة . ولذلك فان نسبة كبيرة من حالات التشرد والبغاء تقع فى تلك المنطقة ، كما تزداد نسبة الأجانب والعابرين .

أما الدائرة المركزية الثانية أو الحلقة رقم (٢) فان من سماتها وجود خدمات معينة تختلف عن خدمات الدائرة رقم (١) مثل تجارة الجملة وبعض الصناعات الخفيفة كما أن مساكنها تؤجر بالوحدة (الحجرة) ، الأمر الذى يجعلها عرضة للتغيير السريع أو الانتقال Transation من وضع الى وضع آخر •

على حين أن الدائرة الثالثة أو الحلقة (٣) توجد بها مساكن العمال والفئات الدنيا باعتبارها المنطقة السكنية الملائمة للطبقات المتوسطة ، ولها مراكز تكثر بها متاجر التجزئة ، وبعض المدارس والمنتزهات •

وتشتمل الدائرة الرابعة أو الحلقة رقم (٤) على المساكن الجديدة التى تقطنها الفئات التى تقع بين الطبقة المتوسطة والطبقة الدنيا •

بينما الدائرة الخامسة أو الحلقة الخارجية Outer ring التى تشتمل على الضواحى ومنطقة سكن الأثرياء ، وهى تشكل فى نفس الوقت الدائرة العمرانية التى تحيط بالمدينة ويقطنها أفراد ينتقلون منها الى أعمالهم فى داخل المدينة ، ثم يعودون وهكذا ، حيث تتزايد نسبة السكان الذين يملكون المنازل • وتخلو فى الغالب من حالات التشرد •

والشكل النموذجى لهذا النموذج الدائرى المتمركز أونموذج الدوائر الخمسة المتحدة المركز يتدرج فى المظاهر الحضارية والخدمات ، كما يظهر هذا التدرج بوضوح فى داخل الأفراد ومكانتهم الاجتماعية من الدائرة الداخلية حتى أطرف المدينة • [١]

---

(١) Lundberg. G.A. and Others. Sociology. N. Y; Harper Row publishers. Third edition. 1963. pp. 144 ff.

والمدينة بهذا الشكل تشبه مخططة الهدف الاجتماعية Target sociogram التى ابتكرتها (نور ثواى) Northway, M.L. والتى تتكون من أربع دوائر متحدة المركز Four Concentric Circlee والتى يوضع الأفراد فيها طبقا لعدد الاختيارات التى حصل عليها كل منهم فى الاختيار السوسيومترى ، بحيث يوضع الذى تكرر اختياره أكثر فى الدائرة الداخلية أو الحلقة رقم (١) وهكذا بالتدريج التنازلى من الداخل الى الخارج[١] غير أنه اذا كان توزيع الأفراد فى مخططة الهدف الاجتماعية يخضع لقاعدة محددة ، فان توزيع المناطق فى المدينة لا يخضع لقاعدة معينة ، وانما تتحكم فيه ظروف اجتماعية وسياسية وجغرافية ، تجعل النموذج الذى تحتوى عليه هذه النظرية مستحيل التحقيق . ومن ثم فقد تعرضت هذه النظرية لانتقادات كثيرة .

المدينة ونظرية القطاع Sector Theory

وهذه النظرية وضعها (هومر هويت) Homer Hoyt بعد دراسة قام بها لعدد ١٤٢ مدينة . وتتلخص فى أن المدينة تنقسم الى قطاعات متنوعة وليس الى حلقات ، كما فى نظرية بيرجس ــ وكانت القاعدة الرئيسية التى قامت عليها هذه النظرية هى ايجارات المساكن وأن السكان يتجهون فى انتقالاتهم فى حدود محور محدد طبقا لنمو المدينة ، وأن أكثر المجموعات السكنية حركا أفقيا ، هى مجموعات الأثرياء ، وانتهى الى أن هناك نموذجا عاما للمناطق السكنية المدنية ، بالنسبة للايجارات ينطبق على جميع المدن . واذا افترضنا مع صاحب هذه النظرية أن المدينة فى شكل

---

(١) دكتور زيدان عبد الباقى : « قياس العلاقات الاجتماعية .. » من صفحة ١٥٧ الى صفحة ١٦٩ .

(٢) Young, K. : Sociology : A study of Society and Culture, N.Y., American Book Company, 1949, Second edition. pp. 279-277.

دائرة ، فان نموذج المدينة ليس توزيعا عشوائياً ، ولا يتخذ شكل مناطق محدودة قائمة الزوايا فى كل منهــا مجموعة من المنــازل ذات الايجارات المتقاربة القيمة لمساكنها • وبحيث تشكل كل مجموعة جانبا منعزلا ، كما أن المناطق السكنية ذات الايجارات المرتفعة تقع فى أطراف المدينة لكى تكون بعيدة عن المناطق الصناعية ويقطنها الأثرياء وتميل هذه المنطقة الى الامتداد فى المساحات الفضاء والتى تقع بعيدا عن حدود المدينة دون أن تغطى دائرة بأكملها ، أو الى الجهات التى يقطنها كبار القادة ، أو التى أنشئت بها البنوك والشركات التجارية الكبرى ، والعمارات غير السكنية المخصصة للمكاتب والعيادات • يضاف الى ذلك أنه توجد مناطق ذات ايجارات منخفضة وبالتالى فان ايجاراتها منخفضة وســكانها من الطبقة المتوسطة ، وهذه المنطقة تمتد من مركز المدينة ، أى من وسطهــا ، الى أطرافهــا ، حيث أنشئت بعض المصانع على حدود المدينــة مما أدى الى انتقال العمال الى السكنى بالقرب من مقار أعمالهم • وعلى هذا فان المدينة من وجهة النظر هذه تنقسم الى خمس مناطق هى :

(أ) منطقة رجال الأعمال المركزية •

(ب) منطقة تجارة الجملة والصناعات الخفيفة •

(حـ) منطقة سكنى الطبقات الفقيرة •

(د) منطقة سكنى الطبقات المتوسطة •

(هـ) منطقة سكنى الطبقات الثرية •

هذا وبالرغم من أن هذه النظرية أكثر واقعية من النظرية السابقة ، فان افتراضها استدارة المدينة لا يتفق أبدا مع تلقائية نشأة المدينة ، تلك التلقائية التى تتأثر كثيرا بالنواحى المورلوجية والفيزيولوجية الاجتماعية •

المدينة ونظرية النوى المتعددة :

وازاء الانتقادات الكثيرة التى وجهت للنظريتين السابقتين ، قام (هاريس والمان) Herris and Ullman بوضع هذه النظرية التى تتلخص فى أن المدينة تنقسم الى عدة مراكز متخصصة ــ لا مركز واحد ــ وكل من هذه بمثابة نواة لنشاط ما من الأنشطة المختلفة • وينتقل اشعاع كل مركز الى المراكز التى تقع فى البقاع المحيطة به ، ما لم تقف دون ذلك موانع طبوغرافية Topography مثل الجبال أو البحيرات أو المستنقعات ، أو الموانع الاجتماعية مثل اللغة أو الدين أو الاختلافات الشعوبية بين أناس لا تقف بين مناطق اقامتهم موانع طبوغرافية • كما أن بعض هذه المراكز أو النوى تتباين علي الرغم من تجاورها • ومع ذلك فانه سواء أكانت هذه الاختلافات كبيرة أم صغيرة ، خاصة أو عامة فان نمو هذه النوى يبدو نتيجة حتمية لنمو المدينة وازدهار حضارتها •

وهذه النظرية لا تفرض نموذجا عاما ينطبق علي كل المدن مثل النظريتين السابقتين وانما تجتهد فى تفسير النموذج الحضارى العام واتجاهاته فى كل مدينة علي حدة طبقا للمقتضيات المورفولوجية والفزيولوجية الاجتماعية ، ذلك أن

بعض نواحى النشاط تحتاج الى تسهيلات خاصة فى المدينة ، ومن ثم فان حى تجار التجزئة يوجد عادة فى المنطقة التى يتردد عليها السكان ، على اعتبار أن المشترين يفضلون الشراء من مكان تتوافر فيه الفرص المتعددة للشراء • والمناطق الصناعية تنشأ عادة فى المنطقة التى تتاح فيها فرصة النقل الرخيص مثل الأنهار أو البحار أو خطوط السكك الحديدية ، أو عند التقاء الطرق •

هذا وهناك بعض العوامل الطاردة بالنسبة لاختيار السكنى ، ذلك أن الأثرياء ينفرون من المناطق الصناعية أو ذات الضوضاء ، ويلجأون الى

الأماكن التى يتوافر فيها الهدؤ والاستمتاع بالطبيعة مثل المناطق المتطرفة من المدينة •

على حين أن الأنشطة الاقتصادية التى تحتاج الى مساحات شاسعة مثل تجارة الجملة ، تتجه من تلقاء نفسها الى أطراف المدينة حيث تتوافر الأراضى الرخيصة الثمن ، لاقامة مخازنها الفسيحة والكبيرة •

وعلى هذا فان المدينة فى ضوء هذه النظرية تنقسم الى المناطق والضواحى التالية :

١ ـ منطقة رجال الأعمال •

٢ ـ منطقة تجارة الجملة والصناعات الخفيفة •

٣ ـ منطقة سكنى الطبقات الفقيرة •

٤ ـ منطقة سكنى الطبقات المتوسطة •

٥ ـ منطقة سكنى الطبقات الثرية •

٦ ـ المنطقة الصناعية •

٧ ـ المنطقة التجارية •

٨ ـ الضاحية السكنية •

٩ ـ الضاحية الصناعية[1] •

ولا شك أن عدم افتراض نموذج عام فى هذه النظرية ينطبق على كل المدن قد جنب هذه النظرية كثيرا من النقد •

هذا ومن رأى (جيست ونابرت) أن هذه النظريات الثلاث السابقة الذكر تتفق فى كثير من تقسيماتها ، ومن أهم المناطق المشتركة مايلى :

---

(١) Lundberg, G. A. and Others. op. cit., p. 149, f.

١ ـ منطقة رجال الأعمال المركزية :

وهى منطقة عمل وليست منطقة سكنى ، ومن ثم فان مؤسساتهـا والبنوك والشركات التجارية الكبرى والمصالح الحكومية تكتظ بالناس فى أثناء ساعات العمل ، ثم تخلو تقريبا هذه المنطقة من المترددين عليها ليلا ـ عدا الحـراس وبعض العـابرين ، وتتمتع هذه المنطقـة برعاية أجهزة الخدمات ٠ومن ثم فانها تمتاز بالنظافة ، كما أن أسعار الأرض فيها مرتفعة الثمن ٠

٢ ـ منطقة الورش الصناعية الصغيرة :

وفيها توجد الورش الصـناعية الصـغيرة التى يعمل بها كثير من الصبية الصغار مع العاملين فيها من الكبار بالاضافة الى أصحابها ، سواء للانتاج أو للصيانة ، ومن ثم فان مبانيها قديمة متداعية وشوارعها تعانى المطبات والحفر وتمتلىء بأكوام المتروكات ومخلفـات المداخن تنعكس سوادا على جدرانهـا ٠٠٠ وكثيرا ما يتعرض الصبية الصـغار فى هذه المنطقة للطرد من أعمالهم ومن ثم يتعرضون للتشرد وأحيانا للانحراف ٠

٣ ـ منطقة سكنى الطبقات الفقيرة :

ومساكن تلك المنطقة قديمة ومتهالكة وقليلة الارتفاع وشـوارعها ضيقة ولا تحظى كثيرا باهتمام أجهزة الخدمات وتعتبر منطقة تجمع لذوى الدخل المنخفض من العاملين ، حيث يتاح لهم السكنى فى (شـقق) أو حجرات مشتركة بالنسبة للفقراء من السكان أو بالنسبة للمهاجرين الى المدينة بحثا عن الرزق ومن ثم تتاح فيها فرص الاختلاط غير المنظم الذى يترتب عليه فى الغالب ارتفاع نسبة الانحرافات الأخلاقية والجنح والجرائم وما الى ذلك ٠

٤ ـ منطقة سكنى الطبقات المتوسطة :

ومساكن تلك المنطقة أكثر ارتفاعا وأفضل نظافة وتنسيقا من المنطقة السابقة ، ويقيم فيها ذوو الدخل المتوسط من موظفى الحكومة والعاملين ، وتقيم كل أسرة ـ فى الغالب ـ فى مسكن مستقل •

٥ ـ منطقة الضواحى :

ومساكن هذه المنطقة ملك ـ فى الغالب ـ لسكانها ، وهى ـ فى الغالب أيضا ـ عبارة عن فيلات يسكنها ذوو الدخل المرتفع الذين تسمح لهم امكاناتهم المادية بالانتقال اليومى من هذه المنطقة الى المدينة وبالعكس •

٦ ـ منطقة المصانع :

وهناك بعض الصناعات التى يستحيل اقامتها داخل المدن مثل صناعة تكرير البترول والكيماويات والورق ودباغة الجلود وما اليها ، ومن ثم فان مؤسسى هذه المصانع يلجأون الى ضواحى المدن لاقامة تلك المصانع[١] •

وهذا التقسيم يتسم بالتلقائية فى الغالب وبعضها يكون وليد الحاجة ، ومن ثم فان تسمية المناطق السكنية أو التجارية أو الصناعية أو مناطق الخدمات فى أى مدينة باسم المناطق الطبيعية •

---

(١) Gist, N. P. and Nalbort, L. A. : Urban Society. Thomas V. Crowell Co.. N.Y., 1956, pp. 32-84.

العلاقات الانسانية فى المجتمع الحضرى
(مقارنة بين المجتمع الريفى والمجتمع الحضرى)(١)

يختلف المجتمع الريفى عن المجتمع الحضرى فى نواح كثيرة ، ويؤدى هذا الاختلاف الى تباعد ثقافى بين المجتمعين ، وفى هذا الفصل سوف تتناول بعض هذه الاختلافات بالشرح والمناقشة .

١) يختلف المجتمع الريفى عن المجتمع الحضرى من حيث عدد السكان والكثافة والتجانس فعدد سكان القرية قليل بالنسبة لسكان المدينة كما أن عدد السكان الذين يعيشون فى الكيلو متر المربع فى الريف أقل منه فى المدينة .

ويعطى الاجتماعيون لهذا الفرق بين الريف والحضر أهمية كبيرة ، فهم يقولون ان كبر المدينة وازدحامها وعدم تجانس السكان فيها ، يؤدى الى أن تصبح العلاقات بين سكانها ثانوية Secondary Relationships أى غير شخصية وعابرة وسطحية ونفعية فى أغلب الأحيان ، بعكس المجتمع الريفى الذى يتسم بالعلاقات الشخصية والوثيقة والعميقة أى

---

(١) لا تعنى التفرقة بين المجتمعات ان الكاتب يفضل احدهما على الآخر فالحضر يمتاز عن الريف بالنظافة وتوفر سبل الثقافة ويتعدد فرص العمل وما شابه ذلك ، ولكن الريف ايضا يمتاز بتماسك المجتمع والأسرة ، الأمر الذى دعا أكبر المخططين الأمريكيين (فرانك لويد رايت) الى ان يدعو للعودة الى الحياة الريفية بما فيها من بساطة واتصال ، لطبيعة وعلاقات قوية . كما يحاول الاخصائيون الاجتماعيون ايضا تقسيم المدن الى جيرات Neighbourhoobs أشبه بالقرى وعلاقاتها لتقوية الضبط الاجتماعى الأولى فى المجتمع . وتمتاز الأسرة الريفية أيضا بدقة توزيعها لدخلها البسيط فهم يمسكون عن الكماليات ، ويوزعون الدخل الموسمى (القمح مثلا) من بدء الموسم الى أن يأتى المحصول الجديد بينما لا يتمكن الشخص الحضرى عادة من توزيع دخله الشهرى – مع كبره بالنسبة للدخل الريفى – على ثلاثين يوما .

ذلك النوع من العلاقات الذي نطلق عليه اسم علاقات أولية Primary Relationships ويؤدي هذا الى أن يصبح المجتمع الحضرى مضطرا الى الاعتماد على أدوات الضبط الاجتماعى الثانوى ، وبمعنى آخر تعتمد المدن على القانون والشرطة لحماية المجتمع ، فى حين تعتمد القرى على التقاليد والعادات والعرف .

ومن ناحية العمل يتناول الريفى فى حقله جميع نواحى عمله من زرع ورى وحصد وتسويق ، بل انه يصنع فى بيته جلبابه وخبزه وجبنه وزبده أيضا ، أى أنه يكون مكتفيا ذاتيا ، فى حين يتخصص أخوه الحضرى فى مهنة معينة يبقى فيها طول حياته .

ويعمل الريفى فى مواسم معينة ثم يرتاح فى مواسم أخرى ، فى حين يعمل الحضرى فى جميع المواسم طول العام ، أى أن وقت فراغ الريفى طويل وغير منتظم ، فى حين يكاد ينتظم وقت فراغ الحضرى على مدار العام . ويعمل أغلب الريفيين مهنة واحدة وهى الزراعة فى حين يعمل سكان الحضر فى مهن متباينة .

وتمتاز الأسرة الريفية بالتماسك ، بعكس الأسرة الحضرية التى تبدو فيها مظاهر التفكك[1] . ومن مظاهر التماسك فى الأسرة الريفية بقاء نظام العائلة المركبة فى كثير من الأحيان (بقاء الأولاد مع أهليهم حتى بعد الزواج) وقلة الطلاق والانفصال ووحدة القيادة .

ويختلف المجتمع الحضرى عن المجتمع الريفى أيضا من حيث الدخل فمتوسط الدخل فى المدينة يزيد عنه فى الريف وذلك لاعتماد أهل الريف على الزراعة أساسا . ويؤثر هذا فى كثير من النواحى المعيشية

---

(١) يرى بعض علماء الاجتماع أن ما يسمى تفككا ، هو فى الواقع جزء من تكيف العلاقات الأسرية لمقابلة حاجات المجتمع الصناعى الجديد .

لسكان الريف وسكان الحضر ، فى المنزل والعمل وطريقة قضاء وقت الفراغ .

٧) ويمتاز أهل الريف عن أهل الحضر بتعاونهم فى الملمات والمشكلات . فاذا شبت نار مثلا فى أحد البيوت هب أهل القرية جميعهم لاطفاء الحريق ، واذا ماتت بقرة مثلا فى القرية قام الريفيون بجمع المال لتعويض صاحب البقرة فى خسارته . أما فى المدينة فلا يكاد شخص يتحرك اذا نما اليه أن هناك حريقا فى نفس الشارع الذى يسكنه ، أو اذا كان تاجر يسكن فى نفس العمارة أصابته خسارة فى تجارته .

٨) ويختلف المجتمع الريفى عن المجتمع الحضرى من ناحية تحديد الطبقات فيه ، فالكل فى الريف يعرف مركزه ، ويعرف كيف يتعامل مع الأهم أو الأقل منه . أما فى المدينة الكاملة التحضر فتقل التفرقة كثيرا بين الغنى والفقير ، وبين الرئيس والمرءوس ، وبين العالم والجاهل . وللحسب والنسب فى الريف أهمية كبرى ، فترتبط أهمية الفرد بأهمية الأسرة التى ينتمى اليها ، ومقدار ما تملكه هذه الأسرة من أرض ، أما فى المدينة فلا تكاد تكون هناك علاقة بين أهمية الأسرة وأهمية الفرد .

٩) وخبرة الريفى بالطبيعة أكثر من خبرة الحضرى ، فالريفى يعيش بين أحضانها ، ويزرع الحقل ويربى الماشية والطيور ، ويهتم اهتماما كبيرا بالبرد والمطر والحشرات وتأثيرها على زراعته ، ويعرف الذئب والثعلب وفأر الغيط ، ويحدد يومه بشروق الشمس وغروبها ، وينتظر الليالى المقمرة التى تنير له القرية . أما الحضرى ، فيكاد يجهل ذلك جهلا كاملا ، الا أنه أكثر خبرة من الريفى بحضارة المدينة ، فهو يرى الآلة ويستعملها كل يوم . ويرى ويستعمل السيارة والترام فى الطريق ، ويرى ويستعمل الآلة الكاتبة والحاسبة فى المكتب ، ويرى ويستعمل ماكينة الخياطة والمروحة الكهربائية فى المنزل وهلم جرا .

وسائل

١١) ويختلف الريفى عن الحضرى فى مدى استخدامه لمظاهر الحضارة ، فالريفى يستعمل البترول فى الاضاءة والحضرى يستعمل الكهرباء ، والريفى يستعمل الحمار والجمل فى الانتقال ، والحضرى يستعمل السيارة أو الترام ، والريفى يستعمل الزير لحفظ الماء والحضرى يستعمل الصنبور والثلاجة ، والريفى يستعمل الزربية أو الطريق العام للتخلص من فضلاته والحضرى يستعمل المرحاض ، الى غير ذلك من الاختلافات •

١٢) ويختلف « الاتيكيت » فى القرية عنه فى المدينة أيضا بحكم الأوضاع فى كل مجتمع ففى القرية تأمر الأم أولادها فى أثناء الطعام بالأكل من الناحية القريبة من الطبق ، لأن الجميع يأكلون من صحن واحد ، ثم هى تأمره بالتقليل من الطعام وتكبير قطعة الخبز توفيرا للطعام فى المجتمع المفقير • أما فى المدينة ــ وخاصة فى الطبقات المتوسطة والأسرة ــ فتكاد تكون جميع نظم الطعام مستمدة من الغرب لتأثر المجتمع بالثقافة الخارجية •

١٣) وتختلف أيضا مهارات المدينة عن مهارات الريف ، فالمرأة الحضرية أكثر مهارة فى تنظيم المنزل وأكثر اتزانا فى لبس « الكعب العالى » مثلا فى حين تفوق المرأة الريفية أختها الحضرية فى المهارة والرشاقة فى فرد الرغيف على المطرحة وحمل البلاص وهز « خضاض » اللبن •

١٤) ويختلف المجتمع الريفى عن الحضرى من حيث التماسك بالدين ، فالريفى يتمسك بدينه كما شرحه له الأئمة ، على أن الحضرى (وخاصة المثقف) قد لا يعترف بذلك أو يأخذه على علاته ، فهو يرى فى الدين مفاهيم جديدة ويفهمه على أنه أيضا علاقات وعمل واجتهاد فى الحياة بجانب كونه صلاة وصوما وحجا •

١٥) ويختلف المجتمع الريفى عن الحضرى من حيث سرعة التطور ، فنظرة واحدة الى طريقة المعيشة فى الريف وأدوات الزراعة والرى

والحصاد ، تكفينا لأن ندرك مدى بطء التغير فى الريف ، أما فى المدينة فيكاد الانسان يرى تغيرا فى كل يوم •

ولكى نزيد الموضوع ايضاحا ، سوف يرى ويلاحظ الكثير مما لا يراه ويلاحظه شخص نما فى المدينة واعتاد حياتها :

١ ـ المميزات المادية :

لعل المميزات المادية هى أول ما يأخذ بلب القروى ويؤثر فيه •

(ا) مبانى المدينة كبيرة وكثيرة ومتنوعة ، ومحلاتها التجارية كبيرة تبيع مختلف البضائع ، بل ان التجار يبيعون بضائع من نفس النوع فى نفس الشارع • لافتات كثيرة فوق العمارات ، أضواء واعلانات ، ألوانها زاهية وأشكالها عجيبة وعددها لا يحصى • تماثيل ونافورات وميادين فسيحة ، وأندية وحدائق وأحياء شعبية وأخرى ارستقراطية ، وكثيرا ما تكون هناك مصانع فى أطراف المدينة أو بالقرب من النهر •

(ب) وسائل المواصلات فى المدينة متوافرة : سيارات خاصة وسيارات عامة مختلفة الأشكال والألوان والأحجام ، وترام ومترو ، وقطارات تسير تحت الأرض فى بعض الأحيان • دراجات عادية ، وأخرى تسير بالبترول ، ولوريات لحمل البضائع وعربات تجرها خيول •

(جـ) وفى المدينة تتجمع الأضداد ، ترى العمارة الحديثة الى جوار المبنى القديم المتآكل ، وترى قصر الغنى وبجواره عدة أكواخ ، وترى السيارة الفاخرة ، وبجانبها السيارة التى عفى عليها الدهر ، وترى شخصا مهندما وآخر يلبس الأسمال ، وترى حى الأغنياء ملاصقا لحى الفقراء ••• كل هذه الأضداد تتجمع فى المدينة •

(د) والازدحام من مميزات المدينة ... ازدحام فى المواصلات ، ووقت خروج الموظفين وأمام شبابيك البريد وفى المحلات التجارية ، وفى محطات القطارات .... ازدحام فى كل شىء وعلى كل شىء . وقد لا يشعر ساكن المدينة بهذا الازدحام أو على الأقل يقبله على علاته ، ولكنه بالنسبة للقروى شىء مثير ومرهق للأبدان .

(هـ) ولو قدر للريفى فى بلادنا أن يدخل أحد البيوت الحضرية لراعه ما يراه من اختلاف عن البيوت الريفية . فالأرض مغطاة بالبلاط أو الخشب ، والأثاث فاخر جدا بالنسبة لأثاث الريف ، والكهرباء والمياه والمراحيض والأفران والثلاجات وغيرها كثير ، ثم تنوع الحجرات : حجرة النوم وأخرى لاستقبال الضيوف وثالثة للطعام ورابعة للمكتب وخامسة لطهو الطعام ، هذا التخصص فى الحجرات غير موجود فى الريف .

(و) والنظافة من مظاهر المدينة[1] نظافة فى الشوارع ، ونظافة داخل البيوت ونظافة فى ملابس الناس وخاصة الأطفال ، ونظافة فوق أسطح المنازل . نظافة فى كل شىء — ولا يعنى هذا أن المدينة نظيفة حقا ، ولكنها نظافة نسبية .

٢ ـ مظاهر النشاط فى المدينة :

نشاط المدينة نشاط متدفق يدفع الناس الى الحركة والسرعة :

(ا) الحياة سريعة فى المدينة فالناس يهرولون فى الشوارع ، والسيارات تتسابق فى الطرقات . وتحركات الناس فى المدينة

---

(١) الريف فى الغرب أكثر نظافة من المدينة .

كثيرة ، فهذا يسكن فى شمال المدينـة ويعمل فى جنوبها ، فينتقـل كل يوم مرتين أو أربع مرات فى بعض الأحيـان ، وذلك يسكن فى شرق المدينة ويزور أصدقاءه فى غربها .

الناس تذهب وتجىء ، وتصعد وتنزل ، أفرادا وجماعات ، رجالا ونسا وأطفالا .... تحركات الناس كثيرة ، نحسها فى ازدحام المواصلات وكثرتها بالليل والنهار .

(ب) وتخصص الناس فى المدينة واضح ، فأغلب النـاس يقضون حياتهم فى مهنة معينة . فهذا بائع لبن ، وذلك حارس ، وثالث عامل ورابع موظف ، وخامس سـائق سـيارة ، وسادس مهندس[1] .

فهناك من يخبز للجميع ومن يكنس للجميع ، ومن يورد الماء للجميع .

لهذا فان ساكن المدينة لا يحتـاج فى بيته الى فـرن ولا فنطاس بترول ولا صهريج ماء ولا زير .

ويؤدى هذا التخصص الى وجود مهن تقـابل كل هواية وكل اهتمام ، مهن سـهلة وأخرى صـعبة ومهن ابتكارية وأخرى روتينية ، ومهن للمتعلم وأخرى للجـاهل ... كل أنواع المهن .

(ج) وبالمدينة أنواع شـتى من البرامج الترويحية والترفيهية : سينما ومسرح وأندية ومباريات رياضية ومعارض ومتاحف وحدائق وحمامات للسباحة وحدائق للحيوان و « مقاهى »

---

(١) عبد الحميـد الحديدى « المصـطبة على أكتافنـا » ، مقال فى صحيفة (المساء) القاهرة ٢٩ مارس ، ١٩٦٠ ص ٨ .

.... الخ ، برامج نهارية وأخرى ليلية ، برامج للكبار وأخرى للصغار ، أمكنة للرجال وأخرى للنساء ، أمكنة رخيصة وأخرى غالية ، أشكال وأنماط من الترويح والترفيه.

(د) ومن مظاهر النشاط فى المدينة حركتها العمرانية التى لا تكاد تقف ، هدم وبناء فى كل جانب من المدينة ، حفر فى الأرض ورصف فى الطرقات واصلاح فى البيوت ، مبان تزول وعمارات تشيد ، وشوارع تشق وطرق تتسع — حركة عمرانية مستمرة .

٣ — انسان المدينة :

قد يكون من الصعب فهم الانسان الحضرى وتحديد أوصافه ، على أن هناك بعض المميزات الهامة التى لا تفوت زائر المدينة .

(ا) تمتاز المدينة بالتضاد والتشابه فى نفس الوقت ، فالناس من أناس وطباع مختلفة ، يتكلمون أشكالا من اللغات أو اللهجات ويلبسون أنماطا متعددة ، ولهم قيم متباينة ومتضاربة بعضها أقرب لقيم الريف وبعضها مستورد من الخارج ، على أن أغلبها متشابه ... بعض الناس هازل وبعضهم الآخر جاد ، وأغلبهم بين هذا وذاك ، بعض الناس هادىء وبعضهم سريع الغضب ، وأغلبهم هذا وذاك . تضاد وتشابه فى كل نواحى الحياة .

(ب) الازدحام فى الطرقات والمحلات العامة فان سكان المدن يتصرفون كأفراد . قليلا ما يكلم بعضهم بعضا فى الطرقات ، فاذا ما وقفوا فى « طابور » — لأى غرض — قليلا ما يتجاذبون أطراف الحديث ، واذا ما ازدحموا فى سيارة عامة

نادرا ما يدور بينهم نقاش . كل منهم مشغول بنفسه ، يسير في طريقه وكأنه في عزلة ، حتى ان أحد الاجتماعيين الأمريكيين قال في أحد كتبه :

« ان الشخص في زحام النـاس في المدينة الكبيرة يكون أكثر الناس وحشة وشعورا بالعزلة » .

هـذه هي بعض مظاهر المدينـة الكبيرة ، ولا يدعى الكاتب أن الوصف السـابق ينطبق على كل مدينـة ، فالفروق بين الريف والحضر كمية لا نوعية كما ذكرنا ، فهناك القرى الصغيرة والقرى الكبيرة ثم المدن الصغيرة والمدن المتوسطة ،والمدن الكبيرة ، والفرق بين القريـة الكبيرة والمدينة الصغيرة لا يكاد يذكر .

ولا ندعى أن كل سكان المدينة يعيشون بطريقة حضرية فهناك من ينقلون حياة الريف للمدينـة ، فيعيشون في بيوت كأنهـا دواوير قروية يخزنون فيها السمن الأرز والدقيق ، ويدخرون أموالهم في الدولاب أو على شكل مصاغ في أذرع الزوجات بدلا من وضعها في البنوك أو أسهم صناعية ويتعاملون في الأموال دون أوراق ووثائق ، ويعالجون أمراضهم بالوصفات البلدية ، الى غير ذلك من العادات والتقاليد الريفية .

التقسيم الأيكلوجى فى المجتمع الحضرى

تنقسم كل مدينة الى أقسام ، منها أقسام للسكنى وأخرى لتجارة الجملة وثالثة لتجارة القطاعى ورابعة للصناعات وخامسة للنزهة والترويح ... كما تنقسم أقسام السكنى الى أقسام لسكنى الطبقات الفقيرة وأخرى لسكنى الطبقات المتوسطة وثالثة لسكنى الطبقة الغنية... وتتداخل هذه الأقسام مع بعضها البعض بعض التداخل ، فليس هناك أقسام للسكنى فقط أو للتجارة فقط وانما هناك أقسام يغلب عليها طابع السكنى وأخرى يغلب عليها طابع التجارة وهلم جرا .

ولكل قسم من هذه الأقسام مميزات ومشكلات خاصة تختلف عن مثيلتها فى الأقسام الأخرى . ويجتذب كل قسم منها نوع خاص من الناس والخدمات ، كما يطبع كل منها سكانه بثقافة خاصة ، ويتغير بعض سكان الأقسام وتحولهم من فئة الى فئة ـ عن طريق التعليم أو زيادة الدخل ـ ينتقل هؤلاء من قسم الى قسم آخر فى المدينة يتمشى مع أوضاعهم الجديدة .

وتهتم الأيكولوجيا عامة بدراسة العلاقات بين الانسان وبيئته سواء كانت هذه العلاقات تعاونية أو تنافسية[1] . وفى المدينة تهتم الأيكولوجيا بدراسة ما يلى :

١ ـ دراسة التوزيع المساحى والجغرافى للجماعات فى المدينة ووظيفة كل جماعة .

---

(١) من أمثلة العلاقات التعاونية بين الانسان وبيئته العلاقة بينه وبين ذلك النوع من البكتريا الذى يعيش فى أمعاء كل انسان ويساعده فى عملية الهضم ، ومن أمثلة العلاقات التنافسية العلاقة بين الانسان فى الغابة والحيوانات الضارية .

٢ ـ دراسة العلاقات بين هذه الجماعات وكيفية تأثير هذه العلاقات فى نمط التوزيع المساحى والجغرافى للجماعات فى المدينة •

٣ ـ دراسة الاختلافات الاقتصادية والاجتماعية بين هذه الجماعات وأثرها فى العلاقات بين جماعات المدينة •

٤ ـ دراسة علاقات التوزيع المساحى والجغرافى للجماعات فى المدينة بالتوزيع المساحى والجغرافى للخدمات فيها •

٥ ـ دراسة ديناميكية تغير النظام الاجتماعى فى المدينة وأثرها فى التوزيع المساحى والجغرافى للجماعات فيها •

العوامل التى تؤثر على أيكولوجية المدينة :

تؤثر على أيكولوجية أى مدينة عوامل مختلفة لعل أهمها العوامل الاجتماعية كميل كل طبقة اقتصادية الى المعيشة مع بعضها مثلا ، الا أن هناك عوامل أخرى تؤثر فى أيكولوجية المدينة • وفيما يلى نلخص هذه العوامل :

١ ـ الصناعة والمواصلات فى المدينة :

بدأ كثير من المدن الأوربية فى القرن الثامن عشر حول الصناعة والمصانع ، وأدى هذا الى أن تركز عمال الصناعة وزاد ازدحامهم بدرجة شديدة فى وسط المدينة ، وباختراع طرق المواصلات الحديثة تمكن العمال من الابتعاد عن منطقة المصانع والمعيشة فى أماكن متطرفة فى المدينة • وبتطور طرق المواصلات سوف يتمكن سكان المدينة فى المستقبل من المعيشة خارجها فى أماكن بعيدة ، فاذا تصورنا مثلا أن الهليكوبتر قد أصبح وسيلة عادية للمواصلات ، فلا شك فى أن هذا سوف يعطى الفرصة لسكان المدينة لكى يعيشوا فى أماكن تبعد عنها

أميالا وأميالا ويسافروا كل صباح للمدينة ثم يعودوا فى المساء الى بيوتهم دون أدنى مشقة •

٢ ـ جغرافية المدينة :

ولو أن كل المدن قد تنشأ عن أراضى سهلة ومستوية ليس فيها جبال ولا أنهار لكان نمطها الأيكولوجى نتيجة مباشرة لعوامل اجتماعية محضة • الا أن هذا لم يحدث ، فقد تأثرت أيكولوجية كثير من المدن لعوامل جغرافية خارجة عن ارادة الانسان ، فوجود جدة مثلا على شاطىء البحر أدى الى أن تمتد المدينة امتدادا عرضيا على شاطىء البحر لمسافات طويلة ، ووجود بمباى فى الهند على جزيرة سبب أساسى من أسباب ازدياد كثافة السكان فيها زيادة فاحشة وهلم جرا •

٣ ـ تاريخ المدينة :

ولتاريخ المدينة أيضا أثر على نمطها الأيكولوجى • فالحدائق الشاسعة التى تنشأ فى المدن عادة تكون لها الأثر الكبير على تحديد طريقة استخدام تلك المنطقة فى المدينة ، فعادة يسكنها الطبقة الغنية ، وتستخدم الحدائق للترويح والنزهة لسكان هذه المنطقة •

العوامل الاجتماعية التى تؤثر على أيكولوجية المدينة :

أشرنا الى أن هناك عوامل اجتماعية تؤثر فى أيكولوجية المدينة ، وفيما يلى نلخص هذه العوامل :

١ ـ المركزية Centralisation

المقصود بهذا ميل الناس الى الالتفاف حول نقطة ارتكاز فى المدينة (أو نقطة ارتكاز متعددة فى حالة المدن الكبيرة) ومثال ذلك المنطقة التجارية فى المدينة •

٢ ـ التجمع Nucleation

المقصود بهذا ميل الخدمات الاجتماعية والاقتصادية فى المدينة الى التجمع فى مناطق محدودة ، كتجمع المصانع فى منطقة وتجار الجملة فى منطقة أخرى وهلم جرا .

٣ ـ اللامركزية Decentralisation

المقصود بهذا ميل الناس الى البعد عن مركز المدينة ، ويحدث هذا عادة فى السكن فكثيرا ما يميل الشخص الى المركزية والتجمع من ناحية العمل ولكنه يميل الى اللامركزية من ناحية السكن .

٤ ـ التفرقة Segregation

المقصود بهذا ميل الناس من طبقة اقتصادية واحدة ، أو مستوى تعليمى واحد أو مهنة واحدة أحيانا ، الى التجمع فى مكان واحد .

٥ ـ الغزو والاحتلال Invasion and Succession

المقصود بالغزو ميل الناس والمؤسسات أحيانا الى الانتقال من مجتمعها الذى تتفق مع أوضاعها الى مجتمع آخر يختلف عنها ، ومن أمثلة ذلك انتقال بعض التجار من مناطق التجارة الى مناطق سكنية ، أو انتقال بعض مواطنى طبقة معينة الى حى تسكنه طبقة أخرى . فاذا كان هذا الغزو كاملا أى أنه أدى الى خروج السكان القدامى ودخول سكان جدد يختلفون عن القدامى سميت العملية احتلالا .

نظريات أيكولوجية المدن[١]

قام عدد من علماء الاجتماع المهتمين بأيكولوجية المدن بوضع عدد من النظريات عن التوزيع المساحى والجغرافى للناس والخدمات فى المدن ،

(١) Broom, L. and Selznick. P., Sociology, Row Paterson and Co, New York, 1956, pp. 448-454.

وذلك بعد أن قاموا بدراسة عدد من المدن يتفاوت بين باحث وآخر •
وفيما يلي نلخص احدى هذه النظريات :

نظرية النموذج الدائرى المتراكز(١) Concentric Zone Theory

نادى بهذه النظرية أرنست برجس E.J. Burgess بعد دراسته المدينة تتوزع فى شكل حلقات حول مركز أساسى فى المدينة •

هذا ، وقد لاحظ برجس من دراسته أن نسبة السكان الذين يملكون البيوت التى يسكنونها تتزايد كلما بعدنا عن مركز المدينة ، كما لاحظ أيضا أن نسبة تشرد الأحداث والبغاء ونسبة الأجانب أيضا تزيد فى وسط المدينة وتقل كلما ابتعدنا عن المركز •

---

(١) ترجم أسماء هذه النظريات وشرحها الدكتور حسن الساعاتى فى كتابه « التصنيع والعمران » ، دار المعرفة ، القاهرة ، ١٩٥٨ — ص ١٩١ — ١٩٤ .

الفصل السادس

مشكلات التحضر السريع(*)

يمر العالم « بثورة » سكانية منذ منتصف القرن السابع عشر على أقل تقدير . ولقد صاحب ارتفاع معدلات النمو السكاني تغيرات عميقة فى توزيع السكان . ويمكننا أن نلحظ ذلك بوضوح فى ميل السكان الى التركز فى مناطق حضرية تزداد اتساعا يوما بعد يوم . وفى حدود البيانات المتاحة لدينا يمكننا القول ان السكان الحضريين قد ازدادوا منذ سنة ١٨٠٠ بسرعة تفوق الزيادة السكانية بوجه عام . وفضلا عن ذلك فان معدل التحضر العالمى قد ارتفع ارتفاعا ملحوظا فى الفترة الأخيرة ، ولا يزال يواصل ارتفاعه فى اصرار شديد[1] .

جدول رقم (١)

مقارنة بين معدلات النمو السكانى الحضرى والنمو السكانى بوجه عام وذلك بالنسبة للعالم فى الفترة من ١٨٠٠ حتى ١٩٥٠(*)

الفترة	النسبة المئوية للزيادة فى			
	العدد الكلى للسكان	سكان العالم فى المدن		
		٥٠٠٠ نسمة فأكثر	٢٠٠٠٠ نسمة فأكثر	١٠٠٠٠٠ نسمة فأكثر
١٨٠٠ – ١٨٥٠	٢٩,٢	١٧٥,٤	١٣٢,٣	٧٦,٣
١٨٥٠ – ١٩٠٠	٣٧,٣	١٩٢,٠	١٩٣,٥	٢٢٢,٢
١٩٠٠ – ١٩٥٠	٣٩,٣	٢٢٧,٧	٢٣٩,٦	٢٤٥,١

(*) المصدر :

Kingsley Davis and Hilda Hertz, "*Patterns of World Urbanization*" to be published by Macmillan Co.

ترجم هذا الفصل الدكتور السيد محمد الحسينى عن المصدر التالى :

Philip M. Hauser ; "The Social, Economic, and Technological Problems of (B) Rapid Urbanisation" ; in Bert F. Hoselitz and Wilbert E. Moore (eds.) *Industrialisation and Society,* UNESCO — MOUTON ; 1970.

والملاحظ أن التحضر العالمى خلال القرن التاسع عشر كان — الى حد كبير — تنيجة لتركز السكان فى مدن أوربا وأمريكا الشمالية • أما فى القرن العشرين فاننا نجد أن معدل التحضر العالمى قد تدعم وازداد تتيجة للزيادة السريعة فى نسبة سكان الحضر فى الدول النامية وعلى الأخص آسيا وأمريكا اللاتينية وأفريقيا • وخلال هذا القرن وصلت الدول المتقدمة الى ما يمكن أن نطلق عليه « نقطة التشبع الحضرى » • أما الدول النامية فلا تزال تشهد تدفقا سكانيا هائلا من المناطق الريفية الى المناطق الحضرية • وعلى الرغم من معدل التحضر العالى نسبيا فى الدول النامية ، فان نسبة السكان الحضريين فيها لا تزال ضئيلة • ففى سنة ١٩٥٠ — على سبيل المثال — بلغ المتوسط العالمى للسكان الذين يعيشون فى مدن يزيد عدد سكانها عن ٢٠,٠٠٠ نسمة حوالى ٢١٪ ، بينما لم يزد هذا المتوسط عن ٩٪ فى أفريقيا و١٣٪ فى آسيا • كذلك اتضح أن ٢٦٪ فقط من سكان دول أمريكا الجنوبية يعيشون فى مدن يبلغ عدد سكانها ٢٠,٠٠٠ نسمة • وعلى النقيض من ذلك نجد نسبة السكان الذين يعيشون فى مدن مماثلة (٢٠,٠٠٠ نسمة) تصل فى أمريكا الشمالية الى ٤٢٪ ، وفى أوربا ٣٥٪ (باستثناء الاتحاد السوفيتى) ، وفى الاتحاد السوفيتى ٣١٪ •

جدول رقم (٢)

النسب المئوية للسكان الحضريين فى المناطق الاساسية من العالم

	النسبة المئوية للسكان فى مدن يزيد حجمها عن ٢٠,٠٠٠ نسمة	النسبة المئوية للسكان فى مدن يزيد حجمها عن ١٠٠,٠٠٠ نسمة
العالم		
امريكا الشمالية +	٤٢	٢٩
اوربا ++	٣٥	٢١
الاتحاد السوفيتى	٣١	٢١
امريكا الجنوبية	٢٦	١٨
آسيا	١٣	٨
افريقيا	٩	٥

المصدر :

Kingsley Davis and Hilda Hertz, "The World Distribution of Urbanization", *Bulletin of the International Statistical Institute,* XXXIII, Part 4, 227-42.

+ وتشمل الولايات المتحدة وكندا .

++ باستثناء الاتحاد السوفييتى .

والملاحظ أن ارتفاع معدلات التحضر قد ارتبط بوضوح بالتقدم الاقتصادى والتصنيع وتطور الحضارة الغربية بوجه عام . ومع ذلك يمكننا القول انه برغم معدل التحضر المنخفض فى الدول النامية ، فان نسبة سكانها الذين يعيشون فى مدن تبلغ ٢٠,٠٠٠ نسمة أو مدن تبلغ ١٠٠,٠٠٠ تزيد على نسبة سكان دول أوربا وأمريكا الشمالية الذين يعيشون فى مدن من هذا الحجم . ففى سنة ١٩٥٠ بلغ عدد سكان أوربا (باستثناء الاتحاد السوفيتى) وأمريكا الشمالية الذين يعيشون فى مدن يزيد حجمها عن ٢٠,٠٠٠ نسمة حوالى ٤١٪ من مجموع سكان العالم الذين يعيشون فى مدن من هذا الحجم ، بينما بلغت هذه النسبة فى كل من آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية (مجتمعة) حوالى ٤٥٪[٣] .

ومن المتوقع أن يرتفع معدل التحضر العالمي ارتفاعا ملحوظا خلال الفترة المقبلة ، كما أن من المتوقع أن يكون هذا الارتفاع أشد وضوحا فى الدول التى تشهد الآن معدلات تحضر أقل • ففى سنة ١٩٥٠ بلغ عدد الأشخاص الذين يعيشون فى مدن يزيد حجمها عن ٢٠,٠٠٠ نسمة حوالى ٥٠٢ مليون • واذا ما استمر معدل التحضر العالمى الذى ظل قائما فى الفترة من سنة ١٩٠٠ حتى سنة ١٩٥٠ ، فان نسبة السكان الحضريين فى العالم ــ طبقا لتنبؤات الأمم المتحدة ــ سوف تتضاعف لتصل الى ١,٢ بليون نسمة[٣] • كذلك فانه فى ظل هذه الظروف سوف يصل عدد السكان الحضريين الذين يعيشون فى مدن يبلغ حجمها ١٠٠,٠٠٠ الى ٧٤٥ مليون نسمة فى سنة ١٩٧٥ بعد أن كان ٣١٤ مليون نسمة فى سنة ١٩٥٠ • وحتى لو افترضنا أن نسبة السكان الحضريين فى العالم يمكن أن تظل ثابتة فيما بين سنتى ١٩٥٠ و١٩٧٥ ، فان نسبة السكان الحضريين الذين يعيشون فى مدن يصل حجمها الى ٢٠,٠٠٠ نسمة ستصل الى ٥٥٪ بسبب الزيادة السكانية الكلية • واذا ما استمر هذا الاتجاه ، فان من المتوقع فى سنة ١٩٧٥ أن تصل نسبة سكان العالم الذين يعيشون فى مدن يزيد حجمها عن ٢٠,٠٠٠ نسمة الى ٣٠٪ ، كما ستصل نسبة الذين يعيشون فى مدن يزيد حجمها عن ١٠٠,٠٠٠ نسمة الى ١٩٪ • ومن الطبيعى أن يتم الجانب الأكبر من هذه الزيادة فى الدول النامية • بل ان آسيا ــ وحدها ــ سوف تمثل نصف هذه الزيادة فى الفترة فيما بين سنتى ١٩٥٠ و١٩٧٥ •

ولا شك أن المشكلات الناجمة عن التحضر السريع تختلف فى الدول المتقدمة عنها فى الدول النامية • ففى الدول المتقدمة نلحظ أن التحضر يمثل ــ فى وقت واحد ــ ظرفا سابقا ونتيجة لارتفاع مستوى المعيشة • ولقد ارتبط التحضر فى هذه الدول بزيادة تقسيم العمل

والتخصص وتقدم التكنولوجيا وارتفاع مستوى المهارة والانتاجية • أما في الدول النامية فلم يرتبط التحضر ارتباطا واضحا بهذه المتغيرات • ففي هذه الدول لا يشير التركز السكاني الحضرى الى سيطرة واضحة للانسان على الطبيعة ، بل انه (أى التركز) يمثل نتيجة أساسية لهجرة السكان الريفيين من مناطقهم المزدحمة الى المدن حيث يواجهون البطالة والفقر • ولعل ذلك يفرض علينا معالجة مشكلات التحضر السريع فى كل من الدول المتقدمة والنامية معالجة مستقلة • ولسوف نركز هنا على المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والتكنولوجية •

المشكلات الاقتصادية

تختلف الظروف الاقتصادية السابقة على التحضر فى الدول المتقدمة اختلافا شديدا عنها فى الدول النامية • وعلى الرغم من أن هذه النقطة لا تزال بحاجة الى مزيد من الدراسة ، فان بالامكان القول بأن ظهور التجمعات الحضرية قد ارتبط ارتباطا واضحا بالحضارة الغربية • ذلك أن الاقامة الدائمة للانسان لم تصبح ممكنة الا بعد انتهاء العصر الحجرى الحديث • فبظهور القرى الصغيرة نسبيا والمحلات الحضرية الضئيلة الحجم ، وبتقدم التكنولوجيا ، وتطور التنظيم الاقتصادى والاجتماعى والسياسى ، بدأت التجمعات الانسانية تزداد حجما ورسوخا ابتداء من العصور القديمة حتى الحضارتين اليونانية والرومانية[٤] ، وبانهيار الامبراطورية الرومانية وبداية العصور الوسطى المظلمة ، بدأ العالم الأوربى يتحول الى الاقامة فى تجمعات سكانية صغيرة الحجم نسبيا • وما لبثت المدن الكبرى أن ظهرت فى أوربا ببداية عصر النهضة ونشوب الثورات الزراعية والتجارية والصناعية • وحتى بداية القرن التاسع عشر لا نجد مدينة واحدة وصلت الى مليون نسمة الا اذا استثنينا الصين القديمة وطوكيو • هذا وقد أدت التطورات التكنولوجية والتنظيمية الى

ظهور نشاطات اقتصادية جديدة وتجمعات حديثة كبيرة ، مما أسهم فى ارتفاع معدلات التحضر خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين فى كل من أوربا وأمريكا الشمالية(٥) . ومن ذلك يبدو واضحا كيف أن التحضر فى العالم الغربى كان ظرفا سابقا وتتيجة للتصنيع فى آن واحد .

أما التحضر فى الدول النامية فيعد نتيجة لقوى اجتماعية مختلفة تماما . فالمدينة « الأولى »* Primate City فى دول جنوب شرق آسيا ــ مثلا ــ ليست نتاجا لتقدم اقتصادى ذاتى تحقق فى هذه الدول ، بقدر ما هى نتيجة لتطور اقتصادى موجه لخدمة دولة أو مجموعة من الدول الأجنبية . لقد نمت المدن الأولى لكى تصبح بمثابة روابط قوية تربط بين الدول المستعمرة وقوى الاحتلال . ولا تزال هذه المدن حتى الوقت

(*) تعتبر المدينة « أولى » فى الحالتى التى لا يكون فيها فى الدولة سوى مدينة واحدة متفوقة فى حجمها كل التفوق على سائر المراكز الحضرية الأخرى فى تلك الدولة . ولم يقتصر وجود المدن الأولى على المناطق غير الغربية . ومن أمثلة المدن الأولى التى ظهرت فى فترات مختلفة من تاريخ الدول : استوكهولم بالنسبة للسويد ، وأوسلو بالنسبة للنرويج ، وباريس ذات مرة بالنسبة لفرنسا ، والبندقية وروما فى فترات مختلفة من تاريخ ايطاليا ... الخ . ويشير هوسيلتز Hoselitz الى أن معظم الوظائف الرئيسية لتلك الدول قد تركزت فى تلك المدن فى مرحلة مبكرة جدا من تاريخها . وتتخذ المدن الأولى فى كثير من الأحيان طابعا طفيليا . فهى تلتهم أموال الاستثمارات ، وهى تمتص القوى العاملة ، وتسيطر على النمط الثقافى للدولة . وفضلا عن ذلك فهى تتميز بمعدل استهلاك عال بالمقارنة بمعدل الانتاج الذى تقدمه . ويذهب بيرى Berry الى أن المدن الأولى غالبا ما تظهر فى البلاد التى ظلت حتى عصور حديثة تابعة سياسيا أو اقتصاديا لدول أخرى . كما قد تظهر فى البلاد الصغيرة التى كانت تضم ذات يوم مناطق شاسعة ، أو البلاد التى يتميز اقتصادها بأنه من الحجم الذى لا يتطلب مدنا متوسطة الحجم . لمزيد من التفاصيل انظر : جيرالد بريز ؛ **مجتمع المدينة فى البلاد النامية** . ترجمة وتقديم الدكتور محمد محمود الجوهرى ؛ دار نهضة مصر للطبع والنشر . ١٩٧٢ . ص ١٠٥ وما بعدها . (المترجم)

الحاضر تخضع للتوجيه الخارجي ؛ ذلك أنها تمثل حلقة اتصال بين الصفوة المحلية والعالم الخارجي أكثر مما تمثل قاعدة اقتصادية موجهة الى الاقتصاد القومي[٦] • ومن الخصائص المميزة للتحضر فى أمريكا اللاتينية تضخم العواصم أو المدن الأولى • وغالبا ما تقع هذه المدن (التى تعكس جوانب مميزة لتاريخ أمريكا اللاتينية) على الشواطىء الساحلية أو فى المناطق المدارية[٧] • والملاحظ أن التطور الاقتصادى والحضرى فى أمريكا اللاتينية (وكذلك فى آسيا وأفريقيا) قد ظل حتى بداية الحرب العالمية الثانية موجها نحو الأسواق الخارجية فى ظل علاقات استعمارية قوية • يضاف الى ما سبق أن عملية التحضر فى الدول النامية قد خضعت لعوامل معجلة منها ؛ انخفاض نصيب الفرد من الأرض الزراعية نتيجة للنمو السكانى الهائل الذى فاق حدود الموارد الزراعية ، والمشكلات التى أحدثتها الحرب العالمية ، مما أدى الى هجرة اللاجئين الى المدن الكبرى ؛ فضلا عن العوامل الأخرى التى دفعت الفلاحين الى هجرة قراهم بحثا عن فرص عمل فى المدن[٨] •

وهكذا يبدو واضحا أن الدول النامية تشهد ظاهرة « التضخم الحضرى » ، بمعنى أن نسبة سكانها الذين يعيشون فى مناطق حضرية تتجاوز الامكانيات الاقتصادية المتاحة فى هذه المناطق •

واذا ما حاولنا عقد مقارنة بين الدول النامية والدول الأكثر تقدما ذات معدل التحضر الواحد ، لاحظنا أن نسبة العاملين فى مهن غير زراعية فى الدول الأخيرة تفوق كثيرا نظيرتها فى الدول الأولى • وفضلا عن ذلك فلقد لوحظ ــ خلال فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ــ أن معدل التحضر فى الدول النامية قد يظل يواصل ارتفاعه بشكل ساحق ، بينما ظل معدل التنمية الاقتصادية يرتفع ببطء شديد[٩] ؛ أى أن التفاوت بين المعدلين يزداد اتساعا يوما بعد يوم •

وحينما نقول ان الدول النامية تشـهد ظاهرة التضخم الحضرى ، فاننا بذلك نطرح مشـكلة اقتصادية أساسـية يتعين على هـذه الدول مواجهتها ، وأعنى أنها (أى الدول النامية) لا تمتلك فى الوقت الحاضر الأساس الاقتصادى الذى يضمن لسكانها الحضريين مسـتوى معيشى مماثل لما هو قائم فى الدول الغربية . واذن فعلى الدول النـامية أن تجد وسيلة من خلالها تستطيع تحقيق تنمية اقتصادية فعالة فى مناطقها الحضرية والريفية على السواء . والمحقق أن استمرار ارتفاع معدلات التحضر فى هذه الدول يميل الى اتساع نطاق الفقر والعوز فى المنـاطق الحضرية . ولو حاولنا القاء نظرة عابرة على التطورات التى يمكن أن تحـدث خلال البقية الباقية من القرن العشرين ، لوجدنا تطورات سيئة للغاية . ان من المشكوك فيه تماما أن تتمكن الدول النـامية ــ خلال الفترة المتبقية من هذا القرن ــ من تحقيق تنمية اقتصادية متعددة الأبعاد ، تنميـة تضمن للسكان الحضريين (الحاليين والجدد) مستوى معيشى مماثل لذلك الذى نشهده فى الدول الصناعية المتقدمة[١٠] . والهدف الاقتصادى الأساسى الذى يتعين على الدول النامية تحقيقه هو رفع مسـتوى الانتاجية . غير أن المشكلات العديدة التى يمكن أن تواجهها خلال تحقيقها لهذا الهدف قد تزداد حدة بسبب الارتفاع المستمر فى معدلات النمو الحضرى[١١] .

والواقع أن بالامكان تحليل هـذه المشكلة العـامة الى عدد من العناصر أو القضايا[١٢] . فمن الواضح أن كل الدول النامية لديها برامج طموحة لتحقيق التنمية الاقتصادية . وجوهر هذه البرامج يتمثل فى زيادة التصنيع . وبسبب انخفاض مستوى الانتاجية وقلة المدخرات ، تنشـأ مشكلة أساسية هى توزيع ميزانيـة التنمية على كل من قطاعى الزراعة والصناعة . واذا ما قبلنا محك الوصـول الى أقصى طاقة انتاجية ممكنة بالنسبة للشخص كهدف أساسى لبرامج التنمية الاقتصادية ، فمن الممكن القول ــ على الأقل فى المدى القصـير ــ ان التقدم الذى يمكن احرازه

فى قطاع الزراعة قد يكون أكثر فائدة من وجهة النظر الاقتصـادية اذا ما قورن بما يمكن انجازه فى قطاع الصناعة • ولا شك أن تحقيق التوازن بين التنمية فى قطاعى الزراعة يعد مشكلة أساسية من المشكلات التى تواجه الدول النامية •

وهناك مشكلة أخرى تتعلق بتوزيع الاستثمار على كل من قطاعى الخدمات والانتاج • وعلى الرغم من أن هذه المشكلة تبدو ملحة فى كل من القطاعين الحضرى والريفى ، فانهـا تظهر أكثر الحـاحا فى المدن • ذلك أن مدن الدول النامية تفتقر الى وجود بناء تحتى متطور ، بمعنى انها تفتقد الخدمات الأساسية المختلفة • وتواجه حكومات الدول النامية اغراء تخصيص جانب من المدخرات للنهوض ببعض الجوانب الاجتماعية (مثل مد أنابيب الميـاه الجارية وشبكات المجارى وبناء المساكن ••• الخ) ، خاصة وأن شعوب هذه الدول لديها آمال وتطلعات طموحة بعد حصولها على الاستقلال السياسى وحق تقرير المصير • غير أن هذه الاستثمار غالباً ما تكون على حساب الاستثمارات الانتاجية التى يمكن أن توجه لبنـاء المصانع وشراء الجرارات والمخصبات ، وكلها من المستلزمات الأساسية لرفع مستوى الانتاجية •

وفضلا عن ذلك نجد الدول النامية تواجه مشكلة صعبة ـ يفرضها الارتفاع المستمر فى معدلات التحضر ـ هى تحديد مواقع الصناعات • وغالبا ما نجد المراكز التجارية الصغيرة التى تخدم المناطق الريفية فى الدول النامية منتشرة انتشارا واسعا ، بحيث نجد هذا الانتشار مرتبطا تماما بحجم النشاط الزراعى وكثافة السكان الريفيين • أما المراكز الحضرية الكبرى فغالبا ما تكون مفوضة على المراكز التجارية الصغيرة المتباعدة • وعادة ما تقع هذه المراكز الحضرية الكبرى عند ملتقى طرق عديدة مما يسهل اقامة شـبكة مواصلات • والواقع أن هـذه المراكز ـ بالاضافة الى الموانى

البحرية الضخمة ـ تمثل نقاط التقاء هامة ، فوظيفتها الأساسية هى نقل السلع من الدولة الى الدول الأخرى ، ثم توزيع السلع داخل أقاليم الدولة . ولقد ساعد ذلك على تدعيم هذه المراكز الحضرية وتزويدها بمصادر الطاقة المختلفة التى تضمن اقامة صناعات عديدة .

والملاحظ أن جهود التصنيع فى الدول النامية وما فرضته من مشكلات ملحة أبرزها استيعاب سكان حضريين ، قد حتمت اتخاذ قرارات معينة بشأن المواقع الجغرافية لمشروعات التنمية الاقتصادية . وفى الدول المتقدمة نجد أن مواقع وأحجام ووظائف المراكز الحضرية كانت ـ الى حد كبير ـ نتاجا للدور الذى لعبته السوق الحرة . أما فى الدول النامية ، فاننا نجد القرارات المتعلقة بذلك تتم بطريقة مركزية خالصة . وذلك أنها (أى القرارات) تستند الى اعتبارات عديدة منها : المواد الخام ، ومصادر الطاقة ، ومدى توافر القوة العاملة ، وموقع الأسواق الاستهلاكية ، والسياسة القومية المتعلقة بتركز أو عدم تركز الصناعة ، والتخطيط الاقليمى ، والتنمية الاقتصادية القومية العامة . ولا شك أن القرارات المركزية المتعلقة بتحديد مواقع الصناعة الجديدة انما تنطوى على مخاطر اقتصادية كثيرة .

ان اتباع سياسة اقتصادية تقوم على اللامركزية انما هو مطلب حيوى فى الدول النامية ، ذلك لأن المدن الكبرى فى هذه الدول تميل الى اتخا طابع « طفيلى » ، مما يؤدى الى اعاقة تنمية المدن الأخرى والمناطق الريفية . غير أن ذلك يتطلب حذرا بالغا . اذ أن اتخاذ قرار بلا مركزية الصناعة قد يؤدى الى خلل اقتصادى ، لأن ذلك يدفع الحكومات الى تجاهل العوامل الانتاجية القائمة بالفعل فى المراكز الحضرية الكبرى . فالمدن الكبرى فى الدول النامية لديها بالفعل فائض فى القوى العاملة ، كما أنها تمثل سوقا ضخمة ، وتتمتع بخدمات عامة كثيرة يمكن

استغلالها فى التنمية الصناعية والتجارية • واذن فليست هناك ضرورة لخلق مزيد من التجمعات السكانية الضخمة ؛ لأننا بذلك سندور فى حلقة مفرغة لا تنتهى •

ويمكننا أن نستنتج مما سبق أن انخفاض مستوى الانتاجية والفقر يشكلان سمتان بارزتان تتصف بهما المناطق الريفيــة والحضرية فى الدول النامية • واذا كانت الهجرة الريفيــة ــ الحضرية فى هذه الدول تمثــل المصدر الأساسى للنمو الحضرى ، فان ذلك يفرض على الحكومات تبنى برامج تحد من هذه الهجرة ، حتى تتمكن من مواجهة المشكلات الحضرية العديدة • ولا شك أن البرامج التى تضمن رفع مستوى معيشة الفلاحين سوف تخفف من سيل الهجرة الريفية ــ الحضرية • وقد اتضــح فى كثير من الدول النامية ، ان اعادة توزيع الملكية الزراعية قد حد بالفعــل من مشكلة الفقر فى المناطق الريفية • كذلك اتضح أن الاصلاح الزراعى قد أسهم فى رفع مستوى الانتاجية كما أتاح للفلاحين فرصة الملكية الزراعية ورفع مستوى معيشتهم • ومن شأن ذلك أن يهون من خطورة المشكلات الحضرية ، ويقلل من معدلات الهجرة الريفيــة ــ الحضرية • كذلك فان اقامة الصناعات الصغيرة فى المناطق الريفية قد يحول دون هجرة الريفيين الى المناطق الحضرية •

والشىء المؤكد أن التحول الشامل الذى شهدته المدن الغربية قد تم من خلال التكنولوجيا الصناعية المتغيرة • أما الدول النامية فلديها الآن اختيار بأن تتبنى أسلوب التنمية الذى تبنته أوربا فى القرن التاســع عشر ، أو ذلك الذى تتبناه فى القرن العشرين • أما مدى الحرية فى هذا الاختيار فانه يتوقف ــ بالطبع ــ على اعتبارات عديدة منها ؛ مدى توافر الطاقة الكهربائية ، وقدرتهــا على توفير الاستثمارات اللازمة ، وتوافر المعدات ، والقدرة على انجاز الأعمــال الصناعية المعقــدة •••• الخ •

ولا شك أن تبنى الدول النامية لتكنولوجيا القرن العشرين سوف يؤدى الى ظهور أنماط من التنمية الحضرية تختلف عن تلك التى شهدتها الدول الغربية خلال القرن التاسع عشر • وفضلا عن ذلك فان مشكلة تحقيق التوازن فى التنمية الاقتصادية تلعب دورا هاما عند اتخاذ القرارات المتعلقة بأنماط التكنولوجيا التى يمكن ادخالها فى القطاعات المختلفة من الاقتصاد الصناعى •

ويمارس التحضر تأثيرا كبيرا على الدخول الاقتصادية ومستويات المعيشة والمدخرات ورءوس الأموال • وعلى الرغم من أن ما يقال حول ذلك قد يتخذ طابعا انطباعيا ، فاننا نجد ضرورة لتوضيح أبعاد هذه النقطة • فمع أن السكان الحضريين فى الدول النامية يعانون من البطالة ولا يحققون انتاجية عالية ، الا أنهم عادة ما يمارسون نشاطات غير زراعية تزودهم بدخول نقدية أعلى من تلك التى يحصل عليها السكان الريفيون • واذا كان البعض يتشكك فيما اذا كانت الدخول الحضرية الحقيقية أعلى من الدخول الريفية الحقيقية ، الا أن الدخل الحضرى النقدى يعد واحدا من العوامل الهامة التى تجذب الريفيين الى المدن •

ان التحول من الاقتصاد الريفى الى الاقتصاد الحضرى يعنى ــ بطبيعة الحال ــ التحول من اقتصاد الاعاشة الى الاقتصاد النقدى الذى يسهل عملية تعبئة المدخرات • كذلك فان التحضر يحدث تغييرا فى الأنماط الاستهلاكية ، حيث نجد الانفاق على الطعام يقل ، بينما يزداد الانفاق على الترويح والتعليم والمواصلات والخدمات وايجارات المساكن والضرائب ••• الخ • ويميل الاستهلاك فى المدن الى الاعتماد ــ بشكل أكبر ــ على السلع المستوردة • ومع أن هذا الميل قد يؤدى الى استنزاف الموارد المحلية ، الا أنه قد يشجع على اقامة صناعات منافسة للصناعات الأجنبية • ونظرا لانخفاض الانتاج القومى وانتشار الفقر ، فاننا نجد

صعوبة فى تحليل التأثير الذى يحـدثه التحضر على الميل الى الادخار • غير أننا نجد فى بعض الدول النامية شواهد تشير الى ان الميل الى الادخار يقل فى المدينة عنه فى القرية • ويمكننا القول بصـفة عامة انه على الرغم من انتشار الفقر فى كل من المناطق الريفية والحضرية فى الدول النامية ، فان هده الدول قد تحقق بعض المكاسب من وراء الاتناجية الهامشية فى المدن ، كما أن تركز القوة الشرائية قد يكون ــ فى حد ذاته ــ عاملا مشجعا لتطوير الصناعة •

وأخيرا يتعين على الدول النامية أن تواجه قرارا حاسما هو : ضرورة تحديد دور الحكومة وقوى السوق فى معالجة المشكلات الاقتصـادية العامة التى تواجهها ، وتحديد طبيعة التنمية الصناعية والحضرية • ذلك أن القرارات المركزية (وذلك نتيجة لظروف تاريخية ومعـاصرة) تلعب ــ بالضرورة ــ دورا هاما فى الدول النامية يفوق ذلك الدور الذى تلعبه فى الدول المتقدمة • فاذا ما ازداد التخطيط المركزى تدعيما ، واتسع نطاق تدخل الحكومة ، فسـيترتب على ذلك أن تتخذ التنميـة الاقتصـادية الحضرية فى الدول النامية مسلكا مختلفا عن ذلك الذى اتخذته فى الدول المتقدمة • واذا كانت الدول النامية تستطيع أن تتجنب بعض المشكلات التى خلقها التصنيع والتحضر فى الغـرب ، الا أنها ستواجه بمشكلات أخرى من نوع جديد • واذن فعلى هذه الدول أن تحقق تفاعلا بين القوى المختلفة حتى تستطيع اقامة توازن بين التنمية الاقتصـادية من ناحيـة والتحضر من ناحية أخرى • ومن المعروف أن الدور الأساسى الذى يلعبه ميكانزم السوق فى الغرب يتمثل فى تحديد مسـتوى تقسيم العمـل ، وتوزيع الموارد ، ودفع عملية التنمية الاقتصادية الى الأمام • ومثل هـذا الدور قد يغنى الدول الغربية عن ضرورة التحديد الدقيق لهذه العوامل • أما الدول النامية فانها تواجه بضرورة تحديد هذه العوامل ووزنها وزنا دقيقا ، والا أدى ذلك الى عواقب وخيمة • والواقع أن المخاطر الاقتصادية

التى ينطوى عليها السـوق فى الغرب ، غالبـا ما تكون مخاطر جزئية ، بسبب لا مركزية القرارات الاقتصادية • ولا شك أن التخطيط المركزى يميل الى تركيز المخاطر ، مما يتطلب معه حذرا بالغا عند اتخاذ القرارات الاقتصادية الهامة •

الدول المتقدمة :

أدى ارتفـاع معدلات التحضر الى ظهور مشكلات اقتصـادية فى الدول المتقدمة ، ولكنها ــ على أية حال ــ مشـكلات من نوع مختلف عن ذلك الذى شهدته الدول النـامية • فالمشكلات الاقتصـادية التى شهدتها المناطق الحضرية المتقدمة لا تتمثل أسـاسا فى الفقـر وانخفاض مستوى الانتـاجية • ومع ذلك فان حجم النمو الحضرى ومعـدله قد يؤثران تأثيرا مباشرا على مستوى المعيشة • وهناك شواهد متزايدة تؤكد أن التنميـة الحضرية التى حدثت فى الغـرب قد أدت الى ظهـور مدن تجاوزت حجمها المثالى وتخطت الوظائف الاقتصادية التى تؤديها •

ويبدو أن هناك دلائل عديدة تؤكد فكرة الحجم المثالى للمدينة ؛ ذلك الحجم الذى يمكن اقتصـادها من أداء دوره على أفضـل نحـو ممكن[١٣] • فعلى سبيل المثال نجد البعض يذهب الى أن الحجم المثالى للمدينـة يقع فيما بين مائة ألف نسمة ومائتى ألف نسمة ، وأن المدينـة المليونية لا تمثل حجم المدينة المثالية • والواقع أن الوظائف الاقتصادية المتغيرة للمدن الكبرى تختلف من دولة لأخرى • ففى الولايات المتحدة الأمريكية ــ مثلا ــ أدى النمو الحضرى الهائل فى العواصم الى ظهور مشـكلات عديدة ، وان كنا نلحظ الآن احجاما عن اسـتخدام المنـاطق الحضرية داخل المدينة لاقامة المساكن والمشروعات الصناعية والتجارية • ونستطيع أن نجد معالجة شاملة لهذا الموضوع فى مؤلف آخر[١٤] ، ذلك

لأن اهتمامنا هنا ينصب ـ أساسا ـ على المشكلات المتعلقة بالدول النامية .

المشكلات الفيزيقية

لعل من أبرز النتائج المترتبة على التضخم الحضرى فى الدول النامية ، ذلك التدهور الذى يطرأ على البيئة الحضرية ذاتها[١٥] . ويتمثل هذا التدهور فى ظهور الأحياء المتخلفة وتضخم حجمها ، والنقص فى الخدمات الحضرية بما فى ذلك الاسكان والمواصلات ، والمنافع العامة . يضاف الى ذلك سوء استغلال الأرض ، وارتفاع معدلات كثافة السكان ، وقلة الخدمات التعليمية والترويحية . والواقع أن التحضر السريع فى الدول النامية لا يؤدى فقط الى عجز شديد فى الخدمات ، ولكنه يؤدى أيضا الى تدهور شديد فى كل جوانب البيئة الحضرية .

ويقدر بعض الدارسين أن عدد الأسر التى تسكن الأحياء المتخلفة فى أمريكا اللاتينية وحدها يصل الى أربعة أو خمسة ملايين أسرة . ولا شك أن الظروف الفيزيقية السيئة التى تعيش فى ظلها مدن الدول النامية تمارس ضغطا شديدا على الحكومات ، مما قد يدفعها الى تخصيص جانب كبير من الاستثمارات للنهوض بهذه المدن . ومن الطبيعى أن يكون ذلك على حساب الاستثمارات الانتاجية . ومع ذلك فلقد اتضح بعد تنفيذ كثير من المشروعات السكانية (والحضرية بوجه عام) فى الدول النامية ، أن أسر الطبقة الوسطى كانت تحقق أقصى فائدة من هذه المشروعات ، وأن أسر الطبقة الدنيا (أو أسر الأحياء المتخلفة) لم تحصل على نصيبها الطبيعى منها ، والذى يجب أن يتلاءم مع موقعها فى المجتمع بوجه عام .

ومن الطبيعى أن تكون الدول النامية على وعى شديد بالحاجة الى كل من التخطيط الاقليمى والقومى • غير أن المخططين الحضريين فى الدول النامية يواجهون ــ بالفعل ــ مشــكلات معقدة يصعب حلها • وتعود هذه المشكلات الى عدة ظروف منها ؛ انخفاض مستوى الدخل ، والنمو السكانى السريع ، والهجرة المتدفقة من المنــاطق الريفيــة الى المنــاطق الحضرية وما يرتبط بذلك من سوء تكيف ومشكلات اجتماعية ؛ فضلا عن عدم كفاية البناء التحتى الحضرى • ومن الواضــح ان كلا من هذه الظروف يفرض أولوية معينة ويمارس ضغطا شديدا •

وعلى الرغم من أن بعض مدن الدول النامية تبلغ فى حجمها بعض مدن الدول الغربية ، الا أن جماهير المدن الأولى لا تحظى بنفس القــدر من الخدمات الذى تحظى به جماهير المدن الأخيرة ، ذلك أن الخــدمات الموجودة فى المدن الأولى لا تغطى ســوى قطاعات ضئيلة من الســكان الحضريين • ولعل ذلك هو ما يفسر لنا كيف ان ارتفاع معدلات التحضر فى الدول النامية يؤدى ــ فى حقيقــة الأمر ــ الى زيادة تعقد المشكلات التى تواجهها هذه الدول •

الدول المتقدمة(١٦) :

تعانى مدن الدول المتقدمة أيضا من مشكلات فيزيقية حادة • وعلى الرغم من أن هذه المشكلات تختلف من دولة لأخرى ، فاننــا ــ بسبب ضيق نطاق هذا المقال ــ سنكتفى بأبرز المشكلات الحضرية فى الولايات المتحدة الأمريكية • فمن الأمور المعروفة أن المناطق الحضرية بأنماطهــا المختلفة (تجارية وصناعية وحكومية وســكنية ••• الخ) قد نمت فى الولايات المتحدة نموا سريعا كنتيجة لارتفاع معدلات التحضر • كذلك فان أساليب استغلال الأراضى الحضرية قد خضــعت ــ الى حد كبير ــ لقوى السوق ، تلك القوى التى كانت سببا فى النهوض ببعض قطاعات

البيئة الحضرية دون قطاعات أخرى • كنتيجة لذلك نجد كثيرا من المدن الأمريكية مهددة بالانهيارالفيزيقى • فعلى الرغم من أن الظروف الفيزيقية فى المدن الغربية بعامة والأمريكية بخاصة أفضل بكثير من الظروف الفيزيقية فى مدن الدول النامية ، فان المدن الأولى ــ طبقا للمعايير الغربية ــ قد أصبحت تضم أحياء متخلفة ضخمة ، كما أن الظروف السكنية آخذة فى التدهور المستمر • ولقد بدأت الولايات المتحدة ــ مؤخرا ــ فى مواجهة هذه المشكلات الفيزيقية على نطاق واسع ، وذلك بتنفيذ برامج ضخمة « لاعادة التعمير الحضرى » • ومع أن الحكومة الأمريكية قد قامت بازالة أسوأ الأحياء المتخلفة فى المدن الكبرى ، الا أن الأمر يتطلب ما هو أكثر من ذلك • ومن المشكوك فيه أن تكون عملية التعمير الحضرى تسير بنفس المعدل الذى تسير به عملية هدم الأحياء المتخلفة • ومع ذلك فان الأمور التى تبدو ممكنة الحدوث أن تستطيع الولايات المتحدة ــ وغيرها من الدول الغربية ــ المحافظة على البناء الحضرى ؛ أى تستطيع الحد من تضخم الأحياء المتخلفة • وفضلا عن ذلك فان النمو الحضرى السريع لا يبدو أنه يؤثر تأثيرا كبيرا على المشروعات الحضرية الجديدة فى المدن الأمريكية •

ولا شك أن النمو الحضرى السريع قد أحدث مشكلات معقدة أهمها ؛ الانتقال داخل المدن ، وعلى الأخص مدن الولايات المتحدة • وعلى الرغم من أن السيارة قد لعبت دورا أساسيا فى نمو حجم المدن ، الا أنها قد بدأت تحدث آثارا سيئة على ايكولوجياتها ؛ ذلك لأن استخدام السيارات على نطاق واسع قد اقتضى تحويل أجزاء من المدن الى طرق عامة وأماكن لوقوف السيارات • وفضلا عن ذلك فلقد أدى النمو الحضرى السريع الى تضخيم مشكلة الانتقال الى أماكن العمل(١٧) ، مما اضطر المسئولين فى المدن الكبرى الى اعادة النظر فى كفاءة وسائل المواصلات الحالية • واذا كنا لم نتمكن فى هذا المقال القصير من معالجة

المشكلات الفيزيقية التى تواجه مدن الدول المتقدمة معالجة مستفيضة ، الا أننا نستطيع القول بأن هذه المدن تشهد بالفعل مشكلات فيزيقية حقيقية ، وأنها (أى المشكلات) تزداد حدة وخطورة بارتفاع معدلات التحضر •

المشكلات الاجتماعية

لا تمثل المدينة فقط شكلا جديدا للتنظيم الاقتصادى وبيئة فيزيقية مختلفة ، ولكنها تمثل أيضا نظاما اجتماعيا جديدا يؤثر تأثيرا شديدا على سلوك الانسان وتفكيره • فلقد جعل التحضر من المدينة وحدة فيزيقية واقتصادية ، وأدى ــ بالتالى ــ الى ظهور « الحضرية كأسلوب فى الحياة »[١٨] • ذلك أن حجم السكان وكثافتهم وتباينهم من الأمور الهامة التى تؤثر على طبيعة العلاقات الاجتماعية وكثافتها وتواترها ، وبالتالى تؤثر على طبيعة عملية التنشئة الاجتماعية والطبيعة الانسانية ذاتها • وتمثل المدينة نمطا من أنماط التحول الثقافى ، الذى ترك ــ ولا شك ــ آثارا بالغة القوة على البناء الاجتماعى ، والعمليات والنظم الاجتماعية بما فى ذلك بناء الحكومة ووظيفتها • ومن الضرورى أن يؤدى الانتقال من أسلوب الحياة غير الحضرية الى أسلوب الحياة الحضرية الى ضرب من التصدع ، يبدو واضحا فى المشكلات الاجتماعية والشخصية • ولا شك أن التحضر السريع يسهم فى تعميق هذا التصدع وزيادة حدته •

ويزخر التراث السوسيولوجى بمعالجات عديدة للتأثيرات المختلفة التى تحدثها المدن الكبرى ، حيث نجد أطرا نظرية وتحليلية عديدة تتناول تأثير التحضر على النظام الاجتماعى ككل وعلى الأفراد بوصفهم أفرادا • من ذلك مثلا تفرقة دوركايم Durkheim (١٨٩٣) بين التضامن العضوى والتضامن الآلى ، وتفرقة تونيز Toennies (١٨٩٧) بين « المجتمع

المحلى » و « المجتمع » ، وتفرقة ريدفيلد Redfield وويرث Wirth (١٩٣٠ و ١٩٣٨) بين أسلوبى الحياة : « الشعبى » والحضرى • وعلى المستوى الشخصى نجد أن الحيــاة الحضرية تمارس تأثيرا هاما ، يبدو أوضح ما يكون فيما طرأ على العلاقات الشخصية المتبــادلة من تغير ، وعلى المرونة النسبية فى أنماط السلوك الصــادرة عن الأفراد • أما على المستويين الثقافى والاجتماعى ، فاننــا نجد الحيــاة الحضرية تؤدى الى ظهور قوى جديدة تسـهم فى تدعيم التماســك ، وايجاد نظم اجتماعية جديدة تخــدم وظائف متعددة ، بل فى ظهور حكومات من نوع جديد تقوم بأدوار متنوعة •

وعلى المســتوى الشخصى ، نلاحظ أن العــلاقات بين الأفراد فى المناطق الحضرية تميل الى أن تكون ثانوية ، وانقسامية ، ونفعية أكثر من كونها أوليــة ، وتكاملية ، وعاطفيــة على نحو ما هو ســائد فى البناء الاجتماعى التقليدى • ويترتب على ذلك أن الشخصية تميل الى التحول من نمطها الجامد المستند الى التراث الاجتماعى التقليــدى لتصبح أكثر مرونة وتفتحا • وتعد هذه المرونة مطلبا أســاسيا للشخصية الحضرية ؛ ذلك لأنها (أى الشخصية الحضرية) تواجه ضرورة ممارسة الاختيار ، والتغلب على المشكلات الحضرية المختلفة • أما المســتوى الاجتماعى ، فاننا نجد التماسك فى المجتمع الحضرى يصبح علامة قوية على الاعتماد المتبادل الذى يخلقه التخصص ويدعمه تقسيم العمل • واذن فالتماسك فى هذا المجتمــع الحضرى ليس تنــاجا للقهر الذى يمارســه العرف فى المجتمعات التقليدية التى تتصــف بالتجانس النسبى وقدة التقــاليد • وتميل النظم الاجتماعية فى المجتمع الحضرى الى اتخاذ طابع قانونى أكثر منه عرفى • لذلك نجد أن عملية التحضر ترتبط دائما باختفاء النظم ذات الطابع التلقائى وظهور نظم جديدة لمواجهة مواقف ومشكلات لم يشهدها المجتمع من قبل • بل أن النظم الأساسية (كالأسرة مثلا) تخضع لقوى

مختلفة تسهم فى تعديل بنائها ، وأدوارها ، وآثارها على المستوى الشخصى •

والملاحظ أن دور الحكومة فى المناطق الحضرية يزداد اتساعا وتغلغلا بزيادة التعقد التنظيمى والاعتماد المتبادل • واذا ما حاولنا الاستشهاد بما حدث فى الغرب ، لاحظنا أن التحول من النظام الاقطاعى الى النظام الصناعى ــ الحضرى قد صاحبه ظهور التنظيمات الرسمية المعقدة ، ليس فقط فى المجال الحكومى ، بل أيضا فى المجالات التجارية والصناعية والسياسية •

وفى اطار هذه المعالجة الشاملة لآثار التحضر ، نجد ضرورة لتأكيد حقيقة أساسية هى : ان التحول من مجتمع تقليدى الى مجتمع حضرى لا يتم بطريقة منظمة أو متزامنة • ذلك أن عملية التحضر وما تحدثه من آثار تتم بايقاعات مختلفة سواء على مستوى المجتمع الواحد أو على مستوى مجتمعات مختلفة • ومن المشكلات الاجتماعية الأساسية التى يخلقها التحضر مشكلة التعايش (فى وقت واحد) بين مراحل مختلفة للتحضر ، وما يترتب على ذلك من تعايش الآثار المتباينة التى يحدثها التحضر على النظام الاجتماعى • وعلى ذلك يمكن القول انه بارتفاع معدل التحضر ، يزداد احتمال ظهور التفاوت أو التباين فى القطاعات المختلفة من البناء الاجتماعى •

وقد تمثل هذه العناصر العامة اطارا يمكن الاهتداء به فى تحديد الجوانب المختلفة للمشكلات الاجتماعية المرتبطة بالتحضر السريع[١٩] • ويمكننا أن نلمس بوضوح بعض هذه الجوانب اذا ما تأملنا المحاولات التى يبذلها المهاجرون الى المدينة للتكيف مع ظروف الحياة الحضرية • فالمهاجر القروى الى المدينة ينتمى الى مجتمع متجانس نسبيا • وفى المدينة

نجده يواجه بتباين شديد يصعب عليه فهمه واستيعابه • وعادة ما يضطر هذا المهاجر الى الاقامة ـ لفترة معينة ـ مع بعض زملائه المهاجرين أو بعض الأقارب ، وما يلبث بعد ذلك أن يتكيف ـ تدريجيا ـ مع حياة المدينة • ويواجه المهاجر ضرورة التكيف مع أسلوب حياة جديد غير مألوف • فهو يضطر الى التعامل مع اقتصاد نقدى ، وعليه أن يؤدى يوميا ـ وبانتظام ـ ساعات عمل معينة ، وأن يتعود على الحياة الخالية من الدفء الأسرى • وفضلا عن ذلك نجده مضطرا للدخول فى علاقات شخصية جديدة وعديدة مع الآخرين ، كما نجده فى مواجهة بيئة فيزيقية مختلفة تماما عن تلك التى ألفها حيث يجد أنماطا مختلفة من السكنى والمواصلات •• الخ • ومع ذلك فيبدو أن أغلب المشكلات التى يواجهها المهاجر تدور حول تحول المهاجر من الاعتماد على اقتصاد الاعاشه الى الاقتصاد النقدى والاعتماد على وظيفة من أجل الحصول على مقابل نقدى يواجه به ظروف الحياة •

يضاف الى ما سبق ان المهاجر القروى يجد موطنه الأول فى الأحياء المتخلفة من المدينة ، حيث يصل التخلف الحضرى الى أقصى مداه • وكنتيجة لذلك تبدأ مشكلات التكيف تفرض نفسها فيما يلاحظ من ضعف الصحة وسوء التغذية والفقر المدقع • والواقع أن هذه الظروف تعكس جانبا كبيرا من التفكك الشخصى الذى قد يصيب المهاجر ، ومن ثم تعكس قدرا ملحوظا من التفكك الاجتماعى الذى قد يصيب المجتمع بعد ذلك • ففى أسرة المهاجر القروى نجد الأمراض الشخصية والاجتماعية واضحة كل الوضوح كالانحراف ، والجريمة ، والبغاء ، والأمراض العقلية ، وادمان الخمور والمخدرات ••• الخ •

وهناك عنصر آخر يسهم فى احداث مشكلات اجتماعية ويعد ـ فى نفس الوقت ـ مصدرا لمشكلات اقتصادية حادة • ويتمثل هذا العنصر

فى افتقار المهاجرين القرويين للمهارات اللازمة للعمل الصناعى ، وارتفاع نسبة الأمية بينهم ، فضلا عن عدم اعدادهم لمواجهة حياة المدينة بطريقة ناجحة • ولا شك أن كل الدول النامية تواجه ضرورة رفع مستوى تعليم المهاجرين القرويين الى المدن وتزويدها بالحد الأدنى من التدريب المهنى الذى يضمن لهم فرص العمل فى المهن الحضرية •

والملاحظ أن التحضر السريع يسهم فى زيادة معدلات التغير الثقافى والاجتماعي والشخصي • ولقد ذهب بعض الدارسين الى أن الدول النامية (ذات الثقافات غير الغربية)عادة ما تتبنى ايديولوجيات وأنساق قيمية من شأنها مقاومة التغير بوجه عام والتغير الناجم عن التحضر بوجه خاص • ذلك أن معدل التحضر العالى (على النقيض من معدل التحضر المنخفض) يدعم التفكك الذى ينجم عن التحول من الأنساق غير الغربية الى الأنساق القيمية الغربية ، وهى الأنساق المرتبطة عادة بالتحضر السريع • ومع ذلك فمن الأمور المشكوك فيها حتى الآن أن تكون القيم الغربية المرتبطة بالحضرية كأسلوب فى الحياة كانت ظرفا سابقا أو نتيجة للتصنيع والتحضر ، كما أن من المشكوك فيه أن تكون هذه القيم صدى للحياة الحضرية بوجه عام • غير أننا نستطيع القول بأن الاختلافات بين المنظورات غير الغربية تؤدى الى ظهور « عقليات حضرية » متباينة ، كما تؤدى الى ظهور علاقات شخصية واجتماعية من نوع متميز • وأيا كان الأمر ، فان الشيء الذى ينبغى تأكيده هو أن التحضر السريع يسهم فى ظهور قدر من التفكك داخل الأنساق القيمية التقليدية ، مما يزيد مشكلة التكيف مع الأنساق القيمية الجديدة صعوبة وعسرا •

ومن المشكلات الاجتماعية الضاغطة فى المناطق الحضرية من الدول النامية « مشكلة السكان » • ففي سيلان ــ مثلا ــ لوحظ أن ارتفاع مستوى الصحة العامة بوجه عام قد أدى الى انخفاض ملحوظ فى معدلات

الوفاة وذلك خلال فترة قصيرة نسبيا ، بينما ظلت معدلات الخصوبة مرتفعة كما هى ، بحيث لم يطرأ عليها أى تغيير يذكر • وكنتيجة لذلك يمكن القول ان الدول النامية الآن تشهد بداية ذلك النمط من « الانفجار السكانى » الذى شهدته الدول المتقدمة خلال القرون الثلاثة الماضية • ولما كانت قدرة الدول النامية على تقليل معدلات الوفاة فى تزايد مستمر ، فان توقع حدوث انفجار سكانى يزداد هو الآخر قوة ورسوخا •

وهناك عاملان أساسيان يدعمان ارتفاع معدل النمو الحضرى فى الدول النامية : الأول هو الهجرة الريفية الحضرية ، والثانى هو الزيادة الطبيعية الناجمة عن انخفاض معدلات الوفاة غير أن تيارات الهجرة من الريف الى الحضر تمثل — فى الوقت ذاته — مؤشرا على « انفجار قومى » تشهده هذه الدول• وتستطيع معدلات التحضر العالية أن تسهم — فى المدى البعيد — فى حل مشكلة السكان ، الى المدى الذى يؤدى فيه التحضر الى ارتفاع نسبة التعليم ، وتغيير الأنساق القيمية ، وتهيئة الناس للحد من معدلات انجابهم •

وهناك بعد ذلك سلسلة من المشكلات المرتبطة بمعدلات التحضر العالية • من ذلك مثلا التفكك الداخلى ، والفوضى السياسية ، وعدم الاستقرار الحكومى الناجم عن البؤس والاحباط الذى تعانى منه المجتمعات الحضرية فى الدول النامية لقد أصبح التفاوت بين الأمم الغنية والأمم الفقيرة ، وبين الطبقات الثرية والطبقات المعدمة ، أصبح أمرا واضحا ؛ بل ان الشعوب قد أصبحت تستشعره عن أى وقت مضى[٢٠] • اننا نمر الآن « بثورة توقعات » • ومن شأن هذه الثورة أن تمنح الجماهير الحضرية كل عناصر التمرد • ان الأوضاع المحلية والدولية التى تعيش فى ظلها الآن كثير من الدول النامية تجعل من جماهيرها الحضرية قوى متفجرة محتملة •

وفضـــلا عن ذلك يمكننا أن نضع أيدينـــا على مشكلة اجتماعية أساسية نجمت عن ارتفاع معدلات التحضر هي تخطيط واعداد البرامج الضرورية لمواجهة المشكلات الاجتماعية الحضرية(٢١) • ففى بعض الدول النامية لا نجد وجودا حقيقيـــا للهيئات التى تتولى تخطيط الخـــدمات الصحية والتعليمية والمهنية والترويحية • وحتى ان وجدنا هذه الهيئات فهى لا تؤدى مهامها على النحو المرغوب فيه • ويمكننا أن نخص بالذكر الهيئات المعنية بتلقى شكاوى المهاجرين ومعالجتها • مثـــل هذه الهيئات اما أنها غير كافية أو لا وجود لها على الاطلاق • ان التخطيـــط لمواجهة المشكلات الاجتماعية واعداد البرامج اللازمة لحلهـــا ، يتطلب اتخـــاذ قرارات صعبة قد تدخل فى نطاق التخطيط القـــومى • ومن بين هـــذه القرارات ضرورة تكثيف مشـــاركة السكان الحضريين ودفعهم للقيـــام بالدور الأساسي من أجل حل مشكلاتهم بأنفسهم •

الدول المتقدمة :

أدى النمو الحضرى السريع الذى شهدته الدول المتقدمة أيضا الى ظهور مشكلات اجتماعية • وعلى الرغم من أن هذه المشكلات أخف حدة بكثير من تلك التى تواجهها الدول النـــامية ، فان الشيء المؤكد هو أن التحضر السريع قد خلق فى الولايات المتحدة ــ على سبيل المثال ــ عددا من المشكلات الاجتماعية • من ذلك مثلا مشكلة العلاقات بين الجماعات المختلفة حيث نجد ارتفاعا ملحوظا فى معدل الحراك الجغرافى ، ومشكلة تزويد السكان الحضريين بالخدمات المختلفة ، ومشكلة الحكم المحـــلى ودور الحكومة بوجه عام • وليست هذه المشكلات سوى أمثـــلة قليلة على ما تواجهه المدن الغربية من صعوبات •

ولو حاولنا تحليل التحضر السريع الذى شهدته الولايات المتحدة تحليلا تاريخيا ، لاحظنا أن التحضر السريع قد أدى الى ظهـــور وحدات

حضرية أكبر حجما ، وسكان حضريين أشد تباينا • فلقد ظلت الولايات المتحدة طوال القرنين التاسع عشر والعشرين تستقبل أفواجا هائلة من المهاجرين وعلى الأخص الأوربيين • ولا شك أن هذه الهجرة قد أسهمت فى دفع النمو الحضرى والقومى على السواء • غير أن معدلات التحضر العالية قد ارتبطت أيضا بزيادة عدد الجماعات العنصرية وتنوعها ؛ مما أدى الى ظهور مشكلات عديدة تتعلق بالتكيف مع الثقافة الأمريكية العامة[٢٢] • ومن الطبيعى أن تظل هذه المشكلات القائمة حتى الآن طالما تيارات الهجرة الى الولايات المتحدة مستمرة لا تنقطع • ويبدو أن مشكلة العلاقات بين الجماعات المختلفة قد خفت حدتها تدريجيا خلال الفترة الأخيرة ؛ وان كانت قد ظهرت مشكلة أخرى تتعلق بتكيف المهاجرين الجدد داخل الولايات المتحدة وهم الذين حلوا محل المهاجرين القدامى • وأغلب هؤلاء المهاجرين هم من السكان الريفيين السود والبيض على السواء • ومن الطبيعى أن يواجهوا فى المدن الكبرى مشكلات تكيف عديدة بسبب تعدد وتنوع أصولهم السلالية[٢٣] ؛ وان كانت حدة هذه المشكلات تختلف من جماعة عنصرية الى جماعة عنصرية أخرى •

على أن التحضر السريع فى الولايات المتحدة يتطلب ــ بطبيعة الحال ــ حل المشكلات التى يواجهها المهاجرون من منطقة لأخرى ، فهؤلاء المهاجرون ــ شأنهم شأن قرنائهم فى الدول النامية ــ يتعرضون لمشكلات شخصية واجتماعية عديدة • كذلك فان مشكلة العلاقة بين الجماعات المختلفة (وعلى الأخص بين البيض والزنوج) تنطوى على خطورة واضحة • ومما يزيد من خطورتها ارتفاع معدل الهجرة الداخلية والنمو الحضرى السريع •

وبزيادة عـدد السـكان الحضريين فى المدن الأمريكية الكبرى ، تزداد مشكلة الخدمات الحضرية دقة وصعوبة • وعلى الرغم من أن هذه المشكلة أخف وطأة من تلك التى نجدها فى مدن الدول النامية ، فاننا نلاحظ أن الخدمات الحضرية فى الدول المتقدمة (كالميـاه ، والمجارى ، والتعليم ، ومحطات اطفاء الحريق ، والترويح ••• الى) لا تتلاءم دائما مع الزيادة الدائمـة فى عـدد السـكان الحضريين فى كثـير من المدن الكبرى[٢٤] •

كذلك أدى النمو الحضرى الهـائل الى ظهور مشكلات عديدة فى مجال الحكم المحلى ، سواء تعلق ذلك ببناء هذا الحكم أو العـلاقة بين وحداته • فالملاحظ أن بناء الحكم المحلى الغربى بناء موروث عن القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وأن المشكلات الحضرية الجديدة قد بدأت تكشف عن قصور هذا البناء وعدم قدرته على التـلاؤم مع الظـروف المتغيرة • ولعل أفضل دليل على ذلك نتائج تلك الاسـتفتاءات العديدة التى تتناول أفضل أشـكال الحكم المحلى ، وظهور هيئات خاصة عديدة تحاول معالجة مشكلات التخطيط الحضرى وما يرتبط به من صعوبات ادارية • ولا شك أن التحضر السريع فى الولايات المتحـدة يتجـه الى ممارسة كثير من الضغوط على نظام الادارة المحلية ، بل انه يثير صراعات عديدة بين القمة الادارية والقاعدة الجماهيرية[٢٥] •

وأخيرا يمكن القـول ان نمو العواصم فى الولايات المتحدة يعـد ــ من غير شك ــ من العوامل الأساسية التى أسهمت فى اتسـاع نطاق الوظائف الحكومية سواء على المستوى الفيدرالى أو المحلى • ذلك أن النزعة « العاصمية » ــ كأسلوب فى الحياة ــ ترتبط أوثق الارتباط بتعقد الحياة والاستقلال ، ومن ثم تشجع على مزيد من التدخل •

خاتمة

تشير كل الدلائل المتاحة لدينا الآن الى أن العالم ـ ككل ـ سوف يشهد مزيدا من التصنيع والتحضر ، وأن الدول النامية سيكون لها النصيب الأكبر فى ذلك . غير أن مدن هذه الدول تعانى بالفعل من مشكلات اجتماعية واقتصادية وتكنولوجية حادة ، ضاعف من حدتها ارتفاع معدلات التحضر . والملاحظ أن الزيادة السكانية العامة قد أسهمت بنصيب وافر فى ابراز هذه المشكلات ؛ بما فرضته على سكان المناطق الريفية الفقيرة من هجرة الى المراكز الحضرية . ويزداد هذا الموقف صعوبة اذا ما علمنا أن التنمية الاقتصادية التى تريد الدول النامية تحقيقها تتطلب مزيدا من التصنيع .

والملاحظ أن عملية التحضر التى تتم الآن فى الدول النامية لا تتخذ نفس الخط الذى سلكته عملية التحضر التى تمت فى الدول المتقدمة منذ قرنين من الزمان ؛ بل ان المستقبل لا يبدو أنه يحمل وجوه شبه محتملة بين العمليتين . ويعود الاختلاف بين العمليتين الى اختلاف الظروف التى مرت بها كل من الدول المتقدمة والدول النامية . فلقد خضعت الدول الأخيرة لاستعمار أجنبى لفترة طويلة ، وما أن حصلت على استقلالها السياسى حتى وجدت نفسها فى مواجهة مشكلات قومية عديدة . ويذهب البعض الى أن التدخل الذى تمارسه حكومات الدول النامية فى مجال التخطيط قد يلعب نفس الدور الذى لعبته (ولا تزال) قوى السوق فى الدول الغربية . ومع ذلك فيجب أن نكون على وعى شديد بأن التكنولوجية الصناعية والزراعية السائدة الآن فى القرن العشرين تختلف عن تلك التى كانت سائدة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . كذلك فان هناك اختلافات ملحوظة بين الدول النامية الآن والدول المتقدمة خلال القرنين الماضيين فيما يتعلق بنصيب السكان من الموارد بوجه عام ، ونصيب القرويين من الأرض الزراعية ، فضلا عن اختلاف الأنساق

القيمية أو الثقافية • يضاف الى ذلك أن الموقف الدولى الشامل (بجوانبه الاقتصادية والاجتماعية والسياسية) الذى نشهده نحن فى القرن العشرين يختلف عن ذلك الذى كان سائدا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر•

وبرغم هذه الاختلافات ، الا أننا نستطيع التنبؤ بأن البيئة الحضرية فى الدول النامية سوف تؤدى الى حدوث تغيرات اقتصادية واجتماعية وفيزيقية وشخصية عديدة • وليس من الضرورى أن تكون هذه التغيرات مشابهة لتلك التى شهدتها الدول المتقدمة •

ولعلنا نختتم مقالنا بتأكيد حقيقة أساسية هى : أن التأثير الشامل الذى أحدثته المدينة ليس سلبيا على الاطلاق • صحيح أن التحضر — وعلى الأخص معدلاته العالية — قد خلق مشكلات اقتصادية واجتماعية وتكنولوجية ، ولكن علينا ألا نغفل نقطة هامة هى ؛ أن المدينة هى التى مهدت الطريق لظهور أعظم الانجازات التى عرفتها الحضارة الانسانية • فالمدينة قدمت اسهامات رائعة ؛ اسهامات تفوق مجرد تقدم التكنولوجيا وزيادة الانتاجية ، وارتفاع مستوى المعيشة • وفضلا عن ذلك فالمدينة لها الفضل الأكبر فى احراز أعظم الانتصارات الفكرية والثقافية ؛ فهى موطن الجامعات ، وهى مهد التجديد فى مختلف مجالات العلوم والفنون• وباختصار فالمدينة تعكس بوضوح سيطرة الانسان على الطبيعة وتوظيفها لخدمة أغراضه •واذا كان التحضر السريع قد خلق مشكلات حادة ، الا أن أصالة الانسان وقدرته على التحدى كفيلان بايجاد حلول حاسمة لها •

الحواشى

(١) البيانات الواردة فى هذا الجزء التمهيدى مقتبسة من :

United Nations, *Determinants and Consequences of Population Trends* (New York, 1953), Chap. ii ; Philip M. Hauser (ed.) *Urbanisation in Asia and the Far East* (Calcutta, 1957) Chaps. iii, iv.

أما الاحصاءات المتعلقة بالتحضر على مستوى العالم فهى مقتبسة من مقال لينجزلى دافيز Davis وهيرتز Hertz بعنوان « أنماط التحضر العالمى » .

(2) Hauser, *op. cit.*, p. 99.

(٣) يمكننا أن نجد التنبؤات الخاصة بالسكان الحضريين فى :

Philip M. Hauser, "Implications of Population Trends for Regional and Urban Planning in Asia and the Far East," *Regional Planning* (New York, 1959, 1959), pp. 21-31.

(4) Ralph Turner, *The Great Cultural Traditions, I* (The Ancient Cities) New York, 1941); V. Gordon Childe, *Man Makes Himself* (London, 1971).

(5) Eric Lampard, "The History of Cities in the Economically Advanced Areas", *Economic Development and Cultural Change,* 111, No. 2 (January, 1955); Adna. F. Weber. *The Growth of Cities in the Nineteetth Century* (New York, 1899).

(6) Hauser, *Urbanisation,* pp. 86 ff; Mark Jefferson. "The Law of the Prinate City", *Geographical Review* (April, 1939); Norton S. Ginsburg, "The Great City in Southeast Asia", *American Journal of Sociology* (special issure on "World Urbanism"), LX, No. 5 (March. 1955), 455-62.

(7) UNESCO, *Report by the Director — General on the Joint UN-UNESCO Seminar on Urbanization in latin America* (Paris, 1960), p. 6.

(8) Hauser, *Urbanization,* pp. 33 ff; UNESCO, Report by the Director — General, p. 15.

(9) Kingsley Davis, "Urbanization and the Development of Pre-Industrial Areas", *Economic Development and Cultural Change*, III, No. 1 (October, 1954).

(10) Philip M. Hauser, "Demographic Dimensions of World Politics", *Science,* CXXXI, No. 3414, 16-43.

(11) United Nations, *Determinants,* Chap. XV; United Nations. Report on the World Social Situation (New York, 1957), shaps. ii, vii, viii, ix; Joseph J. Spengler, "Population and World Economic Development", *Science* CXXXI, No. 3412, 20.

(١٢) يمكننا أن نجد معالجة مستفيضة للمشكلات الاقتصادية فى :

Hauser, *Urbanization,* Chaps. i. ii, vi, vii, UNESCO Report by the Director — General ; and United Nations Seminar on Regional Planning (New York, 1958).

(13) Sidney G. Suffrin, "Over — Urbanization and Economic Growth" (Oectographed. Presented to National Academy of Economics and Political Science, December 30, 1959, Chicago).

(14) Raymond Vernon, *The Changing Economic Function of the Central City* (New York, 1959).

(١٥) تستند معالجتنا « للمشكلات الفيزيقية » هنا الى معالجة اشمل لنا . انظر :

Hauser ; Urbanization, Chaps. i. ii, xi ; UNESCO, Report by the Director — General ; and Philip M. Hauser (ed.), *Urbanization in Latin America* (UNESCO, 1961).

(١٦) تستند معالجتنا لهذا الجزء الى معالجة اشـــمل قدمناها فى موضع آخر . انظر :

Philip M. Hauser, "Urban Boom and Crisis in the Sixlies," in-Harry C. Betters (ed.), *City Problems of 1960, The Annual Proceedings of the United States Conference of Mayors* (Washington, D. C ; 1960), pp. 22 ff.

(17) Wilfred Owen. "Transportation," *Metropolis in Ferment, Annals of the American Academy of Political and Social Scieence* (November, 1957), pp. 30 ff; and W.S. Rainville, "Transit — the Traffic Engineer's Opportunity", *Traffic Engineering* (June, 1958).

(18) Louis Wirth, "Urbanism as a Way of Life".

يلاحظ القارىء أن اشارتنا لهذه الأطر النظرية مستندة الى فهمنـــا للتراث السوسيولوجى العام ، كما أنها مستندة الى فهمنا لأعمال العلمـــاء الذين أشرنا اليهم فى المتن .

(١٩) للتعرف على مزيد من التفاصيل يمكن الرجوع الى :

Hauser, *Urbanization,* Chaps. i, iii, viii. ix, ix; UNESCO, *Report by the Director — General ; UNESCO, Social Implications of Industrialization and Urbanization in Africa South of the Sahara* (1956) materials from a volume on "Urbanization in Latin America" edited by Hauser; and United Nations, Report.

(20) W. S. Thompson, *Population and Progress in the Far East* (Chicago, 1959), Chaps. i. and xviii.

(21) Hauser, *Urbanization,* especially Chap. iv.

(22) Oscar Handlin, *The Uprooted* (Boston, 1951).

(23) Oscar Handlin, *The Newcombers* (Cambridge, Mass; 1959); O. D. and Beverly Duncan, *The Negro Population of Chicago* (Chicago, 1957) ; Stanley Leiberson and O.D. Duncan, "Ethnic

Segregation and Assimilation", *American Journal of Sociology,* Llv (January, 1959) 364 — 74 ; Karl E. Taeuber, "Residential Segregation of Urban Nonwhites" (Ph.D. dissertation, Harvard University, 1960); Stanley Lieberson, "Comparative Segregation and Assimilation of Ethnic Groups" (Ph.D. dissertation, University of Chicago, 1960).

(24) Luther Gulick, "Metropolitan Organization", *Metropolis in Ferment, The Annals of the American Academy of Political and Social Science* (November, 1957). pp. 57-65.

(25) *Ibid.,* In the Same Volume, see also Frank P. Zeidler; "Urbanism and Government 1957 — 1977". Wallace S. Sayre, "Urbanism and Government, 1957 — 1977 : A Rejoiner" : Lyle C. Fitch. "Metropolitan Financial Problems".

الفصل السابع

تخطيط المدن وأهميته فى المجتمع الحضرى

اعتاد المهندسون اطلاق تعبير « تخطيط المدن » على التخطيط المادى فقط للمعيشة الحضرية ، أى تحديد احتياجات المدينة من مساكن وطرق ومدارس وغيرها ثم تحديد أنسب الأمكنة لانشاء المبانى التى سوف تضم هذه الألوان من النشاط . ويرى أغلب الاجتماعيين أن تخطيط المدن أوسع من هذا ، فهو يضم التخطيط الاقتصادى والاجتماعى والمادى . والواقع أن الفصل بين الجوانب الاجتماعة والاقتصادية والمادية فى التخطيط يكاد يكون مستحيلا ، فهى عملية واحدة متكاملة وما التخطيط المادى الا جزء من الخطة العامة الشاملة .

والتخطيط عملية قائمة بذاتها يشترك فيها رجال علم الاجتماع مع الفنيين فى مختلف الجهات من اقتصاديين الى مربين الى مهندسين الى أطباء .... ألخ . يشترك فيها رجال علم الاجتماع بمعلوماتهم واحصاءاتهم عن المجتمع ، ويشترك فيها الفنانون بمعلوماتهم وخبراتهم فى ناحية تخصصهم ، كما يشترك فيها المخططون بمعلوماتهم وخبراتهم فى عملية التخطيط نفسها كعملية قائمة بذاتها لها مبادئها وخطواتها وأساليبها ومشكلاتها .

فالتخطيط اذن ــ فى رأيى ــ لا يدخل فى نطاق هذه الدراسة ومع هذا فسوف أشير اشارة سريعة الى عمليات التخطيط المادى للمدن لارتباطها التقليدى بعلم الاجتماع الحضرى .

التخطيط المادى للمدن :

نمت أغلب المدن فى بلادنا نتيجة للعوامل الطبيعية فى المجتمع سواء كانت جغرافية أو اقتصادية أو اجتماعية ، أى أنه لم يكن للمسئولين عن تلك المدن دخل فيما هى عليه الآن • ولما كنا قد أخذنا بمبدأ التخطيط فى جميع نواحى حياتنا الاقتصادية فقد وجب الأخذ به فى الناحية العمرانية أيضا فلا تترك النمو الحضرى خاضعا للظروف والضغوط المجتمعية الطبيعية ، ولكن يجب أن يتدخل الاجتماعيون والمهندسون ورجال التخطيط فى الأمر فيرسمون مستقبل المدينة محاولين فى ذلك حل المشكلات التى يمكن التنبؤ بها بناء على دراستهم لمدن البلاد المصنعة ونتيجة لما يمكن استنباطه من الدراسات المحلية •

ويتطلب هذا وضع فلسفة أساسية للنمو الحضرى فى البلاد مبنية على دراسات لحركة ونمو السكان ، ولحركة التصنيع ، ولجغرافية البلاد ، وعلى امكان توجيه كل هذه العناصر لصالح المجتمع •

كما يتطلب هذا أيضا وضع فلسفة أساسية للمعيشة الحضرية تهدف الى حل مشاكل مجتمع المدينة وتوفير الفرصة له ليكون أكثر سعادة وأكثر انتاجا •

هدف التخطيط المادى للمدينة :

المدينة هى أداة للمعيشة الجماعية الطيبة ، ويهدف التخطيط المادى للمدينة الى جعل هذه الأداة مستعدة ماديا للمعيشة الجماعية المرضية فليس من عمل مخطط المدن تحديد مناهج التعليم أو النشاطات الاجتماعية والثقافية الأخرى ، ولكن عمله هو التأكد من أن المدارس والمؤسسات موجودة فى أنسب مكان لها • عليه أن يتأكد من أن المبانى السكنية والحكومية والأسواق والجوامع والحدائق والملاعب والمصانع

والمستشفيات والمدارس ومحطات الاسعاف والاطفاء المواصلات والمجارى والكهرباء والطرق سوف توجد فى أنسب مكان لها بالنسبة لحاجات السكان ، كما يجب أن يرسم خطة لامتداد المدينة حينما يزيد حجمها •

ويرتبط الموضوع ارتباطا وثيقا بحاجات السكان ، فاذا احتاجوا مطعما فى أول الشارع فيجب أن يكون هناك مطعم ، واذا احتاجوا ملعبا للأولاد فى مكان ما فيجب أن يكون هناك ملعب ••• وهلم جرا • أما شكل المطعم والملعب فهذا من اختصاص الفنيين فى المطاعم والملاعب بالتعاون مع المهندسين ، أما عملية التنفيذ فقد تكون من مسئولية المواطنين أو الحكومات المحلية أو الاقليمية أو المركزية ••• كل هذا لا يهم مخطط المدن ، فالذى يهمه هو توفير المكان لهذا النوع من النشاط •

أهمية تخطيط المدن :

أشرنا فى بداية هذه الدراسة الى أهمية المدن فى التقدم الاقتصادى والاجتماعى لأى مجتمع • وأشرنا أيضا الى أثر الهجرة والسكن فى الأحياء المتخلفة على الكفاية الانتاجية للعمال ويستدعى هذا منا تركيز كثير من الاهتمام على الأوضاع العمرانية فى المدينة • ولما كان كثير من المشكلات العمرانية للمدينة يرجع فى أصله الى ترك العمران يأخذ مجراه دون أى توجيه من المسئولين عن المدن ، فالأمر اذن يستدعى اتخاذ خطوات ايجابية لتخطيط المدن بما يتفق مع احتياجاتنا الجديدة خاصة ونحن مقبلون على نهضة صناعية كبيرة •

والمسألة فى الواقع مسألة سباق بين القوى الاجتماعية الطبيعية التى توجه العمران فى المجتمع فعلا ، والقوى الاجتماعية الموجهة التى يجب أن توجه العمران فى المجتمع ، وذلك لأن كل تأخير فى اتخاذ التخطيط أساس للعمران فى المدن معناه تعقد الوضع أكثر وأكثر مما

يجعل مهمة التخطيط أكثر صعوبة وأكبر كلفة ، فتخطيط مدينة لم تنشأ بعد لا شك أسهل وأقل نفقة من تخطيط مدينة موجودة فعلا ، كما أن تخطييط مدينة صغيرة لا شك أسهل وأقل نفقة من تخطيط مدينة كبيرة قديمة •

مبادىء تخطيط المدن :

ولكى يكون تخطيط المدن مجديا يجب أن يراعى فيـه المبادىء الآتيـة :

١ ـ الشمول :

جرت العادة فى بعض المدن أن تكون عملية اصلاح المدن جزئيـة وانتهازية (دون وضع خطة شاملة لعشرين سنة مثلا) ••• فنشق شارعا أو نبنى مصنعا أو ننشىء حديقة دون أن تكون هنـاك خطة مدروسـة • والواجب أن تكون الخطة شاملة لكل نواحى الحياة فى المدينة : اقتصادية واجتماعية وعمرانية ومرتبطة مع بعضها كوحده •

٢ ـ المرونة :

لما كان من الصعب التنبؤ بدقة بما سوف تكون عليه ظروف المدينة بعد فترة من الزمن ، فانه يجب أن تكون الخطة مرنة لتقابل الاحتياجات الجديدة الى تنشأ ولم تكن موجودة عند وضع الخطة الأصلية •

٣ ـ اتخاذ الجيرة كأساس للخطة :

أوضحنا فى فصول سابقة أهمية الجيرة كمجتمع صـغير ، ويرى أغلب الاجتماعيين أنه من الواجب أن تسـتجيب الخطة العمـرانية لأى مدينة لهذا المبدأ الاجتماعى الهام ، فتبنى المبانى بشكل يحددها كجيرة ويوضحها عن الجيرات الأخرى • كما يجب أن توفر الخدمات الأساسية

فى كل جيرة كالمدارس والأسواق وأندية الأولاد فتتضح بذلك معالمها كمجتمع متكامل كما تحل مشكلة المواصلات جزئيا .

٤ ـ التقسيم على مراحل :

لاعتبارات عملية ، يجب أن تقسم الخطة على مراحل وبذا يكون التغيير فى المدينة تدريجيا فتقسم التكاليف على عدة سنوات ولا تتعطل مصالح المدينة .

٥ ـ اقناع الأهالى بالخطة :

سواء اشترك الأهالى أو لم يشتركوا فى وضع الخطة المبدئية ، فانه يجب أن يفهم سكان المدينة الخطوط العريضة للتغيرات التى سوف تحدث فى مدينتهم وأسباب هذه التغيرات ، كما يجب أن تعطى لهم فرصة نقدها وتوجيه المسئولين الى ما يرونه فيها حتى تخرج مستجيبة لاحتياجات الأهالى .

خطوات تخطيط المدن :

يجب أن تمر عملية التخطيط فى المراحل الآتية سواء بنفس الترتيب أو بترتيب آخر . حقيقة أن التفاصيل قد تختلف ، ولكن الخطوات الرئيسية واحدة باستمرار .

١ ـ انشاء جهاز يشرف على عمليات التخطيط (الحكومات المحلية مثلا) .

٢ ـ وضع خطة عامة للدولة وتشتمل على :

(ا) الطرق العامة فى الدولة .

(ب) الحدائق العامة فى الدولة .

(جـ) توزيع أماكن الصناعة فى الدولة .

(د) تحديد أماكن الصناعة فى الدولة •

٣ ـ وضع خطة اقليمية لكل اقليم فى الدولة وتشتمل على نفس النقاط السابقة ولكن على مستوى الاقليم •

٤ ـ القيام بمسح اجتماعى شامل لتجميع الحقائق عن مجتمع المدينة المراد تخطيطها ويشتمل هذا المسح على :

(ا) تاريخ المدينة : كيف نشأت ، ماالذى يبقيها ، مستقبلها•

(ب) حركة ونمو وتوزيع السكان •

(جـ) مصادر المدينة الطبيعية •

(د) توزيع استعمال الأرض Land Use اذا كانت مبانى سكنية أو محلات أو أسواق أو أمكنة ترفيهية أو مصانع ••• الخ ، تمهيد التقسيم المدينة الى أقسام يستعمل كل منها فى غرض Zoning •

(هـ) المواصلات ومشاكلها •

(ز) المشكلات الاجتماعية للمدينة •

٥ ـ وضع الخطة الشاملة Master Plan استجابة للدراسة واستجابة للخطة العامة فى الدولة • وتحوى الخطة الشاملة عامة جزأين :

(ا) خطة استعمال الأرض Land Use

(ب) خطة التسهيلات فى المدينة Community Facilitie

٦ ـ دراسة الأولويات بغرض تقسيم العملية على مراحل تنفيذية •

من الذى يقوم بالتخطيط ؟

من الواضح أن تخطيط المدن عملية دراسة وتحليل للحاجات الاقتصادية والاجتماعية لسكان المدن بغرض ترجمتها الى حاجات عمرانية (مساكن ـ طرق ـ أسواق ـ مبانى مدارس ـ مبانى مستشفيات ـ ... الخ) • وبهذا المعنى نجد أن دور الاجتماعيين فيه كبير جدا ، والواقع أن أغلب مخططى المدن فى الولايات المتحدة الأمريكية مثلا من المتخصصين فى علم الاجتماع الحضرى لا من المهندسين كما هى الحال فى كثير من البلاد الأوربية •

على أنه لا يمكن القول بأن الاجتماعيين أو المهندسين وحدهم يمكنهم القيام بهذه المسئولية الكبيرة ، فالعملية تتطلب فريقا من المختصين فى التربية والتعليم ، والصحة ، والخدمة الاجتماعية ، والاجتماع ، والهندسة ، يعملون معا كجماعة بقيادة الرجل الاجتماعى الذى يقوم بدور المنسق والمنظم • وعند ما تتم الخطة الشاملة تسلم الى المهندسين الذين يقومون بدراستها وتحويلها الى خطة ذات أبعاد ثلاثة أى الى مبان ومنشئات وحدائق ... الخ •

الازدحام والتخطيط :

يكاد يكون الازدحام هو المشكلة الأولى عند تخطيط أى مدينة ، وقد وضع أئمة التخطيط الحلول الآتية لمشكلة الازدحام :

(ا) يرى فرانك لويد Frank Loyd Wright المهندس والفيلسوف الأمريكى أنه من الواجب تحويل المدن بمصانعها وخدماتها ومجتمعها الى قرى صغيرة حيث تعيش كل عائلة فى منزل منفصل حوله مزرعة تزرع فيها الأسرة خضرواتها وتربى دواجنها • ويرمى المستر رايت من هذا الى التخفيف من وطأة الزحام والى تقريب الانسان الى الطبيعة •

(ب) ويرى رايموند أنوين Raymond Irwin الاكثار من الضواحى المخططة على طراز مدن الحــدائق Garden Cities بجوار لندن •

(جـ) ويرى لاكوربوزييه Le Corbusier المهنــدس الفرنسى أن الطريقة المثــلى للتخلص من الازدحام هى زيادة السكان فى وســط المدينة ببنــاء ناطحات سحاب تســتوعب الصناعة والتجارة والسكن فى نفس الوقت ، وبالسكن واســتغلال طريق جديد للمواصلات لم يستغل بقدر كاف بعد ألا وهو الطريق الرأسى أى باستعمال المصاعد • ويزيد لاكوربوزييه على هذا أنه من الواجب انشاء الحدائق الغناء وترك الميادين الواسعة حول هذه العمارات الشــاهقة • ومن هذا المركز الرئيسى فى المدينة تشع الطرق الى المناطق السكنية الأخرى •

دور الصناعة فى المجتمع الحضرى

يسعى الانســان دائما الى اشــباع حاجاته الأســاسية جميعا اذا استطاع الى ذلك سبيلا ، غير أنه قد تقصر يده عن اشباع جميع حاجاته ، فيكتفى باشباع ما يســتطيع منها ويعيش معيشة حرمان بالنسبة لمـا لم يستطع اشباعه من حاجاته ، الى أن تتسع موارده لاشــباع كل حاجاته وهو فى الحالتين يعمل على استثمار موارد البيئة التى نشأ فيها • وبجوار هؤلاء (الأغلبية) يوجد نفر من الناس (الأقلية) لا يعملون على استثمار مواردهم من أجل اشباع حاجاتهم وانما يلجأون الى أعمال غير اجتماعية من أجل اشباع تلك الحاجات فما هى تلك الموارد الطبيعيــة ؟ وما هى تلك الحاجات الانسانية ؟

الموارد الطبيعية :

الموارد الطبيعيــة هى جميع الخيرات والمزايا الموجودة بالاقليم ، والتى تفيد الانسان مثل خيرات البحار وخيرات الأرض ، وهذه تشمل المراعى والحيوان والغابات والمعادن والمساقط المـائية والتربة وملاءمة المناخ للانتاج الزراعى والصناعى ، كما تشمل سهولة المواصلات نتيجة للسطح ، وأخيرا تشمل الموقع وما يتضمنه من مزايا أو عقبات •

حاجات الانسان :

وحاجات الانسان مهما تعددت مظاهرها وتشعبت ، فهى لا تخرج عن الحصول على الطعام وعلى مسكن يأوى اليه ولباس ، ثم على قسط من التثقيــف ، وعلى مواصــلات ميســورة وعلى أنواع من المسرات Amenities ثم على خدمات عامة يحفظ بها حياته وتضمن له البقاء ••••

ولما كانت الحرف هى الوسيلة لاســتغلال موارد الطبيعة من أجل اشباع الحاجات الانســانية ، فان اختلاف البيئات واختــلاف مواردها

تتيجة لذلك قد أوجد حرفا كثيرة مثل لجمع وصـيد البحر والبر وقطع الغابات والرعى والزراعة واستخراج المعـادن والصناعة والتجارة . غير أنه من الصعب أن تنسب كل حرفة لبيئة خاصة ، على اعتبار أن كل بيئة مهما قلت مواردها ، بها أكثر من حرفة واحدة .

تصنيف الحرف :

يمكن تقسيم الحرف مهما اختلفت الى ثلاث فئات هى :

(ا) الحرف الأولية : أى الحرف التى تنتج المواد الأولية ، مثل حرفة الزراعة وهى تشمل انتـاج الحاصلات الزراعية ، كما تشمل تربية الماشية والحيوان ، وكذلك قطع الغابات وصيد الأسماك واستخراج المعادن .

(ب) الحرف الثانوية : مثل حرفة الصناعة ، وهى عبارة عن اتمام التحويرات والتعديلات الأساسية على المواد الأولية بقصد زيادة منفعتها .

(جـ) الحرف التكميلية : مثل التجارة : ووظيفة التاجر هى توفير وقت الناس وجهودهم فى الحصول على السلع اللازمة لهم ، بمعنى أن يتعرف على حاجات المستهلكين ، ويستورد السلع التى تسد حاجاتهم سواء من الداخل أو من الخارج وينقلها ويحفظها لعرضها فى المكان والزمان المناسبين .

ومما لا شك فيه أن الحرف كلها مرتبطة ببعضها البعض ، فالتاجر يتجر فى منتجات أولية ومنتجات صـناعية ... والصـانع فى حاجة الى الخامات الأولية لتحويلها الى منتجات صناعية . كما أن الزارع فى حاجة الى الآلات الزراعية التى ابتكرها الصانع ، تلك التى يحصـل عليها من التاجر ... بمعنى أن الناس جميعا مثل أجزاء آلة معقدة الصنع ، تعمل

أجزاؤها جميعا فى انتظام وتناسق لهدف معين ، وهدف الناس جميعا هو الانتاج لسد الرغبات واشباع الحاجات وما الى ذلك .

حرفة الصناعة :

أما عن حرفة الصناعة فانه يقصد بها تحويل المنتجات الأصلية الى أشكال خاصة بقصد زيادة منفعتها ، وكل بيئة بها صناعاتها القائمة على خامات محلية ، وبقصد الاستهلاك المحلى ، وعلى سبيل المثال فان بيئة الصيد تصنع فيها الشباك والحراب . وبيئة الرعى توجد بها صناعة الخيام واستخراج منتجات الألبان ... وبيئة الزراعة بها صناعة الآلات الزراعية ومنتجات الألبان . على أن هناك بيئات خاصة حبتها الطبيعة بعوامل الانتاج فتخصصت فى الانتاج الصناعى مستخدمة الآلات الدقيقة ومتبعة نظام تقسيم العمل والتخصص ، ومن ثم تركزت فيها الصناعة وأصبحت منتجاتها تصدر لجميع الأسواق المحلية والدولية . هذه المناطق تعتمد على تنظيم راق وسهولة فى المواصلات وما الى ذلك .

وتقدم الصناعة يؤدى الى تكوين طبقة من الرأسماليين وأخرى من العمال ، كما تقتضى توجيه سياسة المجتمع الاقتصادية فتح الأسواق الخارجية والداخلية وتأمين الحصول على المواد الأولية اللازمة للصناعة ، وللاحتفاظ بهذه الأسواق والموارد ينبغى تأمين المواصلات وبناء الأساطيل التجارية . ذلك أن الصناعة من أهم الوسائل للوصول بالمجتمع الى مستوى المجتمع المتقدم Advanced Society ولا ريب فى ذلك ، فأقوى الأمم اقتصاديا وسياسيا هى الأمم الصناعية الراقية .

تطور حرفة الصناعة :

تطورت الصناعة على النحو التالى :

(ا) الصناعة الفردية :

حيث كان الفرد يبتكر صناعة أو يقتبسها ويظل يمارسها طوال حياته .

(ب) الصناعة العائلية :

وفى العصور التاريخية القديمة أصبحت الصناعة عائلية ، بمعنى أن كل أسرة كانت تقوم بصناعة ما يلزمها من كساء وغيره بقصد اشباع حاجاتها وليس للتجارة وكانت الصناعة حينئذ حرفة ثانوية أعلى فى حين أن الزراعة والرعى والصيد كانت الحرف الأساسية ثم بدأت بعض الأسر تتخصص فى صناعة بعينها مثل الغزل والنسيج للصوف أو للقطن أو للتيل ... ومثل صناعة الأحذية وصناعة أدوات الزراعة ... وكانت كل أسرة تتبادل المنتجات الصناعية مع غيرها من الأسر ، طبقا لحاجاتها المختلفة .

(جـ) نظام الطوائف المهنية :

وفى العصور الوسطى ظهر فى أوربا نظام الطوائف المهنية Guid System وكانت فيه ظاهرة التخصص بشكل أوضح . وكان نظام الطوائف المهنية يقوم على أساس أن لكل حرفة طائفة تعمل فى انتاج سلعة معينة مثل غزل ونسج الصوف أو الكتان أو التيل أو القطن ، أو صناعة الجلود أو الأثاث أو غيرها . وكانت لكل طائفة نظم وتقاليد خاصة بها ، بمعنى أن لكل حرفة معلمين وأجراء وصبية وشروط يجب أن تتوافر فى كل من يرغب فى امتهان مهنة من المهن ، وهو ما يطلق عليه حديثا نظام التلمذة الصناعية Apprenticesphi كما كان لكل حرفة طقوس خاصة بها ، لا سيما ما يتعلق بالانتقال من مستوى الصبى Apprentice الى مستوى الصانع Tourneynan الى مستوى المعلم Master Craftsman فقد كان نظام الطوائف المهنية بمثابة نظام مهنى تربوى انتاجى .

(د) الصناعات المنزلية :

وهذه تختلف عن الصناعات العـائلية على اعتبار أن الصـناعات العائلية ما كان يقصد بها التجارة ، وانما اشباع حاجات الأسرة وحدها . على حين أن الصناعات المنزلية كن أساسها التجارة . وهى تشبه صناعات الطوائف فى أنها جميعا كان مقرها المنزل .

وكان الصانع فى الصـناعات المنزلية يملك الآلات والعمل ، وكان المنتج يزودهم بالخامات ، ويحدد لهم السلع المطلوبة ، وعليهم تصـنيع ما هو مطلوب فى مقابل الحصول على أجورهم على أسـاس الوحدات التى يجرى انتاجها ... واذا كان نظام الطوائف قد استمر طوال العصور الوسطى ، فان نظام الصناعات المنزلية قد استمر حتى القرن السادس عشر ، وبقى عندنا فى مصر هنا حتى نهاية القرن التاسع عشر .

(هـ) نظام المصانع :

لم تنشأ المصانع دفعة واحدة ، وانما التطور اليها اسـتغرق قرنا كاملا ، فقد ظهرت بوادر الانقلاب الصناعى لأول مرة فى بريطانيا ، وخاصة فى صناعة غزل ونسج القطن . ففى سـنة ١٣٧٣ اخترع شخص يدعى (كى) نولا عرف باسمه Key's Flying Shuttle فأحدث انقـلابا فى صناعة النسيج ، حتى أن الغزل ـ وكان حرفة النساء والأطفال ـ لم يعد يكفى حاجة الأنوال ، ومن ثم ابتكر (هارجريف) Hargreave مغزلا وأطلق عليه اسم ابنته (جينى) Spinning Jenny وبذلك تمكن العامل من تشغيل مجموعة من المغـازل فى وقت واحد بدلا من تشـغيل مغزل واحد فقط وبطريقة يدوية . ومن ثم بدأت هجرة الصناعة من المنـازل الى أودية الأنهار ، لا سيما من ابتكار الدولاب المائى Water Frame لصناعة انتاج الغزل الذى اخترعه (أركرايت) Arkwright لكى يدار

بقوة الميـاه الجارية ، أى القوة الطبيعية بدلا من قوى الانسـان أو الحيوان •

ومما هو جدير بالذكر أن التطور الصناعى حتى ذلك الحين لم يكن يشمل الارتقاء بالمنتجات ، وانما زيادة الانتاجية فحسب • ومن ثم فقد ابتكر (كرومبتون) مغزله المعروف باسمه Crompton's Mule وبذلك تم التوصل الى انتاج الغزل الرفيع بالقوى المائية على حين بقى النسيج بعيدا عن القوى المائية مما أدى الى زيادة الغـزل — هذه المرة — على النسيج ، الأمر الذى دعا (كارترايت) الى اختراع نول النسيج المعروف باسما Cartwright's Power Loom وبذلك تم التوازن بين صناعة كل من الغزل والنسيج •

وعندما اخترع (وات) Watt آلة تدار بالبخار سنة ١٧٨٥ ونجح فى استخدام البخار فى آلات الغزل والنسيج بدأت المصانع تهجر أودية الأنهار الى حيث توجد مواطن الفحم ، لتجنب أخطار الفيضـانات على دواليب الغزل والنسيج ، وكذلك ضـعف قوة التيـار المائى فى وقف الجفاف أو التحاريق •

ولعل أهم عامل فى التعجيل بنشأة المصنع بصورته الحالية هو ابتكار آلة من الحديد سنة ١٨٢٥ وكان تصنيعها يدويا وباسـتخدام الفحم فى تيسير تشكيلها • وبدأ أرباب الأعمال فى استبدال الآلات الخشبية بآلات حديدية بالرغم من رداءة تصنيعها حينئذ ••• وقد أدى تحسين تصـنيع الآلات الحديدية الى تركز الصناعات Concentration of industry المختلفة فى أماكن متقاربة ، مما أدى الى ظهور (المصـنع) حيث تجمع فيه مئات العمال بل ألوفهم تحت سقف واحد • وقد نمت الصناعات نموا سريعا واتسعت أسواقهاوكثرت آلاتها وظهرت أنظمة اقتصادية مثل نظام تقسيم العمل والتخصص المهنى ونظام الانتاج الكبير •

النتائج المترتبة على نشأة المصنع :

نشأة المصنع :

بدأت نشأة المدن الصناعية الكبرى التى لم يكن للعالم عهد بها من قبل ، حيث كان السكان يعملون بالزراعة فى قرى صغيرة متباعدة ، حيث كانت مساحة القرية تتناسب تناسبا عكسيا مع مقدار العمل المطلوب للانتاج الزراعى ومع وفرة المياه . واذا وجدت صناعات فهى صناعات منزلية فقط لاشباع حاجات محلية محدودة .

أما المدن الضخمة فقد نشأت بعد النهضة الصناعية . وفى هذه المدن تركزت الصناعات وكثر العمال وقامت طبقة التجار ، وظهرت طبقة العمال وطبقة أصحاب الأعمال وأصحاب رءوس الأموال . ذلك أنه عندما كانت الصناعة بين الطوائف المختلفة كان (المعلم) صاحب الآلات الخشبية وصاحب العمل . وكان التاجر يملك الخامات . وكان الربح موزعا بين الاثنين توزيعا مرضيا . على حين أصبح الأمر على عكس ذلك بعد نشأة المصانع حيث أصبح العامل لا يملك سوى عمله الذى يبيعه لأصحاب المصانع ، هؤلاء الذين اشتروا العمل بثمن بخس ، اذا ما قورنت أجورهم بأجور المديرين وأرباح أصحاب رءوس الأموال . مما أدى الى ظهور ظواهر اجتماعية واقتصادية لم تكن معروفة من قبل ، مثل الاضطرابات العمالية والالتجاء الى أعمال العنف من أجل زيادة الأجور وتقليل ساعات العمل وتحسين علاقات العمل الأخرى .

وبنمو المصانع واتساعها ، أصبحت تحتاج الى رءوس أموال ضخمة تقصر امكانات الأفراد المالية عن توفيرها ، ومن ثم نشأت الشركات الصناعية بأنواعها واتسعت المصارف وزاد اختصاصها لكى تتمشى مع آلات الانتاج العامة التى أنشئت لخدمته .

ومن أجل حصول المصانع والشركات الصناعية على حاجتها من المواد الأولية ونقل منتجاتها الصناعية الى الأسواق الاستهلاكية ، نشأت فكرة المواصلات الداخلية والخارجية بين الدول المنتجة والدول الأخرى ـ فقد أنشىء أول خط حديدى فى العالم سنة ١٨٢٥ فى انجلترا ، ثم انتشرت السكك الحديدية وحفرت القنوات واستخدم البخار فى السفن الشراعية ، ومن ثم أصبحت هذه السفن تصنع من الحديد بدلا من الخشب ، مما أدى الى ربط مراكز انتاج الخامات بالمراكز الصناعية ، فأصبح العالم كله وحدة اقتصادية لا سيما بعد ابتكار واستخدام الكهرباء فى الصناعة .

كما أدى تركيز المناطق الصناعية فى الدول التى تقع فى المنطقة الشمالية من الكرة الأرضية ، تلك المنطقة التى لاتستطيع انتاج حاصلات المناطق المدارية والحارة والموسمية مثل القطن وقصب السكر والشاى والبن والكاكاو وجوز الهند ، والتوابل والصوف والجلود والمطاط ، وغيرها من المنتجات الزراعية ... أدى كل هذا الى أن تعمل الدول التى بها مناطق صناعية كبيرة على تشجيع الدول الأخرى على الزراعة حتى تضمن مصادر للانتاج وللمواد الخام ، كما تضمن أسواقا للتوزيع ، ومن هنا نشأت فكرة الاستعمار للمحافظة على الأسواق ، بالاضافة الى أن بعض الدول الصناعية لجأت الى المعاهدات التجارية بقصد انعاش التبادل التجارى أى استيرادها للخامات الغذائية والصناعية ، وتصديرها للمصنوعات المختلفة .

ولكى تضمن الدول الصناعية أسواقها بدأت فى تأمين مواصلاتها العالمية ، مما اقتضى انشاء الأساطيل التجارية . واتخاذ محطات حربية على طول الطريق ، فكانت انجلترا لها محطات حربية فى سنغافورة وكولمبو وعدن وقبرص ومالطة وجبل طارق لحماية الطريق من أى

اعتداء ••• الخ ، مما أدى الى تقسيم العالم الى منـاطق نفوذ ، بل الى معسكرين كبيرين وبينهما مجموعة دول عدم الانحياز •

آثار التركز الصناعي على الصناعة :

من آثار التركز الصـناعى Industrial Concentration على الصناعة نفسها منه ما هو مزايا ، وما هو مساوىء •

فمن مساوئه :

(ا) ارتفاع أثمان الأرض لكثرة الطلب عليها من أجل بناء المصانع وتوسيعها وانشـاء الملحقات لها ، وانشـاء المخازن وبيوت للعمـال وأندية وملاعب لهم ، وما الى ذلك مما يرفع أثمان الأرض •

(ب) اتساع المدن الصـناعية ، يؤدى الى زيادة الطلب على المواد الاستهلاكية مثل الأغذية والملابس ووسائل الترفيه وغيرها ، مما يؤدى الى زيادة نفقات المعيشة •

(جـ) التوسع فى المصانع يؤدى الى زيادة الطلب على العمـال مما يؤدى الى زيادة الهجرة الريفية الى المدن سعيا وراء الأجور المرتفعة ••• غير أن الهجرة نفسها قد تكون وراءها أسباب أخرى مثل :

ــ الرغبة فى حياة المدن بما فيها من مراكز اجتماعية وثقافية ووسائل للتسلية •

ــ امكانية توفير فائض من الأجور المرتفعـة التى يحصـل عليهـا فى المدن ، بعد الاستمتاع بمباهج المدن ومسراتها وحياة الرفاهية فيها •

(د) يؤدى اتساع المدن الصناعية وازدحامها بالمبانى الى صعوبة اقامة حديقة لكل منزل ، كما لا تسمح بكثرة الحدائق العامة والنوادى الرياضية ، مما يضر بالصحة العامة ، ويدفع الناس الى الانتقال فى الاجازات الأسبوعية والسنوية الى مناطق الصحة والنشاط •

ومن مزاياها :

١ ـ الاستفادة من الاقتصاد الداخلى Internal Economics على اعتبار أن انتاج الوحدات داخل المصنع نفسه أقل من تكاليفها فى حالة استخدام الآلات البسيطة ، يضاف الى ذلك دقة المنتجات لوجود الفرصة أمام سيادة ظاهرة تقسيم العمل فى المصانع الكبرى •

٢ ـ الاقتصاد الخارجى External Economics وهو الناتج من التوسع فى صناعة معينة فى البيئة التى تناسبها ، وهى التى مواردها الطبيعية وميزاتها تساعد على خفض تكاليف الانتاج الى الحد الأدنى ، نتيجة لوجود المصانع وورش الصيانة وغيرها من المؤسسات التى تيسر وتوفر كل الخدمات الأخرى المطلوبة للمصنع •

٣ ـ أدى تركز الصناعة حول مصادر الفحم الى اكتظاظ المدن وازدحامها وزيادة ضوضائها بصورة غير محتملة ، مما أدى الى الاستفادة من الكهرباء فى توفير القوى للمصانع فى مناطق قروية جميلة بعيدة عن ضوضاء المدن ، بالاضافة الى توافر السلع الغذائية والمساكن بأسعار منخفضة • ومن ثم اتجهت بعض المصانع نحو أطراف المدن أو القرى ، واعتبر ذلك الاتجاه هجرة أخرى للصناعة نحو القرى ، وهذه الظاهرة تسمى تفكك الصناعة Decentralization of industry غير أن المصانع التى تنقل أو يتم انشاؤها فى القرى تعانى من عدم الحصول على

الأيدى العاملة المدربة بشكل كاف ، كما تعانى من نقص الخدمات العامة بأرخص الأثمان كما هو الحال فى المدن .

***

آثار التوطين الصناعى فى المجتمعات الحضارية :

أدى التركز الصناعى بالصورة التى أوضحناها الى تعرض أعداد غفيرة من العمال الى أنواع متباينة من التعذيب والحرمان والاستغلال ، حيث تركت أعداد كبيرة من العمال خارج أبواب المصانع بدون عمل . واعتبر العامل يومئذ سلعة تباع وتشترى وتخضع لقوانين العرض والطلب . ومن ثم فان العمال ــ لتعطلهم لفترات طويلة ــ اضطروا الى تقبل أى عمل يعرض عليهم مهما كانت شروطه مجحفة وتتيجة لانخفاض أجورهم وعدم استمرار العمل الذى يسند اليهم انخفضت دخولهم بشكل خطير ، لما جعلهم يتعرضون ــ نتيجة لسوء التغذية ــ الى كثير من الأمراض ، فضلا عن معيشتهم فى مساكن رطبة وضيقة ومظلمة . كما أن العامل بظروفه هذه لم يكن يستطيع تعليم أولاده ، وانما كان يدفعهم صغارا الى العمل بجواره وبجوار زوجته ، مما عرض طوائف كثيرة من العمال وأسرهم الى ظروف أخرى كثيرة تدعو وتثير الأسى[1] .

وعندما تقدمت الصناعة واتسعت أعمالها زاد الطلب على العمال ، ومن ثم تحولت النظرة الاقتصادية الى العمال من مجرد استغلالهم للربح الى محاولة التعاون معهم فى ظروف انسانية أفضل ، يمكن أن تعود بالنفع على العمال وأصحاب رءوس الأموال .

ولم يكد ينتهى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، حتى ظهرت ــ بتأثير اعلان حقوق الانسان ــ ظهرت اعتبارات كثيرة وجديدة فى هذا

---

(١) I.L.O. Labour Faces the new age, Geneva, 1965.

المجال تتعلق بالاهتمام بالعمـال كثروة بشرية بجوار الاهتمام بالآلات والمعدات ووسائل الانتاج كثروة اقتصادية • وسـاعد ــ أيضا ــ على انتشار الأفكار الاشتراكية التى دفعت الحكومات الى التـدخل لتوجيه اقتصادياتها لخير شئونها ، والقضاء على استغلال البشر للبشر • ومن ثم اتجه التفكير الى حماية القوى العـاملة ، وتوفير كافة الظروف المـادية والمعنوية للعمل على توفير شروط وعلاقات عمل ملائمة للعمال •

يضاف الى ذلك اتجاه بعض علماء الاجتماع وبعض علماء النفس نحو دراسة ظاهرة العمل كظاهرة اجتماعية ، وبالتـالى دراسة شـئون العاملين من الناحيتين الاجتماعية والنفسية • تلك الدراسات التى تعتبر النواة الأساسية للعلوم الانسانية الحديثة التى ظهرت فيما بعـد • ومن أهمها علم الاجتماع الصناعى وعلم الاجتماع المهنى وعلم النفس الصناعى وعلم النفس المهنى • تلك الدراسات التى أدت الى تغيير نظرة أصحاب الأعمال الى العمال وسـقوط شعار « العمال سـلعة تباع وتشترى » وأصبحت النظرة الى العمال على أنها عناصر بشرية لها حاجاتها الاجتماعية والنفسـية والبيولوجيـة • الأمر الذى يتطلب ضرورة توفير نوع من (الرعاية الاجتماعية) والخدمات الاجتماعية لهم ، ويمكن تلخيص أسباب ظهور هذا الاتجاه فيما يلى :

١ ــ تقدم الدراسات الاجتماعية والنفسية حول العمل والعمال •

٢ ــ نمو الضمير الاجتماعى والشعور بالمسئولية الاجتماعية لدى أصحاب الأعمال •

٣ ــ ايمان أصـحاب الأعمـال بأن الاهتمام بالعمـال له مزايا مزدوجة تعود بالنفع على العمال وأصحاب الأعمال •

٤ ـ ضخامة أحكام المنشآت الصناعية ، مما أدى الى استحالة وجود علاقة مباشرة بين صاحب العمل والعامل ، الأمر الذى تطلب ضرورة انشاء ادارة لشئون العاملين ، لكى تتولى الشئون العمالية نيابة عن صاحب العمل .

٥ ـ صدور الكثير من التشريعات العمالية الاجتماعية ، التى فرضت على أصحاب الأعمال ضرورة الاهتمام بحقوق العمال ورعاية مصالحهم .

مجتمع المصنع :

أدى الخروج بالمصنع الى المناطق الخاوية أو الريفية المجاورة للمدن ، أو انشائها أصلا بعيدا عن المدن الى اضطرار المصانع الى توفير المدن السكنية لاغراء عمال المدن الى الانتقال للعمل بهذه المصانع . وبذلك ظهرت ظاهرة اجتماعية جديدة وهى المدن السكنية الملحقة بالمصانع . والتى لا تتاح فيها السكنى الا للعاملين فى المصنع الذى تتبعه المدينة السكنية وتتميز مثل المدن السكنية بانقسامها الى قطاعين منفصلين أحدهما للعمال غير المتزوجين والثانى للعمال المتزوجين .

ومن جهة أخرى فان مثل هذه المدن تمتاز بالتخطيط العمرانى الحديث ، وتتوافر فيها الحدائق والملاعب الرياضية والنوادى الاجتماعية والثقافية بصورة نموذجية ، غير أنه سرعان ما يتجمع أبناء المنطقة حول هذه المصانع لأداء الخدمات المختلفة للمصنع أو للعاملين فيه . ومن ثم تنشأ مدينة جديدة ترتبط ارتباطا عضويا بالمصنع مما يؤدى الى توقف المصنع عن التوسع فى المدينة السكنية مع التوسع فى منشآته الانتاجية ومثل تلك المدينة السكنية تعتبر بمثابة مجتمع محلى متجانس الى حد كبير .

والسؤال الذى يثار الآن : هل يمكن اعتبـار المصنع ومدينتـه السكنية مجتمعا صناعيا ؟ مع ملاحظة أن المقصود بالمجتمع الصناعى هنا ليس هو المجتمع الذى يقابل المجتمع الطبيعى ، وانما المقصود هو المجتمع الذى تسوده المهن الصناعية فحسب •

وقد حسم (ماير)[١] هذه القضية عندما أثبت أن موقف العمـل سواء فى الصناعة أو الزراعة أو فى التجارة أو فى الأعمـال المكتبية أو فى غيرها من الأنشطة الانتاجية أو الخـدمات انما هو موقف اجتماعى[٢] ومن ثم فانه يمكن القول بأن كل مصنع بمثابة مجتمع انتاجى ، وبالتالى فان المصنع الذى تتبعه مدينة سكنية له صفات اجتماعية أكثر من المجتمع المحلى السابق •

ولكن هل يمكن قصر صفة المجتمع الصناعى على مجتمع المصـنع فحسب أو المصـنع الذى تتبعه مدينة سـكنية ؟ ، أم يمكن اطلاق تلك الصفة على مجتمع من المجتمعات سواء كان مجتمعا محليا أو عاما ؟ •

الواقع أنه لكى نطلق على المجتمع ــ فى ضوء خصائص المصنع ــ صفة المجتمع الصناعى ، فانه ينبغى أن تتوافر فى ذلك المجتمع خصائص المصنع • ومن أهم هذه الخصائص ما يلى :

(ا) استخدام الوسائل الحضارية ــ لا ــ البدائية •

(ب) توافر العنـاصر الحضارية المختلفة بالصـورة التى تتفق مع العصر •

---

(١) Mauer, N.P.F. : Psychology in Industry. Second edition. Houghton Mifflin Company. Boson, 1955.

(٢) Work Siuation is also a social situation.

(جـ) أن يكون العائد الصناعى أكثر من أى عائد آخر •

(د) أن تتوفر فى الأفراد الخصائص الحضارية اللازمة للصناعة مثل الخبرات المهنية والثقافية الأولية ، والتعود على حياة المدن الصناعية •

(هـ) أن تستخدم الآلات والأدوات الحضارية فى الأنشطة الانتاجية غير الصناعية •

المجتمع الصناعى :

وبتطبيق الشروط السابقة عى المجتمع البريطانى مثلا فاننا نجد أن الانتاج الصناعى فى هذا المجتمع يزيد على أضعاف نواحى الانتاج الأخرى •

وقد انتقل اشعاع التقدم الصناعى فى بريطانيا الى الزراعة ، حيث ابتكرت الآلات الزراعية الحديثة ، ومن ثم أصبحت حرفة الزراعة فى بريطانيا الآن تتم على أساس المكنة الزراعية • وبالتالى أصبح على الفلاح البريطانى أن يتواءم مع هذه التطورات بالكتاب المهارات التى تمكنه من استخدام تلك الأدوان والماكينات ، وهذا لا يأتى كله الا بمعرفة القراءة والكتابة لكى يتمكن من الحصول على الخبرات المهنية سواء من مراكز التدريب المهنى الزراعى أو من العمال المهرة الذين يعملون على هذه الآلات ، أو من النشرات (الكتالوجات) المصاحبة لهذه الآلات والأدوات •

المجتمعات المحلية الصناعية الانتاجية :

غير أن المجتمعات المحلية الانتاجية مثل مجتمع المصنع تتميز بالتماسك والتجانس وبالقيم المشترك وبسيادة مجموعة من القوانين الوضعية وأخرى من السنن الاجتماعية التى تحدد أنماط العلاقات

الاجتماعية بصورة واضحة ومحدودة • تجعل من الضبط الاجتماعى حقيقة واقعة ، على حين أن المجتمع المحلى الصناعى الذى يتمثل فى المدينة الصناعية ـ كما يرى شنيدر وكما نرى نحن ـ يخلو من التماسك والتجانس والقيم المشتركة • وهذا المجتمع وان كانت تحكمه مجموعة من القوانين الوضعية والسنن الاجتماعية الأخرى ، فان مدى أخذ أفراد مثل هذا المجتمع بها يختلف كثيرا عن المجتمع المحلى الصناعى الاتناجى • ومن ثم فان مثل هذا المجتمع ينتشر فى كثير من أنظمته سوء التنظيم الاجتماعى، كما يكثر فيه عدد المحبطين Erustrated ولا سيما من بين المهاجرين من الريف الى ذلك المجتمع المحلى ، كما ينتشر عدم الشعور بالأمن والقلق واليأس بين الكثير من أفراده ، يضاف الى ذلك انتشار الانحرافات الأخلاقية وانحراف الأحداث ، وبض حالات الدعارة والاتحار ، فضلا عن البلطجة والعلاقات الاجتماعية المعتلة[1] •

الانتاج الآلى الكبير Mass Production

لقد أدى الانقلاب الصناعى الى ثورة فى أساليب الاتناج أدت الى ظهور أساليب الانتاج الضخم أو ما يسمى بالانتاج الآلى الكبير ، الذى يتميز بالدقة بانخفاض كبير فى التكلفة يكاد يدنو الى أدنى حد مما أدى الى حدوث رخاء فى الدول الصناعية التى استطاعت الوصول الى هذا المستوى الاتناجى مثل ألمانيا الغربية واليابان وغيرهما من الدول الصناعية المتقدمة •

النظم الاجتماعية الصناعية :

والنظم الاجتماعية الصناعية شبيهة ـ ان لم تكن هى نفسها ـ النظم الاجتماعية الحضارية التى سق الحديث عنها ، ويمكن دراسة بعض هذه النظم على الوجه التالى :

---

(١) Schnaider, E F. : Industrial sociology, Graw-Hill Book Company 1965, p. 3 68.

(ا) النظام الأسرى الصناعى :

الأسرة هى التى يعمل ــ فى الغالب ــ طرفاها ــ الزوج والزوجة ــ فى الأعمال الصناعية ، وكثيرا ما تتاح الفرصة لأطفال هذه الأسرة ــ بحكم أولويتهم للعمل فى المهن الصناعية فى المصانع والشركات الصناعية التى يعمل فيها الأبوان • ومثل هذه الأسرة تعيش فى الغالب فى منطقة مجاورة للمصنع ان لم يكن فى المدينة السكنية الخاصة بالمصنع •• وهى أسرة مقصورة على الزوج والزوجة والأبناء المباشرين فحسب •

(ب) النظام الاقتصادى الصناعى :

النظام الاقتصادى الصناعى ، يعمل فى خدمة الصناعة والتجارة ، والزراعة وشئون النقد والادارة • فقد أكد الاقتصاد الصناعى أن الانتاج ما هو الا خلق منفعة جديدة ، سواء أكانت هذه المنفعة مندمجة فى مجال مادى أو معنوى • ذلك أنه لا يهم الشكل الذى يتخذه الانتاج سواء أكان مجرد نقل الأموال كما فى حالة الصناعة التحويلية أم تحوير فيها كما فى الصناعة الموضوعية بصفة عامة ، أم فى الخدمات الصناعية التى هى جزء متمم للعمل الصناعى الناشىء من النشاط الاقتصادى العام والخاص ، أم زيادة المنفعة فى الأدوار الصناعية الوسيطة • كما أكد الاقتصاد الصناعى أهمية الدفع على امتداد السوق الصناعى ، ومزايا التقسيط وأهميته فى توسيع مجال الانتاج الصناعى ، كما أوضح الوسطاء والتجار فى توزيع المنتجات الصناعية ، وكذلك أهمية الخدمات التبادلية • يضاف الى ذلك أهمية ادارة الأعمال الصناعية التى تعتبر من أهم العمليات الاقتصادية الصناعية •

واذا كانت بعض الكتب الاقتصادية القديمة تقصر دراسات الاقتصاد الصناعى على دراسة الطبيعة والعمل ورأس المال والتنظيم والمغامرة ، فانه فى الوقت الحاضر قد اتسع ليشمل الادارة والتنظيم والتدريب

المهنى والادارى وعمليات التأميم وكل ما يتصل بالحياة العملية الصناعة من الناحية الاقتصادية .

(ج) النظام السياسى والصناعة :

عندما خرجت انجلترا على نظام قاعدة الذهب ، وأنشأت منطقة الاسترلينى سنة ١٩٣١ اقتفت مصر أثرها ـ لكونها مستعمرة بريطانية يومئذ ـ لا سيما وأن بريطانيا فى ذلك الحين كانت سوق مصر الرائجة للقطن والحاصلات الزراعية الأخرى ، فخشيت مصر ان هى بقيت على نظام قاعدة الذهب أن تحجم بريطانيا عن شراء المحاصيل الزراعية المصرية . وكانت مصر بحكم مركزها المالى والنقدى والسياسى لا تستطيع المفاضلة . ومن ثم فقد اضطرت مصر فى المجال الصناعى الى الخضوع لما تفرضه الأوضاع السياسية مما أدى الى أن تبقى مصر مزرعة لانتاج المواد الخام الضرورية للمصانع البريطانية ، وقد بذلت مصر جهودا كبيرة حتى خرجت عن منطقة الاسترلينى فى ١٥ يوليو عام ١٩٤٧ وذلك حتى تتمكن من انشاء قاعدة صناعية تتيح للجنيه المصرى فرصة الاستقلال التام وبحيث يصبح سعره ثابتا دائما . غير أن الأوضاع الاستعمارية كانت جذورها ضاربة فى النظام الاقتصادى والنظام السياسى للمصريين مما أدى الى عدم تقدم الصناعة المصرية . حتى قامت ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ وبذلك تم تحرير الصناعة المصرية ، فانطلقت عملاقا صاعدا منذ لحظة ميلادها . ومن ثم يمكن القول بالارتباط العضوى بين النظام السياسى والنظام الاقتصادى والصناعة . فكلما كانت السياسة متحررة ومعبرة عن وجهة نظر المجتمع . تقدمت الصناعة والعكس صحيح[١] .

---

(١) الدكتور محمود فهمى لهيطة : الاقتصاد الصناعى والبنك المركزى ، صفحات ٢٦١ ـ ٢٦٨ ـ ٢٨٠ ـ ٢٨٨ ، ٢٩٠ ـ ٢٩٤ .

(د) النظام التربوى والصناعة :

تعــرف التربية بأنهــا « العمليــة التى بها نكشــف الغطــاء عن الاستعدادات والقدرات الموروثة عنــد الأفراد ، من أجل احداث النمو فى شخصياتهم ، ويعرفها (جون ديوى) بقوله : « ان التربية هى عبارة عن خبرة ناشئة عن خبرة وتؤدى الى زيادة الخبرة » ، بمعنى أن التربية هى النمو الحادث عن الخبرة الذى يؤدى الى تكامل الشخصية •

غير أننا نرى من وجهة نظر علم الاجتماع التربوى أن التربية تزيد من حصيلة العنصر البشرى من المواطنين ، والذى يصبح عن طريق التربية ذخيرة بشرية كبرى لها استعداداتها ونشاطها • ومن ثم فان التربية ذات أهمية كبرى للمجتمع ، على اعتبــار أن التربية نظام اجتماعى أســاسى لا يقل أهمية عن النظام العائلى أو السياسى أو الدينى أو الاقتصادى فى المجتمع • ذلك أن التربية بالنسبة الى المجتمع تهدف الى تنشئة المواطنين تنشئة اجتماعية تمكنهم من مسايرة ثقافة المجتمع وتشربها والمشاركة فى الأنماط الثقافية فى هذا المجتمع •

ولما كان التدريب المهنى والتعليم الصــناعى الهندسى بمثابة أجزاء من النظام التربوى العام فى المجتمع ، فان الصناعة الحديثة فى أشد الحاجة الى نظــام تربوى مهنى للعمــل على توفير العمــال المهــرة والملاحظين والمديرين والمهندســين والأخصائيين الفنيين اللازمين لتقدم الصناعة • ذلك أن التربية فى المجتمعات الحضارية أكبر حجما منهــا فى المجتمعات المختلفة وأغزر كثافة وأشد نشاطا وانتاجا • وهذا ما دعا الى انقســامها الى هيئات متباينة لها اختصاصاتها ، وبهذا اتسع نطاق تقسيم العمل فيها وتعدد أبوابه وأصبح التخصص هو محور الحيــاة الاجتماعية فى العهد الحديث[١] • وهى تربية تمهد الفرد عقليا وجسميا وأخلاقيا ليملأ وظيفة

---

(١) Durkheim, E. : De la division du Travail Sociale — Paris, 1926, Chap. VI.

معينة فى المجتمع فيكون بذلك عضوا نافعا فيــه • وهى تشــمل كذلك معرفة الأخلاق المهنية ، على اعتبــار أن غايتها ليست أنانيــة ، بمعنى أن غايتها ليست مجرد تكسب الفرد ، وانما غايتهــا اجتماعية وهى كيــف يترابط الفرد مع الهيئة التى يعمل فيها ، وكيف يبتكر ويخطو بمهنته الى الأمام ، فتخلق عند الفرد الذاتية الاجتماعية التى ترمى الى رفع مستوى المجتمع الحضــارى بادراك معنى التماســك فيما بينه وبين هيئته المهنية وفيما بينها وبين غيرها من الهيئات وفيما بينها وبين المجتمع كله كوحدة اجتماعية كبرى •

نخلص من ذلك الى أن التربيــة نظام اجتماعى ينشــأ تلقائيــا فى المجتمعات البشرية ، يظهر الأفراد فيجدونه قائما فيها • بمعنى أن التربية نظام خارجى سابق لوجود الأفراد ، وهى أيضا من النظم العــامة التى لا يخلو منها أى مجتمع من المجتمعات البشرية ، كما أن الأفراد يأخذون بالنظام التربوى اجباريا حتى لا يتعرضوا للجزاء الاجتماعى اذا خرجوا عن حدوده • ومن ثم فان التربية نظام يضعه المجتمع لنفسه خاضع فى ذلك لظروف الزمان والمكان • وليست بنظام معين يضــعه فرد لفــرد آخر ، بمعنى أنها ليست فلسفة يضعها مفكر معين لتكوين انســان ميتافيزيقى لا يرتبط بزمان معين ومكان معين • وباختصــار فان غاية التربيــة غاية اجتماعية أيضا وهى نزع الأنانية المتأصلة فى الفرد وجعله غيريا • والغيرية هنا ليست غيرية انسانية مطلقة على طريقة (أوجست كونت) وانما هى غيرية اجتماعية لها حدود واضحة هى حدود البيئــة الاجتماعية والفترة التى يعيش فيها الانسان فى مجتمع معين ، بمعنى أن غايتها قريبة وليست بعيدة ، ألا وهى تكوين الانســان ليكون مواطنا صالحا ، ولا تنشــد تهيئته ليكون حكيما عاقلا أو قديسا كاملا • ومما يؤكد ذلك أن دوركايم

يعــرف التربية بأنها « التربية هى ما تلقنه الأجيال الناضجة للأجيــال التى لم تنضج بعد لمواجهة الحياة الاجتماعية »[١] .

أثر النظام التربوى فى النظم الاجتماعية :

يعتبر أثر النظام التربوى فى النظم الاجتماعية من الآثار العامة التى تتلخص فى حفظ المستوى الحضارى لهذه النظم مع الاجتهاد فى السير به الى الأمام فهى عند ما تدرس السياســة مثلا تصــورها فى تطورها وفى حالتها الراهنة ثم تجتهد فى رسم السبل لترقية أساليبها والوصول بها الى مستوى أرفع وأرقى . وبالمثل تفعل التربية بسائر النظم الأخرى اقتصادية كانت أم أخلاقية أم دينية .... الخ . فالتربيــة منبر عام لخلق الروح الاجتماعية عند الأفراد ، حيث تذكرهم بتاريخ نظمهم والأسس التى تقوم عليها فى الحاضر والأهداف التى تسير اليها ، فهى عامل قوى لربط الفرد بمجتمعه فى ماضيه وفى حاضره وفى مستقبله[١] .

مسكن العامل فى المدينة الصناعية :

المدينة الصناعية ـ كما أوضحنا من قبل ـ هى التى تكون الحرفة أو المهنة الغــالبة فيها هى الصــناعة . ومثــل هذه المدن تكون مكتظة بالسكان وتعــانى من أزمة المساكن ، الأمر الذى يجعل ســكن العامل الصناعى فيها من الصعوبة بمكان . ومن ثم فان مسكن العــامل يقع فى الأحياء الشعبية وقد يكون مشتركا وضيقا ، أو مستقلا وأكثر ضيقا ، ولا تتوافر فيه الخدمات أو المرافق السكنية الضرورية مثل الانارة والمياه والمجارى وما اليها . الأمر الذى يتطلب ضرورة التوسع فى المدن السكنية

---

(١) Durkhein, E. : Education et Sociologie, Paris, 1924. p. 49.

(٢) الدكتور عبد العــزيز عــزت : فى الاجتماع التربوى : الطبعــة الثانية ، القاهرة ١٩٥٧ ص ٩٨ ــ ٩٩ .

الصناعية ، حيث يتوافر للعامل فيها مسكنا ملائما ، فضلا عن الخدمات الاجتماعية والثقافية والترفيهية التى يوفرها المصنع للعاملين فيها •

خصائص اهل المجتمع الصناعى :

القاعدة الاجتماعية الأساسية فى المجتمع الصناعى هى سيادة ظاهرة تقسيم العمل ولذلك فان العاملين فى المجتمع الصناعى يتميزون بالخصائص التالية :

١ ــ خاصية التفرد أو الفردية Individualism حيث تساعد ظاهرة تقسيم العمل مع التقدم التكنولوجى على فصل الأفراد عن بعضهم البعض •

٢ ــ خاصية عدم الاشتراك فى نظام قيمى اجتماعى واحد •

٣ ــ خاصية عدم تشخيص العلاقات الاجتماعية •

٤ ــ خاصية عدم انقسام الأدوار وتحديدها •

٥ ــ خاصية حب المغامرة نتيجة للاحباط أو القلق أو عدم الشعور بالأمن مما يدفع أهل المجتمع الصناعى رجالا ونساء الى المغامرة بالالتحاق بالأعمال الصناعية الخطرة •

٦ ــ خاصية الخضوع لسيطرة المصنع وما يفرضه من سياسة انتاجية واجتماعية •

٧ ــ خاصية الرغبة فى اشباع الحاجات الانسانية بكل السبل •

٨ ــ خاصية الاستقلال من النظام القرابى •

الثقافة الصناعية :

تشتمل الثقافة الصناعية على دراسات حول الكفاية الانتاجيــة ، تخطيط الانتاج ، قياس الزمان والحركة ، مراقبة الانتاج والعوامل المؤثرة فى انتاجية العامل ، دراسات فى الأمن الصناعى واقتصاديات العمل • كما تشتمل على علاقات العمل والأجور وشئون العاملين والخدمات العمالية والعلاقات الانسانية والتأمينات الاجتماعية والدراسات النقابية والمهارات السلوكية ومختلف الموضوعات المرتبطة بعلاقات العمل • كما تشمل أيضا دراسة العلاقات العمالية الدولية والاقتصاد السياسى والمشكلات الدولية والمنظمات السياسية وتطور الحركات العمالية فى العالم والمؤثرات الدولية وغيرها من الموضوعات المرتبطة بالسياسة الدولية • يضاف الى ذلك الدراسات التربوية وقيادة الجماعات وادارة المناقشات وغير ذلك من الموضوعات التى تساعد على قيام الحركة العمالية بالمساهمة الايجابية فى الارتفاع بالقاعدة العمالية العريضة •

المجتمع الصناعى وعلم الاجتماع الصناعى :

هذا وقد أدت الدراسات المتعددة فى المجتمع الصناعى الى نشــأة فرع جــديد فى عــلم الاجتمــاع هو عــلم الاجتمــاع الصـــناعى Industrial Sociology غير أن مفاهيم هذا الفرع قد وصلت بالكاد Barely الى مســتوى النضــج Mautrity ومع ذلك فانه لا يزال غير محدد ومن الصعب تعريفــه بدقة • هذا وقد أدت دراسات (دوركايم وفيبر) فى مجال علم الاجتماع الصـــناعى ، وما تلاها من دراســات فى السنوات الحديثة الى تنمية وتطوير مفاهيم هذا العلم الجديد • ويمكن أن يقــال ذلك بالتحديد من تاريخ أبحــاث (هوثرون) Hawthrone الشهيرة فى الولايات المتحــدة الأمريكية سنة ١٩٣٠ • على حين أنه لم يبدأ الاهتمام به فى أوربا الا بعد الحرب العالمية الثانية ، وذلك لسيطرة

النزعات الفردية الاستعلائية Predominance التقليدية على المجالات الاقتصادية والنفسية والأيدلوجية المماثلة للصفوة Elite الصناعية ومقاومتها للبحث الميدانى فى مجال العلاقات الداخلية Inter-group relations فى الصناعة .

وقد أصبح الاهتمام فى مجال هذا الفرع الاجتماعى الجديد يدور حول علاقات ادارة الأفراد Management — employee relations ولكن مع التأكيد على التشاور الوثيق ، وكذلك أنماط القيادة الاشرافية . وتحليل جماعات العمل وقياس العلاقات الاجتماعية . كما حظى التغير الفنى Technical والنواحى التكنولوجية الأخرى بالاهتمام أيضا ، وبصفة خاصة تأثير هذا التغير على العلاقات بين المستويات الفنية المختلفة والعوامل التنظيمية والاجتماعية ، بما فيها البناء الادارى . وكذلك بناء ووظيفة علاقات الاتحادات الحرفية Trade unions واتحادات الادارة . ومنذ عهد قريب بدأ اهتمام علماء الاجتماع الصناعى يتجه نحو دراسة بناء ودور الجماعات المهنية Occupational groups وبصفة خاصة جماعات « الياقات البيضاء » White coller .

وعلى الرغم من أن الدراسات التجريبية الأولى فى هذا المجال كانت محدودة ومقصورة على مشاكل بعينها ، فان اهتماما أوسع ينبغى أن يوجه الى الدراسات التجريبية فى مجال علم الاجتماع الصناعى بهدف محاولة التعرف على الارتباط الداخلى interdependence للظواهر الاجتماعية فى هذا المجال . وكذلك تحليل الاطار العام للنظام الاجتماعى للمنظمة الصناعية أو لبناء الادارة ، وبالمثل دراسة بناء ووظيفة المنظمات المختلفة ، والمفاهيم التقليدية للبيروقراطية Bureaucracy كما اتجه

البحث الآن فى هذا المجال الى تحديد الصلات التى تربط الملامح البنائية للنظم الصناعية بالجوانب الأخرى الهامة فى المجتمع ، مثل النظام التربوى ، البناء الطبقى ، وتنظيم المجتمع المحلى Community organisation • وكلما اتسعت الآفاق النظرية لهذا العلم تطلب ذلك اجراء الكثير من الدراسات التجريبية لربط الدراسات النظرية بنتائج الدراسات الميدانية •

نخلص من ذلك الى أن مجال الدراسة فى علم الاجتماع الصناعى لا يزال ينمو الى النقطة التى يمكن أن يوصف عندها بأنه تحليل للنظم وللعلاقات بين المنظمات الصناعية ، وعلى الجانب الآخر من ذلك أيضا تحليل الصلات بين الظواهر الصناعية ونظم المجتمع الأوسع • ومن الناحية التصورية فان ذلك هو الوضع الصحيح غير أنه يتبقى الكثير الذى يتطلب الانجاز على المستوى التجريبى • ومن أمثلة ذلك كثير من المشكلات ، التى تكون نسبيا ، وبصفة خاصة داخلة فى المنظمات الصناعية ، على اعتبار أن معرفتنا للمنظمة الصناعية لا تزال قائمة على شذرات Fragmentary وكذلك الحال بالنسبة للصلات بين المنظمات الصناعية والمنظمات الاجتماعية الأخرى ، عبارة عن معلومات متفرقة[1] •

***

المجتمع الصناعى والعلاقات الصناعية :

من رأى (شنيدر) أن العامل يتفاعل مع زملائه فى نوعين متشابكين أو متداخلين من العلاقات الاجتماعية ، أحدهما هو النوع الذى نطلق عليه اسم العلاقات الرسمية للانتاج ، بمعنى أن العامل بحكم عمله يدخل

---

(١) Moore, W.E. : Industrial Relations and the social order and see also : scott, W.H. (et al.,) : Technical change and Industrial relations.

فى علاقات اجتماعية من شكل ونوع خاصين مع الادارة • على حين أن النوع الثانى من العلاقات الاجتماعية المتداخلة أيضا ، يمكن أن يحدد بواسطة طبيعة التصنيع كنظام انتاج وأيضا بطبيعة الادارة • هذان الشكلان من العلاقات الاجتماعية يطلق عليهما (العلاقات الاجتماعية للعمل) • ومن تطوير مفاهيم العلاقات الاجتماعية للعمل ظهرت العلاقات الصناعية كوحدة مستقلة فى اطار العمل الحديث ، لا سيما بعد التثبت من نتائج الدراسات التى توفر على اجرائها علماء الاجتماع الصناعى وعلماء النفس الصناعى • حيث تأكد أن جو المصنع انما يؤدى الى ظهور مواقف جديدة • ولكى يمكن فهم تلك المواقف فانه من الضرورى العمل على اجراء تحليل دقيق للأدوار الرئيسية للوظائف المختلفة التى يمكن أن تقسم الى سبع مستويات هى :

١ ـ مجلس الادارة •

٢ ـ المديرون •

٣ ـ المراقبون والفنيون •

٤ ـ المستخدمون الكتابيون •

٥ ـ العمال المهرة •

٦ ـ العمال أنصاف المهرة •

٧ ـ العمال غير المهرة •

ذلك أن الاتفاق على كيفية التوافق بين الأدوار المختلفة والمواقف الملائمة لهذه الأدوار فانه يمكن تجنيب العمال حالات سوء التكيف التى تصاحب العمل الآلى[١] •

---

(١) Jones, E.M.H. : Human relations and Modern Management Amesterdam, North Holland publishing Co., 1958.

الصناعى بوجه خاص ، ذلك أنه ــ كما أسلفنا ــ فانه فى مجال العمل الصناعى
الى تغير عميق فى مقومات العمل الصناعى بوجه عام وفى علاقات العمـــل

بوجه خاص ، ذلك أنه ــ كما أسلفنا ــ فانه فى مجال العمـــل الصناعى لم يعد الفرد هو العامل وهو المنظم ، وانما حدث انفصال بين كل من هذه الوظائف حيث أصبح العـــامل يعمل فى خدمة الرأســـمالى تحت اشراف المنظم • وبذلك تحول العامل من منتج يحصل على ريع الى أجير يحصل على أجر فى مقابل عمله • وبالاضافة الى ذلك فقد حرم العامل أيضا من صفته التنظيمية التى كان يتمتع بها فى ظل الاقتصاد العائلى ، وأصبحت هذه الوظيفة التخطيطية من اختصاص منظم متفرغ سواء أكان هذا المنظم هو صاحب رأس المال أو هو انسان متخصص فى هذا النوع من العمل •

وقد أدرك العمال نتيجة لهذه التطورات العميقة فى المجال الصناعى أنهم أقوياء بعددهم الكبير ، ضعفاء بتفرقهم وعدم توحد كلمتهم ، ومن ثم شرعوا فى التفكير فى انشـــاء المنظمات النقابية والاتحـــادات والروابط العمالية التى يمكن أن تعبر عن وجهات أنظارهم وتضمن لهم الحصـــول على حقوقهم ••• الخ •

كل ذلك أدى الى ابراز أهميـــة العـــلاقات الصـــناعية فى محيط المشروعات الصناعية الحديثة • بيد أن مفهوم العـــلاقات الصـــناعية قد تعرض أيضا للتطور التدريجى ذلك أن مفهوم العـــلاقات الصـــناعية فى البداية كان مقصورا على تهيئة أنسب الأساليب لتحقيق أقصى درجات الكفاية الانتاجية ومايتصل بذلك من تحقيق أسباب الأمن الصناعى للتقليل من أمراض المهنة واصابات العمـــل ، لا سيما بعد أن أصبحت الصناعة مسئولة عن هذه الاصابات والأمراض المهنية • ومن ثم فقد أصبح مفهوم العلاقات الصناعية يشمل كل ما يتعلق بتحسين ورفع الكفاية الانتـــاجية Productivity من جانب ورعاية الأيدى العاملة من جانب آخر •

نخلص من هذا الى أن مفهوم العـلاقات الصناعية قد أصـبح من واجبه الاهتمام بكل من العلاقات الجماعية المنبثقة عن جو العمل من جهة وبحالة العامل كفرد فى محيط الجماعات التى تؤثر فيه داخل العمـل من جانب آخر ، وقد أصـبحت ادارة العـلاقات الصـناعية فى المشروعات الصناعية فى ضوء هذا المفهوم تنقسم الى :

١ ـ قسم شئون الأفراد •

٢ ـ قسم الدراسات والبحوث فى الادارة والتنظيم •

٣ ـ قسم التدريب المهنى Vocational Training والتنظيم •

٤ ـ قسم الأمن الصناعى Industrial security •

وبذلك احتلت العلاقات الصناعية مكانها بين العـلاقات الانسانية والعلاقات العامة التى أصبحت محل اهتمام كبير فى المجـالات الانتاجية الصناعية وفى المجتمع الصناعى بوجه عام •

مشكلات الهجرة من الريف الى المدن

وبالرغم من قلة الصناعة فى البلاد فانه يبدو أننا مقبلون على ثورة صناعية هائلة فى الجمهورية العربية المتحدة ، ويحدونا هذا الى أن نعطى اهتماما خاصا لمشكلات القروى المهاجر للمناطق الصناعية للعمل بها ، ويقول الأستاذ عبد الغنى سعيد فى هذا :

« التحضر بطبيعته ظاهرة حركية ديناميكية ، ومن ثم ترجع المشاكل التى تكتنفه عادة الى عدم التوازن بين قطاعات المتجتمع الذى يمر فى مرحلة التحضر .

ولتحقيق التوازن ينحصر البحث فى ثلاثة ميادين رئيسية :

١ ــ مدى التوازن بين معدل النمو الاقتصادى والاجتماعى ومعدل العمران واستكمال المرافق العمرانية .

٢ ــ مدى التوازن النفسى أو مدى التكيف أو الأقلمة بالنسبة للمتحولين من البيئة الريفية الي البيئة الحضرية أو الوافدين الى هذه البيئة من بيئات أخرى بسيطة .

٣ ــ مدى التوازن بين معدل النزوح الى البيئة الحضرية وبين الاحتياجات الفعلية لهذه البيئة وقدرتها على استيعاب القوى العاملة[١] .

وفيما يلى سوف تتناول مشكلات العامل المار فى عملية التحضر وأثر ذلك فى ناحيتين : التنمية الاقتصادية ، والتنمية الاجتماعية .

---

(١) عبد الغنى سعيد ، «محاضر جلسات لجنة دراسة آثار التحضر» وزارة الشئون الاجتماعية والعمل ، ١٩٦١/١/١٨ ص ٢ .

المشكلات النفسية والاجتماعية للعامل المهاجر :

بعد هذا التقديم يمكن حصر أهم المشكلات النفسية والاجتماعية التى تقابل الريفى النازح فيما يلى :

١ ـ الانفصال :

يهاجر كثير من الشبان ومن الآباء الى المدينة دون مصاحبة أسرهم • ومجرد انفصال بعض أفراد الأسرة عن باقى العائلة يؤدى الى مشكلة للجانبين : مشكلة للمهاجر ومشكلة للأسرة • فيقع العامل فى مشكلة الشعور بالوحدة والحنين لأهله وبلده ، ومشكلة القيام بعمليات لم يألفها كانت من مسئوليات الزوجة والأولاد فيما سبق ، كما تقع الأسرة أيضا فى مشكلة المعيشة دون رب الأسرة ، ومشكلة القيام بمسئوليات لم تعتدها فى أثناء وجود الأب •

٢ ـ تغير دور المهاجر فى الأسرة :

وبانتقال العائلة بكاملها من الريف للمدينة يعمل الأب فى الصناعة أو التجارة ويذهب الأولاد للمدارس أو يعملون كصبيان للتدريب على مهن مختلفة ، فى حين تبقى الأم فى المنزل أو تعمل فى مصنع أو كخادمة فى البيوت ••• الخ • أى أن الاقتصاد الأسري الذى تعوده أهل الريف يتحول الى اقتصاد تخصصى فيعمل كل فرد من الأسرة فى جانب ، فبعد أن كانت الأسرة كلها تعمل فى الزراعة وتوابعها بقيادة الأب • يتفرق كل منهم فى مهنة •

ويؤثر هذا الوضع تأثيرا كبيرا فى نوع العلاقات داخل الأسرة ، فتقل سلطة الأب على الزوجة والأولاد • ومن ناحية أخرى تفقد العائلة مسئوليتها فى تعليم أبنائها ومسئوليتها فى تزويج أولادها وخاصة الذكور

منهم ، وتخف درجة مسئوليتها عن المحتاجين من الأقارب • وهكذا يتغير دور الأب كمسئول ومهيمن على كل كبيرة وصغيرة فى الأسرة ، وتتوزع المسئولية بين أفراد الأسرة لاصرار الأب على مسئوليته بالمفهوم الريفى ، ولثورة الأبناء على ما يعتبرونه تدخلا فى شئونهم الخاصة •

٣ ـ زيادة مسئولية العامل وحريته فى المدينة :

يعيش كثير من أهل الريف فى مجاميع أسرية ، فيتزوج الأبناء ويبقون مع الأسرة وبمرور الوقت يتكون مجتمع صغير واحد من الجد والأبناء وزوجاتهم والحفدة جميعا فى نفس الوقت تحت رئاسة الأب الكبير الذى يمتلك الأرض •

وبانتقال احدى العائلات النووية (التى كانت أصلا جزءا من العائلة المركبة) الى المدينة يختفى الأب الكبير الذى كان مصدر الحكم والحكمة فى العائلة فيجد العامل المهاجر نفسه مضطرا الى القيام بمسئولية أسرته كاملا متخذا دور الأب الكبير • وبذا يصبح أكثر مسئولية نحو أسرته فيتخذ القرارات ويعقد الاتفاقات الخاصة بها •

ومن ناحية أخرى يؤدى التفكك النسبى فى المجتمع الحضرى الى زيادة حرية العامل المهاجر فى تصرفاته ، اذ تقل سلطة المجتمع بتقاليده وعاداته وأعرافه التى كانت مفروضة عليه فى مجتمعه القروى الصغير •

وهكذا يصبح العامل أكثر مسئولية نحو أسرته ، وأكثر حرية فى المجتمع الخارجى ••• الخ ، هذه المسئولية والحرية المفاجئة التى لم يعتدها العامل المهاجر ولم يعد لها ، تؤدى الى قلقه والى شعوره بعدم الأمن وعدم الطمأنينة وقلة الارتياح للأوضاع •

٤ ـ تقبل المجتمع الجديد للعامل :

ومشكلة تقبل أهل المدينة للعمال المهاجرين ، لمن أهم المشكلات التى يقابلها العامل فى وطنه الجديد ، فكثيرا ما يشعر أهل المدينة الأصليون بالضيق من العمال المهاجرين لاقتناعهم بأن هؤلاء الدخلاء يزاحمونهم فى أقواتهم ، فكم من معركة قامت بين السكان الأصليين والمهاجرين لهذا السبب .

ويؤدى هذا أيضا الى قلق العامل المهاجر لشعوره بعدم تقبل الآخرين له تقبلا كاملا .

٥ ـ زيادة دخل العامل المهاجر زيادة مفاجئة :

يزيد أجر العامل بانتقاله من الزراعة الى الصناعة ، ويؤدى هذا فى بعض الأحيان الى انغماس فى المكيفات والمخدرات بل وانغماسه فى الديون أيضا .

وأساس المشكلة هنا هو عدم الاتزان بين نمو العامل الاقتصادى ونموه الاجتماعى ، أى أن نمو دخله فى المدينة لا يصاحبه فى العادة نمو مكافىء فى شعوره باحتياجات اجتماعية جديدة وبذا لا يتمكن من استغلال هذا الدخل الزائد فيما يعود عليه وعلى أسرته بالنفع .

والنتيجة المباشرة لهذا التفاوت فى النمو الاقتصادى والاجتماعى هى حيرة العامل وقلقه فيما يجب أن يفعله ازاء دخله الجديد .

٦ ـ التحضر والاسكان :

من الممكن تقسيم المناطق السكنية فى كل مدينة فى بلادنا الى خمسة أقسام :

(ا) قسم حديث وفاخر (نسـبيا على الأقل) وتسـكنه الطبقة الغنية ، وفى العادة يكون حى التجارة القطاعى فى المدينـة امتداد لهذا القسم .

(ب) قسم متوسط الحال وتسكنه الطبقة المتوسطة .

(جـ) قسم قديم ببيوته المتهـالكة وشـوارعه الضيقة ، وازدحام سكانه ، وغلاء مساكنه[1] (على عكس ما ينتظر) وتسكنه الطبقة الفقيرة .

(د) قسم يقع خارج المدينة عادة أو بالقرب من المصانع ويتألف من مساكن أقرب للأكواخ منها للبيوت ، وأشبه بالريف منها بالمدينة . وكثيرا ما يكون سـكان هذا القسم غير متملكين للأرض التى يسكنون عليها ، وفى العادة لا تصـل خدمات المدينة لهذا القسم .

(هـ) الضـواحى ، وتسكنها اما الطبقة المتوسـطة أو الغنية على حسب نوع الضاحية .

ولا يعنى هذا أن هذه الأقسام من لوازم كل مدينة فى بلادنا ولكنها أقسام موجودة فى أغلب مدننا .

ومشكلة المهاجر هى أنه غالبا ما يسكن القسمين (جـ) و (د) فى التقسيم السـابق ، أى أنه يسكن أسـوأ أحياء المدينة ، لقرب طريقـة حياتها من حيـاة الريف من ناحية ولرخصها من ناحيـة أخرى ، فيطمئن

---

(١) فى العادة تسكن كل عدة عائلات فى مسـكن واحد ، ولذا تبدو المساكن رخيصة بعكس الواقع .

الريفى لهذه الأحياء ويبقى فيها ، فاذا تحسن حاله زحف أبناؤه الى الأحياء الأخرى بعد زواجهم وانفصالهم عن العائلة الأم .

والمشكلة هنا ذات ثلاث شعب :

(ا) مشكلة الريفى الذى يهرب من الريف السيىء الحال الى أحياء أسوأ حالا ، ففيها الأمراض والأجرام والازدحام[1] وغيرها ، بل انه يعيش أحيانا دون أى خدمات حكومية ، كما ذكرنا ، لسكناه على الهامش بين الريف والمدينة .

(ب) مشكلة الأحياء الشعبية التى تزداد ازدحاما ، ومشكلة تلك الأحياء القروية التى تبنى من أطراف المدينة فتشوه جمالها وتسىء اليها ، فتنمو المدن بطريقة مهلهلة دون تخطيط .

(جـ) مشكلة عدم تمكن النمو العمرانى فى المدينة (مساكن ومجارى وانارة ومواصلات ، مدارس وأسواق ومستشفيات ... الخ) من مجابهة الزيادة السريعة فى عدد السكان عن طريق الهجرة .

٧ ــ التحضر والصحة :

قلنا ان أغلب المهاجرين يكونون عادة من الفقراء ، ولذا يستوطنون أفقر الأحياء الشعبية ، ويقبلون أقل الأجور ، ويعملون فى أصعب

---

(١) يكفى أن نعرف أن كثافة السكان فى حى باب الشعرية ــ بالقاهرة ــ تبلغ أكثر من أربعة عشر ضعفا لكثافتها فى حى شبرا ، وأكثر من أربعين ضعفا لكثافتها فى مصر الجديدة وحوالى عشرة أضعاف كثافتها فى مدينة القاهرة ككل .

هذه المعلومات مستنتجة من « دراسة اجتماعية للخدمات بحى الدرب الأحمر » الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية ، ١٩٥٦ ، ص ١٨ .

الأعمال ، فاذا أضفنا الى هذا أن المهاجر الجديد يحاول التوفير فى الأكل عادة حتى يطمئن لوجود ثمن الأكلات التالية وحتى يجمع مبلغا من المال يعود به لأهله فى القرية بعد فترة ، فان هذا يحدونا لأن نستنتج أن المهاجر — وخاصة الجديد منهم — يكون معرضا لكل أنواع الأمراض التى تتوافر فى بيئته السخية بالجراثيم ، والتى يتعرض لها جسمه الجائع .

ينتقل الريفى للمدينة محملا بعدد من الأمراض مثل الرمد والملاريا والبلهارسيا والانكلستوما ، فتختفى منه بعضها (مثل الملاريا والبلهارسيا والانكلستوما) لمجرد كونه فى المدينة ... يشرب الماء النظيف ويقضى حاجته فى المرحاض بدل شاطىء الترعة وعوضا عن هذه الأمراض يتعرض المهاجر فى المدينة الى أمراض أخرى حضرية ، مثل السل والالتهاب الرئوى والأمراض السرية ، فاذا عاد للقرية للزيارة نقل معه بعضها مثل الأمراض السرية .

ومن ناحية أخرى تؤدى الهجرة الى زيادة سكان المدينة زيادة مفاجئة فى بعض الأحيان (كما حدث فى أثناء الحرب العالمية الأخيرة) ويؤدى هذا بدوره الى زيادة الضغط على المنافع الصحية كالمياه والمراحيض مما يسبب فساد المواسير والمجارى العامة وانفجارها فى بعض الأحيان .

ويعتمد المهاجرون فى مشترواتهم على صغار التجار الذين يصعب تطبيق قوانين الدولة عليهم ، وقد بذلت محاولات لتطبيق القوانين الصحية على بائعى الخضر والفاكهة واللبن ولم تفلح . ويساعد هذا طبعا فى انتشار الأمراض المعوية والاسهال .

ويقابل كل هذا ، أن الرعاية الصحية فى المدينة أكبر : لوجود المياه النظيفة والمجارى ، ولتوفر الأطباء والمستشفيات ، ولاهتمام السلطات الصحية بتلقيح أهل المدينة بالأمصال المضادة للأمراض وغير ذلك .

مشكلات المصنع المرتبطة بالعامل المهاجر :

وبالاضافة الى المشكلات النفسية والاجتماعية فان هناك مشكلات اقتصادية أيضا ، وفيما يلى سوف تتناول بعض المشكلات التى يشكو منها مديرو المصانع :

١ ــ جهل العامل بالمهنة الجديدة :

يشكو أصحاب المصانع باستمرار من ندرة العامل الماهر المتخصص ، حتى ان أحد أصحاب المصانع طلب من المؤلف يوما أن يأتيه بأى عدد من البرادين الماهرين ليعينوا فورا بأجور تزيد على مائة قرش فى اليوم ، وفشل الكاتب فى احضار براد واحد ينجح فى اختبار المصنع •

وليس الأمر يقتصر على هذا ، فأصحاب المصانع يشكون أيضا من جهل العمال بالمعلومات العامة الأساسية التى تصلح لأن تكون أساسا للتدريب الذى ينظمه المصنع •

٢ ــ كثرة تحركات العمال :

ولعدم اطمئنان المهاجر للمجتمع الجديد والعمل الصناعى يكثر انتقاله من مصنع لمصنع ومن بلد لبلد ، ويؤدى هذا طبعا الى عدم تمكن المصنع من تدريب العامل على مهنة معينة يمتاز فيها ، ويؤدى هذا بدوره الى بقاء مستوى الصناعة منخفضا •

٣ ــ كثرة غياب العمال :

ويؤدى عدم انقطاع العامل عن مجتمعه الأصلى الى كثرة تغيبه عن العمل بالمصنع ، اذ يعود العامل لقريته لزيارة أهله أو للمساعدة فى حصاد محصوله أو لحضور مناسبة عائلية كالزواج والأعياد ••• الخ • وبالطبع يؤثر هذا فى انتاج المصنع ، كما يؤدى الى اضطرار المصنع الى الاحتفاظ بعدد من العمال كاحتياطى للغياب •

٤ ـ عدم تقبل العمال لنظام المجتمع الصناعى :

وعلاوة على ما سبق ، يشكو أصحاب المصانع من أن العمال القرويين يتركون المصنع أو يتغيبون عنه أو يتأخرون عن مواعيد العمل دون سابق انذار لعدم تعودهم على عادات الصناعة ولعدم تقديرهم للمشكلات التى تتأتى عن التغيب المفاجىء ويؤدى هذا بالطبع الى زيادة الجزاءات مما يزيد من نفور العامل من النظام الجديد الذى لم يعتده فيزداد بذلك الوضع تعقيدا .

وهكذا نرى أن النتيجة المباشرة للقلق الذى يسود حياة العامل المار بعملية التحضر ، تأثر الانتاج الصناعى فى البلاد فى الوقت الذى نعمل فيه على رفع كفايةالعامل الانتاجية بكل وسيلة وسبيل .

ويؤكد البحث الذى قام به قسم تنظيم المجتمع بالمعهد العالى للخدمة الاجتماعية بالقاهرة هذا الاتجاه ، فقد وجد أن العمال المهاجرين فى منطقة بهتيم أسوأ حالا من زملائهم غير المهاجرين ، من ناحية الجزاءات والاجازات والاصابات .

مشكلات التاجر المهاجر :

تكاد تنحصر المشاكل الهامة للتاجر المهاجر فى ثلاث نواح : قلة رأس المال ، وجهل القروى بأصول التجارة ، وعدم تقديره لأصول التعاون مع التجار الآخرين خلال الغرف التجارية .

١ ـ قلة رأس المال :

كثيرا ما يبدأ القروى تجارته برأس مال بسيط لا يزد على بضعة قروش ، بل انه كثيرا ما يلجأ الى السلفة لتكوين رأس ماله البسيط . ويؤدى هذا الى أن تكون تجارته محدودة للغاية لا تكاد تقوم بأوده .

ولا يعنى هذا أن جميع التجار المهاجرين يعيشون على هذه الألوان البسيطة من التجارة ، فكثير منهم يفتح محلات للبقالة والعطارة ، ويتاجر فى الحبوب والألبان ... الخ . على أن قلة رأس المال هى احدى مشكلاتهم الحادة فى أغلب الأحيان .

ولا تقتصر هذه القضية على المهاجر نفسه ، فالاقتصاد القومى فى المرحلة الراهنة فى حاجة الى مزيد من المحلات التجارية الكبيرة التى تحدد الأسعار ، وتقدم المبيعات فى مظهر لائق وصحى ، وتمكن التجارة من استخدام المختصين وذوى الأفق الواسع الذى يمكنهم التعامل على المستويين القومى والدولى ، كل هذا لا يتوفر عادة فى التاجر المهاجر .

٢ ـ الجهل بأصول التجارة :

والتجارة علم له أصول تدرس فى المعاهد والجامعات ، وجهل النازح بهذه الأصول يحد من مقدرته على النمو كما يحد من مستقبل التجارة كمهنة فى البلاد كلها ، فكم من تاجر أفلس لعدم توفيقه فى اختيار نوع السلعة المطلوبة فى المجتمع أو لعدم عرض تجارته بالطريقة المناسبة . وفى الوقت نفسه ومن ناحية أخرى لا يزال البعض يشكو من المساومات التى تحدث فى البيع والشراء ومن الغش فى الأصناف والميزان ومن التغالى فى الأسعار فى بعض الأحيان ، كل هذا يرجع الى جهل التاجر بمبادىء مهنته .

وكثيرا ما يؤدى هذا الجهل الى تنافس هؤلاء التجار بل تناحرهم بشكل يصل فى بعض الأحيان الى المعارك ، مما يؤدى بمصالحهم ومصالح التجارة عامة .

٣ ـ الجهل بدور الغرف التجارية :

وللغرف التجارية دور هام فى الارتفاع بمستوى التجارة والتجار ، فهى التى تهتم بفتح أسـواق جديدة ، وهى التى توجه الحكومة الى اصدار التشريعات لحماية التجـارة ، وهى التى تجمع التجـار للتشاور والتعاون فى شئونهم المهنية ... الخ وقد يظن القارىء أن مهمة الغرف التجارية تقتصر على كبار التجار ، وهذا غير صحيح فمهمتها تمتد لكل أنواع التجارة وكل مستويات التجار . ولكن جهل الريفى النازح بمهمة الغرف التجارية وتخوفه من الاشتراك مع آخرين فى أى عملية تجارية ، وشكه فى نوايا المهيمنين على تلك الغـرف ، وتفتت رأس مال التجـار الريفيين بشكل زائد ـ كل هذا يجعل مهمة المسئولين فى تلك الغـرف لمساعدة هذه الفئة من التجار صـعبة ، مما يؤدى الى بقائهم على حالهم الا فى النادر والخارج عن المألوف .

***

دور التغير الاجتماعى فى المجتمع الحضرى

يقصـد بالتخلف الاجتماعى Social Bockward فى مجتمع ما ، حالة التأخر القائمة فى هذا المجتمع • فالمجتمع الذى يستطيع استـثمار موارده الطبيعية وتنميتهـا يعتبر مجتمعا متخلفـا Underdeveloped وقد يكون هذا التخلف جزئيا بمعنى أن يكون التخلف فى مظهر أو أكثر من المظاهر الاجتماعية دون باقى المظاهر الأخرى ، فقد يكون التخلف فى الناحية الثقافية أو الصناعية أو الناحية العـلمية ••• وقد يؤدى النمو الصناعى السريع الى ارتفاع المسـتوى الحضارى فى المدن والمنـاطق الصناعية عن باقى مناطق المجتمع •

ويلاحظ أن القرن العشرين هو القرن الذى نطلق عليه (قرن عصر الشعوب) على اعتبار أنه مهما كانت درجة التباين الأيدلوجى بين دولة وأخرى ، نجد أن الدولة أى دولة أصـبح من أول واجباتهـا النهوض بالشـعب على مختلف المسـتويات الاجتماعية والاقتصـادية والثقافية والصحية والتعليمية ••• ومن ثم فان رئيس الدولة لم يعد يستطيع هو أو رئيس الحكومة ترديد هذه المعانى ألفاظا دون أن يترجمها الى تشريعات ومشروعات وبرامج ••• وعلى الجانب الآخر فان المواطن قد أصبح على وعى بحقوقه فى أن يعيش حياة كريمة ، وأن يشارك الحاكم فى العمل على تحقيق مستوى المعيشة المرتقب بقدر ما تسـمح له مدركاته لواجبه ازاء المجموع ، واسهامه فى المصلحة العامة •

كما يلاحظ أن نمو وعى الحاكم والمحكومين ازاء واقع مجتمعاتهم ليس حديثا ، وانما تمتد جذوره الى ما قبـل القرن العشرين ، وان كان قد تبلور فى السنوات الأخيرة بصورة واضحة ، حتى انها أخذت شكلا عالميا لا يمكن تجاهله • ويتمثل هذا النمو فى الوعى بمشروعات التنمية

الاجتماعية والاقتصادية وهذه المشروعات التى تشتد الحاجة اليها فى المناطق الأقل تقدما أو التى تطلق عليها صفة « المتخلفة » لا سيما فى البيئات الريفية أو البدوية التى لم تحظ حتى الآن بما حظيت به المناطق الحضارية من مشروعات للخدمات وأخرى للتنمية وثالثة للتصنيع ... الخ . غير أن المناطق المتخلفة لا يقصد بها مناطق أو دول معينة من العالم ، وذلك أن التخلف قد يوجد فى قلب عواصم الدول المتقدمة قبل الآخذة فى النمو ، وان كان فى صورة رمزية ، وعلى سبيل المثال فانه فى مدينة نيويورك أو لندن أو موسكو أو باريس ... توجد الأحياء الشعبية Urban Slums الفقيرة المزدحمة بالسكان والتى تتوافر فيها شروط التخلف . حتى ان دولا متقدمة مثل الولايات المتحدة الأمريكية قد أنشأت مجلسا للنهوض بالجيرة[1] وذلك لمعالجة مشكلات الأحياء الشعبية . ومن هذا يمكن القول أن الدول المتقدمة مثل الدول المتخلفة فى حاجة الى برامج للتنمية الاجتماعية ، مع اختلاف فى الدرجة ــ وليس فى النوع ــ من أجل التغيير الاجتماعى Social Changing المستمر .

هذا وترجع أسباب التخلف الاجتماعى الى عوامل كثيرة من أهمها :

١ ــ الفقر : ويقصد به انخفاض متوسط الدخل الفردى السنوى Per capita income وما يترتب على ذلك من سوء الصحة والتغذية والمسكن والخدمات بالاضافة الى انتشار الأوبئة ، وضآلة امكانيات نشر الثقافة والتنظيم والادارة وانتشار الجرائم والسرقات والاعتداء على الآخرين .

---

(١) American Council to our neighbor hoods.

٢ ـ انخفاض معدلات الانتاج : نتيجة لاعتماد العاملين فى المجتمعات المتخلفة على الوسائل البدائية فى الانتاج ، ولعدم توافر المدارس ومراكز التدريب المهنى والمعاهد الصناعية وكليات الهندسة ، فان معدلات انتاج العاملين فى هذه المجتمعات تنخفض عن معدلات انتاج زملائهم فى الدول المتقدمة •

ومن ثم فان الانتاج الزراعى فى الدول المتخلفة لا يكاد يكفى حاجة تلك المجتمعات ، وللمقارنة فان انتاج الفرد فى المجتمعات المتخلفة من الحاصلات الزراعية لا يكاد يكفى اثنين أو ثلاثة • فى حين أن انتاج الفرد فى دول متقدمة مثل الولايات المتحدة الأمريكية يكفى لتغطية احتياجات ثلاثين فردا • وعدم وجود فائض من الانتاج فى المجتمعات المتخلفة يترتب عليه عدم وجود مدخرات ، ومن ثم فان هذه المجتمعات تعانى من الانخفاض الشديد فى رءوس أموالها •

٣ ـ ندرة الخبرات الفنية والادارية : حيث تفتقر الدول المتخلفة نتيجة عدم انتشار دور التعليم والتدريب والتثقيف ـ الى القوى العاملة التى تنهض بأعباء التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، وتساير التغيرات الاجتماعية والحضارية التى تتطلبها التحولات الاقتصادية • ويضاف الى ذلك ارتفاع معدلات المواليد والوفيات فى هذه المجتمعات ، وقصور المدارس عن استيعاب جميع الأطفال الذين هم فى سن التعليم ، وتصل نسبة الأمية فى الوقت الحاضر الى ٧٥٪ بين الذكور و٨٨٪ بين الاناث فى الدول العربية على سبيل المثال • وهى أعلى نسب الأمية فى العالم • ونظرا لأن الأمية من أخطر المعوقات فى سبيل التنمية الاقتصادية والعدالة الاجتماعية ، والحفاظ على كرامة الانسان ، فانه من الضرورى بذل أقصى الجهود لخفض هذه النسب خفضا كبيرا فى أقرب فرصة ، وبذلك يصبح من الميسور تحويل العاملين فى الزراعة أو فى الحرف والصناعات

البدائية أو الأولية الى المهن الصناعية الحديثة تمهيدا للانتقال الى عصر الانتاج الآلى الثقيل •

٤ ــ انخفاض العمالة : ذلك أنه لما كانت المجتمعات المتخلفة تعتمد فى الغالب على محصول واحد ، أو مصدر واحد للانتاج ، فان مجالات العمل فى هذه المجتمعات لا تستوعب كل القادرين على العمل ، بالاضافة الى وجود بعض العادات والتقاليد التى تحول بين الناس وبين الاستثمار السليم للثروات القومية • ففى الهند مثلا تقف العادات والتقاليد والأديان ضد تحسين الانتاج الحيوانى للأبقار التى يعبدها بعضهم •

٥ ــ تزايد السكان : فقد أصبح من المسلمات أنه كلما ارتقى أفراد المجتمع علميا واقتصاديا واجتماعيا ، انخفض معدل الانجاب لديهم باستخدام العقاقير الطبية وغيرها • وبالعكس من ذلك فان أفراد المجتمعات المتخلفة الذين يعانون من التخلف العلمى والاقتصادى والاجتماعى ترتفع بينهم معدلات المواليد والوفيات بدرجة كبيرة • ويترتب على عجز مصادر الثروات الطبيعية فى هذه المجتمعات عن تغطية احتياجات أفرادها نتيجة للضغط السكانى على الرقعة الزراعية ما يلى :

(ا) ارتفاع معدلات الخصوبة فهى تزيد عن ٤٠ فى الألف •

(ب) ارتفاع معدلات الوفاة وانخفاض متوسط العمر المتوقع عند الميلاد •

(ج) عدم كفاية التغذية ووجود نقص من الناحية الغذائية •

(د) وسائل صحية بدائية ، سواء خاصة أو عامة •

(هـ) ازدحام المناطق الريفية[١] •

وقد جرى العرف فى المجلس الاقتصادى والاجتماعى بالأمم المتحدة ، على تحديد مستويات التخلف على أساس العامل الاقتصادى ، بحيث تقسم الدول على حسب متوسط دخل الفرد السنوى •

التخلف والتغير الاجتماعى :

مما سبق يتضح أن قضية التخلف وقضية التغير الاجتماعى هى قضية تغيير حضارى على اعتبار أن التغيير الاجتماعى ينظر اليه أحيانا على أنه « وضع انتقالى من حالة حضارية معينة الى حالة أخرى » أى وضع حضارى تختلط فيه ملامح الحضارتين : الحضارة القائمة والحضارة الرتقبة »[٢] ، وهكذا فان المنظور الحضارى لعملية التغيير الاجتماعى هو أنها تتضمن متغيرات حضارية ترتبط بعملية قبول التغيير أو رفضه •

ويمكن القول بأن المعوقات الحضارية المتعلقة بتقاليد وعرف وعادات وتراث أى مجتمع وأنماط سلوكه هى معوقات متعددة يمكن التغلب عليها ، على اعتبار أن وجود مجال حضارى Cultural Stretch يمكن عن طريقه استيعاب عملية التغيير الاجتماعى[٣] •

وهذا المجال الحضارى من وجهة النظر الاجتماعية لا يخرج عن كونه صورة اجتماعية للمجتمع فى وقت ما • وفى هذه الصورة يوجد مجال لاستحداث الجديد وادخاله فى هذه الحضارة ، على أساس أن

---

(١) Leibenstein, H. : Economic Backwardness and Economic development. N.Y., Wiley, 1967, pp. 58-57.

(٢) دكتور محيى الدين : التنمية والتغيير الحضارى صفحة ٢٠٤ .

(٣) Meadows, P. : Motivation for change. Cambridge, Harvard University Press. N.Y., 1968, p. 94.

ابراز المتغيرات الحضارية وما يرتبط بها من نظام للحوافز هو السبيل الصحيح لاقناع المجتمع بفائدة التغيير الاجتماعى المستحدث ، ولقد توصل (ويلبرت مور) الى مجموعة من الاستنتاجات التى تتعلق بعملية تيسير قبول التغيير الاجتماعى يمكن تلخيصها على النحو التالى :

١ ـ كلما زادت قنوات اتصال حضارة بغيرها من الحضارات ، زادت امكانية استيعاب المستحدثات الجديدة .

٢ ـ اذا كان هناك احساس دائم مستمر بمصدر التأثيرات الجديدة ، يمكن قبول مؤثراتها .

٣ ـ المضمون والعناصر البسيطة فى الحضارة أكثر قابلية للانتقال من العناصر المركبة ، عند نقل الأشكال الحضارية من مجتمع الى آخر .

٤ ـ كلما كانت الظروف غير مواتية للاستيعاب الحضارى ، زادت الحاجة الى ايجاد قيادات على استعداد للتضحية فى سبيل التغيير الاجتماعى ، وذلك عن طريق حركة قوية تهز المجتمع بقوة .

٥ ـ يكون قبول التغييرات أسرع اذا كان مواتيا وملائما لمصالح الطبقات المتميزة فى المجتمع .

٦ ـ كلما ارتفعت المكانة الاجتماعية لأصحاب الاختراع أو الاستحداث الحضارى زادت امكانية قبوله .

٧ ـ قبول الاختراع أو الاستحداث الجديد ، يختلف طبقا لعوامل التوتر التى تصاحب ادخاله أو عوامل الامتنان Gratification

وهذا بدوره يتوقف على طبيعة العلاقة بين الحضارة المنقول عنها (المانحة) والحضارة المنقول اليها (المستقبلة)[١] •

ويمتاز هذا التصور للاطار الحضارى لعملية التغيير الاجتماعى بالمرونة الكامنة ، بمعنى عدم التقيد المطلق بالنقل الحرفى عن الحضارة المنقول منها ، وانما لابد من المواءمة بينها وبين الواقع المنقول اليه •

هذا والتغلب على العقبات الحضارية فى عملية التغيير الاجتماعى والاقتصادى ترتبط بعملية خلق التغيير واشاعته • ويرى عالم الاجتماع (دانييل ليرنر) أن عملية الخلق هذه تأتى عن طريق تصميم وسائل الاتصال الجماهيرى الذى يؤدى الى نقل الصورة العقلية Imag من المسمى الاجتماعى على مستوى التنفيذ الى أبناء المجتمع ذوى العقلية التقليدية[٢] • ويرى (ايسنشتادت) Eisenstadt أن ذلك يمكن أن يتم عن طريق صفوة من المنظمين السياسيين Poltical Euterepreurs الذين تصبح مهمتهم خلق واقع جديد عن طريق زيادة عامل المشاركة والاتصال بين الفرد والمجتمع • ومن رأى (كولمان) أن هناك انقساما سياسيا رئيسيا بين الحضر والريف فى المجتمعات الآخذة فى النمو وأن من مهام المثقفين السياسيين القضاء على تلك الهوة الاجتماعية بين شقى المجتمع : ومن رأى (ميدوز) أن العملية تتوقف على ربط التغيير بالاطار الحضارى والاجتماعى عن طريق فكرة الدافع أو الباعث للتغيير ، وبذلك يمكن تحويل المجتمع من الحالة التقليدية الى الحالة الحضارية عن طريق

---

(١) Moor, W.E. : Industrialization and labor : Social Aspect of Economic development, as quoted in Meadows, P. : Motivation for change, op. cit., p. 9.

(٢) Larner, D. : The passing of Traditional society. Glencoe : the free press. N.Y., 1958. p. 50.

خلق دوافع وحوافز فى الأفراد تدفعهم الى تقبل التغيير الاجتماعى والعمل بمقتضاه[1] .

ومن هـذا يتضح أن العقبـات الحضارة التى تواجه عملية التغير الاجتماعى عقبات قابلة للحل ، ويمكن الاستفادة من التطبيقات الجزئية لعملية التغير الاجمـاعى على مسـتوى المجتمع المحـلى Community للوقوف على ماهية تلك العقبات ، ثم مواجهتها على مسـتوى المجتمع Societive ، مع الاستفادة من خبراء علماء الاجتماع وعلمـاء النفس والأنثربولوجيا والاخصائيين فى الخدمة الاجتماعية .

ذلك أن موضوع التغير الاجتماعى لا يخـرج عن كونه موضوعا انسانا بجانب اعتماده على وسـائل مادية وتكنولوجيـة ، ومن ثم فان الانسان هو وسيلة التغيير الاجتماعى وهو غايتـه . وهذا المنطلق هو الذى يشكل قوة التغيير الاجتماعى أو ضعفه على السواء لكونه يخضع لكل الظروف التى يتم فيها التغيير وللنتائج التى تترتب عليه .

وعلى هذا فانه من الضرورى ــ من الناحية الاجتماعية ــ أن يقوم التغيير الاجتماعى على أساس اقتناع المواطنين بالأسـاليب الجـديدة للتغير الاجتماعى الذى يتحتم عليهم الأخذ به وترك الأساليب القديمة التى وجدوا أنفسهم يمارسونها تلقائيا . وعدم تقدير هذا الموضوع يؤدى الى اضطراب عمليات التغيير الاجتماعى ذلك أن مجرد توفير الامكانات التكنولوجية ليس بقادر ــ تلقائيـا ــ على خلق مسـتوى أفضل من الحياة ، وانما لابد من الاقتناع لتجنب التوترات الاجتماعية . ذلك أن جمهورية الهند كانت ترغب فى رفع مسـتوى معيشـتها وتفضـل المسـاعدات الفنيـة ورءوس الأموال الأمريكية ، ولكنها لم تكن على استعداد لتقبل نماذج الحضارة الغـربية جملة وتفصيلا دون مناقشة ،

بمعنى أنها فضلت أن تلتقط وتختار ما يناسبها من العناصر الحضارية ، بدلا من تقبل كل ما يرتبط بنمط الحضارة الصناعية الأمريكية من عادات وعرف وتقاليد .. وعلى سبيل المثال فان التكتيك الصناعى وممارسة أصول الصحة العامة من الأنماط الحضارية المقبولة . على حين أن نموذج الأسرة الأمريكية أو التنظيم السياسى أو الاصلاحات الدينية أو روح المغامرة فى الأعمال المختلفة ... لم تتحمس لها لتعارضها مع السنن الاجتماعية الهندية . ومن ثم فانه من الميسور تقبل الآلات والمعرفة الفنية للانتاج الضخم ، مع استحالة قبول الصور الحضارية الأخرى التى تعتبر ثابتة[1] نسبيا وتلك الحقيقة المستمدة من الواقع الهندى تلغى الأساس الذى قامت عليه النقطة الرابعة الأمريكية ، والذى يفترض أن القيمة التلقائية الملازمة للتقدم التكنولوجى ، هى العامل الرئيسى فى التغيير الاجتماعى .

نخلص من هذا الى أن عملية التغير الاجتماعى هى عملية تغيير حضارى أو عملية انماء اجتماعى Social development أى تغيير للأساس الفكرى والعملى لعملية التغيير الاجتماعى ، ومن ثم فانه اذا كان المضمون الاقتصادى يعبر عن التحولات الكمية ، فان هذه التحولات الكمية تقوم أساسا على تحولات كيفية يعبر عنها المضمون الاجتماعى أو الحضارى لعملية التغير الاجتماعى .

فى ماهية التغيير الاجتماعى :

التغير الاجتماعى Social change هو كل تحول يقع فى النظام الاجتماعى سواء فى بنائه أو فى وظائفه خلال فترة زمنية معينة . والتغير الاجتماعى على هذا النحو ينصب على كل تغيير يقع فى التركيب السكانى للمجتمع ، أو فى بنائه الطبقى ، أو فى نظمه الاجتماعية ، أو فى أنماط

(1) Hunt. C. L. : Cultural Barriere to point four in undeveloped Areas, (ed.)., by Shannon, L.W. Hareer. N.Y. 1957. p. 316.

العلاقات الاجتماعية ، أو فى القيم والمعايير التى تؤثر فى سلوك الأفراد والتى تحدد مكاناتهم وأدوارهم فى مختلف النظم الاجتماعية التى ينتمون اليها .

غير أن التغير الاجتماعى الذى يصيب جانبا من جوانب المجتمع لابد من أن يتردد صداه فى بقية جوانب المجتمع ولكن بدرجات متفاوتة ، على اعتبار أن ظواهر المجتمع مترابطة ومتكاملة بنائيا ووظيفيا . بمعنى أن التعليم كعامل من عوامل التحضر الأساسية ، عندما يستخدم لذلك فى بيئة ريفية ، فمن المتوقع حدوث تطور فى قيم أفراد هذا المجتمع الريفى وفى مفاهيمهم فى كل ما يتعلق بالأنشطة الانتاجية مثل الزراعة والصناعة ، بالاضافة الى ما يترتب نتيجة لكل ذلك فى التنظيم الاقتصادى فى الاستهلاك وفى الأسعار وفى الأجور . وهذه التأثيرات لا تحدث فى فراغ ، وانما يتأثر بها كل الأفراد الذين يعيشون فى هذا المجتمع .

غير أن هذه التأثيرات تحتاج الى وقت طويل لكى تلاحظ ، بينما اذا كان التغيير شاملا لكل عوامل التحضر الأساسية وهى :

١ ــ المدرسة .

٢ ــ الوحدة الصحية .

٣ ــ الوحدة الزراعية .

٤ ــ الوحدة الاجتماعية .

فانه باستخدام كل هذه العوامل يكون التغيير الاجتماعى المترتب عليها شاملا لكل النواحى الاجتماعية ويمكن ملاحظة آثاره بسهولة ، حيث يتاح للفرد أن يتفهم فرديته بعيدا عن عائلته ، كما تنمو فى ذاته روح المبادأة والطموح ومن ثم يسعى الى الاستقلال عن أسرته من الناحية الاقتصادية ، وبالتالى ينخفض عدد الأسر المركبة ويزداد عدد الأسر

النووية • ويقل بالتالى سلطان العائلة والعلاقات القرابية على سلوك الأفراد • ويضاف الى ذلك حدوث تغييرات فى التقسيمات الطبقية وفى الحراك الاجتماعى Social mobility والضبط الاجتماعى Social Control وفى النظم السياسية والتربوية والترويحية والقيم والمعايير الاجتماعية ... الخ •

واذا كان التغيير الاجتماعى يشمل كل مظاهر الحياة الاجتماعية ، فان استخدام جميع عوامل التحضر فى التغيير الاجتماعى يؤدى الى نوع من التوازن فى التغيير الاجتماعى ، على حين أن الاقتصار على عامل واحد أو عاملين ، فان احتمال حدوث هوة اجتماعية Social lag يكون كبيرا ، على اعتبار أن انشاء مستشفى أو وحدة اجتماعية دون أن يسبق ذلك انشاء مدرسة ، يؤدى الى عدم ادراك الأفراد لأهمية العلاج أو التوجيه الاجتماعى ، ومن ثم ينصرفون عنه نتيجة لعدم تهيئتهم اجتماعيا لتقبل الأساليب العلاجية الطبية الحديثة • وعلى ذلك فان المدخل الشامل Comprehensive approach فى التغيير الاجتماعى مضمون النتائج •

عوامل التغير الاجتماعى :

وبجوار عوامل التغيير الاجتماعى ، فان هناك عوامل التغير الاجتماعى : بحيث يؤدى تعاون كل هذه العوامل الى احداث تغير اجتماعى ملموس ، ومن أهم هذه العوامل ما يلى :

١ ـ العامل الجغرافى :

لا شك أن البيئة الجغرافية التى تشتمل على مساحات مناسبة من الأراضى الصالحة للزراعة ، والتى تتوافر فيها وسائل الرى مع اعتدال المناخ ، تشكل عاملا مساعدا للتغير الاجتماعى اذا ما توافرت الرغبة فى التغيير لدى سكان تلك المنطقة •

بمعنى أن البيئة الجغرافيــة وحدها لا تقوم بالتغيير الاجتماعى ، وانما من الضرورى قيــام تفاعل بين السكان والبيئة الجغرافية . واذا كان ابن خلدون قد قرر أن البيئة الجغرافية يرجع اليها السبب فى اختلاف ألوان البشر وميولهم ونشــاطهم العام وكثيرا من صــفاتهم الجســمية والخلقيــة ... واذا كان (مونتسكيو) فى كتابه (روح القوانين) قد أرجع اختلاف الأمم فى القوانين والشرائع والعــادات والعرف والتقاليد ومستوى الحضارة وشكل الحكومة ونظم السياسة والاقتصاد والحرب والأخلاق ودرجة كثافة أو تخلخل السكان ومدى ما ينعم به الشعب من حرية واستقلال ، أو ما يعانية من تبعية وخضوع ... للبيئة الجغرافية ، فان فى ذلك انكارا للعــامل الانسانى ، للعــامل الرئيسى الذى بدونه لا يمكن أن يحدث التغير الاجتماعى ... على أساس أن :

(ا) البيئة الجغرافيــة تتطور ببطء شديد ، فى حين أن الحياة الاجتماعية سريعة التغير ، فقد أدى الانقلاب الصــناعى فى القرن الماضى الى تغيرات اجتماعية عميقة الجــذور فى حين أن البيئة الجغرافية بعناصرها الثــلاثة (الأرض ، المــاء ، الهواء) كما هى تقريبا .

(ب) سكان المناطق الاســتوائية فى أفريقيا متأخرون وفى أمريكا متقدمون ، وهذا يؤكد أن البيئة الجغرافية وحدها ليست هى العامل الرئيسى فى التغير الاجتماعى .

(جـ) كانت حضارة أمريكا الشمالية تحت سيطرة الهنود الحمــر متأخرة ، فى حين هى تحت سيطرة غزو المهاجرين الأوربيين تعيش حضارة من أحدث الحضارات المعاصرة .

(د) البيئة الجغرافية لا تستطيع احداث تغير فى الانسان ، فى حين

يستطيع الانسان تكييف أوضاعه مع البيئة بصورة ايجابية وفعــالة •

ومن هنا يمكن تأكيد وجهة النظر الســابقة بأن العامل الجغرافى وحده ليس هو العــامل الرئيسى فى التغيير الاجتماعى ، وانما هو أحد العوامل التى تسهم فى التغير الاجتماعى اذا ما كان لدى الســكان رغبة فى التغير الاجتماعى •

٢ ـ العامل السكانى :

مما لا شك فيه أن تخلخل السكان يتناسب مع الأساليب الانتاجية البسيطة مثل الزراعة ذات المحصــول الواحد سنويا ، فى حين أدت كثرة السكان فى مصر الى استبدال نظام الرى بالحياض الى نظام الرى الدائم ، كما أدت كثرة السكان الى وضوح وكثرة الهجرات الداخلية من الريف الى المدن ، وما يترتب على هذه الهجرات من تغيير فى الطبقات السكانية فى المنطقة التى حدثت فيها الهجرة والتى تمت الهجرة اليهــا ، بالاضافة الى اختلاف القيم والمعايير والعلاقات الاجتماعية وما يترتب على الهجرات غير المخططة من مشاكل اجتماعية على النحو الذى سبقت مناقشته •

٣ ـ العامل التكنولوجى :

ولعل من أهم الأمثــلة على ذلك وســائل المواصلات من عربات وقطارات وطائرات وأقمار صناعية ••• وكذلك وسائل الاتصال الجمعى مثل الصحافة والاذاعة والتلفــزيون والمطبوعات المختلفة ، فضــلا عن الاختراعات الانتــاجية ، تلك التى نقلت المجتمعات من مرحلة العــزلة والانطواء الى مرحلة خالية من المســافات الاجتماعية • بحيث يمكن أن يتم التغير الاجتمــاعى عن طريق الاحتــكاك الحضــارى • أما التغيير الاجتماعى فانه يمكن أن يتم عن طريق الاقتباس الحضارى •

٤ ـ العامل الفكرى :

مما لا شك فيه أن العوامل الفكرية التى تمثلت فى عصر النهضة أو عصر التنوير هى التى انتقلت بأوربا من عهود الاقطاع فى العصور الوسطى الى عصر الديمقراطية • كما أن الثورة الفرنسية أدت الى اسقاط نظرية الحكم الالهى فى سياسة الحكم ، كما أدت الى اقرار مبادىء الحرية والاخاء والمساواة • على حين أن الحركة الأنسانية فى القرن التاسع عشر أدت الى الاهتمام بالجوانب الاجتماعية والنفسية للانسان •

٥ ـ عامل الاحتكاك الحضارى :

يتم الاحتكاك الحضارى عن طريق الاتصالات بين المجتمعات المختلفة وما يترتب عليها من تعاون فى النواحى الانتاجية ، الأمر الذي يؤدى الى عمومية ظاهرة الانتشار الحضارى • وقد يكون الاتصال بين مجتمعين محليين داخل المجتمع ، أحدهما متحضرا والآخر لا يزال على مستواه الريفى البدائى • ولهذا الاتصال أثره أيضا فى تكامل الحضارة الشعبية فى الريف مع الحضارة القومية فى المدينة •

٦ ـ العامل القيادى :

يرى (ماكس فيبر) أن هناك نوعا من الزعامة ، أطلق عليه اسم الزعامة الموهوبة (أو الكاريزما) Charisma ويقصد بها الزعيم الذى منحته الطبيعة بعض المواهب الاستثنائية التى تمكنه من احداث تغيير اجتماعى عميق فى المجتمع الذى يتزعمه ذلك أن (الكاريزما) معناها القوة الخاصة التى منحتها الطبيعة للصفوة المختارة من البشر للدلالة على ذلك النوع من الزعماء الذين يقوم نفوذهم على اعتقاد عام عند الناس بأنهم روح الله ، وبأن ما يؤدونه من خدمات عامة انما يتم بوحى من عند الله ، مثل يوليو قيصر ، كرومويل ، نابليون ، هتلر ، موسولينى •••

ويمكن أن يضاف الى هؤلاء نهرو ، عبد العزيز آل سعود ، وفيصل ... هؤلاء الذين كانت شعوبهم تطيعهم طاعة عمياء نتيجة لايمانهم بهم . غير أن الزعيم ــ أى زعيم ــ لا يخرج عن كونه مترجما لأماني ورغبات وآمال شعبه .

وبجوار الزعماء الموهوبين هناك القادة الخلص الذين يعملون على تنفيذ خطط اجتماعية واقتصادية على أسس علمية تؤدى الى تغيرات اجتماعات جذرية عميقة .

معوقات التغير الاجتماعي :

(١) اختفاء الاختراعات :

تؤدى حالات التخلف الاقتصادى الى اختفاء ظاهرة التلقائية Spontaneously ومع اختفائها تختفى ظاهرة الابتكارية Creativity ومن ثم تصاب حالة الاختراع بالركود . ولما كانت « الثقافة أو الحضارة أم الاختراع» كما يرى (وليام أوجبرن) وليست «الحاجة أم الاختراع» كما هو شائع ، ذلك أن الاختراع كما يرى أوجبرن يحتاج الى قدرات عقلية معينة ، بعيدا عن التقاليد المعوقة لكل جديد ، بالاضافة الى الحاجة الاجتماعية . ولهذا فان العامل الثقافى أو الحضارى هو الذى يتيح للموهوبين أن يبتكروا من أجل النهوض بمجتمعاتهم .

والانسان المخترع هنا ليس من المحتم أن يكون مثل الزعيم الموهوب (الكاريزما) وانما متى تتوافر الأسس الثقافية اللازمة للابتكار ، فان احتمال حدوثه مؤكد ؛ فقد أحصى (أوجبرن) ١٤٨ اختراعا قام بها أفراد لا تربطهم أى صلة ، وانما كان الدافع وراء ابتكاراتهم هو توفير نوع من الاشباع لحاجة معينة سواء أكانت تلك الحاجة مدنية أم حربية[١]

---

(١) Ogburn, W. : The social change. In Encyclopedia of social sciences, N.Y. III, p. 217.

(ب) عدم توافر الامكانات المختلفة :

ان المجتمع الذى يعانى من حالة الفقر فى الامكانات المادية والمعنوية لا يجد الفرصة من الداخل للتغير ، وانما لا بد من أن يؤدى الاحتكاك الحضارى الى ايجاد الرغبة لدى أبناء هذا المجتمع فى الاستعانة بالمجتمعات المتقدمة للحصول على بعض المعونات التى تسهم فى تحقيق التغير الاجتماعى

(ج) انعزال المجتمع :

وقد يكون هذا الانعزال طبيعيا مثل المناطق المنعزلة فى المجتمعات المختلفة ، مثل الواحات المصرية ، وقد يكون الانعزال نتيجة لعوامل خارجية مثل الانعزال الذى فرضته انجلترا على مصر طوال سبعين عاما فى أثناء احتلالها لمصر .

(د) عدم تجانس البناء الاجتماعى للمجتمع :

ذلك أن خضـوع المجتمع لنوعـين من الثقافة والقيم والمعايير الاجتماعية مثل شمال السودان وجنوبه ، وشمال العراق (الأكراد) وجنوبه ... كل ذلك يؤدى الى تعويق عمليات التغـير الاجتماعى . ويمكن أن يقال مثل ذلك على أيدلوجية المجتمع المصرى عندما كانت كل جالية أجنبية فى مصر لها مدارس تدعو المتعلمين فيها من المصريين الى الايمان بأيدلوجية كل منها مما جعل الشعب المصرى شيعا وأحزابا متفرقة .

أساليب التغير الاجتماعى :

يمكن تلخيص أهم أساليب التغير الاجتمـاعى فى النواحى الآتية :

١ ــ برنامج مخطط موجه نحو حاجات المجتمع كلها .

٢ ــ تشجيع مبدأ المساعدة الذاتية والعون الذاتى .

٣ ــ المساعدة الفنية من الحكومة أوالهيئات والمؤسسات الأخرى .

وقد تشتمل هذه المســاعدات ، على الامداد بالموظفين والمعــدات والتجهيزات والأموال •

٤ ـ تكامل الاختصــاصات المتعددة مثل : الزراعة ، الصــحة العامة ، التعليم ، الاقتصاد المنزلى ، والعمل مع الرجال والشباب والنساء والأطفال لمساعدة المجتمع(١) •

ومن هذا التحديد لأســاليب التغير الاجتماعى ، يتضح أن التغير يقوم على أساس تغيير البيئة الطبيعيــة وعلاقات الانســان الاجتماعية بأشكالها وأنواعها المختلفة •

ومن ثم يمكن النظر الى التغيير الاجتماعى ، على أنه عمليــة تدور حول الانسان من حيث تهيئته للتغيير ، ثم تمكينه من الاستفادة من عائد التغيير الاجتماعى فى اشباع حاجاته المتعددة ، ثم الوصول بنفس الأسلوب الى مرحلة الرفاهية الاجتماعية أو ما يسمى بالتقدم الاجتماعى •

تعميمات التغيير الاجتماعى :

من الحقائق المسلم بها أن عملية التغير الاجتماعى فى كل مجتمع من العمليــات المستمرة • وقد يكون هــذا التغيير الاجتماعى نتيجة عوامل داخلية أو خارجية أو محصلة الاثنين معــا • وقد يكون هــذا التغيير مقصودا أو مخططا له بهدف تحقيق الرفاهية الاجتماعية والاقتصــادية لأفراد المجتمع • وعلى هذا يمكن القول أن التغيير الاجتماعى عبارة عن عدة عمليات متداخلة ومتكاملة ومرسومة ومخططة تخطيطا سليما بهدف احداث تغيير اجتماعى موجب داخل المجتمع أو المجتمعات المحلية لتحقيق الأهداف التى يرنو اليها أعضاء المجتمع بأبصارهم •

---

(١) U.N. : Report on the World Social Situation. N.Y., 1963.

هـذا وملامح التغيير الاجماعى كما يراها (ويلبرت مور) لهـا خصائص لخصها فى مجموعة من التعميمات هى :

١ ـ يحدث التغيير المعاصر Contemporary فى أى مجتمع أو ثقافة عادة أو « دائما » .

٢ ـ التغيرات لا تنفصل ـ زمانا ولا مكانا ـ أى أن التغيرات تحدث فى سلاسل متتابعة لا فى صورة أزمات Crises « وقتية » تتبعها فترات هدوء لاعادة البنـاء Reconstruction وانما النتـائج يتردد صداها فى مناطق بأكملها أو فى العالم كله .

٣ ـ وما دام التغـير المعاصـر محتملا (فى كل مكـان) فان نتائجه تكون ذات أهميـة (فى كل مكان) ومن ثم فان لهـا بالتـالى أساسا مزدوجا .

٤ ـ ان نسبة التغير المعاصر سواء أكان مخططا أم ناشئا عن نتائج ثانوية لمستحدثات رصينة Deliberate in-novations نسـبة أعلى بكثير منها فى الأزمنة السابقة .

٥ ـ وعلى ذلك فان صدى التكنولوجية المادية والاستراتيجات الاجتماعية Social strategis يتسع بسرعة وأثرها الدقيـق يكون اضافيا أو تراكميا ، بالرغم من الاهمال السريع Rapid obsolescence نسبيا لبعض الاجراءات .

٦ ـ ان الحدوث الطبيعى للتغير ، يؤثر فى مدى أوسع من الخبرة الفردية والجوانب الوظيفية للمجتمعات فى العالم الحديث ـ لا لأن مثل هذه المجتمعات أكثر « تكاملا » من كافة النـواحى ـ بل لأنه ليسـت

هناك على الاطلاق ظاهرة عن ظواهر الحياة خالصة من توقع التغير وعدم شذوذه Normality [١] .

انواع التغير الاجتماعى :

ويصنف (ويلبرت مور) التغيرات الاجتماعية الصغيرة الحجم التى تسمح بقدر ما من التعميم الى أربع فئات عريضة هى :

١ ــ دورات متكررة من العمل الاجتماعى .

٢ ــ تغير فى أبنية الجماعات .

٣ ــ ديناميات العلاقات بين بعضها البعض .

٤ ــ نتائج عدم التماسك فى القيم وقواعد السلوك .

والمتغيرات Variables التى قد تستخدم فى نسط أو آخر من أنماط المجتمعات مثل الحجم أو مدة الاستمرار ــ وطريقة انضمام الأعضاء اليها ومدى المصالح المشتركة فيما بينهم ، وتآلف أنشطتهم مثلا ــ تصبح بعد ذلك اما ظروفا مناسبة لأنماط معينة من التغير ، أو متغيرات دينامية فى حالات أخرى[١] .

أنماط اضطراب النظام الاجتماعى :

أما التغيرات الكبيرة الحجم فى المجال الاجتماعى ، أى التغيرات الثورية الحادة فى أساليب السيطرة الاجتماعية فانها تحدث بصورة متكررة فى المجتمعات البشرية ، فالثورات تمثل أعظم شكل من مختلف

---

(١) Moore, W.E. : Social change. Foundation of Modern Sociology series. Prentic. Hall, Inc. Englewood Fliffs. New Jersey, 1963, p. 2.

(٢) Ibid., p. 47.

أشكال (الحرب الداخلية) تحديا لمبادىء التغير الاجتماعى •• ومن أهم نماذج تلك التغيرات :

(ا) « التمرد » The Rebellion الذى ينصب ويوجه فى العادة الى ظلم معين ، وهنا أيضا لا تكون الخطوط واضحة تماما : لأن التمرد قد يكون فى الواقع ثورة عقيمة • ولقد قال (ليتش) Leach, E.R. بحق ان معظم النشاط السياسى العنيف فى المجتمعات الانسانية نشاط تمردى أكثر منه ثورى ، بسبب انعدام الحكومة المركزية التى يمكن قلبها ، لا سيما فى الثقافات البدائية Non-Literate Cultures .

(ب) الانقلابات العسكرية الارتجالية The Coup d'etat التى وان كانت تمثل اغتصابا غير مشروع للسلطة ، ومصحوبا ببعض العنف ، فانها لا تؤدى الى تغيرات كبيرة فى بناء الحكم Structure of government ولا فى القواعد التشريعية للهيئات الاجتماعية الأخرى •

(جـ) الثورة Revolution العنيفة التى يشترك فيها جزء كبير من السكان ، وتؤدى الى تغير فى بناء الحكم ، وفى القواعد التشريعية الخاصة بالوظائف الاجتماعية الأخرى وفى الأسباب التى يقيم عليها المسئولون حقهم فى الحكم[١] •

ادارة التغيير الاجتماعى :

الشائع الآن هو أن عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية التى تمارسها الدول الآخذة فى النمو Developing countries هى المنطلق الأساسى لمفهوم ادارة التنمية Development administration

---

(١) Ibid., pp. 81-82.

أى أن ادارة التنمية هى ادارة التنمية الاقتصـــادية والاجتماعية من كل جوانبها • ويبدو أن هناك اتجاها متزايدا للنظر فى ادارة التنمية على أنها ادارة للتغيير الاجتماعى أو التغيير المخطط أن توجيه التغيير مع ما يستلزمه ذلك من ضرورة توفير مواصـــفات معينة فى الجهاز الادارى حتى ينهض بما هو مطلوب منه فى الأداء(١) •

وهناك ، وجهة نظر أخرى « وهى أن عملية التنمية الاجتماعية تقوم أساسا على عملية التغيير المخطط Planned Changing وبهذا تصـــبح ادارة التنمية أو الادارة الانمائية ، متصلة اتصالا عضويا بعملية التغيير ، وبهذا فهى تعنى التغيير المخطط(٢) غير أنه من الخطورة بمكانة القيـــام بتغيير المجتمعات دون أن نأخذ فى الحسبان البيئة الاجتماعية ، والظروف الخاضعة لها على اعتبار أن التغيير يعنى الازالة ثم البنـــاء • وهذا أمر ترفضه المجتمعات المحلية من جانب ، كما أنه يفوق طاقة التنمية من جانب آخر • ومن ثم يجب الاحتراس مما يمكن أن تبذله بعض الدول الآخذة فى النمو من مجهودات التنمية الاقتصادية والاجتماعية عن طريق فرض تنظيمات لا تتلاءم مع ظروف هـــذه الدول ، الأمر الذى يترتب عليـــه اضطراب فى الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، فضـــلا عن رفض تلك التنظيمات المستحدثة من الأفراد الذين عاشـــوا أزمانا طويلة وعلاقاتهم الاجتماعية تنظمها عادات وتقاليد وقيم اجتماعية لها احترامها

---

(١) This is the orientation pervading the papers presented in Swedlow (ed.) : N.Y., 1963 development administration : Concepte and problems, syracuse university press. N.Y., 1963.

(٢) Panadiker, V.A.P. : Development Administration : An approach administration. Boston : Allyn and Bacon, Inc. 1967, p. 200.

منهم ، ولا يجدى القانون فى تغييرها لمجرد كونه قانونا • ولما كان نجاح التغيير الاجتماعى يتوقف على حدوث تفاعل بين أفراد المجتمع ومشروعات التغيير الاجتماعية والاقتصادية ولما كان هذا الاقناع لا يتحقق الا عن اقتناع وقبول ، فان ما تحققه مشروعات التغير الاجتماعى من نجاح يتوقف على احداث هذا التفاعل الخلاق •

وبصفة عامة ، فان هذا التعبير عن المصلحة بين ادارة التنمية والتغير الاجتماعى هو سبيل بقاء المجتمعات البشرية ونموها ، فهى تتكيف به مع واقعها ، وتسد به حاجاتها ، ترضى مثالياتها فى وجوه الحياة ، وأحيانا فيما وراء الحياة فتتخلص من القديم الذى يضيق به ، ويضيق هو بمطالبها ، وتبتكر الجديد الذى يلائمها ، ويكفى رغباتها ، أو تقتبسه اقتباسا • بيد أن عملية التغير الاجتماعى ليست مجرد اضافة ميكانيكية أو اقصاء بسيط أو تعويض مطلق لبعض الأنماط والسمات الحضارية ، وانما هى اضافة وتعويض كيفيتين أو تهجين وتوليد من سمات وأنماط حضارية مختلفة • أى أن التغيير الاجتماعى هو التحول الذى يقع فى التنظيم الاجتماعى سواء فى تركيبه وبنيانه أو فى وظائفه • وهذا يعنى أن التغيير الاجتماعى جزء من التغيير الحضارى ، الذى هو أوسع نطاقا وأبعد امتدادا ، فهو يتناول كل التغييرات التى تحدث فى أى فرع من فروع الحضارة • ومن ثم فان التغيير فى أى فرع من هذه الفروع ينعكس على بقية الفروع[١] ••• وعلى هذا فان ادارة التنمية فى ظل هذا التصور تعتبر عملية اجتماعية ديناميكية لها انعكاسات متفاوتة على كل النظم القائمة •

---

(١) Davis, K. : Human society. N.Y. Macmillan, 1950.

هذا وقد أصبحت ادارة التنمية أو ادارة التغيير الاجتماعى مجالا من مجالات البحث فى العلوم الاجتماعية أكثر مما هى فرع من فروع الادارة العامة • وقد أصبح هذا الفرع الجديد يدرس ويفسر علاقة الادارة بعملية التغيير الاجتماعى ••• والترابط الذى ينشأ بين الادارة العامة والنظم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التى تشترك جميعها فى التحول الانمائى ، وذلك فى اطار منهج يقوم على تكامل اسهامات العلوم الاجتماعية •

أهداف التغيير الاجتماعى :

تستخدم خطط التنمية الاجتماعية والاقتصادية لتحقيق أهداف التغيير الاجتماعى وهى رفع مستوى المعيشة وتحقيق الرخاء والرفاهية ، بالاضافة الى تيسير التماسك الاجتماعى فى المجتمع وتقوية العلاقات الاجتماعية بين كل فئاته وطوائفه بالشكل الذى يجنب مظاهر التوتر الاجتماعى وروح التذمر والسخط ، ولذلك فان غاية مشروعات التنمية الاجتماعية والاقتصادية فى كل زمان ومكان هى احداث تغيير اجتماعى[١] وهذا التغيير قد يكون ماديا يسعى الى رفع المستوى الاقتصادى والتكنولوجى والحضارى للمجتمع وقد يكون معنويا يستهدف تغير اتجاهات المواطنين وقيمهم الاجتماعية ، وما درجوا عليه من عادات وتقاليد • ومعنى هذا أن هدف برامج ومشروعات التنمية الاقتصادية والاجتماعية هو رفع مستوى المعيشة للمواطنين ، ووسيلته الى ذلك احداث تطوير اجتماعى واقتصادى وتعليمى وصحى ••• لكل الناس فى المجتمع ، بصرف النظر عن بيئاتهم الاجتماعية أو تشكيلاتهم الاجتماعية المختلفة •

---

(١) U.N. : Principles and Methods of Evaluation of Rural Community Development. ACC-WGCD-VI working paper no. 5, 12 May, 1958. pp. 1-3.

ذلك الهدف الجوهرى للتغير الاجتماعى لا يمكن أن يتحقق الا عن طريق رفع المستوى الاقتصادى باستخدام برامج ومشروعات التنمية الاجتماعية ، لتوفير الخدمات اشاعة العدالة ، تلك التى تثير فى نفوس المواطنين مشاعر الولاء للمجتمع الذى ترتبط بتقدمه كل المصالح الحيوية للمواطنين ارتباطا عادلا وسويا • ولابد أمام تلك الظروف من عدم ترك التطوير الطبيعى أو الاجتماعى لعوامل الصدفة ، وما دامت هذه هى أهدافه : ومن ثم فانه من الضرورى أن يتم وفقا لخطة مدروسة بدقة وقائمة على تخطيط شامل لجميع الجوانب الاجتماعية والاقتصادية ، بل السياسية فى المجتمع • وما دامت مشروعات التنمية الاجتماعية والاقتصادية قد تم اعدادها على تلك الأسس السليمة أو نفذت بنفس الدقة فان التغيير الاجتماعى المطلوب واقع لا محالة •

هذا وما دامت تلك المشروعات تخطط على أساس الدراسة الشاملة الموضوعية التى تستند الى الوقائع والأرقام أكثر مما تستند الى الخيال والأوهام • وهذا هو جوهر التخطيط الاجتماعى سواء أكان على المستوى القومى أو على المستوى المحلى • ولا ريب أن التخطيط يسترشد بفلسفة الدولة ويترجمها الى أهداف ، ثم يضع المشروعات من أجل تلك الأهداف ويقدر كذلك الأوضاع السائدة تقديرا موضوعيا ، بما فى ذلك الامكانات البشرية والمادية للمجتمع ، يضاف الى ذلك تقدير امكانية الوصول الى المستوى المعين الذى تحدده فلسفة الدولة •

مراحل التغيير الاجتماعى :

يهدف التغيير الاجتماعى الى تحقيق نتيجتين فى المجتمع : أولاهما ، احداث تنوع بنائى Structural differentiation وثانيهما ، احداث ارتفاع فى مستوى الأداء الاجتماعى Social Performance ويقصد بالتنوع البنائى هنا وضوح فكرة تقسيم العمل ، بمعنى قيام

الأعمال المختلفة على التخصص ذلك أن المجتمع النـــامى Developed Society يتميز بناؤه باحتوائه على أبنية داخلية متعددة تختلف وتتعدد ، طبقا للوظيفة التى يقوم بها كل بناء من تلك الأبنية فى أداء واجباتهـــا ، فانه من الضرورى أن تحدث النتيجة الثانية وهى زيادة الأداء الاجتماعى وهذا لا يتضمن الأداء الشـــخصى أو المجهود الفـــردى فحسب ، وانما يتضمن أيضا الجهود الجماعية لفرق العمل المختلفة . ولذلك يطلق عليه التعاون التبادلى Reciprocal Copperation القـــائم على الاهتمام بالمجهود وليس بناتج العمل المبذول بين الأبنية المختلفة فى المجتمع . أما اذا أدى كل بنـــاء واجبه بعيـــدا عن التعـــاون مع غيره ، فان تلك هى الاستاتيكية الاجتماعية بعينها ، حيث يضع كل بناء التنظيمات التى تنظم أعماله ، ثم يتولى تطبيقها بعيدا عن التعاون مع غيره من الأبنية . ومن ثم فان مثل هذا المجتمع لا يصـــل الى التنوع البنـــائى ، ما لم يقم بتطوير الأبنية التى تقوم برسم السياسة ووضع القوانين والســـعى الى تطبيقها وقد تكون هذه القوانين مكتوبة ، وتتضمن وجود أبنية محددة ومتنوعة ، فى حين أن الواقع يؤكد أن التطبيق لا يعترف بما هو مكتوب ، وبذلك يفقد المجتمع صفة التنوع البنائى(١) .

نخلص من هذا الى أنه من الميسور تحديد مراحل التنوع البنائى باستخدام خطط التنمية الاجتماعية والاقتصادية ، على حين أن التغيير فى الأداء الاجتماعى وهو نتيجـــة تترتب على حدوث التنوع البنـــائى ،

---

(١) Rigge, F. : "Administrative development : An Elusive concept" in Montagomery. J.D. and Siffin, W.J. (eds.) Approaches to development : Politics administration and change. McGraw-Hill Book company., 1966. p. 59.

يصعب تحديد حدوثه لتداخل مجموعة من العوامل الاجتماعية والثقافية والحضارية والسياسية ... فى تقدير أو تحديد موعده[١] .

١ ـ التطور الاجتماعى :

التطور الاجتماعى يقصد به ـ كما يرى الدكتور حسن سعفان ـ التغير التدريجى الهادىء الذى يطرأ على الوسط الفيزيقى الذى تعيش فيه الجماعة ، بمعنى أن الوسيط الفيزيقى بما فيه من نبات وحيوان وجماد فى تحول مستمر ، هذا الى جانب التغير الذى يحدث فى الانسان نفسه طبقا لقواعد المذهب التطورى .

بالاضافة الى تغير الجماعة نفسها من ناحية الزيادة أو النقصان وباقى العوامل السكانية الأخرى وما يتطلبه هؤلاء السكان من خدمات اجتماعية وتربوية وصحية واقتصادية ، الأمر الذى ينعكس على النواحى الابتكارية والروحية والسياسية والاجتماعية كما أن المجتمعات نفسها تتطور طبقا للنظريات المختلفة لفلاسفة التاريخ مثل ابن خلدون وفيكو وروسو وسان سيمون وكونت وغيرهم ويضيف الى ذلك أن التطور الاجتماعى يقوم بوظيفة هامة وهى التنسيق بين النظم الاجتماعية المختلفة حتى لا تحدث الهوات الاجتماعية المختلفة[١] .

وعلى هذا فان مفهوم التطور الاجتماعى يقصد به عملية النمو الطبيعى التى تحدث للمجتمع خلال مرحلة زمنية بعيدا عن الثورة

---

(١) Rigge, F. : Administration in developing Countries : The Theory of prismatic society. Boston : Houghtch Mifflin and 1964, pp. 15-19.

(١) الأستاذ الدكتور حسن سعفان أسس علم الاجتماع ، مرجع سابق من ص ١٦٩ الى ١٧٤ .

الاجتماعية أو استخدام خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية • يضاف الى ذلك أن التطور الاجتماعي يختلف عن مفهوم التطوير الاجتماعى ، على أن التطور يعتمد على الجانب الادارى والعمل الايجابى من أجل التغيير الواعى المقصود الذى يقوم به الانسان لتحقيق أهداف معينة أهمها النهوض بالمجتمع عن طريق تنمية موارده الاجتماعية والاقتصادية •

٢ ـ التقدم الاجتماعى :

يقصد بالتغير الاجتماعى حدوث تغيرات فى بناء المجتمع ووظائفه خلال فترة زمنية معينة دون أن يكون لها اتجاه واضح يميزها عما كان وعما سيكون • وهذا التغير قد يكون ارتقاء أو تقدما ، أو أن يكون نكوصا وتخلفا فى حين يقصد بالتقدم الاجتماعى حدوث تغير اجتماعى يؤدى الى الخير الاجتماعى • وهو يفترض أن التغير يسير فى خط مستقيم يميزه عما كان وعما سيكون ، بمعنى أن المرحلة التى يحياها المجتمع خير من سابقتها • المرحلة التالية ستكون أكثر خيرا وأعظم نفعا ، ومن الفلاسفة الذين عبروا عن وجهة النظر هذه (سان سيمون)[١] عند ما قال « ان العصر الذهبى للانسانية لم يكن أبدا وراء ظهورنا ، وانما هو ماثل فى تحسين الوضع الاجتماعى ، فآباؤنا لم ينعموا به قط ، ولكن أبناءنا سوف يسعدون به يوما ما ، وعلينا نحن أن نمهد لهم الطريق اليه[٢] » ذلك أن سان سيمون كان يؤكد أن الانسانية تسير دائما نحو

---

(١) De la Reorganisation de la societe Europeenne (1815) in oeuvres de Saint-Simon et al., Enfantin. T. XV.

(٢) L'age d'or du geare humain N'est point derrier nous, il est au devant "est dans la perfection de l'or er social" nos peres ne l'ont point vu, nos enfants y arriveront un Jour : C'est a nous de leur en Frayer la reute.

التقدم المطرد والسعادة الحقيقية ، وكان ايمانه بفكرة التقــدم لا يحد بحدود .

هذا والتقدم الاجتماعى « كفكرة » عبــارة عن مجموعة معــايير وأحكام وتصورات لما ينبــغى أن يكون عليه الواقع الاجتماعى ، وذلك تفكير ذاتى فلسفى لا يغير من الواقع شيئا ، على حين أن التقدم الاجتماعى (كعمل) يمكن أن يتحقق باســتخدام خطط التنمية الاجتماعية ، التى يستخدم فى اعدادها التخطيط الاقتصادى العلمى .

٣ ــ الثورة الاجتماعية :

تتميز الثورة عن التطور والتقدم الاجتماعيين بأنها عنيفة ، وبأنهــا نوع من التغير الاجتماعى الذى ينتــاب الجمــاعة فى حالة ما اذا حدثت ظروف غير منظورة تؤدى الى حدوث تغيرات عميقة فى نظام أو أكثر من النظم الاجتماعية . ومن ثم فانها تأتى فجأة وبدون سابق انذار ، ولذلك فانها لا تراعى القوانين أو القواعد ولا تعترف بما فى المجتمع من معايير ومقاييس . ومن هنا اكتسبت اسم (الثورة) باعتبارها شيئا خارجا عن النظم الاجتماعية المألوفة .

٤ ــ الحراك الاجتماعى Social Mobility

واصطلاح الحــراك الاجتماعى يختلف عن اصــطلاح الحــركة الاجتماعيــة Social movement الذى يطلق على جانب من التطــور الاجتماعى المحصور فى زمن ونظــام معينين ... على حين أن الحــراك الاجتماعى يعنى التغير الذى يصــيب الأفراد فى مكاناتهم الاجتمــاعية Social status وقد يكون هذا التغير الى أعلى أو الى أسفل ، مثــل تغير الأفراد الذين يطلق عليهم اسم أغنياء الحرب ، أو هؤلاء الذين تبور

تجارتهم أو تصاب مهنتهم بالكساد ... ويمكن قياس الحراك الاجتماعى كقانون سوسيومترى باحدى أدوات القياس الاجتماعى[1] .

(١) دكتور زيدان عبد الباقى : « قياس العلاقات الاجتماعية » رسالة دكتوراه مطبوعة بالاستنسل مودعة بمكتبة كلية الآداب جامعة القاهرة ، القاهرة ١٩٧٠ الفصل الأول .

فهرس

صفحة

رقم الايداع بدار الكتب ٥٠١٣ لسنة ١٩٧٩

دار الجيل للطباعة
جمهورية مصر العربية

١٤ قصر اللؤلؤة - الفجالة
تليفون : ٩٠٥٢٩٦